الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي



بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

آیت الله ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل المجلد ۵

اشاره

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م ۷ت ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۷۹-۱۰۳۹۱

ص: ۱

اشاره

[تتمه سوره الأعراف]

اشاره

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٦ الى ٢٨]

اشاره

يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ اَلتَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اَللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ اَلشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ اَلْجَنَّهِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا اَلشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَهً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَ اَللّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اَللّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اَللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٢٨)

التّفسير

اشاره

إنذار إلى كل أبناء آدم:

إنّ قصه آدم و مشكلته مع الشيطان-كما أسلفنا فى آخر بحث فى الآيات السابقه-عكست تصويرا واقعيا عن حياه جميع أفراد البشر على الأرض،و لهذا بيّن اللّه تعالى فى الآيات الحاضره و ما بعدها سلسله من التعاليم و البرامج البنّاءه لجميع أبناء آدم،و هى تعتبر فى الحقيقه استمرارا لبرامج آدم فى الجنّه.

ففى البدايه يشير إلى مسأله اللباس و ستر سوءات البدن التى كان لها دور

ص: ۵

مهم فی قصّه آدم،إذ یقول: یٰا بَنِی آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنٰا عَلَیْکُمْ لِبٰاساً یُوٰارِی سَوْآتِکُمْ .

و لکن فائده اللباس الذی أرسلناه لکم لا تقتصر علی ستر البدن و إخفاء العیوب و السوءات،بل للتجمل و الزینه أیضا حیث یجعل أجسامکم أجمل ممّا هی علیه. وَ رِیشاً .

و کلمه«ریش»فی الأصل هو ما یستر أجسام الطیور،و حیث أنّ ریش الطیور هو اللباس الطبیعی فی أجسامها،لهذا أطلق علی نوع من أنواع الألبسه، و لکن حیث أنّ ریش الطیر فی الأغلب مختلف الألوان جمیلها،لذلک تتضمّن هذه الکلمه مفهوم الزینه و الجمال،هذا مضافا إلی أنّه تطلق کلمه الریش علی الأقمشه التی تلقی علی سرج الفرس أو جهاز البعیر.

و قد أطلق بعض المفسّرین و أهل اللغه هذه اللفظه علی معنی أوسع أیضا، و هو کل نوع من أنواع الأثاث و الحاجیات التی یحتاج إلیها الإنسان،و لکن الأنسب فی الآیه الحاضره هو الألبسه الجمیله و ثیاب الزینه.

ثمّ تحدث القرآن عقیب هذه الجمله التی کانت حول اللباس الظاهری،عن حدّ اللباس المعنوی تبعا لسیرته فی الکثیر من الموارد التی تمزج بین الجانبین المادی و المعنوی،الظاهری و الباطنی إذ قال: وَ لِبٰاسُ التَّقْویٰ ذٰلِکَ خَیْرٌ .

و تشبیه التقوی باللباس تشبیه قوی الدلاله،معبّر جدّا،لأنّه کما أنّ اللباس یحفظ البدن من الحرّ و القرّ،یقی الجسم عن الکثیر من الأخطار،و یستر العیوب الجسمانیه،و هو بالإضافه الی هذا و ذاک زینه للإنسان،و وقایته من الکثیر من الأخطار الفردیه و الاجتماعیه،تعدّ زینه کبری له...زینه ملفته للنظر تضیف إلی شخصیته رفعه و سمّوا،و تزیدها جلالا و بهاء.

ثمّ إنّ هناک مذاهب متعدده للمفسّرین فی تحدید المراد من لباس التقوی،

و أنّه مـا هو؟ فبعض فسّره ب«العمل الصالـح»و بعض ب«الحياء»و بعض ب«لباس العباده»،و بعض ب«لباس الحرب»مثل الـدرع و الخوذه،و حتی الترس،لأنّ لفظه التقوی مشتقّه من مـاده«الوقـايه»بمعنی الحفـظ و الحمايه،و بهـذا المعنی جاء فی القرآن الكريم أيضا،كما نقرأ فی سوره النحل الآيه(٨١): وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ... .

و لكن للآيات القرآنيه-كما قلنا مرارا-معنی واسعا فی الغالب،و لها مصاديق متعدده و مختلفه،و فی الآيه الحاضره-أيضا-يمكن استفاده جميع هذه المعانی منها.

و حيث أنّ لباس التقوی فی هـذه الآيه موضوع فی مقابل اللباس الساتر للبدن،لهذا يبدو للنظر أنّ المراد منه هو«روح التقوی»التی تحفظ الإنسان، و تنطوی تحتها معانی«الحياء»و«العمل الصالح»و أمثالهما.

ثمّ إنّ اللّه تعـالی يقول فی ختام الآيه: ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ أی إنّ هـذه الألبسه التی جعلها اللّه لكم،سواء الألبسـه الماديه أو المعنويه،اللباس الجسمانی أو لباس التقوی،كلّها من آيات اللّه ليتذكر الناس نعم الربّ تعالی.

نزول اللباس!

نلاحظ فی آيات متعدده من القرآن الكريم أنّ اللّه سـبحانه يقول فی صـعيد توفير اللباس للبشر:«و أنزلنا»و هو بمعنی الإرسال من مكان عال إلی الأسـفل،إذ يقول: قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً فی حين أنّ اللباس كما هو المعلوم أمّا أنّه يتّخذ من الصوف،أو يتّخذ من مواد نباتيّه و ما شاكل ذلك من أشياء الأرض.

كما أننا نقرأ فی الآيه(۶)من سوره الزمر وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ و فی سوره الحديد الآيه(۳۵) وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ .فما ذا يعنی هذا؟

یصرّ کثیر من المفسّرین علی تفسیر مثل هذه الآیات بالنّزول المکانی أی من فوق إلی تحت،مثلا یقولون:إنّ ماء المطر ینزل من السماء إلی الأرض فتروی منه النباتات و الحیوانات،من هنا تکون مواد اللباس قد نزلت-بهذا المعنی-من السماء إلی الأرض.

و فی مجال الحدید أیضا یقولون:إنّ الأحجار و الصخور السماویه العظیمه التی تحتوی علی عناصر الحدید قد انجذبت إلی الأرض.

و لکن النّزول ربّما استعمل بمعنی النّزول المقامی،و قد استعملت هذه اللفظه فی المحاورات الیومیه بهذا الشکل کثیرا،فیقال مثلا:أصدر الحاکم أمره إلی أمرائه و معاونیه،أو یقال:رفعت شکوای إلی القاضی،لهذا لا داعی إلی الإصرار علی تفسیر هذه الآیات بالنّزول المکانی.

فحیث أنّ النعم الإلهیه قد صدرت من المقام الرّبوبی الرفیع إلی البشر،لهذا عبّر عن هذا المفهوم بهذا اللفظ،و هو تعبیر یدرکه الإنسان بدون إشکال أو صعوبه.

و یشبه هذا الموضوع ما نلاحظه فی ألفاظ الإشاره القریبه و البعیده أیضا، فقد یکون شیء ما ذا بال أو موضوع مهمّ فی متناول أیدینا،و لکنّه-لما کان من حیث الشأن-یتمتّع بمقام مهمّ رفیع،فإنّنا نشیر إلیه باسم الإشاره البعید،فنقول فی محاوراتنا مثلا:تلک الشّخصیه،و نحن نقصد رجلا حاضرا قریبا،و قد جاء فی القرآن الکریم: ذٰلِکَ الْکِتٰابُ لاٰ رَیْبَ فِیهِ .و المقصود من الکتاب المشار إلیه بالإشاره البعیده القرآن الحاضر،و لکن تعظیما له أستعیض فی الإشاره إلیه عن أداه الإشاره القریبه بأداه الإشاره البعیده.

اللباس فی الماضی و الحاضر:

لم یزل الإنسان فیما مضی-کما یشهد به التاریخ-یلبس الثیاب،و لکن

الألبسه قد تغيرت و تنوعت تنوعا بالغا عبر الزمن،فقد كانت الثياب تلبس فيما سبق-و فی الأغلب-لأجل حفظ الجسم من الحرّ و القرّ و كذا للزينه و التجمل، و الجانب الوقائی كان يأتی فی الدرجه اللاحقه،و لكن فی ظل الحياه الصناعيه الحاضره أصبح الجانب الوقائی فی المرتبه الأولی من الأهميه فی كثير من الحقول،فرجال الفضاء و رجال الإطفاء،و عمال المعادن و المناجم و الغواصون، و غيرهم كثيرون،يستخدمون ألبسه خاصّه لوقايه أنفسهم من مختلف الأخطار.

لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسه و الثياب فی عصرنا الراهن تطورا هائلا، و اتسع نطاقها اتساعا كبيرا،بحيث أصبح لا يقاس بما مضی.

يقول كاتب تفسير المنار فی المجلد الثّامن عند تفسير الآيه المبحوثه هنا:

«لقد بلغ من إتقان صناعات اللباس أنّ عاهل ألمانيه الأخير(قيصرها)دخل مرّه أحد معامل الثياب ليشاهد ما وصلت إليه من الإتقان،فجزوا أمامه عند دخوله صوف بعض كباش الغنم،و لما انتهی من التجوال فی المعمل و مشاهده أنواع العمل فيه،و أراد الخروج قدّموا له معطفا ليلبسه تذكارا لهذه الزياره،و أخبروه أنّه صنع من الصوف الذی جزوه أمامه عند دخوله،فهم قد نظفوه فی الآلات المنظّفه، فغزلوه بآلات الغزل،فنسجوه بآلات النسج،ففصّلوه فخاطوه فی تلك الفتره القصيره،فانتقل فی ساعه أو ساعتين من ظهر الخروف إلی ظهر الإمبراطور». (۱)

و لكن-للأسف-قد اتسعت الجوانب الفرعيه،بل و غير المحموده و الفاضحه للثياب و الألبسه و تعددت كثيرا إلی درجه أنّها غطت علی الفلسفه الأصليه للباس.

لقد أصبح اللباس-اليوم-وسيله لأنواع التظاهر،و إشاعه الفساد،و تحريك الشهوات،و التكبر و الإسراف و التبذير،و ما شابه ذلك.حتی أنّنا ربّما نشاهد

۱- ۱) المنار،ج ۸،ص ۳۵۹.

ألبسه يرتـديها جماعـات من النـاس-و بخـاصّه الشـباب المتغرب-يفوق طابعهـا الجنونى على الطابع العقلانى،و تكون أشـبه بكل شىء إلّا باللباس و الثوب.

و الـذى تقـود إليـه الـدراسه الموضـوعيه لهـذه الظـاهره،هـو أنّ للعقـد النفسـيه دورا مهمّ_ا فى ارتـداء مثـل هـذه الأ_لبسه العجيبه الغريبه،فالأفراد الـذين لا يتمكنون من القيام بعمل مهم و ملفت للنظر لتوكيـد وجودهم فى المجتمع يلجأون إلى هذا الأسـلوب و يحـاولون بارتـداء هـذه الأ_لبسه غير المـأنوسه و العجيبه إثبـات وجـودهم و حضورهم،و لهـذا نلاحـظ أنّ أصـحاب الشخصـيات المحترمه،أو الذين لا يعانون من عقد نفسيّه ينفرون من ارتداء مثل هذه الثياب.

و على كل حال فإنّ مبالغ طائله و ثروات عظيمه جـدّا تهـدر و تبدّد-اليوم- فى سبيل اقتناء و تعاطى الألبسه المتنوعه و الموضات المختلفه و لو منع من تبذيرها و تبديدها و الإسـراف فيها لأمكن حل الكثير من المشـكلات الاجتماعيه بها،و لتحولت إلى بلاسم و ضمادات ناجعه لكثير من جراحات الطبقات المحرومه و الفئات البائسه الفقيره فى المجتمعات البشريه.

هذا و يستفاد من تاريخ حياه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سائر الأئمّه العظام أنّهم كانوا يعارضون بشدّه مسأله التفاخر بالألبسه و الإفراط فى التجمل بها،إلى درجه أنّنا نقرأ فى الرّوايات أنّ وفدا من النصارى قدم على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم المـدينه،و هم يلبسون الأ_لبسه الحريريه الجميله جـدا،و الـتى لم يرهـا العرب إلى ذلـك اليوم و لم يعهـد أن لبسوهـا،فلما حضـروا عند رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم سـلموا عليه،لم يردّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم على سلامهم،بل أحجم حتى عن التحدث معهم و لو بكلمه،و أعرض عنهم،

فلمّا سألوا عليّا عليه السـلام عن سـبب إعراض النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنهم،قال عليه السلام لهم:أرى أن تضعوا حللكم هذه و خواتيمكن ثمّ تعودون إليه.

ففعل النصارى ما قاله لهم الإمام عليه السـلام،ثمّ دخلوا على النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فسـلّموا عليه فردّ عليهم و تحـدث معهم.ثمّ قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«و الذى بعثنى بالحق لقد أتونى

المرّه الأولى و إنّ إبليس لمعهم». (١)

الآيه اللاحقه يحذّر فيها اللّه سبحانه جميع أبناء البشر من ذريه آدم من كيد الشيطان و مكره،و يدعو إلى مراقبته،و الحذر منه،لأنّ الشّيطان أبدى عداءه لأبيهم آدم،فكما أنّه نزع عنه لباس الجنّه بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى،و لهذا يقول تعالى: يَا بَنِى آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّهِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا .

و فى الحقيقه إنّ الأمر الذى يربط الآيه الحاضره بالآيه السابقه هو أنّ الآيه السابقه تحدثت عن اللباس الظاهرى و المعنوى للإنسان(لباس التقوى)،و هذه الآيه تضمنت تحذيرا و دعوه له لمراقبه الشيطان و الحذر من نزعه لباس التقوى عنكم.

على أنّ ظاهر عباره لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ هو نهى الشيطان عن هذا العمل، و لكن أمثال هذه العبارات تعتبر كنايات لطيفه لنهى المخاطب،و تشبه ما إذا خاطبنا صديقا نحبه قائلين:لا يصح أن يوجه إليك فلان ضربه،أى راقبه حتى لا تتعرض لضربته و أذاه.

ثمّ إنّ اللّه تعالى يؤكّد على أنّ الشيطان و أعوانه يختلفون عن غيرهم من الأعداء إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ فلا بدّ من شدّه الحذر من مثل هذا العدوّ.

و فى الحقيقه عند ما تظن أنك و حيد،فإنّه من الممكن أن يكون حاضرا معك،فيجب عليك الحذر من هذا العدوّ الخفىّ الذى لا يمكن معرفه لحظات هجومه و عدوانه المباغت،و لا بدّ من اتخاذ حاله الدفاع الدائم أمامه.

و فى خاتمه الآيه يأتى سبحانه بجمله هى فى الحقيقه إجابه على سؤال

١- ١) -سفينه البحار،المجلد الثانى،ص ۴-۵،ماده لبس.

مهم،فقد يتساءل أحد:كيف سلّط اللّه العادل الرحيم عدوّا بهذه القوه على الإنسان ...عدوّا لا- يمكن مقايسه قواه بقوى الإنسان...عدوا يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته،بل إنّه-حسبما جاء فى بعض الأحاديث-يجرى من الإنسان مجرى الدم فى عروقه،فهل تنسجم هذه الحقيقه مع عداله اللّه سبحانه؟! الآيه الشريفه-فى خاتمتها-ترد على هذا السؤال الاحتمالى إذ تقول: إِنّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ .

أى إنّ الشياطين لا يسمح لهم قط بأن يتسلّلوا و ينقذوا إلى قلوب و أرواح المؤمنين الذين لم يكونوا على استعداد لقبول الشيطان و التعامل معه.

و بعباره أخرى:إنّ الخطوات الأولى نحو الشيطان إنّما يخطوها الإنسان نفسه،و هو الذى يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكه جسمه.فالشيطان لا يستطيع اجتياز حدود الروح و يعبرها إلاّ بعد موافقه من الإنسان نفسه،فإذا أغلق الإنسان نوافذ قلبه فى وجه الشياطين و الأبالسه،فسوف لا تتمكن من النفوذ إلى باطنه.

إن الآيات القرآنيه الأخرى شاهده أيضا على هذه الحقيقه،ففى سوره النحل فى الآيه(١٠٠)نقرأ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ،فالذين يتعشقون الشيطان و يسلمون إليه زمام أمرهم و يعبدونه هم الذين يتعرضون لسيطرته و وساوسه.

و فى الآيه(٤٧)من سوره الحجر نقرأ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَکَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاّ مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغَاوِينَ .

و بعباره أخرى:صحيح أنّنا لا نرى الشيطان و جنوده و أعوانه،إلاّ أننا نستطيع أن نرى آثار أقدامهم،ففى كل مجلس معصيه،و فى كل مكان تهيّأت فيه وسائل الذنب،و فى كل مكان توفرت فيه زبارج الدنيا و بهارجها،و عند طغيان الغرائز،و عند اشتعال لهيب الغضب،يكون حضور الشيطان حتميا و مسلّما،و كأنّ

الإنسان يسمع فی هذه المواقع صوت وساوس الشيطان بآذان قلبه،و يری آثار قدمه بأمّ عينيه.

و

قد روی-فی هذا الصعيد-حديث رائع عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول:

«لما دعا نوح ربّه عز و جل علی قومه أتاه إبليس لعنه اللّه فقال:يا نوح إنّ لک عندی يدا!أريد أن أكافئک عليها.

فقال نوح:إنّه ليبغض إلیّ أن يكون لک عندی يد،فما هی؟ قال:بلی دعوت اللّه علی قومک فأغرقتهم،فلم يبق أحد أغويه،فأنا مستريح حتی ينشأ قرن آخر و أغويهم.

فقال نوح:ما الذی تريد أن تكافينی به؟ قال:أذكرنی فی ثلاثه مواطن،فإنّی أقرب ما أكون إلی العبد إذا كان فی أحدهن:

أذكرنی إذا غضبت؟ و اذكرنی إذا حكمت بين اثنين! و اذكرنی إذا كنت مع امرأه خاليا ليس معكما أحد!» (1) .

النقطه الأخری التی يجب الانتباه إليها هنا،هی أنّ ثلّه من المفسّرين استنبطوا من هذه الآيه أنّ الشيطان غير قابل للرؤيه للإنسان مطلقا،فی حين يستفاد من بعض الرّوايات أنّ هذا الأمر ممكن أحيانا.

و لكن الظاهر أنّ هذين الاتجاهين غير متعارضين،لأنّ القاعده الأوليه و الأصليه هی أن لا يری،و لكن لهذه القاعده-كغيرها-استثناءات،فلا تناف فی الآيه التاليه يشير تعالی إلی واحده من وساوس الشيطان المهمّه و التی

1- 1) -بحار الأنوار،الطبعه الجديده،الجزء 11،الصفحه 318.

تجری علی ألسنه بعض الشیاطین من الإنس أیضا،و هی أنّه عند ما یسأل الشخص لدی ارتکابه عملا قبیحا،عن دلیله یجیب قائلا:هذا ما وجدنا آباءنا یفعلونه: وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَهً قالُوا وَجَدْنا عَلَیْها آباءَنا .

ثمّ یضیفون إلی هذه الحجه حجّه کاذبه أخری قائلین: وَ اللّهُ أَمَرَنا بِها .

إنّ مسأله التقلید الأعمی للآباء،بالإضافه إلی الافتراء علی اللّه،عذران مختلفان،و حجّتان داحضتان یتشبث بهما العصاه المتشیطنون لتبریر أعمالهم القبیحه غالبا.

و الملفت للنظر أنّ القرآن الکریم لم یعبأ بالدلیل الأوّل(یعنی التقلید الأعمی للآباء و الأسلاف)و لم یعتن به،و کأنّه وجد نفسه فی غنی عن الرّدّ علیه و إبطاله، لأنّ العقل السلیم یدرک بطلانه،هذا مضافا إلی أنّه قد ردّ علیه فی مواضع عدیده من القرآن الکریم.و إنّما اکتفی بالردّ علی الحجّه الثّانیه،أو بالأحری(التبریر الثّانی)حیث قال: قُلْ إِنَّ اللّهَ لا یَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ .

إنّ الأمر بالفحشاء حسب تصریح الآیات القرآنیه عمل الشیطان لا عمل اللّه، فإنّه تعالی لا یأمر إلاّ بالمعروف و الخیر (1) ثمّ یختم الآیه بهذه العباره: أَ تَقُولُونَ عَلَی اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ .

و رغم أنّ الأنسب أن یقول:لماذا تنسبون ما هو کذب و لیس له واقع إلی اللّه؟ لکنّه قال بدل ذلک:لماذا تقولون ما لا تعلمون علی اللّه؟و هذا فی الحقیقه استنادا الی الحدّ الأدنی من موضع قبول الطرف الآخر،فیقال:إذا کنتم لا تتیقنون کذب هذا الکلام،فعلی الأقل لیس لدیکم دلیل علی إثباته،فلما ذا تتهمون اللّه و تقولون علی اللّه ما لا تعلمون؟!.

۱- ۱) -راجع سوره البقره،۲۶۸ و ۲۶۹.

ما هو المقصود من الفحشاء؟

ما هو المراد من الفحشاء هنا؟قالت طائفه كبيره من المفسّرين:إنّها إشاره إلى تقليد كان سائدا بين جماعه من العرب فى العهد الجاهلى،و هو الطواف حول بيت اللّه المعظم عريانا«رجالا و نساء»ظنا منهم بأنّ الثياب التى ارتكبت فيها الذنوب لا تليق بأن يطاف بها حول الكعبه المعظمه.

على أنّ هذا التّفسير يتناسب مع الآيات السابقه التى دار الحديث فيها عن الثّياب و الألبسه.

و لكنّنا نقرأ فى روايات متعدده أنّ المراد من الفحشاء هنا هو كلام حكّام الجور الذين يدعون الناس إلى أنفسهم،و يعتقدون بأنّ اللّه فرض طاعتهم على الناس.

و لكن بعض المفسّرين-مثل كاتب«المنار»و«الميزان»-أخذوا للآيه مفهوما واسعا إذ قالوا:إنّ الفحشاء تشمل كل عمل قبيح منكر،و بملاحظه سعه مفهوم لفظه الفاحشه،فإنّ الأنسب هو أنّ للآيه معنى واسعا سعه معنى الكلمه، و مسأله«الطواف بالبيت عريانا»و«اتباع القاده و الزعماء الظلمه»تعدّ من المصاديق الواضحه لذلك،فلا منافاه بين الطائفتين من الرّوايات.

هذا و قد أعطينا توضيحا كافيا حول التسليم المطلق لتقاليد الأسلاف و أعرافهم عند تفسير الآيه(١٧٠)من سوره البقره.

ص: ١٥

الآيتان [سوره الأعراف (۷): الآيات ۲۹ الی ۳۰]

اشاره

قُلْ أَمَرَ رَبِّی بِالْقِسْطِ وَ أَقِیمُوا وُجُوهَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ اُدْعُوهُ مُخْلِصِینَ لَهُ اَلدِّینَ کَمٰا بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ (۲۹) فَرِیقاً هَدیٰ وَ فَرِیقاً حَقَّ عَلَیْهِمُ اَلضَّلاٰلَهُ إِنَّهُمُ اِتَّخَذُوا اَلشَّیٰاطِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۰)

التفسیر

حیث أنّ الحدیث فی الآیه السابقه دار حول الفحشاء التی یشمل مفهوما کلّ أنواع الفعل القبیح،و تأکّد أنّ اللّه یأمر بالفحشاء إطلاقا لهذا أشیر فی هذه الآیه إلی أصول و مبادئ التعالیم الإلهیه فی مجال الوظائف و الواجبات العملیه فی جمله قصیره،ثمّ تبعه بیان أصول العقائد الدینیه،أی المبدأ و المعاد،بصوره مختصره موجزه.

یقول أوّلا:أیّها النّبی قُلْ أَمَرَ رَبِّی بِالْقِسْطِ و العدل.

و نحن نعلم أنّ للعدل مفهوما واسعا یشمل جمیع الأعمال الصالحه،لأنّ حقیقه العدل هی استخدام کل شیء فی مجاله،و وضع کل شیء فی محلّه.

ثمّ إنّه و إن کان بین«العداله»و«القسط»تفاوتا،إذ تطلق«العداله»و یراد

منها إعطاء كل ذى حق حقه،و يقابلها«الظلم»و هو منع ذوى الحقوق من حقوقهم،بينما يعنى«القسط»أن لا تعطى حق أحد لغيره.

و بعباره أخرى:أن لا يرضى بالتبعيض،و يقابله أن يعطى حقّ أحد لغيره.

و لكن المفهوم الواسع لهاتين الكلمتين اللتين قد تستعملان منفصلتين، متساو تقريبا،و هما يعنيان رعايه الاعتدال و التوازن فى كل شىء و فى كل عمل، و بالتالى وضع كل شىء فى مكانه.

ثمّ إنّه سبحانه أمر بالتوحيد فى العباده و محاربه كلّ ألوان الشرك و أنواعه،إذ قال: وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ أى وجهوا قلوبكم نحو اللّه الواحد دون سواه، وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .

و بعد تحكيم و إرساء قاعده التوحيد،وجه الأنظار نحو مسأله المعاد و البعث يوم القيامه،إذ قال: كَمٰا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

بحثان

اشاره

هنا نقطتان يجب الالتفات إليهما و الوقوف عندهما:

۱-ما المقصود من «أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ...»

ذكر المفسّرون فى تفسير أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ تفاسير متنوعه،فتاره قالوا:المراد هو التوجه صوب القبله.

و أخرى:إنّ المراد هو المشاركه فى المساجد أثناء الصلوات اليوميه.

و ثالثه احتملوا أيضا أن يكون الهدف منه هو حضور القلب و النيه الخالصه عند العباده.

و لكن التّفسير الذى ذكرناه أعلاه(أى التوجه إلى اللّه،و محاربه كل ألوان

الشرک و التوجه إلی غیر اللّه)یبدو للنظر أنّه أنسب مع ما سبق و ما یلحق هذه الجمله،و إن لم تکن إراده کل هذه المعانی بعیده عن مفهوم الآیه أیضا.

۲-أقصر الأدله علی المعاد

لقد بحث أمر المعاد و البعث فی یوم القیامه کثیرا،و یستفاد من آیات القرآن الکریم أنّ هضم هذه المسأله کان أمرا صعبا و عسیرا بالنسبه إلی کثیر من الناس فی العصور الغابره،إلی درجه أنّهم کانوا یتخذون أحیانا من طرح مسأله القیامه و المعاد من قبل الأنبیاء دلیلا علی عدم صحه دعوتهم،و بل حتی(و العیاذ باللّه) دلیلا علی الجنون و یقولون: أَفْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّهٌ (۱) .

و لکن یجب الانتباه إلی أنّ ما کان یدعو لمزید من تعجبهم و دهشتهم،هو مسأله المعاد الجسمانی،لأنّهم ما کانوا یصدّقون بأنّ الأبدان بعد صیرورتها ترابا، و تبعثر ذراتها بفعل الریاح و الأعاصیر و تناثرها فی أرجاء الأرض.أن تجتمع هذه الذرات المتبعثره من بین أکوام التراب.و أمواج البحار،و من بین ثنایا ذرات الهواء،و یلبس ذلک الإنسان لباس الوجود و الحیاه مرّه أخری.

إن القرآن الکریم أجاب فی آیات متنوعه علی هذا الظن الخاطئ،و الآیه الحاضره تعکس إحدی أقصر و أجمل التعابیر فی هذا المجال،إذ تقول:أنظروا إلی بدایه الخلق،انظروا إلی جسمکم الذی یتکون من مقدار کبیر من الماء، و مقدار أقل من المواد المعدنیه و شبه المعدنیه المختلفه المتنوعه أین کان فی السابق؟فالمیاه المستخدمه فی جسمکم یحتمل أنّ کل قطره منها کانت سادره فی محیط من محیطات الأرض ثمّ تبخّرت و تبدلت إلی السّحب،ثمّ نزلت فی شکل قطرات المطر علی الأراضی،و الذرات التی استخدمت فی نسیج جسمکم من مواد الأرض الجامده کانت ذات یوم فی هیئه حبّه قمح أو ثمره شجره،أو خضروات مختلفه جمعت من مختلف نقاط الأرض.

۱- ۱) -سوره سبأ،۸.

و علی هذا فلا مکان للتعجب و الدهشه إذا سمعنا أنّه بعد تلاشی بدن الإنسان و رجوعه إلی حالته الأولی تجتمع تلک الذرّات ثانیه،و تتواصل و تترابط و یتشکل الجسم الأوّل،فلو کان هذا الأمر محالا فلما ذا وقع فی مبدأ الخلقه.

إذا«کما بدأکم»اللّه«تعودون»أی یعیدکم فی الآخره،و هذا هو الموضوع الذی تضمنته العباره القصیره.

فی الآیه اللاحقه یصف سبحانه ردود الفعل التی أظهرها الناس قبال هذه الدعوه(الدعوه إلی التوحید و الخیر و المعاد)فیقول: فَرِیقاً هَدیٰ وَ فَرِیقاً حَقَّ عَلَیْهِمُ الضَّلاٰلَهُ . (۱)

و لأجل أن لا یتصور أحد أنّ اللّه یهدی فریقا أو یضلّ فریقا من دون سبب، أضاف فی الجمله ما یلی: إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّیٰاطِینَ أَوْلِیٰاءَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أی إنّ الضالین هم الذین اختاروا الشیاطین أولیاء لهم بدل أن یدخلوا تحت ولایه اللّه، فضلوا.

و العجب أنّه رغم کل ما أصابهم من ضلال و انحراف یحسبون أنّهم المهتدون الحقیقون وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

إنّ هذه الحاله تختص بالذین غرقوا فی الطغیان و المعصیه،و کان انغماسهم فی الفساد،و الضلال و الانحراف،و الوثنیه،کبیرا إلی درجه أنّه انقلبت حاسه تمییزهم رأسا علی عقب،فحسبوا القبیح حسنا،و الضلالات هدایه،و فی هذه الحاله أغلقت فی وجوههم کل أبواب الهدایه،و هذا هو ما أوجدوه و جلبوه لأنفسهم.

---

۱ - ۱) جمله«فریقا هدی»من حیث الإعراب و الترکیب تکون کالتالی:فریقا مفعول هدی فعل و فاعل مؤخرین،و فریقا (الثّانیه)مفعول مقدم. و أضل فعل و فاعل مؤخران مقدران دل علیهما جمله«حق علیهم الضلاله».

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۳۱ الی ۳۲]

اشاره

یا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ وَ کُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا یُحِبُّ الْمُسْرِفِینَ (۳۱) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اللّٰهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّیِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا خالِصَهً یَوْمَ الْقِیامَهِ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۳۲)

التّفسیر

اشاره

الحدیث فی هاتین الآیتین یتناسب مع قصّه آدم فی الجنّه،و کذلک یتناول مسأله اللباس و سائر مواهب الحیاه،و کیفیه الاستفاده الصحیحه منها.

فی البدایه یأمر جمیع أبناء آدم ضمن دستور عام أبدی،یشمل جمیع الأعصار و القرون،أن یتخذوا زینتهم عند ما یذهبون إلی المساجد یا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ .

هذه الجمله یمکن أن تکون إشاره إلی کل«زینه جسمانیه»ممّا یشمل لبس الثیاب المرتبه الطاهره الجمیله،و مشط الشعر،و استعمال الطیب و العطر و ما شابه ذلک کما یمکن أیضا أن تکون إشاره إلی کل«زینه معنویه»یعنی الصفات

ص :۲۰

الإنسانيه و الملكات الأخلاقيه،و صدق النيه و طهارتها و إخلاصها.

و إذا رأينا أنّ بعض الرّوايات الإسلاميه تشير-فقط-إلى اللباس الجيّد أو مشط الشعر،أو إذا رأينا أنّ بعضها الآخر يتحدث-فقط-عن مراسيم صلاه العيد و صلاه الجمعه،فإنّ ذلك لا يدل على الانحصار،بل الهدف هو بيان مصاديقها الواضحه (۱) و هكذا إذا رأينا أنّ طائفه أخرى من الرّوايات تفسر الزينه بالقاده الصالحين (۲) ،فإنّ كل ذلك يدل على سعه مفهوم الآيه الذى يشمل جميع أنواع الزينه الظاهريه و الباطنيه.

و هذا الحكم و إن كان يتعلق بجميع أبناء آدم فى كل زمان و مكان،إلّا أنّه ينطوى ضمنا على ذم عمل قبيح كان يقوم به جماعه من الأعراب فى العهد الجاهلى عند دخولهم فى المسجد الحرام و الطواف بالكعبه المعظمه،حيث كانوا يطوفون بالبيت المعظم عراه من دون ساتر يستر عوراتهم،كما أنّه يتضمن-أيضا -نصيحه لأولئك الذين يرتدون عند إقامه الصلاه أو الدخول إلى المساجد ثيابا وسخه خلقه أو ألبسه تخصّ المنزل،و يشتركون فى مراسيم عباده و هم على تلك الهيئه المزريه،الأمر الذى نشاهده اليوم-و للأسف-بين بعض الغفله السذج من المسلمين،فى حين أننا مكلّفون-طبقا للآيه الحاضره،و الرّوايات الوارده فى هذا الصعيد-بأن نرتدى لدى ارتيادنا للمساجد أفضل ثيابنا و ألبستنا.

ثمّ فى العباره اللاحقه يشير سبحانه إلى مواهب أخرى،يعنى الأطعمه و الأشربه الطاهره الطيبه،و يقول: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا .

و لكن حيث أنّ الإنسان حريص بحكم طبيعته البشريه،يمكن أن يسىء

ص: ۲۱

---

۱ - ۱) للاطلاع على هذه الرّوايات راجع تفسير البرهان المجلد ۲،الصفحه الثّانيه ۹ و ۱۰ و تفسير نور الثقلين المجلد الثّانى الصفحه ۱۸ و ۱۹.

۲- ۲) المصدر السابق.

استخدام هذین التعلیمین،و بدل أن یستفید من نعمه اللباس و الغذاء الصحیح بالشکل المعقول و المعتدل،یسلک سبیل الإسراف و التبذیر و البذخ،لهذا أضاف مباشره قائلا: وَ لاٰ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ الْمُسْرِفِینَ .

و کلمه«الإسراف»کلمه جامعه جدّا بحیث تشمل کل إفراط فی الکم و الکیف،و کذا الأعمال العابثه و الإتلاف و ما شابه ذلک،و هذا هو أسلوب القرآن خاصّه،فهو عند الحث علی الاستفاده من مواهب الحیاه و الطبیعه یحذّر فورا من سوء استخدامها،و یوصی برعایه الاعتدال.

و فی الآیه اللاحقه یعمد إلی الرّد-بلهجه أکثر حدّه-علی من یظن أنّ تحریم أنواع الزینه و التزین و الاجتناب من الأطعمه الطیبه الحلال علامه الزهد،و سببا للتقرب إلی اللّه فیقول:أیّها النّبی قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اللّٰهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبٰادِهِ وَ الطَّیِّبٰاتِ مِنَ الرِّزْقِ ؟ إذا کانت هذه الأمور قبیحه فإنّ اللّه تعالی لا یخلق القبیح،و إذا خلقها اللّه لیتمتع بها عباده فکیف یمکن أن یحرّمها؟و هل یمکن أن یکون هناک تناقض بین جهاز الخلق،و بین التعالیم الدینیه؟! ثمّ أضاف للتأکید: قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا خٰالِصَهً یَوْمَ الْقِیٰامَهِ أی أنّ هذه النعم و المواهب قد خلقت للمؤمنین فی هذه الحیاه،و إن کان الآخرون-أیضا-یستفیدون منها رغم عدم صلاحیتهم لذلک،و لکن فی یوم القیامه حیث الحیاه الأعلی و الأفضل،و حیث یتمیز الخبیث عن الطیب،فإنّ هذه المواهب و النّعم ستوضع تحت تصرف المؤمنین الصالحین فقط،و یحرم منها الآخرون حرمانا کلیّا.

و علی هذا الأساس فإنّ ما هو للمؤمنین فی الدنیا و الآخره،و خاص بهم فی العالم الآخر کیف یمکن أن یحرّم علیهم؟أنّ الحرام هو ما یورث مفسده،لا ما هو نعمه و موهبه.

ص:۲۲

هـذا و قد احتمل أيضا فى تفسـير هذه العباره من الآيه أنّ هذه المواهب و إن كانت فى هذه الدنيا ممزوجه بالآلام و المصائب و البلايا،إلّا أنّها توضع تحت تصرف المؤمنين و هى خالصه من كل ذلك فى العالم الآخر(و لكن التّفسير الأوّل يبدو أنّه أنسب).

و فى ختام الآيه يقول من باب التأكيد: كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

الزّينه و التّجمل من وجهه نظر الإسلام:

لقد اختار الإسـلام-كسائر الموارد-حدّ التوسط و الاعتدال فى مجال الانتفاع و الاسـتفاده من أنواع الزينه،لا كما يظن البعض من أنّ التمتع و الاسـتفاده من الزينه و التجمل-مهما كان بصوره معتـدله-أمر مخالف للزّهد،و لا كما يتصور المفرطون فى اسـتعمال الزينه و التجمل الذين يجوّزون لأنفسهم فعل كل عمل شائن بغيه الوصول إلى هذا الهدف الرخيص.

و لو أننـا أخـذنا بنـاء الجسم و الروح بنظر الإعتبـار،لرأينـا أنّ تعـاليم الإسـلام فى هـذا الصـعيد تنسـجم تماما مع خصائص الروح الإنسانيه و بناء الجسم البشرى و متطلباتهما،و احتياجاتهما الذاتيه.

توضـيح ذلـك:إنّ غريزه حبّ الجمال-باعتراف علماء النفس-هى إحـدى أبعاد الروح الإنسانيه الأربعه،و التى تشـكل مضافا إلى غريزه حب الخير، و غريزه حب الاستطلاع،و غريزه التّدين،الأبعاد الأصليه فى النفس الإنسانيه.

و يعتقدون بأنّ جميع الظواهر الجماليه الأدبيه و الشـعريه، و الصناعات الجميله، و الفن بمعناه الواقعى،إنّما هو نتيجه هذه الغريزه و هذا الإحساس.

و مع هـذا كيف يمكن أن يعمـد قـانون صـحيح إلى خنق هـذا الحس المتأصل و المتجـذر فى أعماق الروح الإنسانيه،و يتجاهل العواقب السيئه فى حال عدم

إشباعه بصوره صحيحه.

و لهذا لم يكتف فی الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعه و الاستفاده من الألبسه الجميله و المناسبه،و استعمال كل أنواع العطور،و ما شابه ذلك،بل أوصی بذلك و حثّ عليه أيضا،و رويت فی هذا المجال أحاديث كثيره عن أئمّه الدين فی المصادر و الكتب الموثوقه.

فإننا نقرأ-مثلا-فی تاريخ حياه الإمام الحسن المجتبی عليه السلام أنّه عند ما كان ينهض إلی الصلاه كان يرتدی أحسن ثيابه،و لما سئل:لماذا يلبس أحسن ثيابه؟

قال: «إنّ اللّه جميل يحبّ الجمال،فأتجمل لربّی و هو يقول:خذوا زينتكم عند كل مسجد» (۱) .

و

فی الحديث أنّ أحد الزهاد،و يدعی عباد بن كثير البصری،رأی الإمام الصادق عليه السلام و هو يلبس ثيابا غاليه الثمن فقال معترضا عليه:يا أبا عبد اللّه،إنّك من أهل بيت نبوه و كان أبوك و كان،فما لهذه الثياب المزينه عليك؟فلو لبست دون هذه الثياب.فقال له أبو عبد اللّه عليه السلام:«ويلك-يا عباد-من حرّم زينه اللّه التی أخرج لعباده و الطّيّبات من الرّزق؟» (۲) .

و أحاديث أخری.

إنّ هذا التعبير،أی أنّ اللّه جميل يحب الجمال،أو أنّ اللّه مصدر الجمال إشاره إلی هذه الحقيقه،و هی:أنّ الاستفاده من كل نوع من أنواع الزينه و الجمال لو كان ممنوعا لما خلق اللّه تلك الزينه أبدا،إنّ خلق الأشياء الجميله فی عالم الوجود دليل علی أنّ خالقها يحبّ الجمال.

و لكن المهم هنا أنّ الناس يسلكون-غالبا-فی مثل هذه المواضيع طريق الإفراط و المبالغه،و يعمدون إلی الترف بمختلف الحجج و المعاذير.

۱- ۱) الوسائل،المجلد الثالث،أبواب أحكام الملابس.

۲- ۲) الوسائل،أبواب أحكام الملابس الباب ۷،ح ۳.

و لهذا يعمد القرآن الكريم فورا و بعد ذكر هذا الحكم الإسلامی-كما أسلفنا- إلی تحذير المسلمين من الإسراف و الإفراط و المبالغه فی الاستفاده من هذه الأمور،ففی أكثر من عشرين موضعا من القرآن الكريم يشير إلی مسأله الإسراف و يذمّه بشدّه(و قد تحدثنا بإسهاب حول الإسراف فی تفسير الآيات المناسبه) و علی كل حال،فإنّ أسلوب القرآن الكريم و الإسلام فی هذا الصعيد أسلوب يتسم بالتوازن و الاعتدال،فلا جمود فيه يقمع الرغبات المودعه فی الروح الإنسانيه إلی الجمال،و لا هو يؤيد مسلك المسرفين المتطرفين و ذوی البطنه و الجشع فی التمتع بالزينه و الجمال.

بل هو ينهی حتی عن التزين و التجمل المعتدل فی المجتمعات التی يعيش فيها محرومين مساكين،و لهذا نلاحظ فی بعض الرّوايات و الأحاديث أنّه عند ما يسأل أحد الأئمّه:لماذا يلبس ثيابا فاخره،و قد كان جدّه لا يلبس مثل هذه الثياب؟فيجيب الإمام عليه السلام قائلا:

«إنّ علی بن أبی طالب عليه السلام كان فی زمان ضيق فإذا اتّسع الزمان فأبرار الزّمان أولی به» (۱) .

توصيه صحيه هامّه:

إنّ عباره كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لاٰ تُسْرِفُوا التی جاءت فی الآيه الحاضره،و إن كانت تبدو للنظر أمرا بسيطا جدّا،إلّا أنّه ثبت اليوم أنّه واحد من أهم الأوامر و التعاليم الصحيحه،و ذلک لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلی أنّ منبع الكثير من الأمراض و الآلام هو الأطعمه الإضافيه الزائده التی تبقی فی بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافيه تشكل من جانب عبئا ثقيلا علی القلب و غيره من أجهزه الجسم، و هی من جانب آخر منبع مهيّأ لمختلف أنواع العفونات و الأمراض،و لهذا فإنّ

۱- ۱) الوسائل،ج ۳،أبواب الملابس الباب ۷،ح ۱۱.

الخطوه الأولى لعلاج الكثير من الأمراض هو أن تحترق هـذه المواد الزائـده التى تمثل-فى الحقيقه-فضـلات الجسم،و تتم عمليه تطهير الجسم منها عمليا.

إنّ العامل الأصل فى وجود هـذه المواد الزائـده هو الإسـراف،و الإفراط فى الأكل و البطنه،و الطريق إلى تجنب هـذه الحاله ليس إلّا رعايه الاعتدال فى الأكل، و خاصّه فى عصـرنا هذا الذى كثرت فيه أمراض مختلفه مثل السـكرى،و تصـلب الشـرايين،و أنواع السـكته،و ما شابه ذلک من الأمراض التى يعدّ الإفراط فى الأكل مع عدم الحركه البدنيه بالمقدار الكافى أحد العوامل الاساسـيه لها،و ليس هناک من سبيل لإزاله هذه الأمراض و تجنبها إلّا الحركه البدنيه الكافيه،و الاعتدال فى المأكل و المشرب.

و قد نقل المفسّر الكبير العلامه«الطبرسى»فى«مجمع البيان»قصه رائعه فى هذا المجال و هى أنّه:

حكى أنّ هارون الرشـيد كان له طبيب نصـرانى حاذق، فقال ذات يوم لعلى بن الحسـين بن واقد:ليس فى كتابكم من علم الطب شىء، و العلم علمان:علم الأديان،و علم الأبدان.

فقال له على:قـد جمع اللّه الطب كلّه فى نصف آيه من كتابه و هو قوله: كُلُوا وَ اشْـرَبُوا وَ لاٰ تُسْـرِفُوا و جمع نبيّنا صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم الطب فى قوله:«المعده بيت الداء و الحميه رأس كل دواء،و أعط كل بدن ما عودته».

فقال الطبيب:ما ترک كتابكم و لا نبيّكم لجالينوس طبّا (1) .

فمن كان يظن أنّ هذه التوصيه سطحيه،فما عليه إلّا أن يجرّبها فى حياته كما يدرک أهميتها و يسبر غورها،و يشاهد المعجزه فى سلامه الجسم برعايه هذا الدّستور الصحى.

١- ١) مجمع البيان،المجلد ۴،ص ۴١٣.

الآیه [سوره الأعراف (۷): آیه ۳۳]

اشاره

قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّیَ اَلْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ وَ اَلْإِثْمَ وَ اَلْبَغْیَ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِکُوا بِاللّٰهِ مٰا لَمْ یُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَی اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۳۳)

التّفسیر

اشاره

المحرمات الإلهیه:

لقد شاهدنا مرارا أنّ القرآن الکریم کلّما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فورا عن ما یقابله،من الأمور القبیحه و المحرمات،لیکمّل کلّ واحد منهما الآخر.

و هنا أیضا تحدّث-عقیب السماح بالتمتع و الاستفاده من المواهب الإلهیه و إباحه کل ما هو زینه و جمال-عن المحرمات علی نحو العموم،ثمّ أشار بصوره خاصّه إلی عده نقاط مهمّه.

ففی البدایه تحدث عن تحریم الفواحش و قال:یا أیّها النّبی قُلْ إِنَّمٰا حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَوٰاحِشَ مٰا ظَهَرَ مِنْهٰا وَ مٰا بَطَنَ .

و«الفواحش»جمع«فاحشه»و تعنی الأعمال القبیحه البالغه فی القبح

ص :۲۷

و السوء لا- جميع الذنوب،و لعلّ التأكيد على هذا المطلب(ما ظهر منها و ما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهليين كانوا لا يستقبحون عمل الزنا إذا أتى به سرّا، و يحرّمونه إذا كان ظاهرا مكشوفا.

ثمّ إنّه عمّم الموضوع،و أشار إلى جميع الذنوب و قال«و الإثم»أي كل إثم.

و الإثم في الأصل يعني كل عمل مضرّ،و كل ما يوجب انحطاط مقام الإنسان و تردّى منزلته،و يمنعه و يحرمه من نيل الثواب و الأجر الحسن.و على هذا يدخل كل نوع من أنواع الذنوب في المفهوم الواسع للإثم.

و لكن بعض المفسّرين أخذوا الإثمّ هنا فقط بمعنى«الخمر»و استدلوا لذلك بالشعر المعروف.

شربت الإثمّ حتى ضلّ عقلي

كذاك الإثمّ يصنع بالعقول (۱)

و لكنّ الظاهر أنّ هذا المعنى ليس هو تمام مفهوم الكلمه،بل أحد مصاديقه.

و مرّه أخرى يشير بصوره خاصّه إلى عدد من كبريات المعاصي و الآثام، فيقول: وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ أي كل نوع من أنواع الظلم،و التجاوز على حقوق الآخرين.

و«البغي»يعني السعي و المحاوله لتحصيل شيء،و لكن يراد منه غالبا الجهود المبذوله لغصب حقوق الآخرين،و لهذا يكون مفهومه-في الغالب- مساويا لمفهوم الظلم.

و من الواضح أنّ وصف«البغي»في الآيه المبحوثه بوصف«غير الحق»من قبيل التوضيح و التأكيد على معنى«البغي».

ثمّ أشار تعالى إلى مسأله الشرك و قال: وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللّٰهِ مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً فهو أيضا محرّم عليكم.

۱- ۱) التبيان عند تفسير الآيه المبحوثه،و تاج العروس ماده«إثم».

و من الواضح أنّ جمله مٰا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰاناً للتأكيد،و لإلفات النظر إلى حقيقه أنّ المشركين لا يملكون أى دليل منطقى و أى برهان معقول،و كلمه «السلطان»تعنى كل دليل و برهان يوجب تسلّط الإنسان و انتصاره على من يخالفه.

و آخر ما يؤكّد عليه من المحرمات هو نسبه شيء لم يستند إلى علم اللّه وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ .

و لقد بحثنا حول القول على اللّه بغير علم عند تفسير الآيه(٢٨)من نفس هذه السوره أيضا.

و لقد أكّد فى الآيات القرآنيه و الأحاديث الإسلاميه على هذه المسأله كثيرا، و منع المسلمون بشده عن قول ما لا يعلمون إلى درجه أنّه

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكه السماوات و الأرض». (١)

و لو أنّنا أمعنا النظر و دققنا جيدا فى أوضاع المجتمعات البشريه،و المصائب و المتاعب التى تعانى منها تلكم المجتمعات،لعرفنا أنّ القسط الأكبر من هذا الشقاء ناشئ من بث الشائعات،و القول بغير علم،و الشهاده بغير الحق،و إبداء و جهات نظر لا تستند إلى برهان أو دليل.

١- ١) عيون أخبار الرضا عليه السلام،طبقا لروايه تفسير نور الثقلين،المجلد الثّانى،الصفحه ٢۶.

الآيه [سوره الأعراف (٧): آيه ٣۴]

اشاره

وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَهً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ (٣۴)

التّفسير

اشاره

لكلّ أمّه أجل:

فى هذه الآيه يشير اللّه تعالى إلى واحده من سنن الكون و الحياه،يعنى فناء الأمم و زوالها،و يلقى ضوءا أكثر على الأبحاث التى تتعلق بحياه أبناء البشر على وجه الأرض و مصير العصاه،التى سبق الحديث عنها فى الآيات السابقه.

فيقول أوّلا: وَ لِكُلِّ أُمَّهٍ أَجَلٌ ثمّ يشير إلى أنّ هذا الأجل لا يتقدم و لا يتأخر إن جاء فَإِذٰا جٰاءَ أَجَلُهُمْ لاٰ يَسْتَأْخِرُونَ سٰاعَهً وَ لاٰ يَسْتَقْدِمُونَ .

أى أنّ الأمم و الشعوب مثل الأفراد،لها موت و حياه،و أنّ الأمم تندثر و ينمحى أثرها من على وجه الأرض،و تحل مكانها أمم أخرى،و إنّ سنّه الموت و قانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان،بل تشمل الجماعات و الأقوام و الأمم أيضا،مع فارق و هو أنّ موت الشعوب و الأمم يكون-فى الغالب-على أثر

انحرافها عن جاده الحق و العدل،و الإقبال على الظلم و الجور،و الانغماس فى بحار الشهوات،و الغرق فى أمواج الإفراط فى التجمل و الرفاهيه.

فعند ما تسلك الأمم فى العالم هذه المسالك و تنحرف عن سنن الكون و قوانين الخلقه،تفقد مصادرها الحيويه الواحد تلو الآخر،و تسقط فى النهايه إنّ دراسه زوال مدنيات كبرى،مثل حضاره بابل،و فراعنه مصر،و قوم سبأ، و الكلدانيين و الآشوريين،و مسلمى الأندلس و أمثالها،توضح الحقيقه التاليه، و هى أنّه لدى صدور الأمر بزوال هذه المدنيات و الحضارات الكبرى إثر بلوغ الفساد أوجه فيها لم تستطع حكوماتها أن تحفظ أسسها المتزعزعه حتى ساعه واحده.

و يجب الالتفات إلى أنّ«الساعه»فى اللغه تعنى أصغر وحده زمنيه،فربّما تكون بمعنى لحظه،و ربّما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن،و إن كانت الساعه تعنى فى عرفنا الحاضر اليوم مده واحد من أربع و عشرين ساعه فى اليوم.

الرد على خطأ:

رأت بعض المذاهب المختلفه التى ظهرت فى القرون الأخيره بغيه الوصول إلى أهدافها،أن تزعزع-بظنها-قبل أى شىء أسس خاتميه رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و لهذا تمسكت ببعض الآيات القرآنيه التى لا تدل على هدفها، و بمعونه من تفسيرها بالرأى،و شىء من المغالطه و السفسطه للتدليل على مقصودها.

و من تلك الآيات الآيه المبحوثه هنا.فقالوا:إنّ القرآن يصرّح بأنّ لكل أمّه أجلا و نهايه،و المراد من الأمّه الدين و الشريعه،و لهذا فإنّ للدّين الإسلامى أمدا و نهايه أيضا!.

إنّ أفضل الطرق لتقييم هذا الاستدلال هو أن ندرس المعنى الواقعى للفظه

الأمّه فی اللغه،ثمّ فی القرآن الکریم.

یستفاده من کتب اللغه،و کذا من موارد استعمال هذه اللفظه فی القرآن الکریم،و التی تبلغ ۶۴ موضعا،إنّ الأمّه فی الأصل تعنی الجماعه.

فمثلا فی قصه موسی نقرأ هکذا: وَ لَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْیَنَ وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّهً مِنَ النّاسِ یَسْقُونَ (۱) أی یمتحون الماء من البئر لأنفسهم و لأنعامهم.

و کذا نقرأ فی مجال الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر: وَ لْتَکُنْ مِنْکُمْ أُمَّهٌ یَدْعُونَ إِلَی الْخَیْرِ (۲) .

کما نقرأ أیضا: وَ إِذْ قالَتْ أُمَّهٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِکُهُمْ (۳) .

و المعنیون بالأمّه هم أهالی مدینه إیله من بنی إسرائیل.

و نقرأ حول بنی إسرائیل: وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَیْ عَشْرَهَ أَسْباطاً أُمَماً (۴) من هذه الآیات یتّضح جیدا أنّ الأمّه تعنی الجماعه،و لا تعنی الدین،و لا أتباع الدین،و لو أنّنا لا حظنا استعمالها فی أتباع الدین،فإنّما هو بلحاظ أنّهم جماعه.

و علی هذا الأساس یکون معنی الآیه المبحوثه هنا هو أنّ لکل جماعه من الجماعات البشریه نهایه، فلیس آحاد الناس هم الذین یموتون،و تکون لأعمارهم آجال و آماد فحسب،بل الأمم هی الأخری تموت،و تتلاشی و تنقرض.

و أساسا لم تستعمل لفظه الأمّه فی الدین أبدا،و لهذا فإنّ الآیه لا ترتبط بمسأله الخاتمیه مطلقا.

ص: ۳۲

۱- ۱) القصص،۲۳.

۲- ۲) آل عمران،۱۰۴.

۳- ۳) الأعراف،۱۶۴.

۴- ۴) الأعراف،۱۶۰.

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۳۵ الی ۳۶]

اشاره

یا بَنِی آدَمَ إِمّا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیاتِی فَمَنِ اِتَّقی وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۳۵) وَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ اِسْتَکْبَرُوا عَنْها أُولئِکَ أَصْحابُ اَلنّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۳۶)

التفسیر

اشاره

تعلیم آخر لأبناء آدم:

مرّه أخری یخاطب اللّه سبحانه أبناء آدم و ذریّته،إذ یقول:یا بَنِی آدَمَ إِمّا یَأْتِیَنَّکُمْ رُسُلٌ مِنْکُمْ یَقُصُّونَ عَلَیْکُمْ آیاتِی فَمَنِ اتَّقی وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۱) أی إذا أتاکم رسلی یتلون علیکم آیاتی فاتّبعوهم،لأنّ من اتّقی منکم و اتبعهم و أصلح نفسه و الآخرین کان فی أمن من عذاب اللّه الألیم،فلا یخاف و لا یحزن.

و فی الآیه اللاحقه یضیف سبحانه و تعالی قائلا: وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ اسْتَکْبَرُوا عَنْها أُولئِکَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ .

ص: ۳۳

۱- ۱) «أمّا»مرکبه فی الأصل من«أن»،و«ما»و«إن»حرف شرط و«ما»حرف للتأکید.

فتلک عاقبه المؤمنین،و هذه عاقبه المکذبین لهم.

رد علی سفسطه أخری:

أقدم جماعه من مختلقی الأدیان و المذاهب فی العصور الأخیره-علی غرار ما قلنا فی تفسیر الآیات السابقه-علی التمسک بطائفه من الآیات القرآنیه بغیه تعبید الطریق لأهدافهم و التمهید لتحقیقها،و ادعوا کونها دلیلا علی نفی خاتمیه رسول الإسلام،علی حین لا ترتبط هذه الآیات بتلک المسأله قط.

و من تلکم الآیات الآیه الحاضره،فهم من دون أن یلاحظوا ما یسبقها و ما یلحقها من الآیات قالوا:إن«یأتینّکم»فعل مضارع،و یدلّ علی أنّه من الممکن أن یبعث اللّه رسلا آخرین فی المستقبل.

و لکن لو رجعنا إلی الوراء قلیلا،و استعرضنا الآیات التی تتحدث عن خلقه آدم و سکونته فی الجنّه،ثمّ إخراجه منها هو و زوجته.و لا حظنا أنّ المخاطبین فی هذه الآیات لیسوا المسلمین،بل مجموع البشر و جمیع أبناء آدم،لا تضح جواب هذه الشّبهه و ردّ هذا الاستدلال،لأنّه لا شک أنّه قد بعث لمجموع أبناء آدم رسل کثیرون،جاء ذکر أسماء طائفه معتد بها فی القرآن الکریم،و جاء ذکر آخرین فی کتب التواریخ.

غایه ما فی الأمر أنّ هذا الفریق من مختلقی المذاهب و الأدیان،تجاهلوا الآیات السابقه بغیه إضلال الناس و خداعهم،و قالوا:إنّ المخاطبین فی هذه الآیه هم خصوص المسلمین،و استنتجوا من ذلک إمکان وجود رسل آخرین.

إنّ لأمثال هذه السفسطات نظائر کثیره فی السابق،و بخاصّه فی حاله الفصل بین آیه و أخری و جمله و أخری،و التغافل عن سوابق الآیه و لواحقها،فینتزعون منها مفهوما یوافق رغباتهم و إن کان یقابل المفهوم الواقعی للآیه فی الحقیقه.

الآیه [سوره الأعراف (٧): آیه ٣٧]

اشاره

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَریٰ عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیاتِهِ أُولٰئِکَ یَنالُهُمْ نَصِیبُهُمْ مِنَ اَلْکِتابِ حَتّٰی إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا یَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَیْنَ ما کُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ قالُوا ضَلُّوا عَنّا وَ شَهِدُوا عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ کانُوا کافِرِینَ (٣٧)

التفسیر

من هذه الآیه فما بعد تتضمّن الآیات بیان أقسام مختلفه من المصیر السیء الذی ینتظر المفترین و المکذبین لآیات اللّه تعالی،و فی البدایه تشیر إلی کیفیه حالهم عند الموت،إذ تقول: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَریٰ عَلَی اللّٰهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیاتِهِ .

و کما أسلفنا-فی سوره الأنعام فی ذیل الآیه ٢١-لقد عرف«أظلم الناس» فی عدّه آیات من القرآن الکریم بتعابیر مختلفه،و لکن الصفات التی ذکرت لهم تعود کلّهم إلی جذر واحد،و هو الشرک و عباده الأصنام و تکذیب آیات اللّه سبحانه.و فی الآیه المبحوثه هنا ذکرت مسأله الافتراء علی اللّه سبحانه کصفه بارزه من صفاتهم،مضافا إلی صفه التکذیب بالآیات الإلهیه.

ص: ٣٥

و نظرا إلى أنّ منشأ جميع أنواع الشقاء فى نظر القرآن هو الشرك،و رأس مال جميع السعادات هو التوحيد،يتّضح لماذا يكون هؤلاء الضالون المضلون أظلم الناس.إنّ هؤلاء ظلموا أنفسهم كما ظلموا المجتمع الذى يقيمون فيه،إنّهم يغرسون النفاق و التفرقه فى كل مكان،و يشكّلون سدّا و مانعا كبيرا فى طريق وحده الصفوف و التقدم و الإصلاحات الواقعيه (۱) .

ثمّ إنّه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ .أى أنّ هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم و ما هو مقدر مكتوب لهم من النعم المختلفه،حتى إذا استوفوا حظهم من العمر،و انتهوا إلى آجالهم النهائيه،حينئذ تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

و المراد من«الكتاب»هى المقدرات من النعم المختلفه التى قدرها اللّه تعالى لعباده فى هذا العالم،و إن احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الكتاب هو العذاب الإلهى،أو ما هو أعمّ من المعنيين.

و لكن بالنظر إلى كلمه(حتى)التى تشير عاده إلى انتهاء الشىء،يتّضح أنّ المراد هو فقط نعم الدنيا المتنوعه المختلفه التى لكل أحد فيها حظ و نصيب، سواء المؤمن أو الكافر،الصالح و الطالح،و التى تؤخذ عند الموت،لا العقوبات الإلهيه التى لا تنتهى بحلول الموت،و التعبير بالكتاب عن هذه النعم و المقدرات إنّما هو لأجل شبهها بالأمور التى تخضع للتقسيم و الأسهم و تكتب.

و على كل حال،فإنّ عقوباتهم تبدأ منذ لحظه حلول الموت،ففى البدايه يواجهون التوبيخ و عتاب الملائكه المكلّفين بقبض أرواحهم،فيسألونهم:أين معبوداتكم الّتى اتخذتموها من دون اللّه و التى طالما تحدثتم عنها،و كنتم

ص: ۳۶

۱- ۱) لمزيد من التوضيح راجع تفسير الآيه(۲۱)من سوره الأنعام.

تسوقون إليها ثرواتكم سفها. قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ .

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كلّ شيء،و يرون كيف تبددت جميع أوهامهم و تصوراتهم الخاطئه حول آلهتهم و ذهبت أدراج الرياح، قائلين:لا نرى منها أثرا و إنّها لا تملك أن تدافع عنّا،و أنّ جميع ما فعلناه من العباده لها كان عبثا و باطلا قالُوا ضَلُّوا عَنّا .

و هكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر و الضلال وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ .

إنّ ظاهر المسأله و إن كان يوحى بأنّ الملائكه تسأل و أنّهم يجيبون،و لكنّه فى الحقيقه نوع من العقوبه النفسيه لهم يلفتون بها نظرهم إلى الوضع المأساوى الذى يصيبهم من جراء أعمالهم،و يرونهم كيف ضلوا و تاهوا فى المتاهات و الضلالات مده طويله من العمر،و ضيّعوا كل رؤوس أموالهم الثمينه دون جدوى دون أن يحصدوا منها حصيله مسرّه مشرّفه فى حين أغلق فى وجههم طريق العوده،و هذا هو أوّل سوط جهنّمى من سياط العقوبه الإلهيه التى تتعرض لها أرواحهم.

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٣٨ الى ٣٩]

اشاره

قٰالَ اُدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ فِي اَلنّٰارِ كُلَّمٰا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهٰا حَتّٰى إِذَا اِدّٰارَكُوا فِيهٰا جَمِيعاً قٰالَتْ أُخْرٰاهُمْ لِأُولاٰهُمْ رَبَّنٰا هٰؤُلاٰءِ أَضَلُّونٰا فَآتِهِمْ عَذٰاباً ضِعْفاً مِنَ اَلنّٰارِ قٰالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لٰكِنْ لاٰ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَ قٰالَتْ أُولاٰهُمْ لِأُخْرٰاهُمْ فَمٰا كٰانَ لَكُمْ عَلَيْنٰا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا اَلْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

التفسير

اشاره

تنازع القاده و الاتباع في جهنم!

في هذه الآيه يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذبين بآيات اللّه.

ففي الآيات السابقه صور لنا وضعهم عند حلول الموت،و سؤال الملائكه القابضه للأرواح لهم،و هنا يرسم لنا ما يجرى بين الجماعات المظلّه و الغاويه، و بين من تعرضوا للإغواء في يوم القيامه.

ففي يوم القيامه يقول اللّه لهم:التحقوا بمن يشابهكم من الجن و الإنس ممن

سبقوكم،و ذوقوا نفس مصيرهم النّار قالَ ادْخُلُوا فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِکُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِی النّارِ .

إنّ هـذا الأمر یمکن أن یکون بشـکل أمر تکوینی،یعنی أن یجعلهم جمیعا فی مکان واحـد،أو یکون شبیها بأمر تشـریعی یصـدر إلیهم یسمعونه بآذانهم، و یکونون مجبورین علی إطاعته.

و عنـد مـا یـدخل الجمیع فی النّـار تبـدأ مصادماتهم مع زملائهم و أشـباههم فی المسـلک،و هی مصادمات عجیبه،فکلّما دخلت جماعه منهم فی النّار لعنت الأخری و اعتبرتها سببا لشقائها و مسئوله عن بلائها و محنتها کُلَّما دَخَلَتْ أُمَّهٌ لَعَنَتْ أُخْتَها . (۱)

و لعلنـا قلنـا مرارا:إنّ سـاحه القیـامه و مـا یجری فیهـا انعکـاس واسع و کـبیر لمجریـات هـذه الـدنیا.فلطالما رأینـا فی هـذا العـالم الجماعـات و الفرق و الأـحزاب المنحرفـه تلعـن إحـداها الأـخری،و تبـدی تنفرهـا منهـا.علی العکس من أنبیـاء اللّه، و المـؤمنین الصـالحین،و المصـلحین الخیّرین،فـإنّ کـل واحـد منهم یؤیّـد برنامـج الآـخر،و یعلن عن ارتباطه به و اتحاده معه فی الأهـداف و الغایات.

إلّا أنّ الأمر لا ینتهی إلی هذا الحدّ،بل عند ما یستقر الجمیع-بمنتهی الذلّه و الصغار-فی الجحیم و العذاب الألیم،تبدأ کل واحده منها برفع شکایتها إلی اللّه من الأخری.

ففی البـدایه یبـدأ المخـدوعون المغرّر بهم بعرض شـکایتهم،و حیث أنّهم لاـ یجـدون مناصـا ممّـا هم فیه یقولون:ربّنـا إنّ هؤلاـء المغوین هم الـذین أضـلونا و خدعونا،فضاعف یا ربّ عذابهم،عذابا لضـلالهم و عذابا لإضـلالهم إیّانا.و هذا هو ما یتضـمّنه قوله تعالی:

۱- ۱) التعبیر بالأـخت کنایه عن الارتباط الفکری و الصـله الروحیه بین هـذه الفرق المنحرفه،و حیث أن الأمه مؤنث لفظی،لهـذا عبر عنها بالأخت،لا الأخ.

حَتّی إِذَا ادّارَکُوا فِیها جَمِیعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النّارِ

.

و لا ـ شک أنّ هـذا الطلب منطقی و معقول جـدّا،بـل إنّ المضـلین سـینالون ضـعفا من العـذاب حتی من دون هـذا الطلب،لأنّهم یتحملون مسئولیه انحراف من أضـلوا أیضا دون أن ینقص من عذابهم شـیء،و لکن العجیب هو أن یقال لهم فی معرض الإجابه علی طلبهم:سیکون لکلتا الطائفتین ضعفان من العذاب و لیس للمضلین فقط قالَ لِکُلٍّ ضِعْفٌ وَ لکِنْ لا تَعْلَمُونَ .

و مع الإمعان و الدقه یتّضح لماذا ینال المخدوعون المضللون ضعفا من العذاب أیضا،لأنّه لا یستطیع أئمّه الظلم و الجور و رؤوس الا ـنحراف و الضـلال أن ینفـذوا لوحـدهم برامجهم،بـل هؤلاء الأتباع المعانـدون المتعصـبون لأسـیادهم هم الـذین یمـدون قاده الضـلال و رؤوس الانحراف بالقوّه و المـدّد الـذی یوصـلهم إلی أهـدافهم الشـریره،و علی هـذا الأتباع یجب أن ینالوا ضـعفا من العذاب أیضا، عذابا لضلالهم هم،و عذابا لمساعدتهم للظالمین و إعانتهم قاده الانحراف.

و لهذا نقرأ

فی حـدیث معروف عن الإمـام الکـاظم علیه السـلام حول أحـد شـیعته یـدعی صـفوان،حیث نهاه عن التعاون مع هارون الرشـید قائلا:«یا صفوان کلّ شیء منک حسن جمیل ما خلا شیئا واحدا».

قلت:جعلت فداک أی شیء؟ قال علیه السلام إکراؤک جمالک من هذا الرجل(هارون الرشید العباسی).

قلت:و اللّه ما أکریته أشرا و لا بطرا و لا للصید و لا للهو،و لکنّی أکریته لهذا الطریق(یعنی طریق مکّه)...

فقال لی علیه السلام:یا صفوان أیقع کراؤک علیهم؟قلت:نعم جعلت فداک.

فقال لی:أ تحبّ بقاءهم حتی یخرج کراؤک.قلت:نعم.

قال علیه السلام:«من أحبّ بقاءهم فهو منهم،و من کان منهم کان ورد النّار». (۱)

و فی الآیه اللاحقه ینقل القرآن الکریم جواب قاده الضلال و الانحراف بأنّه لیس بیننا و بینکم أی تفاوت،فإذا قلنا فقد أیدتم،و إذا خطونا فقد ساعدتم،و إذا ظلمنا فقد عاونتم،و إذن فذوقوا بإزاء أعمالکم عذاب اللّه الألیم، وَ قٰالَتْ أُولاٰهُمْ لِأُخْرٰاهُمْ فَمٰا کٰانَ لَکُمْ عَلَیْنٰا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا کُنْتُمْ تَکْسِبُونَ .

و المقصود من«الأولی»الطائفه الأولی أی القاده(قاده الضلال الانحراف) و المقصود من«الأخری»الأتباع،و الأنصار.

۱- ۱) وسائل الشیعه،ج ۱۷،ص ۱۸۲،۱۷

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۴۰ الی ۴۱]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ اِسْتَکْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ اَلسَّماءِ وَ لا یَدْخُلُونَ اَلْجَنَّهَ حَتّی یَلِجَ اَلْجَمَلُ فِی سَمِّ اَلْخِیاطِ وَ کَذلِکَ نَجْزِی اَلْمُجْرِمِینَ (۴۰) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ کَذلِکَ نَجْزِی اَلظّالِمِینَ (۴۱)

التفسیر

مرّه أخری یتناول القرآن بالحدیث مصیر المتکبرین و المعاندین،یعنی أولئک الذین لا یخضعون لآیات اللّه و لا یستسلمون للحق،فیقول: إِنَّ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ اسْتَکْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ .

و

قد جاء فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السلام: «أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم و أرواحهم إلی السماء فتفتح لهم أبوابها،و أمّا الکافر فیصعد بعمله و روحه حتی إذا بلغ إلی السماء نادی مناد:اهبطوا به إلی سجّین». (۱)

و قد رویت بهذا المضمون أحادیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر الطبری و سائر التفاسیر،فی ذیل الآیه المبحوثه.

۱- ۱) مجمع البیان فی ذیل الآیه المبحوثه.

من الممكن أن يكون المقصود من السماء هنا معناه الظاهر،و كذا يمكن أن تكون كنايه عن مقام القرب الإلهى،كما نقرأ فى الآيه(۹)من سوره فاطر: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ .

ثمّ أضاف قائلا: وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّهَ حَتّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِياطِ ،أى حتى يدخل البعير فى ثقب الإبره.

إنّ هذا التعبير كنايه لطيفه عن استحاله هذا الأمر،و قد اختير هذا المثال و التصوير الحسّى للإخبار عن عدم إمكان دخول هؤلاء الأشخاص فى الجنّه، فكما لا يتردد أحد فى استحاله عبور الجمل بجثته الكبيره من خلال ثقب الإبره، فكذلك لا ينبغى الشك فى عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنّه مطلقا.

و«الجمل»فى اللغه يعنى البعير الذى خرجت أسنانه حديثا،و لكن أحد معانى الجمل هو الحبل القوى و المتين الذى تربط به السفن أيضا (۱) .

و حيث إنّ بين الحبل و الإبره تناسبا أقوى و أكثر،لهذا ذهب بعضهم إلى هذا المعنى عند تفسير الآيه،و لكن أكثر المفسّرين الإسلاميين رجّح المعنى الأوّل، و هم على حق فى هذا الاتجاه لأمور:

أوّلا:إنّ فى أحاديث أئمّه الإسلام كذلك تعابير تناسب التّفسير الأوّل.

ثانيا:إنّه يلاحظ نظير هذا التّفسير حول الأثرياء(المتكبرين الأنانيين)فى الإنجيل أيضا،ففى إنجيل لوقا الباب ۱۸ الجمله ۲۴ و ۲۵ نقرأ هكذا:إنّ عيسى قال:«ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت اللّه.لأنّ دخول الجمل من ثقب إبره أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت اللّه».

و لا أقل يستفاد من هذه العباره أنّ هذه الكنايه كانت متداوله بين الشعوب

۱- ۱) راجع«تاج العروس»و«القاموس»ماده الجمل.

منذ قديم الزمان.

و قد نستعمل هذا المثل أيضا،فى محاوراتنا اليوميه الآن،فيقال عن الأشخاص المتشدّدين جدّا أحيانا،و المتساهلين جدّا أحيانا أخرى:(إنّ فلانا تاره لا يدخل من باب المدينه،و تاره يدخل من ثقب إبره).

ثالثا:بالنظر إلى أنّ استعمال لفظه الجمل فى المعنى الأوّل(أى البعير)أكثر، بينما استعمالها فى الحبل الغليظ قليل جدا،لهذا يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و فى خاتمه الآيه يضيف تعالى للمزيد من التأكيد و التوضيح قائلا: وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ .

و فى الآيه اللاحقه يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلفه إذ يقول: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهٰادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوٰاشٍ (١) .

ثمّ يضيف للتأكيد وَ كَذٰلِكَ نَجْزِى الظّٰالِمِينَ .

و الملفت للنظر و الطريف:أنّه يعبّر عنهم مرّه ب«المجرم»و مرّه ب«الظالم» و ثالثه ب«المكذبين»لآيات اللّه،و رابعه ب«المستكبرين»،و ترجع جميعها إلى حقيقه واحده فى الواقع.

ص: ۴۴

١- ١) المهاد جمع مهد و زان عهد أى الفرش،و الغواش فى الأصل غواشى جمع غاشيه بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء،كما أنّه يطلق على الخيمه أيضا،و فى الآيه الحاضره يمكن أن يكون بمعنى الخيمه أو بمعنى الغطاء.

الآيتان [سوره الأعراف (۷): الآيات ۴۲ الی ۴۳]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا اَلصّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها أُولٰئِكَ أَصْحابُ اَلْجَنَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۴۲) وَ نَزَعْنا ما فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهِمُ اَلْأَنْهارُ وَ قالُوا اَلْحَمْدُ لِلّهِ اَلَّذِی هَدانا لِهٰذا وَ ما كُنّا لِنَهْتَدِیَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اَللّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ اَلْجَنَّهُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳)

التّفسير

اشاره

الطّمأنينه الكامله و السّعاده الخالده:

إنّ أسلوب القرآن-كما أشرنا إلى ذلك سابقا-هو عرض الطوائف المختلفه و بيان مصائرها جنبا إلى جنب لتأكيد الموضوع،و شرح أوضاعها عن طريق المقارنه و المقايسه بينها.

و لقد كان البحث فى الآيات السابقه حول المكذبين لآيات اللّه، و المستكبرين و الظالمين،و هنا يشرح و يبيّن المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ...أُولٰئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ .

ص: ۴۵

و قد أتی بین المبتدأ و الخبر بجمله معترضه (۱) .توضّح الکثیر من الإبهامات إذ یقول: لاٰ نُکَلِّفُ نَفْساً إِلاّٰ وُسْعَهٰا .

و هذه الجمله تؤکّد بأنّه لا ینبغی لأحد أن یتصور بأن الایمان باللّه،و الإتیان بالعمل الصالح و سلوک سبیل المؤمنین،أمر متعسر غیر مقدور إلاّ لأفراد معدودین،لأنّ التکالیف الإلهیه فی حدود الطاقه البشریه و لیست أکثر منها،و بهذا فتح الطریق فی وجه کل أحد عالما کان أو جاهلا،صغیرا کان أو کبیرا،و دعا الجمیع إلی اللحاق بهذا الصف،فالمطلوب من کل أحد العمل بمقدار قابلیته الفکریه و البدنیه و إمکانیاته.

إنّ هذه الآیه-مثل سائر الآیات القرآنیه-تحصر وسیله النجاه و السعاده الأبدیه فی الإیمان و العمل الصالح،و هکذا تفنّد العقیده النّصرانیه المحرفه الذین یعتبرون صلب المسیح فی مقابل ذنوب البشر وسیله للنجاه،و یقولون:إنّه قربان لخطایا الإنسانیه.

إنّ إصرار القرآن الکریم علی مسأله الإیمان و العمل الصالح،فی الآیات المختلفه لتفنید هذه المقوله و أمثالها.

و فی الآیه اللاحقه أشار تعالی إلی واحده من أهم النعم التی أعطاها اللّه سبحانه لأهل الجنّه،و التی تکون سببا لطمأنینتهم النفسیه و سکنتهم الروحیه،إذ قال وَ نَزَعْنٰا مٰا فِی صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ .

و(الغل)فی الأصل بمعنی نفوذ الشیء خفیه و سرّا،و لهذا یقال للحسد و الحقد و العداوه،الذی یتسلّل إلی النفس الإنسانیه بصوره خفیه(الغل)،و إنّما یطلق«الغلول»علی الرشوه بهذه المناسبه لأنّها تؤخذ خفیّه و سرّا لارتکاب

۱- ۱) ینبغی أن لا یتصور أحد بأنّ معنی الجمله المعترضه هو أنّ مفادها أجنبی و غریب من الموضوع المعترض،بل لا بدّ أنّ هناک ارتباطا ما بینها و بین ما قبلها و ما بعدها،و إن کانت من حیث الترکیب توسطت کلاما متصلا،و علی هذا الأساس فإنّ الجمله المعترضه معترضه من حیث الترکیب اللفظی،لا من حیث المعنی.

خيانه. (۱)

و فی الحقیقه إنّ من أکبر عوامل الشـقاء التی یعانی منها الناس فی هذه الحیاه، و مصدر الکثیر من الصـراعات الإجماعیه الواسعه التی تؤدی-مضافا إلی الخسائر الفادحه فی المال و النفس-الی زعزعه الاستقرار الروحی،هو الحسد و الحقد.

فنحن نعرف الکثیر ممن لا ینقصـهم شـیء فی الحیاه،و لکنّهم یعانون من الحسـد و الحقـد للآخرین،و هو عـذابهم الوحیـد الذی یعکر صـفو حیـاتهم و یضـیق علیهم رحبهـا،و یترک معیشه هؤلاـء المرفهین سـاحه تجوال عسـاکر الحزن و الغم، و تـدفعهم إلی سلوکیات مرهقه و غیر منطقیه.

إنّ أهـل الجنّه معـافون من هـذه الشـقاوات و المحن بـالکلیه،لأـنّهم لا یتصـفون بهـذه الصـفات القبیحه،فلا حسـد و لا حقـد فی قلوبهم،و لهذا لا یتعرضون لعواقبها النکره.إنّهم یعیشون معا فی منتهی التواد و التحابب و الصفاء و السکینه.

إنّهم راضون عن وضـعهم الـذی هم فیه،حتی الـذین یعیشون فی مراتب أدنی من الجنّه لا یحسـدون من فوقهم أبدا،و لهذا تنحل أعظم مشکله تعترض طریق التعایش السلمی.

و لقد نقل بعض المفسّـرین حدیثا فی المقام عن السدّی قال:«إنّ أهل الجنّه إذا سیقوا إلی الجنّه وجدوا عند بابها شجره فی أصل ساقها عینان فیشـربون من إحداهما فینزع ما فی صدورهم من غلّ،فهو الشـراب الطهور،و اغتسـلوا من الأخری فجرت علیهم نضره النعیم،فلن یشعثوا و لن یشحبوا بعدها أبدا» (۲) إن هذا الحدیث و إن لم ینته سنده إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّه علیهما السلام و إنّما رواه أحد المفسّرین و هو«السّدی»و لکنّه لا یبعد أن یکون قد روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی

۱- ۱) للمزید من التوضیح راجع الآیه(۱۶۱)من سوره آل عمران.

۲- ۲) تفسیر المنار،المجلد ۸،الصفحه ۴۲۱.

الأصل،لأنّ هذه الأمور ليست من المسائل و القضايا التى يستطيع السدّى و أمثاله الاطلاع عليها.

و على كل فهى إشاره لطيفه إلى الحقيقه التاليه،و هى أنّ أهل الجنّه قد تطهروا باطنا و ظاهرا،جسما و روحا،فهم يتحلون بالجمال الجسمانى،و الجمال الروحانى معا،و لهذا فهم لا يعانون،-مطلقا-من الحسد و الحقد.

فما أسعد من يبنى لنفسه فى هذه الدنيا جنّه أخرى،بتطهير صدره من الحقد و الحسد ليتخلّص من افرازاتهما المؤلمه.

و بعد ذكر هذه النعمه الروحانيه،يشير القرآن الكريم إلى نعمهم الماديه الجسديه،فيقول: تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ .

ثمّ بعكس رضى أهل الجنّه الكامل الشامل الذى يعبرون عنه بالحمد و الشكر للّه و حده على ما هداهم إليه من النعم وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى هَدانا لِهذا وَ ما كُنّا لِنَهْتَدِىَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللّهُ .

و هنا يأتيهم النداء بأن ما ورثتموه من النعم إنّما هو بسبب أعمالكم وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّهُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

و مرّه أخرى نصل إلى هذه الحقيقه،و هى أنّ النجاه رهن بالعمل الصالح، و ليسن بالأمانى و الظنون الخاويه.

و«الإرث»فى الأصل بمعنى انتقال مال أو ثروه من شخص إلى آخر من دون أن يكون بينهما عقد(أى الانتقال عبر مسير طبيعى تلقائى،لا عن طريق البيع و الشراء)و لهذا يطلق الإرث على انتقال أموال الميت إلى خلفه.

لماذا عبّر بالإرث؟

و هنا ينقدح سؤال و هو:كيف يقال لأهل الجنّه:هذه النعم أورثتموها لقاء أعمالكم؟

و الجواب أوضحه

حديث روى بطرق الشيعه و السنّه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «ما من أحد إلّا و له منزل فى الجنّه،و منزل فى النّار،فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار،و المؤمن يرث الكافر منزله من الجنّه،فذلك قوله أورثتموها بما كنتم تعملون». (۱)

فهذا الحديث يشير إلى أنّ أبواب السعاده و الشقاء مفتوحه أمام جميع الناس قاطبه،و إنّه لم يخلق أحد يوم خلق و هو من أهل الجنّه،أو من أهل النّار،بل يمتلك الجميع قابليه الوصول إلى كلا هذين المنزلين،و إنّما إرادتهم هى التى تحدد و تقرّر مصيرهم.

و من البديهى أنّه عند ما يستقر المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحه فى الجنّه، و يستقر الكفار و الأشرار فى النّار ينتقل مكان و منزل كل واحد منهما الى الآخر بصوره طبيعيه.

و على كل حال،فإن هذه الآيه و هذا الحديث هما من البراهين و الدلائل الواضحه على نفى الجبر،و ثبوت الإختيار و حريه الإراده فى الإنسان.

۱- ۱) نور الثقلين،المجلد الثّانى،الصفحه ۳۱،و تفسير القرطبى،المجلد الرّابع،الصفحه ۲۶۴۵،و تفاسير أخرى.

الآیتان [سوره الأعراف (٧): الآیات ۴۴ الی ۴۵]

اشاره

وَ نٰادیٰ أَصْحٰابُ اَلْجَنَّهِ أَصْحٰابَ اَلنّٰارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنٰا مٰا وَعَدَنٰا رَبُّنٰا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مٰا وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا قٰالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَیْنَهُمْ أَنْ لَعْنَهُ اَللّٰهِ عَلَی اَلظّٰالِمِینَ (۴۴) اَلَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ یَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَهِ کٰافِرُونَ (۴۵)

التّفسیر

اشاره

بعد البحث فی الآیات السابقه حول مصیر أهل الجنّه و أهل النّار،أشار هنا إلی حوار هذین الفریقین فی ذلک العالم،و یستفاد من ذلک أنّ أهل الجنّه و أهل النّار یتحادثون بینهم و هم فی مواقعهم فی الجنّه أو النّار.

فیقول أوّلا: وَ نٰادیٰ أَصْحٰابُ الْجَنَّهِ أَصْحٰابَ النّٰارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنٰا مٰا وَعَدَنٰا رَبُّنٰا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مٰا وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا .

فیجیبهم أهل النّار قائلین:نعم وجدنا کل ذلک.عین الحقیقه قٰالُوا:نَعَمْ .

و یجب الالتفات إلی أن(نادی)و إن کان فعلا ماضیا،إلاّ أنّه هنا یعطی معنی المضارع،و مثل هذه التعابیر کثیره فی القرآن الکریم،حیث یذکر الحوادث التی تقع فی المستقبل حتما بصیغه الفعل الماضی،و هذا یعدّ نوعا من التأکید،یعنی أنّ

المستقبل واضح جدّا،و كأنّه قد حدث فى الماضى و تحقق.

على أنّ التعبير ب«نادى»الذى يكون عاده للمسافه البعيده،يصوّر بعد المسافه المقاميه أو المكانيه بين هذين الفريقين.

و هنـا يمكن أن يطرح سؤال و هو:و مـا فائـده حوار هـذين الفريقين مع أنّهما يعلمان بالجواب؟ و جواب هـذا السؤال معلوم،لأنّ السؤال ليس دائمـا للحصول على المزيـد من المعلومات،بل قـد يتّخـذ أحيانا صـفه العتاب و التوبيـخ و الملامه،و هو هنا من هـذا القبيل.و هـذه هى واحـده من عقوبات العصاه و الظالمين الـذين عنـد ما كانوا يتمتعون بلذائذ الدنيا، حيث كانوا يؤذون المؤمنين بالعتابـات المرّه،و الملامات المزعجه،فلا بـدّ-فى الآخره-أن ينالوا عقابا من جنس عملهم كنتيجه طبيعه لفعلهم،و لهـذا الموضوع نظائر فى سور القرآن المختلفه،منها ما فى آخر سوره المطففين.

ثمّ يضيف تعالى بأنّه فى هذا الوقت بالذات ينادى مناد بنداء يسمعه الجميع:

أن لعنه اللّه على الظالمين فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ .

ثمّ يعرّف الظالمين و يصفهم بقوله: اَلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ . (۱)

و من الآيه الحاضـره يستفاد مرّه أخرى أنّ جميع الانحرافات و المفاسد قد اجتمعت فى مفهوم«الظلم»و للظالم مفهوم واسع يشمل جميع مرتكبى الذنوب، و الآثام،و خصوصا الضالون المضلّون.

---

۱ – ۱) يبغونهـا عوجـا بمعنى يطلبونهـا عوجـا،أى أنّهـم يرغبـون و يجتهـدون فى أن يضـلوا النـاس بإلقـاء الشـبهات و الـدعايات المسـمومه عن الطريق المسـتقيم.كما أنّ الراغب قال فى«المفردات»عوج(بفتح العين)يعنى الاعوجاج الحسـى،و عوج بكسر العين يطلق على الاعوجاجـات التى تـدرك بـالفكر و العقـل،و لكن هـذا التفصـيل لا ـ ينسـجم مع ظـاهر طائفه من الآيات القرآنيه مثل الآيه(۱۰۷)من سوره طه(فتأمل بدقّه).

من هو المؤذّن!و المنادی؟

من هو هذا المؤذن الذی یسـمعه الجمیع؟و فی الحقیقه له سیطره و تفوق علی جمیع الفرقاء و الطوائف؟ لا یستفاد من الآیه شیء فی هـذا المجال، و لکن جـاء فی الأحادیث الإسـلامیه المفسّرِه و الموضّحه لهـذه الآیه،تفسـیر المؤذّن بأمیر المؤمنین علی علیه السلام.

روی الحاکم أبو القاسم الحسکانی-الذی هو من علماء أهل السّنه بسنده عن«محمّد بن الحنفیه»عن علی علیه السلام أنّه قال: «أنا ذلک المؤذّن».

و هکـذا روی بسـنده عن«ابن عبـاس»أنّ لعلّی علیه السـلام أسـماء فی القرآن الکریم لاـ یعرفهـا النـاس،منهـا«المؤذّن»فی قول اللّه تعـالی: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ فهو الـذی ینادی بین الفریقین أهل الجنّه و أهل النّار،و یقول:«ألا لعنه اللّه علی الـذین کـذبوا بولایتی و استخفّوا بحقّی» (۱) .

و لقد رویت روایات و أحادیث متعدده مماثله بطرق الشیعه،منها ما

رواه الصّدوق رحمه اللّه بسـنده عن الإمام الباقر علیه السـلام أنّ أمیر المؤمنین علیه السـلام خطب بالکوفه منصـرفه فی نهروان،و بلغه أنّ معـاویه یسـبّه و یعیبه و یقتـل أصـحابه،فقام خطیبا (إلی أن قال):«و أنا المؤذن فی الـدنیا و الآخره،قال اللّه عزّ و جلّ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ أنا ذلک المؤذن،و قال: وَ أَذانٌ مِنَ اللّهِ وَ رَسُولِهِ أنا ذلک الأذان» (۲) .

و نحن نری أنّ السبب فی انتخاب أمیر المؤمنین علی علیه السلام مؤذنا و منادیا فی ذلک الوقت هو:

أوّلا:لأنّه کان له مثل هـذا المنصب من قبل اللّه و النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی الـدنیا أیضا، فهو بعـد فتح مکّه کلّف من جانب اللّه بأن یتلو الآیات الأولی من سوره البراءه

۱- ۱) مجمع البیان عند الآیه المطروحه هنا.

۲- ۲) تفسیر البرهان،المجلد الثّانی،الصفحه ۱۷.

على مسامع الناس بصوت عال فى موسم الحج،تلك الآيات التى تبدأ بقوله:

وَ أَذٰانٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النّٰاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللّٰهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ

(۱)

ثانيا:إنّ موقف الإمام على عليه السلام طوال حياته الشريفه كان موقف المكافحه للظلم،و النضال ضد الظالمين،حتى أنّ دفاعه عن المظلوم و عداءه للظالم و خاصّه مع ملاحظه ظروف عصره لتسطع فى الصفحات البارزه من تأريخه.

أ فليست الحياه فى العالم الآخر هى نوع من تجسم كبير و واسع و متكامل لحياه البشر فى هذا العالم؟و كلاهما بالتالى و جهان لعمله واحده.

فإذا كانت هذه حقيقه من الحقائق،لم يبق أى مجال لاستغراب أن يكون مؤذن ذلك اليوم،و الذى يلعن الظالمين فى مكان بين الجنّه و النّار،بأمر من اللّه و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو على عليه السلام.

من هذا يتّضح الجواب و الردّ على ما كتبه كاتب«المنار»الذى شكك فى كون هذا المقام لعلى عليه السلام فضيله،إذ يقول:و لو كنّا نعقل لإسناد هذا التأذين إليه كرم اللّه وجهه معنى يعدّ به فضيله أو مثوبه عند اللّه تعالى لقبلنا الرّوايه بما دون السند الصحيح. (۲)

إذ يجب أن نقول له:كما أنّ النيابه عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى إبلاغ سوره البراءه فى موسم الحج تعتبر من أكبر فضائله عليه السلام،و كما أنّ مكافحته للظالمين و الجائرين تعتبر من أبرز فضائله،يكون حمله لهذه المهمّه فى القيامه و الذى يعد استمرارا لنفس ذلك البرنامج فضيله طاهره له أيضا.

كما يتّضح ممّا قلناه-أيضا-الردّ على ما كتبه«الآلوسى»كاتب تفسير «روح المعانى»الذى قال:و روايه الإماميه عن الرضا و ابن عباس أنّه على كرم

۱- ۱) التوبه،۳.

۲- ۲) تفسير المنار،ج ۸،ص ۴۲۶.

اللّه تعالی وجهه ما لم یثبت من طریق أهل السنّه (۱) .

لأن هذا الحدیث-کما أسلفنا-نقله علماء الفریقین السنه و الشیعه کلاهما فی کتبهم و مصنفاتهم،فلا مجال للتشکیک فی صدوره.

ص:۵۴

۱- ۱) روح المعانی،ج ۸،ص ۱۲۳.

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۴۶ الی ۴۹]

اشاره

وَ بَیْنَهُمٰا حِجٰابٌ وَ عَلَی اَلْأَعْرٰافِ رِجٰالٌ یَعْرِفُونَ کُلاًّ بِسِیمٰاهُمْ وَ نٰادَوْا أَصْحٰابَ اَلْجَنَّهِ أَنْ سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ لَمْ یَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ یَطْمَعُونَ (۴۶) وَ إِذٰا صُرِفَتْ أَبْصٰارُهُمْ تِلْقٰاءَ أَصْحٰابِ اَلنّٰارِ قٰالُوا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا مَعَ اَلْقَوْمِ اَلظّٰالِمِینَ (۴۷) وَ نٰادیٰ أَصْحٰابُ اَلْأَعْرٰافِ رِجٰالاً یَعْرِفُونَهُمْ بِسِیمٰاهُمْ قٰالُوا مٰا أَغْنیٰ عَنْکُمْ جَمْعُکُمْ وَ مٰا کُنْتُمْ تَسْتَکْبِرُونَ (۴۸) أَ هٰؤُلاٰءِ اَلَّذِینَ أَقْسَمْتُمْ لاٰ یَنٰالُهُمُ اَللّٰهُ بِرَحْمَهٍ اُدْخُلُوا اَلْجَنَّهَ لاٰ خَوْفٌ عَلَیْکُمْ وَ لاٰ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۴۹)

التّفسیر

اشاره

الأعراف معبر مهم إلی الجنّه:

عقیب الآیات السابقه التی بیّنت جانبا من قصّه أهل الجنّه و أهل النّار، تحدث فی هذه الآیات حول«الأعراف»التی هی منطقه فی الحد الفاصل بین الجنّه و النّار مع خصوصیاتها.

ص: ۵۵

و فی البدایه یشیر إلی الحجاب الذی أقیم بین أهل الجنّه و أهل النّار،إذ یقول: وَ بَیْنَهُمٰا حِجٰابٌ .

و یستفاد من الآیات اللاحقه أنّ الحجاب المذکور هو«الأعراف»و هو مکان مرتفع بین الفریقین یمنع من رؤیه کل فریق الفریق الآخر،و لکن وجود مثل هذا الحجاب لا یمنع من أن یسمع کل منهما صوت الآخر و نداءه،کما مرّ فی الآیات السابقه.

فلطالما رأینا جیره یتحادثون من وراء الجدار،و یستجلی أحدهما حال الآخر دون أن یراه،علی أنّ الذین یقفون علی الأعراف،أی علی الأقسام المرتفعه من هذا المکان المرتفع،یرون کلا الفریقین(تأملوا جیدا).

و یستفاد من بعض آیات القرآن الکریم،مثل الآیه(۵۵)من سوره الصافات، أن أهل الجنّه ربّما تطّلعوا من أماکنهم و شاهدوا أهل النّار،و لکن مثل هذه الموارد الاستثنائیه لا تنافی ما علیه وضع الجنّه و النّار أساسا،و أنّ ما قلناه آنفا یعکس و یصور الکیفیه لهذین المکانین،و إن کان لهذا القانون-أیضا-بعض الاستثناءات،فیمکن أن یشاهد بعض أهل الجنّه أهل النّار فی شرائط خاصّه.

إنّ ما یجب أن نذکر به مؤکدین قبل الخوض فی بیان کیفیه الأعراف هو أن التعابیر الوارده حول القیامه و الحیاه الأخری لا تستطیع-بحال-أن تکشف القناع عن جمیع خصوصیات تلکم الحیاه،بل للتعابیر-أحیانا-صفه التشبیه و التمثیل.

و أحیانا تکشف بعض تلک التعابیر عن مجرّد شبح فی هذا المجال،لأنّ الحیاه فی ذلک العالم تکون فی آفاق أعلی،و هی أوسع بمراتب کثیره من الحیاه فی هذا العالم،تماما مثل سعه الحیاه الدنیا هذه بالقیاس إلی عالم الرحم و الجنین.

و علی هذا فلا عجب إذا کانت الألفاظ و المفاهیم المتداوله فی هذا العالم لا تستطیع أن تعکس بصوره کامله و معبّره تلک المفاهیم.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يقول: وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ يرون كلّا من أهل الجنّه و أهل النّار و يعرفونهم بملامح وجوههم.

و«الأعراف»فى اللغه جمع«عرف»بمعنى المحل و الموضع المرتفع،و لهذا يطلق على شعر ناصيه الفرس،و الريش الموجود على عنق الديک لفظ العرف، فيقال«عرف الفرس»أو«عرف الديک»،و من هذا المنطلق يطلق على المكان المرتفع من البدن لفظ العرف أيضا(و سوف نتحدث بتفصيل حول خصوصيات منطقه الأعراف التى جاء ذكرها فى هذه الآيه بعد الفراغ من تفسير الآيات).

ثمّ يقول:أنّ هؤلاء الرجال ينادون أهل الجنّه و يسلّمون عليهم،و لكنّهم لا يدخلون الجنّه و إن كانوا يرغبون فى ذلک وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّهِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ.لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ .

و لكن عند ما ينظرون إلى الطرف الآخر و يشاهدون أهل النّار يصطلون فيها، يتضرعون إلى اللّه طالبين أن لا يجعلهم مع الظالمين وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ (١) .

و الجدير بالذكر أنّه استخدم فى رؤيه أهل النّار فى الآيه لفظه وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ يعنى عند ما تعطف أبصارهم نحو جهنم لمشاهده أهلها،و هذه أشاره إلى أنّهم يكرهون مشاهده أهل النّار،و كأنّ نظرهم إليهم مقرون بالإكراه و الإجبار.

و فى الآيه اللاحقه يضيف:إنّ أصحاب الأعراف ينادون فريقا من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم و يلومونهم قائلين:أمّا ترون أنّ جمعكم للأموال و الأفراد و التجبّر و التكبر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئا،فأين تلك الأموال و أولئك الأعوان؟و ماذا حصدتم من تلك المواقف و الصفات السيّئه؟!

ص :۵۷

١- ١) «تلقاء»فى الأصل-حسب قول بعض المفسّرين و أهل الأدب-مصدر،و هو بمعنى المقابله،و لكن استعمل فيما بعد فى معنى ظرف المكان،أى فى المكان المقابل و المحاذى.

وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ،وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

.

و مرّه أخرى يقولون موبخين و معاتبين،و هم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَهٍ .

و فى المآل تشمل الرحمه الإلهيه هذه الطائفه من ضعفاء المؤمنين،و يقال لهم اُدْخُلُوا الْجَنَّهَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ .

من كل ما قلنا اتضح أنّ المراد من ضعفاء المؤمنين هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات،و لكنّهم بسبب تورطهم فى بعض الذنوب كانوا موضع ازدراء من قبل أعداء الحق فى الدنيا،و كانوا يركزون على هؤلاء و يقولون:كيف يمكن لمثل هؤلاء أن تشملهم الرحمه الإلهيه؟و كيف يمكن لمثل هؤلاء أن يسعدوا؟و لكن روح الإيمان و الحسنات التى كانت عندهم فعلت فعلتها-فى المآل-و فى ظلّ اللطف الرّبانى و الرحمه الإلهيه،فسعدوا و دخلوا الجنّه.

من هم أصحاب الأعراب:

«الأعراف»فى الأصل-و كما أسلفنا-منطقه مرتفعه،و يتّضح فى ضوء القرائن التى وردت فى آيات القرآن و أحاديث أئمّه الإسلام،أنّه مكان خاص بين قطبى السعاده و الشقاء،أى الجنّه و النّار.و هو كحجاب حائل بين هذين،أو كأرض مرتفعه فصلت بين هذين الموضعين بحيث يشرف من يقف عليها على الجنّه و النّار،و يشاهد كلا الفريقين،و يعرفهم بوجوههم المبيضه أو المسوده، المشرقه أو المظلمه المكفهره.

و الآن لنرى من هم الواقفون على الأعراف؟و من هم أصحاب الأعراف؟ إنّ دراسه الآيات الأربع المبحوثه هنا تفيد أنّه ذكر لهؤلاء الأشخاص نوعين متناقضين مختلفين من الصفات.

ففی الآیه الأولی و الثّانیه وصف الواقفون علی الأعراف بأنّهم یتمنون أن یدخلوا الجنّه،و لکنّ ثمّه موانع تحول دون ذلک،و عند ما ینظرون إلی أهل الجنّه یحیونهم و یسلمون علیهم و یودون لو یکونون معهم،و لکنّهم لا یستطیعون فعلا أن یکونوا معهم،و عند ما ینظرون إلی أهل النّار یستوحشون ممّا آلوا إلیه من المصیر،و یتعوذون بأنّه من ذلک المصیر،و من أن یکونوا منهم.

و لکن یستفاد من الآیه الثّالثه و الرّابعه بأنّهم أفراد ذوو نفوذ و قدره،یوبخون أهل النّار و یعاتبونهم،و یساعدون الضعفاء فی الأعراف علی العبور إلی منزل السعاده.

و قد قسمت الرّوایات الوارده فی هذا المجال أهل الأعراف الی هذین الفریقین المختلفین أیضا.

ففی بعض الأحادیث الوارده عن أئمّه أهل البیت علیهم السلام نقرأ: «نحن الأعراف» (۱) أو عباره: «آل محمّد هم الأعراف» (۲) و ما شابه هذه التعابیر.

و نقرأ فی طائفه أخری عباره:

«هم أکرم الخلق علی اللّه تبارک و تعالی» (۳) أو

«هم الشهداء علی الناس و النّبیون شهداؤهم» (۴) و روایات أخری تحکی أنّهم الأنبیاء و الأئمّه و الصلحاء و الأولیاء.

و لکن طائفه أخری مثلما

ورد عن الإمام الصادق علیه السلام تقول: «هم قوم استوت حسناتهم و سیئاتهم،فإن أدخلهم النّار فبذنوبهم،و إن أدخلهم الجنّه فبرحمته». (۵)

و ثمّه روایات متعدده أخری فی تفاسیر أهل السنه قد رویت عن«حذیفه»و

۱- ۱) تفسیر البرهان،المجلد الثانی،الصفحه ۱۷ و ۱۸ و ۱۹.

۲- ۲) المصدر السابق.

۳- ۳) المصدر السابق.

۴- ۴) نور الثقلین،المجلد الثّانی،الصفحه ۳۳ و ۳۴.

۵- ۵) تفسیر البرهان،المجلد الثّانی،الصفحه ۱۷.

«عبد اللّه بن عباس»و«سعيد بن جبير»و أمثالهم بهذا المضمون (۱) .

و نرى فى هذه التفاسير أيضا مصادر تفيد أنّ أهل الأعراف هم الصلحاء و الفقهاء و العلماء أو الملائكه.

و بالرغم من أنّ ظاهر الآيات و ظاهر هذه الرّوايات تبدو متناقضه فى بدون النظر،و لعله لهذا السبب أبدى المفسّرون فى هذا المجال آراء مختلفه،و لكن مع التدقيق و الإمعان يتّضح أنّه لا يوجد أى تناقض و منافاه،لا بين الآيات و لا بين الأحاديث،بل جميعها تشير إلى حقيقه واحده.

و توضيح ذلك:أنّه يستفاد من مجموع الآيات و الرّوايات-كما أسلفنا -الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنّه و السعاده الأبديه.

و من الطبيعى أنّ الأقوياء الصالحين و الطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعه،أمّا الضعفاء الذى خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا فيعجزون عن العبور.

كما أنّه من الطبيعى أيضا أن تقف قيادات المجموع و ساده القوم عند هذه المعابر الصعبه مثل القاده العسكريين الذين يمشون فى مثل هذه الحالات فى مؤخره جيوشهم ليعبر الجميع.يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان،فينجو من يصلح للنجاه ببركه مساعدتهم و معونتهم و نجدتهم.

و على هذا الأساس،فأصحاب الأعراف فريقان:ضعفاء الإيمان و المتورطون فى الذنوب الذين هم بحاجه إلى الرحمه،و الأئمّه الساده الذين يساعدون الضعفاء فى جميع الأحوال.

و على هذا فإن الطائفه الأولى من الآيات و الأحاديث تشير إلى الفريق الأوّل من الواقفين على الأعراف،و هم الضعفاء،و الطائفه الثّانيه منها تشير إلى الفريق

۱- ۱) تفسير الطبرى،المجلد ۷،الصفحه ۱۳۷ و ۱۳۸ عند تفسير الآيه.

الثّانی من أصحاب الأعراف،و هم الساده و الأنبیاء و الأئمّه و الصلحاء.

و نری فی بعض الرّوایات-أیضا-شاهدا واضحا و جلیا علی هذا الجمع مثل

الحدیث المنقول عن الإمام الصّادق علیه السلام الذی قال فیه: «الأعراف کثبان بین الجنّه و النّار،و الرجال الأئمّه یقفون علی الأعراف مع شیعتهم و قد سبق المؤمنون إلی الجنّه بلا حساب». و یقصد من الشیعه الذی یقفون مع الأئمّه علی الأعراف العصاه منهم.

ثمّ یضیف قائلا:

«فیقول الأئمّه لشیعتهم من أصحاب الذنوب:انظروا إلی إخوانکم فی الجنّه قد سبقوا إلیها بلا حساب،و هو قوله تبارک و تعالی: سَلاٰمٌ عَلَیْکُمْ لَمْ یَدْخُلُوهٰا وَ هُمْ یَطْمَعُونَ ثمّ یقال:انظروا إلی أعدائکم فی النّار،و هو قوله تعالی: وَ إِذٰا صُرِفَتْ أَبْصٰارُهُمْ تِلْقٰاءَ أَصْحٰابِ النّٰارِ قٰالُوا رَبَّنٰا لاٰ تَجْعَلْنٰا مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ ثمّ یقولون لمن فی النّار من أعدائهم:هؤلاء شیعتی و إخوانی الذین کنتم أنتم تختلفون(تحلفون)فی الدنیا أن لا ینالهم اللّه برحمه،ثمّ تقول الأئمّه لشیعتهم:ادخلوا الجنّه لا خوف علیکم و أنتم تحزنون (۱) .

و نظیر هذا المضمون روی فی تفاسیر أهل السنه عن حذیفه عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (۲) .

و نکرر مرّه أخری هنا أنّ الحدیث حول تفاصیل و جزئیات القیامه و خصوصیات الحیاه فی العالم الآخر أشبه بما لو أننا أردنا أن نصف شبحا من بعید،فی حین أنّ بین ذلک الشبح و بین حیاتنا تفاوتا واسعا و اختلافا کبیرا،فما نفعله فی هذه الصوره هو أنّنا نستطیع بألفاظنا المحدوده و القاصره أن نشیر إلیه إشاره ناقصه قصیره.

هذا،و النقطه الجدیره بالالتفات هی أنّ الحیاه فی العالم الآخر مبتنیه علی

۱- ۱) تفسیر البرهان،المجلد الثّانی،الصفحه ۱۹ و ۲۰.

۲- ۲) تفسیر الطبری،ج ۸ الصفحه،۱۴۲ و ۱۴۳.

أساس النماذج و العيّنات الموجوده فی هذه الدنيا،فهكذا الحال بالنسبه إلى الأعراف،لأنّ الناس فی هذه الدنيا ثلاث فرق:المؤمنون الصادقون الذين وصلوا إلى الطمأنينه الكامله فی ضوء الإيمان،و لم يدخروا وسعا فی طريق المجاهده.

و المعاندون و أعداء الحق المتصلبون المتمادون فی لجاجهم الذين لا يهتدون بأيه وسيله.و الفريق الثّالث هم الذين يقفون فی هذا الممر الصّعب عبوره-فی الوسط بين الفريقين،و أكثر عنايه القاده الصادقين و أئمّه الحق موجهه إلى هؤلاء، فهم يبقون إلى جانب هؤلاء،و يأخذون بأيديهم لإنقاذهم و تخليصهم من مرحله الأعراف ليستقروا فی صف المؤمنين الحقيقيين.

و من هنا يتّضح أن تدخّل الأنبياء و الأئمّه فی انقاذ هذا الفريق فی الآخره كتدخلهم لذلك فی الدنيا لا ينافی أبدا قدره اللّه و حاكميته على كل شیء،بل كل ما يفعلونه إنّما هو بإذن اللّه تعالى و أمره.

الآیتان [سوره الأعراف (٧): الآیات ۵٠ الی ۵١]

اشاره

وَ نٰادیٰ أَصْحٰابُ اَلنّٰارِ أَصْحٰابَ اَلْجَنَّهِ أَنْ أَفِیضُوا عَلَیْنٰا مِنَ اَلْمٰاءِ أَوْ مِمّٰا رَزَقَکُمُ اَللّٰهُ قٰالُوا إِنَّ اَللّٰهَ حَرَّمَهُمٰا عَلَی اَلْکٰافِرِینَ (۵٠) اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا دِینَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ اَلْحَیٰاهُ اَلدُّنْیٰا فَالْیَوْمَ نَنْسٰاهُمْ کَمٰا نَسُوا لِقٰاءَ یَوْمِهِمْ هٰذٰا وَ مٰا کٰانُوا بِآیٰاتِنٰا یَجْحَدُونَ (۵١)

التّفسیر

اشاره

نعم الجنّه حرام علی أهل النّار:

بعد أن استقر کل من أهل الجنّه و أهل النّار فی أماکنهم و منازلهم،تدور بینهم حوارات نتیجتها العقوبه الروحیه و المعنویه لأهل النّار.

و فی البدایه یبدأ الکلام من جانب أهل النّار: وَ نٰادیٰ أَصْحٰابُ النّٰارِ أَصْحٰابَ الْجَنَّهِ أَنْ أَفِیضُوا عَلَیْنٰا مِنَ الْمٰاءِ أَوْ مِمّٰا رَزَقَکُمُ اللّٰهُ .فهم یطلبون أن یجودوا علیهم بشیء من الماء أو من نعم الجنّه.

و لکن أهل الجنّه یبادرون إلی رفض هذا المطلب قٰالُوا إِنَّ اللّٰهَ حَرَّمَهُمٰا عَلَی الْکٰافِرِینَ .

ص :۶٣

هنا عدّه نقاط يجب أن نتوقف عندها و نلتفت إليها:

۱-يبدأ القرآن الكريم بأحاديث أهل النّار مع أهل الجنّه بلفظه(و نادى) التى تستعمل عاده للتخاطب من مكان بعيد،و هذا يفيد بأنّ بين الفريقين فاصله كبيره و مع ذلك يتمّ هذا الحوار و يسمع كل منهما حديث الآخر،و هذا ليس بعجيب،فلو أن المسافه بلغت ملايين الفراسخ لأمكن أن يسمع كل واحد منهما كلام الآخر،بل و يرى-فى بعض الأحيان-الطرف الآخر.

و لو كان القبول بهذا أمرا متعذرا أو متعسرا فى الماضى،و كانت تشكل مشكله بالنسبه إلى السامعين،فإنّه مع انتقال الصوت و الصوره فى عصرنا الحاضر من مسافات بعيده جدا انحلّت هذه المشكله،و لم تعد الآيه موضع تعجب و غرابه.

۲-إنّ أوّل طلب يطلبه أهل النّار هو الماء،و هذا أمر طبيعى،لأنّ الشخص الذى يحترق فى النّار المستعره يطلب الماء قبل أى شىء حتى يبرد غليله و يرفع به عطشه.

۳-إنّ عباره مِمّا رَزَقَكُمُ اللّهُ التى هى عباره مجمله،و تتسم بالإبهام،تفيد أنّه حتى أهل النّار لا يمكنهم أن يعرفوا بشىء من حقيقه النعم الموجوده فى الجنّه و أنواعها.و هذا الموضوع يتفق و ينسجم مع بعض الأحاديث التى تقول:

(إنّ فى الجنّه ما لا عين رأت و لا أذن سمعت،و لا خطر على قلب بشر).

ثمّ إنّ عطف الجمله ب«أو»يشير الى أنّ النعم الاخرويه الأخرى و خاصّه الفواكه يمكنها أن تحلّ محل الماء و تطفئ عطش الإنسان.

۴-إنّ عباره إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ إشاره إلى أهل الجنّه بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شىء من هذه النعم لأهل النّار،لأنّه لا يقلّ منها شىء بسبب الإعطاء،و لا أنّهم يحملون حقدا أو ضغينه على أحد فى

صدورهم،حتى بالنسبه إلى أعدائهم،و لكن وضع أهل النّار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنّه.

إنّ هذا الحرمان-فى الحقيقه-نوع من«الحرمان التكوينى»مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمه اللذيذه المتنوعه.

فى الآيه اللاحقه يبيّن سبب حرمانهم،و يوضح بذكر صفات أهل النّار أهل هذا المصير الأسود قد هيّئوه هم لأنفسهم،فيقول أوّلا:إنّ هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعبا اَلَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً .

و هذا إلى جانب أنّهم خدعتهم الدنيا و اغتروا بها وَ غَرَّتْهُمُ الْحَيٰاةُ الدُّنْيٰا .

إنّ هذه الأمور سببت فى أن يغرقوا فى و حل الشهوات،و ينسوا كل شيء حتى الآخره،و ينكروا أقوال الأنبياء،و يكذبوا بالآيات الإلهيه،و لهذا أضاف قائلا: فَالْيَوْمَ نَنْسٰاهُمْ كَمٰا نَسُوا لِقٰاءَ يَوْمِهِمْ هٰذٰا،وَ مٰا كٰانُوا بِآيٰاتِنٰا يَجْحَدُونَ .

و من البديهى أنّ المراد من«النسيان»الذى نسب هنا إلى اللّه هو بمعنى أنّنا نعاملهم معامله الناسى تماما،مثل أن يقول شخص لصديقه:(كما أنّك نسيتنى فسوف أنساك أن أيضا)أى أننى سوف أعاملك معامله المتناسى لشيء.

كما أنّه يستفاد من هذه الآيه أنّ أوّل مرحله من مراحل الانحراف و الضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياه المصيريه بمأخذ الجدّ،بل يتعامل معها معامله المتسلّى و الهازل،فتؤدى به هذه الحاله إلى الكفر المطلق،و إنكار جميع الحقائق.

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۵۲ الی ۵۳]

اشاره

وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِکِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلی عِلْمٍ هُدیً وَ رَحْمَهً لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۵۲) هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ تَأْوِیلَهُ یَوْمَ یَأْتِی تَأْوِیلُهُ یَقُولُ الَّذِینَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَیَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَیْرَ الَّذِی کُنّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۵۳)

التّفسیر

هذه الآیه إشاره-فی الدرجه الأولی-إلی أنّ حرمان الکفار و مصیرهم المشؤوم إنّما هو نتیجه تقصیراتهم أنفسهم،و إلاّ فلیس هناک من جانب اللّه أی تقصیر فی هدایتهم و قیادتهم و إبلاغ الآیات إلیهم و بیان الدروس التربویه لهم، لهذا یقول تعالی:إنّنا لم نال جهدا و لم ندخر شیئا فی مجال الهدایه و الإرشاد،بل أرسلنا لهم کتابا شرحنا فیه کل شیء بحکمه و درایه وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِکِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلی عِلْمٍ .

و هو کتاب فیه رحمه و هدایه،لا للمعاندین الأنانیین،بل للمؤمنین هُدیً وَ رَحْمَهً لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ .

الآیه اللاحقه تشیر إلی الطریقه الخاطئه فی تفکیر العصاه و المنحرفین فی صعید الهدایه الإلهیه فیقول: هَلْ یَنْظُرُونَ إِلاّ تَأْوِیلَهُ أی کأنّ هؤلاء یتوقعون أن یروا نتیجه الوعد و الوعید الإلهی بعیونهم(أی یروا أهل الجنّه و هم فیها،و أهل النّار و هم فیها)حتی یؤمنوا.

و لکنّه توقّع سخیف،لأنّه عند ما تترجم الوعود الإلهیه علی صعید الواقع ینتهی الأمر،و لم یعد هناک مجال للرجوع و لا طریق للعوده، و هناک سیعترفون بأنّهم قد تناسوا کتاب اللّه و تجاهلوا التعالیم الإلهیه التی أنزلها علی رسله بالحق، و کان قولهم حقّا أیضا: یَوْمَ یَأْتِی تَأْوِیلُهُ یَقُولُ الَّذِینَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ .

سیغرقون فی هذا الوقت فی قلق و اضطراب،و یفکرون فی مخلص ینقذهم من هذه المشکله و یقولون فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَیَشْفَعُوا .

و إذا لم یکن هناک شفعاء لنا،أو إنّنا لا نصلح أساسا للشّفاعه،أ فلا یمکن أن نرجع إلی الدنیا و نقوم بأعمال غیر ما عملناه سابقا،و نسلّم للحق و الحقیقه أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَیْرَ الَّذِی کُنّا نَعْمَلُ .

و لکن هذا التنبیه جاء-و للأسف-متأخرا جدا،فلا طریق للعوده و لا صلاحیه لهم للشفاعه،لأنّهم قد خسروا کلّ رؤوس أموالهم،و تورطوا فی خسران جمیع وجودهم قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ .

و سوف یثبت لهم أنّ أصنامهم و معبوداتهم لیس لها أی دور هناک،و فی الحقیقه ضاعت-فی نظرهم-جمیعا وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ .

و کأنّ الجملتین الأخیرتین ردّ علی طلبهم،یعنی إذا کانوا یریدون شفعاء یشفعون فإنّ علیهم حتما أن یتوسّلوا بأصنامهم التی کانوا یسجدون لها،فی حین أنّ تلک الأصنام و لأوثان لا تکون مؤثره هناک مطلقا.

و أمّا عودتهم إلی الدنیا فإنّها ممکنه فی ما لو بقی لدیهم رأس مال، و لکنّهم

قد خسروا كل رؤوس أموالهم و فقدوا كل وجودهم.

من هـذه الآـيه يسـتفاد أوّلاـ أنّ الإنسان حرّ مختار فی أعماله،و إلاّ لما طلب العوده و الرجوع إلی الـدنیا لملافاه ما فات،و ثانیا:إنّ العالم الآخر لیس مکان العمل و اکتساب الفضائل و النجاه.

ص :۶۸

الآیه [سوره الأعراف (۷): آیه ۵۴]

اشاره

إِنَّ رَبَّکُمُ اَللّٰهُ اَلَّذِی خَلَقَ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ ثُمَّ اِسْتَویٰ عَلَی اَلْعَرْشِ یُغْشِی اَللَّیْلَ اَلنَّهٰارَ یَطْلُبُهُ حَثِیثاً وَ اَلشَّمْسَ وَ اَلْقَمَرَ وَ اَلنُّجُومَ مُسَخَّرٰاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاٰ لَهُ اَلْخَلْقُ وَ اَلْأَمْرُ تَبٰارَکَ اَللّٰهُ رَبُّ اَلْعٰالَمِینَ (۵۴)

التّفسیر

اشاره

فی الآیـات السابقه قرأنا أنّ المشـرکین یقفون یوم القیامه علی خطأهم الکبیر فی صـعید انتخاب المعبود،و الآیه الحاضـره تصـف المعبود الحقیقی مع ذکر صـفاته الخاصّه حتی یسـتطیع الذین یطلبون الحقیقه و ینشدونها أن یعرفوه بوضوح فی هذا العالم و قبل حلول یوم القیامه،و یبـدأ حدیثه هذا بقوله: إِنَّ رَبَّکُمُ اللّٰهُ الَّذِی خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّهِ أَیّٰامٍ أی أنّ المعبود لا یمکن أن یکون إلّا من کان خالقا.

هل خلق العالم فی ستّه أیّام؟

لقد ورد البحث عن خلق العالم و تکوینه فی ستّه أیّام،فی سبعه موارد من

ص: ۶۹

آیات القرآن الکریم (۱) ،و لکنّه فی ثلاثه موارد أضیف إلی السماوات و الأرض لفظه«و ما بینهما»أیضا.و التی هی فی الحقیقه توضیح للجمله السابقه،لأنّ جمیع هذه الأشیاء تدخل فی معنی السماوات و الأرض،لأنّنا نعلم أنّ السماء تشمل جمیع الأشیاء التی توجد فی الأعلی،و الأرض هی النقطه المقابله للسماء.

و هنا یتبادر هذا السؤال فورا و هو:قبل أن تخلق السماوات و الأرض لم یکن لیل و لا نهار لیقال:خلقت السماوات و الأرض فیهما،لأنّ اللیل و النهار ناشئان من دوران الأرض حول نفسها فی مقابل الشمس.

هذا مضافا إلی أنّ ظهور المجموعه الکونیه فی ستّه أیام-یعنی أقل من أسبوع-یخالف العلم،لأنّ العلم یقول:لقد استغرق تکوّن الأرض و السماء حتی وصل الی الواضع الحالی ملیاردات من السنوات و الأعوام.

و لکن نظرا إلی المفهوم الواسع للفظه«یوم»و ما یعادلها فی مختلف اللغات، یکون جواب هذا السؤال واضحا،لأنّه کثیرا ما یستعمل الیوم بمعنی الدوره، سواء استغرقت مده سنه،أو مائه سنه،أو ملیون سنه أو ملیاردات السنین، و الشواهد التی تثبت هذه الحقیقه،و تفید أنّ أحد معانی الیوم هو الدوره،کثیره:

۱-لقد استعملت لفظه الیوم و الأیّام فی القرآن الکریم مئات المرات،و فی کثیر من الموارد لم تکن بمعنی اللیل و النهار،مثلا یعبر عن عالم البعث بیوم القیامه،و هذا یشهد بأنّ مجموع عملیه القیامه التی هی دوره طویله الأمد و المدّه، تسمی یوم القیامه.

و یستفاد من بعض الآیات القرآنیه أنّ یوم القیامه و محاسبه أعمال الناس یستغرق خمسین ألف سنه(سوره المعارج الآیه ۴).

۱- ۱) و هی:الآیه المبحوثه هنا،و ۳ یونس،و ۷ هود،و ۵۹ الفرقان و ۴ السجده و ۳۸ ق،و ۴ الحدید.

۲-نقرأ فی کتب اللغه أیضا أنّ الیوم ربّما یطلق علی الزمن بین طلوع الشمس و غروبها،و ربّما علی مقدار من الزمان مهما کان قدره،قال الراغب فی المفردات:«الیوم یعبّر به عن وقت طلوع الشمس إلی غروبها،و قد یعبّر عن مده من الزمان أی مدّه کانت».

۳-جاء فی روایات أئمّه الدین و أحادیثهم-کذلک-استعمال الیوم بمعنی الدهر،کما

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام فی نهج البلاغه أنّه قال: «الدّهر یومان:یوم لک،و یوم علیک».

و نقرأ فی تفسیر البرهان فی تفسیر هذه الآیه

،عن تفسیر علی بن إبراهیم الإمام علیه السّلام قال: «فی سته أیّام،أی فی سته أوقات»، أی فی ست دورات.

۴-کثیرا ما نشاهد فی المحاورات الیومیه،و أشعار الشعراء فی اللغات المختلفه،أنّ کلمه الیوم و ما یعادلها قد استعملت بمعنی الدوره و العهد،مثلا نقول یوم کانت الکره الأرضیه حاره و مشتعله،و یوم صارت بارده و ظهرت فیها آثار الحیاه،فی حین أنّ فتره سخونه الأرض و اشتعالها استغرقت ملیاردات من الأعوام.

أو عند ما نقول غصب آل أمیه الخلافه الإسلامیه یوما،و غصبها بنو العباس یوما آخر.فی حین أنّ فتره اغتصاب الأمویین للخلافه استغرقت عشرات السنین و فتره اغتصاب العباسیین لها استغرقت المئات.

من مجموع الحدیث السابق نستنتج أنّ اللّه سبحانه و تعالی خلق السماوات و الأرض فی ست دورات متوالیه،و إن استغرقت کل دوره من هذه الدورات ملایین أو ملیاردات السنین،و العلم الحدیث لم یبیّن أی أمر یخالف هذا الموضوع.

و هذه الدورات-احتمالا-هی علی الترتیب:

۱-یوم کان الکون فی شکل کتله غازیه الشکل،فانفصلت منها أجزاء

بسبب دورانها حول نفسها،و تشكلت من المواد المنفصله الكرات و الأنجم.

۲-هذه الكرات قد تحولت تدريجا إلى هيئه كتله من المواد الذائبه المشعه أم البارده القابله للسكنى.

۳-فى دوره أخرى تألفت المنظومه الشمسيه و انفصلت الأرض عن الشمس.

۴-فى الدوره الرّابعه بردت الأرض و أصبحت قابله للحياه.

۵-ثمّ ظهرت النباتات و الأشجار على الأرض.

۶-و بالتالى ظهرت الحيوانات و الإنسان فوق سطح الأرض.

و كل ما ذكرناه أعلاه من الأدوار السته لعمليه خلق و تكوين السماوات و الأرض تنطبق على الآيات(۸)إلى(۱۱)من سوره فصلت التى سيأتى تفسيرها فى المستقبل إن شاء اللّه.

لماذا لم يخلق اللّه العالم فى لحظه واحده؟

و هنا يطرح سؤال آخر نفسه و هو:لماذا خلق اللّه السماوات و الأرض فى دورات عديده و طويله،و هو القادر على خلقها فى لحظه واحده؟ إنّ جواب هذا السؤال يمكن الوقوف عليه بالالتفات إلى نقطه واحده،و هى أنّ الخلق لو تمّ فى لحظه واحده،لكان ذلك أقل دلاله على عظمه الخالق و قدرته و علمه،و لكن لما تمّت عمليه الخلق و التكوين فى مراحل مختلفه و أشكال متنوعه،وفق برنامج منظم محسوب،كان لذلك دلاله أوضح على معرفه الخالق.

ففى المثل لو كانت النّطفه البشريه تتبدل فى لحظه واحده إلى وليد كامل،لمّا كان ذلك يحكى عظمه الخلق و التكوين،و لكن عند ما ظهر الوليد خلال ۹ أشهر، و ضمن برنامج دقيق و اتخذ فى كل يوم و شهر شكلا خاصا و صوره خاصّه، استطاعت كل واحده من هذه المراحل أن تقدّم آيه جديده من آيات العظمه

الإلهيه،و تكون دليلا جديدا على قدره الخالق.

ثمّ يقول القرآن الكريم:إنّ اللّه تعالى بعد خلق السماوات و الأرض أخذ زمام إدارتها بيده(أى ليس الخلق منه فقط،بل منه الإداره و التدبير أيضا)فقال تعالى:

ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ

.

و هذا جواب لمن يعتقد أنّ الكون محتاج إلى اللّه تعالى فى الخلق و الإيجاد دون البقاء.

ما هو العرش؟

«العرش»فى اللغه هو ما له سقف،و قد يطلق العرش على نفس السقف،مثل قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِی مَرَّ عَلىٰ قَرْيَهٍ وَ هِیَ خٰاوِيَهٌ عَلىٰ عُرُوشِهٰا (1) و ربّما يأتى بمعنى الأسره الكبيره المرتفعه،مثل أسره الملوك و السلاطين، كما جاء فى قصه سليمان: أَيُّكُمْ يَأْتِينِی بِعَرْشِهٰا (2) و هكذا يطلق لفظ العرش على الأسقف التى يقيمها المزارعون لحفظ بعض الأشجار،و بخاصّه المتسلقه منها،كما نقرأ فى القرآن الكريم: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَ جَنّٰاتٍ مَعْرُوشٰاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشٰاتٍ (3) و لكن عند ما ينسب الى اللّه سبحانه و تعالى و يقال:عرش اللّه،يراد منه مجموعه عالم الوجود،الذى يعدّ فى الحقيقه سرير حكومه اللّه تعالى.

و أساسا فإنّ عباره اِسْتَوىٰ عَلَى الْعَرْشِ كنايه عن سيطره حاكم من الحكام على أمور بلده،كما أنّ المراد من جمله«ثلّ عرشه»هو خروج زمام الأمر من يده و فقدان السيطره عليه،و قد استعملت هذه الكنايه فى اللغه بكثره إذ

١- ١) البقره،٢٥٩.

٢- ٢) النمل،٢٨

٣- ٣) الأنعام،١٤١.

يقـال:إنّ جماعه من الناس ثارت فی البلـد الفلانی،و أنزلت حاکمه من سـریره و عرشه،فی حین من الممکن أن لا یکون لـذلک الزعیم و الحاکم تخت أصلا.

أو یقال:إنّ جماعه من الناس أیدوا فلانا،و أجلسوه علی العرش،فکل هذه کنایه عن امتلاک السلطه أو فقدانها.

و علی هذا تکون عباره اِسْتَویٰ عَلَی الْعَرْشِ کنایه عن الإحاطه الکامله للّه تعالی و سیطرته علی تدبیر أمور الکون-سماء و أرضا- بعد خلقها.

و من هنا یتّضـح أنّ الـذین أخذوا هذه الجمله دلیلا علی«جسـمانیّه اللّه»کأنّهم لم یلتفتوا إلی موارد اسـتعمال هذه الجمله العدیده فی هذا المعنی الکنائی.

و هناک معنی آخر للعرش،و هو أنّه قد ورد أحیانا فی قبال«الکرسی»و فی مثل هذه الموارد یمکن أن یکون الکرسی(الذی یطلق عـاده علی المقعـد القصـیر القـوائم)کنـایه عـن العـالم المـادی،و العرش کنـایه عـن عـالم مـا فـوق المـاده(أی عـالم الأـرواح و الملائکه)کما جاء فی تفسیر آیه وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضَ التی مرّت فی سوره البقره.

ثمّ یقول بأنّه تعالی هو الذی یلقی باللیل-کغشاء-علی النهار،و یستر ضوء النهار بالأستار المظلمه یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهٰارَ .

و الملفت للنظر أنّ العبـاره المـذکوره ذکرت فی مجـال اللیـل فقـط،و لم یقـل (و یغشـی النهار اللیل)لأنّ الغطاء و الغشاء یناسـب الظلمه فقط و لا یناسب النور و الضوء.

ثمّ یضیف بعد ذلک قائلا:إنّ اللیل یطلب النهار طلبا حثیثا(یطلبه حثیثا).

إنّ هـذا التعبیر-نظرا لوضع اللیـل و النهـار فی الکره الأرضـیه-تعبیر فی غـایه الروعه و الجمال،لأنّه لو نظر أحـد إلی کیفیه حرکه الکره الأرضـیه من الخارج، و کیفیه دورانها حول نفسـها و وقوع ظلها المخروطی الشـکل علی نفسها،مع العلم أنّ الکره الأرضیه تدور بسرعه فائقه حول نفسها(أی فی حدود ۳۰ کیلومترا فی

الدقیقه)لأحس أنّ غول الظلّ المخروطی الأسود یجری بسرعه کبیره علی هذه الکره خلف ضوء النهار.

و لکن هذا الأمر غیر صادق بالنسبه إلی ضوء النهار،لأنّ ضوء الشمس منتشر فی نصف الکره الأرضیه و فی جمیع الفضاء المحیط بأطراف الأرض،و لا یتخذ لنفسه شکلا خاصا،و إنّما ظلمه اللیل فقط هی التی تدور مثل شبح غامض الأسرار حول الأرض.

ثمّ یضیف تعالی أنّه هو الذی خلق الشمس و القمر و النجوم،و هی خاضعه لأمره بعد خلقها: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ و هی مُسَخَّرٰاتٍ بِأَمْرِهِ .

(و سوف نبحث حول تسخیر الشمس و القمر و النجوم و معانی ذلک فی ذیل الآیات المناسبه بإذن اللّه تعالی).

ثمّ بعد ذکر خلق العالم و نظام اللیل و النهار،و خلق الشمس و القمر و النجوم، قال مؤکّدا:اعلموا أنّ خلق الکون و تدبیر أموره کلّه بیده سبحانه دون سواه، أَلاٰ لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ .

ما هو«الخلق»و«الأمر»؟

هناک کلام کثیر بین المفسّرین حول المراد من«الخلق»و«الأمر»أنّه ما هو؟ و لکن بالنظر إلی القرائن الموجوده فی هذه الآیه-و الآیات القرآنیه الأخری یستفاد أنّ المراد من«الخلق»هو الخلق و الإیجاد الأوّل.و المراد من«الأمر»هو السنن و القوانین الحاکمه علی عالم الوجود بأسره بأمر اللّه تعالی،و التی تقود الکون فی مسیره المرسوم له.

إن هذا التعبیر-فی الحقیقه-ردّ علی الذین یتصورون أنّ اللّه خلق الکون ثمّ ترکه لحاله و أهله،و جلس جانبا.أی إنّ العالم بحاجه إلی اللّه فی وجوده

و حدوثه،دون بقائه و استمراره.

إنّ هـذه الجمله تقول:کلّا،بل إنّ العالم کما یحتاج إلی حـدوثه إلی اللّه،کـذلک یحتاج إلیه فی تـدبیره و اسـتمرار حیاته و إداره شؤونه إلی اللّه،و لو أنّ اللّه صرف عنایته و لطفه عن الکون لحظه واحده لتبدد النظام و انهار و انهدم بصوره کامله.

و قـد مـال بعض الفلاسـفه إلی أن یفسّـر عـالم«الخلق»بعـالم«المـاده»و عـالم «الأمر»بعـالم«مـا وراء المـاده»لأنّ لعـالم الخلق جانبا تـدریجیا،و هـذه هی خاصـیه المـاده.و لعـالم الأمر جانبا دفعیا و فوریا،و هـذه هی خاصـیه عالم ما وراء الماده، کما نقرأ فی قوله تعـالی: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۱) و لکن بالنظر إلی موارد استعمال لفظه الأمر فی آیات القرآن،و حتی عباره وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ الوارده فی الآیه المبحوثه یستفاد الأمر یعنی کل أمر إلهی سواء فی عالم الماده أو فی عالم ما وراء الماده (تأملوا رجاء).

ثمّ فی ختام الآیه یقول: تَبارَکَ اللّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ .

فی الحقیقه إنّ هذه الجمله-بعد ذکر خلق السماوات و الأرض و اللیل و النهار و الشمس و القمر و النجوم و تدبیر عالم الوجود-نوع من الثناء علی الذات الربوبیه المقدسه، و قد سیق لتعلیم العباد.

و«تبـارک»من مـاده البرکه و أصـلها«برک»و معناها صـدر البعیر،حیث أنّ الإبل عنـد ما تسـتقر فی مکان ما تلصق صـدورها علی الأرض،لهذا اتخذت هذه الکلمه تدریجیا معنی الثبوت و الاسـتقرار و الاستتباب،ثمّ وصفت و سمّیت کل نعمه مستقره و دائمه،و کل کائن طویل العمر،و مسـتمر الآثار و الخیرات،بأنّه موجود مبارک،و یقال أیضا للمکان الـذی یتجمع فیه الماء«برکه»لبقائه فی ذلک

۱- ۱) سوره یس،۸۲.

المكان مده طويله.

من هنا يتّضح أنّ رأس المال«المبارک»هو الذی یتصف بالدوام،و الکائن «المبارک»هو الموجود المستدیم الآثار،و من البدیهی أنّ ألیق وجود لهذه الصفه هو وجود اللّه تعالی،فهو وجود مبارک أزلی أبدی،و هو بالتالی منشأ جمیع البرکات و الخیرات،و منبع الخیر المستمر تَبٰارَکَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰالَمِینَ (و سوف نتحدث فی هذا المجال فی تفسیر الآیه(۹۲)من سوره الأنعام أیضا).

ص:۷۷

الآيتان [سوره الأعراف (۷): الآيات ۵۵ الی ۵۶]

اشاره

اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لاٰ يُحِبُّ اَلْمُعْتَدِينَ (۵۵) وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِي اَلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا وَ اُدْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اَللّٰهِ قَرِيبٌ مِنَ اَلْمُحْسِنِينَ (۵۶)

التّفسير

اشاره

شروط استجابه الدعاء:

لقد أثبتت الآيه السابقه-فی ضوء ما أقيم من برهان واضح-هذه الحقيقه، و هی أنّ الذی يستحق للعباده فقط هو اللّه،و فی عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء،الذی هو مخ العباده و روحها،يقول أوّلا: اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً .

و«التضرع»فی الأصل من ماده«ضرع»بمعنی الثدی،و علی هذا يكون فعل التضرع بمعنی حلب اللبن من الضرع،و حيث إنّه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع علی حلمه الثدی من جهاتها المختلفه استدارا للحليب،لهذا استعملت هذه الكلمه فی من يظهر حركات خاصّه إظهارا للخضوع و التواضع.

و علی هذا فإنّ الآيه المبحوثه،و عباره اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً تحثّنا علی أن نقبل علی اللّه بمنتهی الخضوع و الخشوع و التواضع،بل يجب أن تنعكس روح

الدعاء فی أعماق روحه،و علی جمیع أبعاد وجوده،و یکون اللسان مجرّد ترجمانها،و یتحدث نیابه عن جمیع أعضائه.

و أمره تعالی-فی الآیه الحاضره-بأن یدعی اللّه«خفیه»و فی السّر،لأنّه أبعد عن الریاء،و أقرب إلی الإخلاص،و لأجل أن یکون الدعاء مقرونا بتمرکز الفکر و حضور القلب.

و نحن نقرأ

فی حدیث أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لما کان فی إحدی غزواته،و وصل جنود الإسلام إلی واد رفعوا أصواتهم بالتهلیل و التکبیر قائلین:«لا إله إلاّ اللّه»و «اللّه أکبر»فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«یا أیّها الناس اربعوا علی أنفسکم،أمّا إنّکم لا تدعون أصمّ و لا غائبا،إنّکم تدعون سمیعا قریبا،إنّه معکم» (۱) .

کما و یحتمل فی هذه الآیه أیضا أن یکون المراد من«التضرع»هو الدعاء الظاهر العلنی،و المراد من«الخفیه»الدعاء الخفی السّری،لأنّ لکل مقام اقتضاء خاصا،فقد یقتضی أن یکون الدعاء علنا،و ربّما یقتضی خفیه و سرا،و هناک روایه وردت فی ذیل هذه الآیه تؤید هذا الموضوع.

ثمّ قال تعالی فی ختام الآیه: إِنَّهُ لاٰ یُحِبُّ الْمُعْتَدِینَ أی أنّ اللّه لا یحب المعتدین.

و لهذه العباره معنی وسیع یشمل کل نوع من أنواع العدوان و التجاوز،سواء الصراخ و رفع الصوت عالیا جدا حین الدعاء،أو التظاهر و ممارسه الریاء،أو التوجه إلی غیر اللّه حین الدعاء.

و فی الآیه اللاحقه یشیر تعالی إلی حکم هو فی الحقیقه شرط من شروط تأثیر الدعاء،إذ قال: وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا .

و من المسلم أنّ الأدعیه إنّما تکون عند اللّه أقرب إلی الإجابه إذا تحققت فیها

۱- ۱) مجمع البیان،المجلد الرابع،الصفحه ۴۲۹.

الشرائط اللازمه،و من جمله ذلك أن يكون الدعاء مقترنا بالجوانب البناءه و العمليه في حدود المستطاع، و أن تراعى حقوق الناس،و أن تلقى حقيقه الدعاء بأنوارها و ظلالها على وجود الإنسان الداعي بأسره،و لهذا فلا تستجاب أدعيه المفسدين و العصاه،و لا تنتهي إلى أيه نتيجه مرجوّه.

و المراد من«الفساد بعد الإصلاح»يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما،

جاء في روايه عن الإمام الباقر عليه السّلام: (إنّ الأرض كانت فاسده فأصلحها نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» (1) .

و مرّه أخرى يعود إلى مسأله الدعاء و يذكر شرطا آخر من شرائطه فيقول:

وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً

.

أي لا تكونوا راضيين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنّه لا توجد في حياتكم أيه نقطه سوداء،إذ أنّ هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر و السقوط،كما لا تكونوا يائسين إلى درجه أنّكم لا ترون أنفسكم لائقين للعفو الإلهي،و لإجابه الدعاء،إذ أنّ هذا اليأس و القنوط هو الآخر سبب لانطفاء شعله السعي و الاجتهاد،بل لا بد أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحي(الخوف)و(الأمل)الخوف من المسؤوليات و العثرات،و الأمل برحمته و لطفه.

و في خاتمه الآيه يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمه الإلهيه إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

و يمكن أن تكون هذه العباره إحدى شرائط إجابه الدعاء،يعني إذا كنتم تريدون أن لا تكون أدعيتكم خاويه،و مجرّد لقلقه لسان،فيجب أن تقرنوها بعمل الخير و الإحسان،لتشملكم الرحمه الإلهيه بمعونه ذلك و تثمر دعواتكم، و بهذا تكون الآيه قد تضمنت الإشاره إلى خمسه من شرائط قبول الدعاء

1- 1) مجمع البيان،المجلد الرابع،الصفحه 429.

و إجابته،و هی باختصار کالتالی:

۱-أن یکون الدعاء عن تضرّع و خفیه.

۲-أن لا یتجاوز حدّ الاعتدال.

۳-أن لا یکون مقرونا بالإفساد و المعصیه.

۴-أن یکون مقرونا بالخوف و الأصل المعتدلین.

۵-أن یکون مقرونا بالبرّ و الإحسان،و فعل الخیرات.

ص :۸۱

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٧ الى ٥٨]

اشاره

وَ هُوَ اَلَّذِی یُرْسِلُ اَلرِّیٰاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ حَتّٰی إِذٰا أَقَلَّتْ سَحٰاباً ثِقٰالاً سُقْنٰاهُ لِبَلَدٍ مَیِّتٍ فَأَنْزَلْنٰا بِهِ اَلْمٰاءَ فَأَخْرَجْنٰا بِهِ مِنْ کُلِّ اَلثَّمَرٰاتِ کَذٰلِکَ نُخْرِجُ اَلْمَوْتیٰ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ (٥٧) وَ اَلْبَلَدُ اَلطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ اَلَّذِی خَبُثَ لاٰ یَخْرُجُ إِلاّٰ نَکِداً کَذٰلِکَ نُصَرِّفُ اَلْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَشْکُرُونَ (٥٨)

التّفسیر

اشاره

لا بد من المربی و القابلیّه:

فی الآیات الماضیه مرّت إشارات عدیده إلی مسأله«المبدأ»أی التوحید و معرفه اللّه،من خلال الوقوف علی أسرار الکون،و فی هذه الآیات ضمن بیان طائفه من النعم الإلهیه وردت الإشاره إلی مسأله«المعاد»و البعث،لیکمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

و هذه هی سیره القرآن الکریم و دأبه فی کثیر من الموارد،حیث یقرن بین «المبدأ»و«المعاد»،و الملفت للنظر أنّه یستعین لمعرفه اللّه،و کذا لتوجیه الأنظار إلی أمر المعاد معا بالاستدلال بالأسرار الکامنه فی خلق موجودات هذا العالم.

فیقول تعالی أولا: وَ هُوَ الَّذِی یُرْسِلُ الرِّیاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ .

ثمّ یقول:إنّ هذه الریاح التی تهب من المحیطات تحمل معها سحبا ثقیله مشبّعه بالماء حَتّی إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً .

ثمّ یسوق تلک السحب إلی الأراضی الظامئه الیابسه،و یکلفها بأن تروی تلک العطاشی سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَیِّتٍ .

و بذلک ینهمر ماء الحیاه فی کل مکان فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ .

و بمعونه هذا الماء نخرج للبشر أنواعا متنوعه من الثمار و الفواکه فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ .

نعم،إنّ الشمس تسطع علی المحیطات و البحار،فیتبخر الماء و یتصاعد البخار إلی الأعلی،و هناک فی الطبقات العالیه البارده من الجو یتراکم البخار و یشکل کتلا ثقیله من السحب،ثمّ تحمل الریاح کتل السحاب العظیمه علی ظهرها،و تتوجه إلی الأراضی التی کلفت بسقیها،فتجری بعض هذه الریاح قدام کتل السحاب،و تکون مزیجه بشیء.من الرطوبه الخفیفه،فتحدث نسیما مریحا تستشم منه رائحه المطر اللذیذه الباعثه للحیاه و النشاط.

إنّها-فی الحقیقه-المبشرات بنزول المطر،ثمّ ترسل کتل الغیم العظیمه حبات المطر من بین ثنایاها، لکنّها لیست بالکبیره جدّا فتتلف الزروع و الأراضی،و لا بالصغیره جدّا فتضیع فی الفضاء و لا تصل إلی الأرض،ثمّ تحط هذه الحبات علی الأرض برفق و هدوء،و تنفذ فی ترابها شیئا فشیئا،فتنبت البذور و الحبات.و تبدل الأرض المحترقه بالجفاف،و التی کانت أشبه شیء بمقبره مظلمه و ساکنه و هامده،إلی مرکز فعّال نابض بالحیاه و الحرکه،و تنشأ الجنائن الخضراء الغنیه بالأزاهیر و الثمار.

ثمّ عقیب ذلک یضیف فورا کَذٰلِکَ نُخْرِجُ الْمَوْتیٰ و نلبسهم حلّه الوجود و الحیاه مرّه أخری.

و لقد أتینا بهذا المثال لأجل أن نریکم أنموذجا من المعاد فی هذه الدنیا،

ص :۸۳

الذی یتکرر أمام عیونکم کل یوم لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ .

و فی الآیه اللاحقه-و حتی لا یظن أحد أن نزول المطر علی نمط واحد یدل علی أنّ جمیع الأراضـی تصـیر حیّه علی نمط واحدا أیضـا،و حتی یتّضـح أنّ القابلیـات و الاسـتعدادات متفـاوته تسـبّبت فی أن تتفاوت حالات الاسـتفاده و الانتفاع بالمواهب الإلهیه یقول: وَ الْبَلَدُ الطَّیِّبُ یَخْرُجُ نَبٰاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ أی أنّ الأرض الصالحه هی التی تستفید من المطر،و تثمر خیر إثمار بإذن ربّها.

أمّا الأراضی السبخه و الخبیثه فلا تثمر إلاّ بعض الأعشاب غیر النافعه وَ الَّذِی خَبُثَ لاٰ یَخْرُجُ إِلاّٰ نَکِداً . (۱)

هکـذا یکون الأمر بالبعث،و إن کان سـببا لعوده الحیاه إلی جمیع افراد البشـر، إلاّ أنّ جمیع الناس لا یحشـرون علی نمط واحد و هیئه واحـده،إنّهم مختلفون متفاوتون فی ذلک مثل تفاوت الأرض الحلوه،و الأرض المالحه،نعم یتفاوتون، و یکون هذا التفاوت ناشئا من الأعمال و العقائد و النیات.

ثمّ فی ختام الآیه یقول تعالی:إنّ هذه الآیات نبیّنها لمن یشـکرونها، و یستفیدون من عبرها و مدالیلها،و یسلکون فی ضوئها سبیل الهدایه کَذٰلِکَ نُصَرِّفُ الْآیٰاتِ لِقَوْمٍ یَشْکُرُونَ .

إن الآـیه الحاضـره-فی الحقیقه-إشاره إلی مسأله مهمّه تتجلی فی هـذه الحیاه و فی الحیاه الأخری فی کل مکان،و هی أنّ فاعلیه الفاعـل وحـدها لاـ تکفی للإثمـار و الإنتـاج الصـحیح المطلوب،بـل لا بـدّ من«قابلیه القابل»فهی شـرط للتأثیر و الإثمار.فإنّه لیس هنـاک شـیء ألطف و أکثر بعثـا للحیاه و النشاط من حبات المطر،و لکن هـذا المطر نفسه الـذی لا شک فی لطافه طبعه،یورق و یورد فی مکان،و ینبت الشوک و الحنظل فی مکان آخر.

۱- ۱) النّکد:هو البخیل الممسک الذی یتعذر أخذ شـیء منه بسـهوله،و لو أنّه أعطی لأعطی الشـیء الیسـیر الحقیر.و لقد شبهت الأراضی المالحه السبخه غیر المساعده للزرع بمثل هذا الشخص.

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ۵۹ الی ۶۴]

اشاره

لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَقٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخٰافُ عَلَيْكُمْ عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۵۹) قٰالَ اَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِى ضَلاٰلٍ مُبِينٍ (۶۰) قٰالَ يٰا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلاٰلَةٌ وَ لٰكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۶۱) أُبَلِّغُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّى وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اَللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ اَلَّذِينَ مَعَهُ فِى اَلْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴)

التّفسير

اشاره

رساله نوح أوّل الرّسل من أولى العزم:

تقدم أنّ هذه السوره-بعد ذكر سلسله من القضايا الجوهريه و العامّه فى صعيد معرفه اللّه و المعاد و الهدايه الإلهيه للبشر،و مسأله الشعور بالمسؤوليه-

ص:۸۵

تشیر إلی قصص ثله من الأنبیاء الکرام و الرسل العظام مثل«نوح»و«هود» و«صالح»و«شعیب»و بالتالی«موسی بن عمران»علیهم السلام أجمعین،کی تقدم أمثله حیه لهذه الأبحاث و بصوره عملیه فی ثنایا تاریخهم الحافل بالحوادث و العبر.

فیبدأ سبحانه من قصه نوح النّبی،و یستعرض قسما من حواراته مع قومه الوثنیین المعاندین.

و قد وردت قصه نوح فی سور قرآنیه متعدده،مثل سوره هود،الأنبیاء، و المؤمنون،الشعراء،کما أنّ هناک سوره قصیره فی القرآن الکریم باسم«سوره نوح»و هی السوره الحادیه و السبعون من سور الکتاب العزیز.

و سوف یأتی شرح و دراسه جهود هذا النّبی العظیم،و کیفیه صنعه للسفینه، و الطوفان الرهیب،و غرق قومه الأنانیین الفاسدین و الوثنیین بإسهاب فی السور المذکوره،و هنا أکتفی-فقط-بإعطاء فهرست عن ذلک ضمن ست آیات هی:

یقول أوّلا: لَقَدْ أَرْسَلْنٰا نُوحاً إِلیٰ قَوْمِهِ .

إنّ أوّل شیء ذکّرهم به هو إلفات نظرهم إلی حقیقه التوحید،و نفی أی نوع من أنواع الوثنیه فَقٰالَ یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ .

إنّ شعار التوحید لیس شعار نوح وحده،بل هو أوّل شعار عند جمیع الأنبیاء و المرسلین الإلهین،و لهذا یشاهد فی آیات متعدده من هذه السوره-و غیرها من السور القرآنیه-أنّ أوّل ما یفتتح أکثر الأنبیاء دعواتهم به هو هذا الشعار: یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ (راجع الآیات ۶۵،و ۷۳ و ۸۵ من نفس هذه السوره).

من هذه العبارات یستفاد جیدا أنّ الوثنیه کانت أسوأ مانع فی طریق سعاده البشریه جمعاء،و أنّ حمله غصون التوحید هؤلاء کانوا أوّل ما یفعلونه لغرس هذه الغصون فی مزرعه الحیاه البشریه و تربیه أنواع الورود الزاهیه و الأشجار المثمره فیها،هو أنّهم یشمرون عن ساعد الجدّ لیطهروا الحیاه البشریه بمنجل

تعالیمهم البناءه من الأشواک،أشواک الوثنیه و الشرک و العبودیه لغیر اللّه تعالی.

و یستفاد من الآیه(۲۳)فی سوره نوح خاصّه أنّ الناس فی زمن النّبی نوح علیه السلام کانوا یعبدون أصناما متعدده تدعی«ودّ»و«سواع»و«یغوث»و«یعوق» و«نسر»،التی سیأتی الحدیث عنها عند تفسیر تلک الآیه بإذن اللّه.

و بعد أن أیقظ نوح ضمائرهم و فطرتهم الغافیه،حذّرهم من مغبه الوثنیه و عاقبتها المؤلمه إذ قال: إِنِّی أَخٰافُ عَلَیْکُمْ عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ .

و المراد من عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ یمکن أن یکون الطوفان المعروف بطوفان نوح،الذی قلّما شوهد مثله فی العقوبات فی العظمه و السعه،کما و یمکن أن یکون إشاره إلی العقوبه الإلهیه فی یوم القیامه،لأنّ هذا التعبیر قد ورد فی معنیین من القرآن الکریم. فإنّنا نقرأ فی سوره الشعراء الآیه(۱۸۹): فَأَخَذَهُمْ عَذٰابُ یَوْمِ الظُّلَّهِ إِنَّهُ کٰانَ عَذٰابَ یَوْمٍ عَظِیمٍ الآیه وردت حول العقوبه التی نزلت بقوم شعیب فی هذه الدنیا بسبب ذنوبهم و معاصیهم،و نقرأ فی سوره المطففین الآیه (۵): أَ لاٰ یَظُنُّ أُولٰئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِیَوْمٍ عَظِیمٍ . (۱)

إنّ عباره«أخاف»(أی أخشی أن تصیبکم هذه العقوبه،بعد ذکر مسأله الشرک فی الآیه المبحوثه،یمکن أن تکون لأجل أن نوحا یرید أن یقول لهم:إذا لم تتیقنوا وقوع هذه العقوبه،فعلی الأقل ینبغی أن تخافوا منها،و لهذا لا یجیز العقل أن تسلکوا-مع هذا الاحتمال-هذا السبیل الوعر،و تستقبلوا عذابا عظیما ألیما کهذا.

و لکن قوم نوح بدل أن یستقبلوا دعوه هذا النّبی العظیم الإصلاحیه، المقرونه بقصد الخیر و النفع لهم،فینضوون تحت رایه التوحید و یکفون عن الظلم و الفساد،قال جماعه من الأعیان و الأثریاء الذین کانوا یحسون بالخطر علی

۱- ۱) کلمه عظیم فی الآیه أعلاه صفه«لیوم»لا للعذاب.

مصالحهم بسبب يقظه الناس و انتباههم،و يرون الدين مانعا من عبثهم و مجونهم و شهواتهم،قالوا لنوح بكل صراحه و قحه:نحن نراک فی ضلال واضح قٰالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنّٰا لَنَرٰاکَ فِی ضَلاٰلٍ مُبِینٍ .

و«الملأ»تطلق عاده علی الجماعه التی تختار عقیده و فکره واحده،و یملأ اجتماعها و جلالها الظاهری عیون الناظرین،لأن ماده«الملأ»أصلا من «الملء»،و قد استعملها القرآن علی الأغلب فی الجماعات الأنانیه المستبده ذات المظهر الأنیق و الباطن الفاسد الملوث بالأوضاد و الشرور، و الذین یملأون ساحات المجتمع المختلفه بوجودهم.

و لقد جابه نوح علیه السلام تعنتهم و خشونتهم بلحن هادئ و لهجه متینه تطفح بالمحبّه و الرحمه،فقال فی معرض الردّ علیهم:أنا لست بضال،بل لیست فی أیه علامه للضلال،و لکنّی مرسل من اللّه قٰالَ یٰا قَوْمِ لَیْسَ بِی ضَلاٰلَهٌ وَ لٰکِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِینَ .

و هذه إشاره إلی أنّ الأرباب التی تعبدوها و تفترضون لکل واحد منها مجالا للسیاده و الحاکمیه،مثل إله البحر،إله السماء،إله السلام و الحرب،و ما شاکل ذلک،کله لا أساس لها من الصحه،و رب العالمین ما هو إلاّ اللّه الواحد الذی خلقها جمیعا و أوجدها من العدم.

ثمّ إنّ هدفی إنّما هو إبلاغ ما حمّلت من رساله أُبَلِّغُکُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّی .

و لن آلو جهدا فی تقدیم النصح لکم،و قصد نفعکم،و إیصال الخیر إلیکم وَ أَنْصَحُ لَکُمْ .

«أنصح»من ماده«نصح»یعنی الخلوص و الغلو عن الغش و عن الشیء الدخیل،لهذا یقال للعسل الخالص:ناصح العسل،ثمّ أطلقت هذه اللفظه علی الکلام الصادر عن سلامه نیه،و بقصد الخیر،و من دون خداع و مکر.

ثمّ أضاف تعالی وَ أَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مٰا لاٰ تَعْلَمُونَ .

ص:۸۸

إنّ هذه العباره يمكن أن يكون لها جانب تهديد فى مقابل معارضاتهم و مخالفتهم، و كأنّه يريد أن يقول:أنا أعلم بعقوبات إلهيه أليمه تنتظر العصاه لا تعلمون شيئا عنها،أو تكون إشاره إلى لطف اللّه و رحمته،و تعنى أنّكم إذا أطعتم اللّه،و كففتم عن تعنتكم،فإنّى أعلم مثوبات عظيمه لكم لا تعلمونها و لم تقفوا لحدّ الآن على سعتها.أو تكون إشاره إلى أنّنى إذا كنت قد كلفت بهدايتكم فإنّنى أعلم أمورا عن اللّه العظيم و عن أوامره لا تعرفونها،و لهذا يجب أن تطيعونى و تتبعونى.و لا مانع من أن تكون كل هذه المعانى مقصوده و مجتمعه فى مفهوم الجمله الحاضره.

و فى الآيه اللاحقه نقرأ لنوح كلاما آخر قاله فى مقابل استغراب قومه من أنّه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملا لمسؤوليه إبلاغ الرساله الإلهيه،إذ قال: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ،وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

يعنى:أىّ شىء فى هذه القضيه يدعو إلى الاستغراب و التعجب،لأنّ الإنسان الصالح هو الذى يمكنه أن يقوم بهذه الرساله أحسن من أى كائن آخر.هذا مضافا إلى أنّ الإنسان هو القادر على قياده البشر،لا الملائكه و لا غيرهم.

و لكن بدل أن يقبلوا بدعوه مثل هذا القائد المخلص الواعى كذبه الجميع، فأرسل اللّه عليهم طوفانا فغرق المكذبون و نجا فى السفينه نوح و من آمن فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا .

و فى خاتمه الآيه بين دليل هذه العقوبه الصعبه،و أنّه عمى القلب الذى منعهم عن رؤيه الحق،و أتباعه إِنَّهُمْ كٰانُوا قَوْماً عَمِينَ (۱) .

و هذا العمى القلبى كان نتيجه أعمالهم السيئه و عنادهم المستمر،لأنّ

۱- ۱) «عمين»جمع عمى،و هو يطلق عاده على من تعطلت بصيرته الباطنيه،و لكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهرى، و كذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنيه أيضا(و عمى حينما يدخل عليها الإعراب تتبدل إلى عم).

التجربه أثبتت أنّ الإنسان إذا بقى فى الظلام مده طويله،أو أغمض عينيه لسبب من الأسباب و امتنع عن النظر مده من الزمن،فإنّه سيفقد قدرته على الرؤيه تدريجا و سيصاب بالعمى فى النهايه.

و هكذا سائر أعضاء البدن إذا تركت الفعاليه و العمل مدّه من الزمن يبست و تعطلت عن العمل نهائيا.

و بصيره الإنسان هى الأخرى غير مستثناه عن هذا القانون،فالتغاضى المستمر عن الحقائق،و عدم استخدام العقل و التفكير فى فهم الحقائق و الواقعيات بصوره مستمره،يضعف بصيره الإنسان تدريجا إلى أن تعمى عين القلب و العقل فى النهايه تماما.

هذه لمحه عن قصه نوح،و أمّا بقيه هذه القصّه و كيفيه وقوع الطوفان و تفاصيلها الأخرى،فسوف نشير إليها فى السور التى أشرنا إليها فى مطلع هذا البحث.

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۶۵ الی ۷۲]

اشاره

وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً قٰالَ يٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ (۶۵) قٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِی
سَفٰاهَةٍ وَ إِنّٰا لَنَظُنُّكَ مِنَ اَلْكٰاذِبِينَ (۶۶) قٰالَ يٰا قَوْمِ لَيْسَ بِی سَفٰاهَةٌ وَ لٰكِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (۶۷) أُبَلِّغُكُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّی وَ
أَنَا لَكُمْ نٰاصِحٌ أَمِينٌ (۶۸) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اُذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفٰاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ
نُوحٍ وَ زٰادَكُمْ فِی اَلْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاٰءَ اَللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۶۹) قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِنَعْبُدَ اَللّٰهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مٰا كٰانَ يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا فَأْتِنٰا
بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصّٰادِقِينَ (۷۰) قٰالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجٰادِلُونَنِی فِی أَسْمٰاءٍ سَمَّيْتُمُوهٰا أَنْتُمْ وَ
آبٰاؤُكُمْ مٰا نَزَّلَ اَللّٰهُ بِهٰا مِنْ سُلْطٰانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّی مَعَكُمْ مِنَ اَلْمُنْتَظِرِينَ (۷۱) فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ اَلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّٰا وَ قَطَعْنٰا دٰابِرَ اَلَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ مٰا كٰانُوا مُؤْمِنِينَ (۷۲)

ص: ۹۱

التّفسير

اشاره

لمحه عن قصّه قوم هود:

عقيب ذكر رساله نوح و الدروس الغنيه بالعبر الكامنه فيها،عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحه سريعه عن قصّه نبى آخر من الأنبياء العظام،و هو النّبى هود عليه السلام،و ذكر ما جرى بينه و بين قومه.

و هذه القصّه ذكرت فى سور أخرى من القرآن الكريم مثل سوره«الشعراء» و سوره«هود»التى تناولت هذه القصّه بشىء من التفصيل،و أمّا فى الآيات الحاضره فقد ذكر شىء مختصر عمّا دار بين هود و المعارضين له و نهايتهم.

يقول تعالى أوّلا:و لقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هودا وَ إِلىٰ عٰادٍ أَخٰاهُمْ هُوداً .

و قوم«عاد»كانوا أمّه تعيش فى أرض«اليمن»و كانت أمّه قويه من حيث المقدره البدنيه و الثروه الوافره التى كانت تصل إليهم عن طريق الزراعه و الرعى، و لكنّها كانت متخمه بالانحرافات الاعتقاديه و بخاصّه الوثنيه و المفاسد الأخلاقيه المتفشيه بينهم.

و قد كلّف«هود»الذى كان منهم-و كان يرتبط بهم بوشيجه القربى-من جانب اللّه بأن يدعوهم إلى الحق و مكافحه الفساد،و لعل التعبير ب«أخاهم»إشاره إلى هذه الوشيجه النسبيه بين هود و قوم عاد.

ثمّ إنّه يحمل أيضا أن يكون التعبير ب«الأخ»فى شأن النّبى هود،و كذا فى شأن عدّه أشخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح عليه السلام(سوره الشعراء الآيه ۱۰۶)و صالح(سوره الشعراء الآيه ۱۴۲)و لوط(سوره الشعراء الآيه ۱۶۱) و شعيب(سوره الأعراف الآيه ۸۵)إنّما هو لأجل أنّهم كانوا يتعاملون مع قومهم فى منتهى الرحمه،و المحبّه مثل أخ حميم، و لا يألون جهدا فى إرشادهم و هدايتهم و دعوتهم إلى الخير و الصلاح.

إنّ هـذه الكلمه تسـتعمل فى من يعطف على أحـد أو جماعه غايه العطف، و يتحرق لهم غايه التحرق،مضافا إلى أنّها تحكى عن نوع من التسـاوى و نفى أى رغبه فى التفوق و الزعـامه،يعنى أن رسـل اللّه لا يحملون فى نفوسـهم أيه دوافع شخصـيه فى صـعيد هدايتهم،إنما يجاهدون فقط لانقاد شعوبهم و أقوامهم من ورطه الشقاء.

و على كل حال،فإنّ من الواضح و البيّن أنّ التعبير ب«أخاهم»ليس إشاره إلى الأخوه الدينيه مطلقا،لأنّ هؤلاء الأقوام لم تستجب-فى الأغلب-لدعوه أنبيائها الإصلاحيه.

ثمّ يذكر تعالى أنّ هود شـرع فى دعوته فى مسأله التوحيد و مكافحه الشرك و الوثنيه: قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَ فَلاٰ تَتَّقُونَ .

و لكـن هـذه الجمـاعه الأنـانيه المسـتكبره،و بخـاصّه أغنياؤهـا المغرورون المعجبـون بأنفسـهم،و الـذين يعـبّر عنهـم القرآن بلفظه«الملأ»باعتبار أنّ ظاهرهم يملأ العيون،قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح لنوح عليه السـلام قٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنّٰا لَنَرٰاكَ فِى سَفٰاهَهٍ وَ إِنّٰا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكٰاذِبِينَ .

«السـفاهه»و خفه العقـل كانت تعنى فى نظرهم أن ينهض أحـد ضـد تقاليـد بيئته مهما كانت تلكم التقاليـد خاويه باطله،و يخاطر حتى بحياته فى هذا السبيل.

لقـد كـانت السـفاهه فى نظرهم و منطقهم هى أن لا ـ يوافق المرء على تقاليـد مجتمعه و سـننه البـاليه،بل يثور على تلك السـنن و التقاليد،و يستقبل برحابه صدر كل ما تخبئه له تلك الثوره و المجابهه.

و لكن هودا-و هو يتحلى بالوقار و المتانه التى يتحلى بها الأنبياء و الهداه الصادقون الطاهرون-من دون أن ينتابه غضب،أو تعتريه حاله يأس قٰالَ يٰا قَوْمِ لَيْسَ بِى سَفٰاهَهٌ وَ لٰكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ .

ثمّ إنّ هودا أضاف:إنّ مهمته هى إبلاغ رسالات اللّه إليهم،و إرشادهم إلى ما

فیه سعادتهم و خیرهم،و انقادهم من ورطه الشرک و الفساد،کل ذلک مع کامل الإخلاص و النصح و الأمانه و الصدق أُبَلِّغُکُمْ رِسٰالاٰتِ رَبِّی وَ أَنَا لَکُمْ نٰاصِحٌ أَمِینٌ .

ثمّ إنّ هودا أشار-فی معرض الرّد علی من تعجب من أن یبعث اللّه بشرا رسولا-إلی نفس مقوله نوح النّبی لقومه: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جٰاءَکُمْ ذِکْرٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَلیٰ رَجُلٍ مِنْکُمْ لِیُنْذِرَکُمْ أی هل تعجبون من أن یرسل اللّه رجلا من البشر نبیّا، لیحذرکم من مغبه أعمالکم،و ما ینتظرکم من العقوبات فی مستقبلکم؟ ثمّ إنّه استثاره لعواطفهم الغافیه،و إثاره لروح الشکر فی نفوسهم،ذکر قسما من النعم التی أنعم اللّه تعالی بها علیهم،فقال: وَ اذْکُرُوا إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفٰاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ،فقد ورثتم الأرض بکل ما فیها من خیرات عظیمه بعد أن هلک قوم نوح بالطوفان بسبب طغیانهم و بادوا.

و لم تکن هذه هی النعمه الوحیده،بل وهب لکم قوه جسدیه عظیمه وَ زٰادَکُمْ فِی الْخَلْقِ بَصْطَهً .

إنّ جمله زٰادَکُمْ فِی الْخَلْقِ بَصْطَهً یمکن أن تکون-کما ذکرنا-إشاره إلی قوه قوم عاد الجسدیه المتفوقه،لأنّه یستفاد من آیات قرآنیه عدیده،و کذا من التواریخ،أنّهم کانوا ذوی هیاکل عظیمه قویه و کبیره،کما نقرأ ذلک من قولهم فی سوره«فصلت»الآیه ۱۵ مَنْ أَشَدُّ مِنّٰا قُوَّهً و فی الآیه(۷)من سوره الحاقه نقرأ-عند ذکر ما نزل بهم من البلاء بذنوبهم- فَتَرَی الْقَوْمَ فِیهٰا صَرْعیٰ کَأَنَّهُمْ أَعْجٰازُ نَخْلٍ خٰاوِیَهٍ حیث شبه جسومهم بجذوع النخل الساقطه علی الأرض.

و یمکن أن تکون إشاره-أیضا-إلی تعاظم ثروتهم و إمکانیاتهم المالیه، و مدنیتهم الظاهریه المتقدمه،کما یستفاد من آیات قرآنیه و شواهد تاریخیه أخری،و لکن الاحتمال الأوّل أنسب مع ظاهر الآیه.

و فی خاتمه الآیه یذکّر تلک الجماعه الأنانیّه بأن یتذکروا نعم اللّه لتستیقظ

فیهم روح الشکر فیخضعوا لأوامره،علّهم یفلحون فَاذْکُرُوا آلاٰءَ اللّهِ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ .

و لکن فی مقابل جمیع المواعظ و الإرشادات المنطقیه،و التذکیر بنعم اللّه و مواهبه،انبرت تلک الثله من الناس الذین کانوا یرون مکاسبهم المادیه فی خطر،و قبول دعوه النّبی تصدّهم عن التمادی فی أهوائهم و شهواتهم،انبرت إلی المعارضه،و قالوا بصراحه،:إنّک جئت تدعونا إلی عباده اللّه وحده و ترک ما کان أسلافنا یعبدون دهرا طویلا،کلاّ، لا یمکن هذا بحال قٰالُوا أَ جِئْتَنٰا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مٰا کٰانَ یَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا ؟ لقد کان مستوی تفکیر هذه الثّله منحطا جدّا-کما تلاحظ-إلی درجه أنّهم کانوا یستوحشون من عباده اللّه وحده،بینما یعتبرون تعدّد الآلهه و المعبودات مفخره من مفاخرهم.

و الجدیر بالتأمل أنّ دلیلهم فی هذا المجال لم یکن إلاّ التقلید الأعمی لما کان علیه الآباء و الأسلاف،و إلاّ فکیف یمکن أن یبرروا خضوعهم لقطعات من الصخور و الأخشاب؟! و فی النهایه،و لأجل أن یقطعوا أمل هود فیهم تماما،و یقولوا کلمتهم الأخیره قالوا:إذا کان حقا و واقعا ما تنذرنا به من العذاب،فلتبادر به،أی أنّنا لا نخشی تهدیداتک أبدا فَأْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّٰادِقِینَ .

و عند ما بلغ الحوار إلی هذه النقطه،و أطلق أولئک المتعنتون کلمتهم الأخیره الکاشفه عن رفضهم الکامل لدعوه هود،و أیس هود-هو الآخر-من هدایتهم تماما،قال:إذن ما دام الأمر هکذا فسیحلّ علیکم عذاب ربّکم قٰالَ قَدْ وَقَعَ عَلَیْکُمْ مِنْ رَبِّکُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ .

و«الرّجس»فی الأصل بمعنی الشیء غیر الطاهر،و یری بعض المفسّرین أنّ لأصل هذه اللفظه معنی أوسع،فهو یعنی کل شیء یبعث علی النفور و التقزز

و القرف،و لهـذا يطلـق على جميـع أنواع الخبـائث و النجاسـات و العقوبـات لفـظ «الرجس»لأـنّ جميع هـذه الأـمور توجب نفور الإنسان،و ابتعاده.

و على كـل حـال فـإنّ هـذه الكلمه فى الآـيه المبحـوثه يمكن أن تكـون بمعنى العقوبـات الإلـهيه،و يكـون ذكرهـا مـع جمله«قد وقع»التى هى بصـيغه الفعل الماضـى إشاره إلى أنّكم قـد أصـبحتم مسـتوجبين للعقوبه حتما و قطعا،و أن العـذاب سـيحل بكم لا محاله.

كما يمكن أن يكون بمعنى النجاسه و تلوث الروح،يعنى أنّكم قـد غرقتم فى دوّامه الانحراف و الفساد إلى درجه أنّ روحكم قد دفنت تحت أوزار كثيفه من النجاسات،و بذلك استوجبتم غضب اللّه،و شملكم سخطه.

ثمّ لأجل أن لا يبقى منطق عباده الأوثان من دون ردّ أضاف قائلا:

أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ

فهذه براء،و جئتم تجادلوننى فى عبادتها فى حين لم ينزل بذلك أى دليل من جانب اللّه.

و فى الحقيقـه،أنّ هـذه الأصـنام لاـ تملـك مـن الأـلوهيه إلاّـ أسـماء من دون مسـمّيات،و هى أسـماء من نسـج خيـالكم و خيـال أسلافكم،و إلاّ فهى كومه أحجار و أخشاب لا تختلف عن غيرها من أحجار البرارى و أخشاب الغابات.

ثمّ قـال:فإذا كان الأمر هكـذا فلننتظر جميعا،انتظروا أنتم أن تنفعكم أصـنامكم و معبوداتكم و تنصـركم،و أنتظر أنا أن يحلّ بكم غضب اللّه و عـذابه الأـليم جزاء تعنتكم،و سـيكشف المستقبل أى واحـد من هـذين الانتظـارين هو الأقرب إلى الحقيقه و الواقع فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ .

و فى نهـايه الآـيه بيّن القرآن مصـير هؤلاـء القوم المتعنتين فى عبـاره قصـيره موجزه: فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَهٍ مِنّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ أجل،لقد أنجى اللّه هودا و من اتبعه من القوم بلطفه و رحمته،و أمّا

الذين كذبوا بآيات اللّه،و رفضوا الانضواء تحت لواء دعوته،و الانصياع للحق، فقد أبيدوا نهائيا.

و«دابر»فى اللغه بمعنى آخر الشىء و مؤخرته،و بناء على هذا المفهوم يكون معنى الآيه:أنّنا أبدنا هؤلاء القوم إباده كامله و استأصلنا شأفتهم.

(و سوف نبحث بالتفصيل حول قوم عاد و بقيه خصوصيات حياتهم و كيفيه عقوبه اللّه لهم و العذاب الذى نزل و حلّ بهم عند تفسير سوره هود بإذن اللّه).

ص: ۹۷

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۷۳ الی ۷۹]

اشاره

وَ إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً قٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ قَدْ جٰاءَتْکُمْ بَیِّنَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ هٰذِهِ نٰاقَهُ اَللّٰهِ لَکُمْ آیَهً فَذَرُوهٰا تَأْکُلْ فِی أَرْضِ اَللّٰهِ وَ لاٰ تَمَسُّوهٰا بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذٰابٌ أَلِیمٌ (۷۳) وَ اُذْکُرُوا إِذْ جَعَلَکُمْ خُلَفٰاءَ مِنْ بَعْدِ عٰادٍ وَ بَوَّأَکُمْ فِی اَلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهٰا قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ اَلْجِبٰالَ بُیُوتاً فَاذْکُرُوا آلاٰءَ اَللّٰهِ وَ لاٰ تَعْثَوْا فِی اَلْأَرْضِ مُفْسِدِینَ (۷۴) قٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِینَ اِسْتَکْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِینَ اُسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صٰالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قٰالُوا إِنّٰا بِمٰا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۷۵) قٰالَ اَلَّذِینَ اِسْتَکْبَرُوا إِنّٰا بِالَّذِی آمَنْتُمْ بِهِ کٰافِرُونَ (۷۶) فَعَقَرُوا اَلنّٰاقَهَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قٰالُوا یٰا صٰالِحُ اِئْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلْمُرْسَلِینَ (۷۷) فَأَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دٰارِهِمْ جٰاثِمِینَ (۷۸) فَتَوَلّٰی عَنْهُمْ وَ قٰالَ یٰا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ رِسٰالَهَ رَبِّی وَ نَصَحْتُ لَکُمْ وَ لٰکِنْ لاٰ تُحِبُّونَ اَلنّٰاصِحِینَ (۷۹)

ص: ۹۸

التّفسير

اشاره

قصه قوم صالح و ما فیها من عبر

فی هـذه الآیـات جـاءت الإشـاره إلی قیام«صالـح»النّبی الإلهی العظیم فی قومه«ثمود» الـذین کانوا یسـکنون فی منطقه جبلیه بین الحجاز و الشام،و بهذا یواصل القرآن أبحاثه السابقه الغنیه بالعبر حول قوم نوح و هود.

و قـد أشـیر إلی هذا القصه أیضا فی سوره:«هود»و«الشـعراء»و«القمر» و«الشـمس»و جاءت بصوره أکثر تفصـیلا فی سوره«هود»أمّا هذه الآیات فقد أوردت ما دار بین صالح علیه السلام و قومه قوم ثمود،و عن مصیرهم،و عاقبه أمرهم بصوره مختصره.

فیقول تعالی فی البدایه: وَ إِلیٰ ثَمُودَ أَخٰاهُمْ صٰالِحاً .

و قد مر بیان العله فی إطلاق لفظه«الأخ»علی الأنبیاء عند تفسیر الآیه(۶۵) من نفس هذه السوره فی قصه هود.

و لقـد کانت أوّل خطوه خطاها نبیّهم صالـح فی سبیل هدایتهم،هی الدعوه إلی التوحید،و عباده اللّه الواحد قٰالَ یٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ .

ثمّ أضاف:إنّه لا یقول شـیئا من دون حجه أو دلیل،بل قـد جاء إلیهم ببیّنه من ربّهم قَدْ جٰاءَتْکُمْ بَیِّنَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ هٰذِهِ نٰاقَهُ اللّٰهِ لَکُمْ آیَهً .

و«النّاقه»أنثی الإبـل،و قـد أشـیر إلی ناقه صالـح فی سـبعه مواضع من القرآن الکریم (۱) و أمّـا حقیقه هـذه النـاقه،و کیف کانت معجزه صالح الساطعه،و آیته المفحمه لقومه،فذلک ما سنبحثه فی سوره هود،فی ذیل الآیات المرتبطه بقوم ثمود بإذن اللّه.

---

۱ – ۱) قـال الطبرسـی فی المجمع:النـاقه أصـلها من التوطئه و التـذلیل بعیر منوق أی مـذلل موطـأ،و لعـل إطلاقها علی أثنی الإبل لکونها أکثر ذلولا للامتطاء و الرکوب.

على أنّه ينبغى الالتفات إلى أنّ إضافه«الناقه»إلى«اللّه»فى الآيات الحاضره من قبيل الإضافه التشريفيه-كما هو المصطلح-فهى إشاره إلى أنّ هذه الناقه المذكوره لم تكن ناقه عاديه،بل كانت لها ميزات خاصّه.

ثمّ إنّه يقول لهم:اتركوا الناقه تأكل فى أرض اللّه و لا تمنعوها فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ .

و إضافه الأرض إلى«اللّه»إشاره إلى أنّ هذه الناقه لا تزاحم أحدا،فهى تعلف من علف الصحراء فقط،و لهذا يجب أن لا يزاحموها.

ثمّ يقول فى الآيه اللاحقه وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أى من جانب لا تنسوا نعم اللّه الكثيره،و من جانب آخر انتبهوا إلى أنّه قد سبقكم أقوام(مثل قوم عاد)طغوا فحاق بهم عذاب اللّه بذنوبهم و هلكوا.

ثمّ ركز على بعض النعم الإلهيه كالأرض فقال: تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً، وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً ،فالأرض قد خلقت بنحو تكون سهولها المستويه و المزوده بالتربه الصالحه لإقامه القصور الفخمه،كما تكون جبالها صالحه لأن تنحت فيها البيوت القويه المحصنه لفصل الشتاء و الظروف الجويه القاسيه.

و يبدو للنظر من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يغيرون مكان سكناهم فى الصيف و الشتاء،ففى فصل الربيع و الصيف كانوا يعمدون إلى الزراعه و الرعى فى السهول الواسعه و الخصبه،و لهذا كانت عندهم قصور جميله فى السهول،و عند حلول فصل البرد و الانتهاء من الحصاد يسكنون فى بيوت قويه منحوته فى قلب الصخور،و فى أماكن آمنه تحفظهم من خطر السيول و العواصف و الاخطار.

و فى ختام الآيه يقول تعالى: فَاذْكُرُوا آلاءَ اللّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ

(۱)

.

ثمّ إنّنـا نلاحـظ أيضـا أنّ جماعه الأغنياء و المترفين ذوى الظاهر الحسن، و الباطن القبيـح الخبيث،الـذين عبر عنهم بالملإ أخـذوا بزمـام المعارضه لهـذا النّبى الإلهىّ العظيم،و حيث أنّ عـددا كبيرا من أصـحاب القلوب الطيبه و الأفكار السـليمه كانت ترزح فى أسر الأغنياء و المترفين،قد قبلت دعوه النّبى صالح و اتبعته،لهذا بدأ الملأ بمخالفتهم لهؤلاء المؤمنين.

فقال الفريق المسـتكبر من قوم صالـح للمستضـعفين الـذين آمنوا بصالـح:هل تعلمون يقينا أنّ صالحا مرسل من قبل اللّه قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ .

على أنّ الهـدف من هـذا السؤال لم يكن هو تحرى الحق،بـل كـانوا يريـدون بإلقاء هـذه الشـبهات زعزعه الإيمان فى نفوس من آمن،و إضعاف معنوياتهم، و ظنا منهم بأن هذه الجماهير ستطيعهم و تكف عن متابعه صالح و حمايته،كما كانت مطيعه لهم يوم كانت تحت سيطرتهم و نفوذهم.

و لكن سـرعان مـا واجهـوا ردّ تلـك الجمـوع المؤمنه القـاطع،الكـاشف عن إرادتهـا القويه و عزمهـا على مواصـله طريقهـا،حيث قالوا:إنّنا لسنا نعتقد بأنّ صالحا رسول من قبل اللّه فحسب،بل نحن مؤمنون أيضا بما جاء به قالُوا إِنّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ .

و لكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم،بل عادوا مرّه أخرى إلى إضعاف معنويه المؤمنين قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ .و كانت هذه محاوله منهم لجرّ هؤلاء المستضعفين الى صفوفهم مرّه

۱- ۱) «تعثوا»مشتقه من ماده«عثى»معنى إيجاد الفساد،غايه ما هنالك أنّ هذه الماده تستعمل فى الأغلب فى المفاسد الأخلاقيه و المعنـويه،فى حين تطلـق مـاده«عبث»على المفاسـد الحسـيه،و بنـاء على هـذا يكـون كلمه«المفسـدين»بعـد جمله«لاـ تعثـوا»لغرض التأكيد،لأنّ كليهما يعطيان معنى واحدا.

أخرى.

كانوا المقدّمين فی المجتمع و الأسوه للآخرين علی الدوام بما كانوا يتمتّعون به من قوه و ثراء،لهذا كانوا يظنون أنّهم بإظهار الكفر سيكونون أسوه للآخرين أيضا،و أن الناس سوف يتبعونهم كما كانوا يفعلون ذلك من قبل،و لكنّهم سرعان ما وقفوا علی خطأهم،و علموا أنّ الناس قد اكتسبوا بالإيمان باللّه علی شخصيّه حضاريه جديده و استقلال فكری،و قوه إراده.

و الجدير بالانتباه أنّ الأغنياء و الملأ وصفوا فی الآيات الحاضره بالمستكبرين،و وصفت الجماهير الكادحه المؤمنه بالمستضعفين،و هذا يفيد الفريق الأوّل قد وصلوا بشعورهم بالتفوق،و غصب حقوق الناس و استغلالهم إلی مرتبه ما يسمی فی لغه العصر ب«الطبقه المستغلّه»، و الفريق الآخر بالطبقه المستغلّه.

عند ما يئس الملأ و الأغنياء المستكبرون من زعزعه الإيمان فی نفوس الجماهير المؤمنه بصالح عليه السلام،و من جانب آخر رأوا أنّ وساوسهم و شائعاتهم لا تجدی نفعا مع وجود«الناقه»التی كانت تعدّ معجزه صالح عليه السلام،لهذا قرّروا قتل الناقه،مخالفين بذلك أمر ربّهم فَعَقَرُوا النّٰاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ (1) .

و لم يكتفوا بهذا أيضا،بل أتوا إلی صالح نفسه و بصراحه قٰالُوا يٰا صٰالِحُ ائْتِنٰا بِمٰا تَعِدُنٰا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

يعنی أنّنا لا نخاف تهديداتک مطلقا،و أن هذه التهديدات جميعها لا أساس لها...و الحقيقه أنّ هذا الكلام نوع من الحرب النفسيه ضد صالح عليه السلام،بهدف إضعاف روحيته و روحيه المؤمنين به.

و عند ما وصل المعارضون بطغيانهم و تمرّدهم إلی آخر درجه،و أطفأوا فی

١- ١) المراد من العقر هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقه أو الفرس هو سبب حركتها،فإذا قطع سقط الحيوان،و فقد القدره علی الحركه،و التنقل.

نفوسهم آخر بارقه أمل فى الإيمان،حلّت بهم العقوبه الإلهيه طبقا لقانون انتخاب الأصلح،و إهلاك و محو الكائنات الفاسده و المفسده فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِی دارِهِمْ جاثِمِینَ .

إنّها كانت زلزله و رجفه عظيمه تهاوت على أثرها قصورهم و بيوتهم القويه، و اندثرت حياتهم الجميله،حتى أنّه لم يبق منهم إلاّ أجساد ميته...هكذا أصبحوا.

و«جاثم»فى الأصل مشتق من ماده«جثم»بمعنى القعود على الركب، و التوقف فى مكان واحد،و لا يبعد أن يكون هذا التعبير إشاره إلى أنّ الزلزله و الرجفه جاءتهم و هم فى حاله نوع هنيئه،فجلسوا على أثرها فجأه،و بينما كانوا قاعدين على ركبهم لم تمهلهم الرجفه،بل ماتوا و هم على هذه الهيئه،إمّا خوفا، و إمّا بسبب انهيار الجدران عليهم،و إمّا بفعل الصاعقه التى رافقت الزلزال!!

بأىّ شىء أهلك قوم ثمود:

و هنا يطرح سؤال و هو:يستفاد من الآيه الحاضره أنّ الشىء الذى أهلك هؤلاء المتمردون كان هو الزلزال،و لكن يظهر من الآيه(١٣)من سوره فصلت أنّه كان الصاعقه،بينما نقرأ فى الآيه(١٥)من سوره الحاقه فَأَمّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطّاغِيَهِ يعنى أنّ قوم ثمود اهلكوا بشىء مدمّر،فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟ إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص فى جمله واحده،و هى جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد،أو أنّه يلازم بعضها بعضا،فكثيرا ما تحدث الرجه الأرضيه فى منطقه ما بفعل صاعقه عظيمه،أى أنّه تحدث صاعقه أوّلا،ثمّ تحدث على أثرها رجه أرضيه.

و أمّا«الطاغيه»فهى بمعنى كائن تجاوز عن حدّه،و هذا ينسجم مع الزلزله و كذا مع الصاعقه،و لهذا فلا يوجد أى تناقض بين الآيات.

ص: ١٠٣

و فی آخر آیه من الآیات المبحوثه یقول: فَتَوَلّی عَنْهُمْ وَ قٰالَ یٰا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ رِسٰالَهَ رَبِّی وَ نَصَحْتُ لَکُمْ وَ لٰکِنْ لاٰ تُحِبُّونَ النّٰاصِحِینَ أی بعد هذه القضیه تولی صالح و هو یقول:لقد أدیت رسالتی إلیکم،و نصحت لکم و لکنّکم لا تحبّون من ینصحکم.

و هنا یطرح سؤال آخر،و هو:هل کلام صالح هذا کان بعد هلاک المتمردین من قومه،أو أنّ هذا الکلام هو الحوار الأخیر الذی جری بینه و بین قومه قبیل هلاک القوم و موتهم،أی بعد إتمام الحجّه علیهم...و لکن ذکر فی عباره القرآن بعد قضیه هلاکهم و موتهم بالرجفه؟ هناک احتمالان:و الحقیقه أنّ الاحتمال الثّانی أنسب مع ظاهر الخطاب،لأنّ الحدیث مع قوم ثمود یفید أنّهم کانوا أحیاء.و لکن الاحتمال الأوّل هو أیضا غیر بعید،لأنّه کثیرا ما تتم محادثه أرواح الموتی بمثل هذا الکلام لیعتبر الباقون الحاضرون،تماما کما نقرأ نظیر ذلک فی تاریخ الإمام علی علیه السلام فإنّه علیه السلام وقف-بعد معرکه الجمل-عند جسد طلحه و

قال: «ویل أمّک،طلحه!لقد کان لک قدم لو نفعک،و لکن الشیطان أضلک فأزلک،فعجلک إلی النّار». (۱)

کما نقرأ-أیضا-فی أواخر نهج البلاغه أنّ الإمام علیا علیه السلام عند ما عاد من معرکه صفّین وقف عند مدخل الکوفه و التفت إلی مقابر الموتی،فسلّم علی أرواح الماضین أوّلا،ثمّ قال:«أنتم السابقون و نحن اللاحقون».

۱- ۱) شرح نهج البلاغه،لابن أبی الحدید،ج ۱،ص ۲۴۸.

الآيات [سوره الأعراف (۷): الآيات ۸۰ الی ۸۴]

اشاره

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ اَلْفاحِشَهَ ما سَبَقَکُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ اَلْعالَمِینَ (۸۰) إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ اَلرِّجالَ شَهْوَهً مِنْ دُونِ اَلنِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ ما کانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْیَتِکُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ یَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَیْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ اِمْرَأَتَهُ کانَتْ مِنَ اَلْغابِرِینَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنا عَلَیْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ اَلْمُجْرِمِینَ (۸۴)

التّفسیر

اشاره

مصیر قوم لوط المؤلم:

فی هذه الآیات یستعرض القرآن الکریم فصلا آخر غنیا بالعبر من قصص الأنبیاء،و بذلک یواصل هدف الآیات السابقه و یکمله،و القصه هذه المرّه هی قصه النّبی الإلهی العظیم«لوط».

و لقد ذکرت هذه القصه فی عدّه سور من القرآن الکریم،منها سوره«هود» و«الحجر»و«الشعراء»و«الأنبیاء»و«النمل»و«العنکبوت».

و هنا یشیر القرآن الکریم-ضمن آیات خمس-إلی خلاصه سریعه عن

ص: ۱۰۵

الحوار الذی دار بین لوط،و قومه.

و یظهر أنّ الهدف الوحید فی هذه السوره(الأعراف)هو تقدیم عصارات و خلاصات من مواجهات الأنبیاء و حواراتهم مع الجماعات المتمرده من أقوامهم،و لکن الشرح الکامل لقصصهم موکول إلی السور القرآنیه الأخری (و سوف نأتی بقصّه هذه الجماعه بصوره مفصله فی سوره هود و الحجر إن شاء اللّه).

الآیه الأولی تقول فی البدء:اذکروا و إذ قال لوط لقومه:أ ترتکبون فعلا قبیحا لم یفعله أحد قبلکم من الناس؟ وَ لُوطاً إِذْ قٰالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفٰاحِشَةَ مٰا سَبَقَکُمْ بِهٰا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰالَمِینَ ؟! فهذه المعصیه مضافا إلی کونها عملا قبیحا جدّا-لم یفعلها أحد قبلکم من الأقوام-و بذلک یکون قبح هذا العمل الشنیع مضاعفا،لأنّه أصبح أساسا لسنّه سیئه،و سببا لوقوع الآخرین فی المعصیه عاجلا أو آجلا.

و یستفاد من الآیه الحاضره أنّ هذا العمل القبیح ینتهی-من الناحیه التأریخیه-إلی قوم لوط،و کانوا قوما أثریاء مترفین شهوانیین،سنذکر أحوالهم بالتفصیل فی السور التی أشرنا إلیها إن شاء اللّه تعالی.

و فی الآیه اللاحقه یشرح المعصیه التی ذکرت فی الآیه السابقه و یقول:

إِنَّکُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجٰالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسٰاءِ

.

و أی انحراف أسوأ و أقبح من أن یترک الإنسان وسیله تولید النسل و إنجاب الأولاد،و هو مقاربه الرجل للمرأه،و الذی أودعه اللّه فی کیان کل إنسان بصوره غریزیه طبیعیه،و یعمد إلی«الجنس الموافق»،و یفعل بالتالی ما یخالف-أساسا -الفطره،و الترکیب الطبیعی للجسم و الروح الإنسانیین،و الغریزه السویه الصحیحه،و تکون نتیجه عقم الهدف المتوخی من المقاربه الجنسیه.

و بعباره أخری:یکون أثره الوحید،هو الإشباع الکاذب و المنحرف للحاجه

الجنسيه،و القضاء على الهدف الأصلى،و هو استمرار النسل البشرى.

ثمّ يقول تعـالى فى نهـايه الآيه: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أى تجاوزتم حـدود اللّه،و وقعتم فى متاهه الانحراف و التجاوز عن حـدود الفطره.

و يمكن أن تكون هـذه العباره إشاره إلى أنّهم لم يسـلكوا سبيل الإسـراف فى مجال الغريزه الجنسـيه فحسب،بل تورطوا فى مثل هذا الانحراف و الإسراف فى كل شى،و فى كل عمل.

و الجدير بالذكر أنّ الآيه الأولى ذكرت الموضوع بصوره مجمله،و لكن الآيه الثّانيه ذكرته بصوره مبيّنه و واضحه،و هذا هو أحد فنون البلاـغه عنـد بيـان القضايا الهامه،فإذا فعل أحـد عملا شيئا قال له مرشـده و وليه الواعى الحكيم،لبيان أهميه الموضوع:أنت ارتكبت ذنبـا عظيما،فإذا قال له الشـخص، ماذا فعلت؟يقول له مرّه أخرى:أنت ارتكبت ذنبا عظيما،و فى المآل يكشف القناع عن فعله و يشرحه.

إنّ هذا النوع من البيان يهيء فكر الطرف الآخر و نفسه للوقوف تدريجا على شناعه عمله القبيح و خطورته،و هو أبلغ فى التأثير.

و فى الآيه اللاحقه أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت و غير المنطقى لقوم لوط،و قال:إنّهم لم يكن لـديهم أى جواب فى مقابل دعوه هـذا النّبى الناصـح المصـلح،إلاّ أن قالوا:أخرجوا لوطا و أتباعه من مـدينتكم.و لكن ما كان ذنبهم؟إنّ ذنبهم هو أنّهم كـانوا جمـاعه طـاهرين لم يلوثوا أنفسـهم بـأدران المعصيه وَ مٰا كٰانَ جَوٰابَ قَوْمِهِ إِلاّٰ أَنْ قٰالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنٰاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

و هـذا ليس موضـع تعجب و اسـتغراب أن يطرد جمـاعه مـن العصـاه الفسـقه أشـخاصا طـاهرين لاـ لشـىء إلاّـ لأـنّهم أنقيـاء الجيب،يجتنبون المنكرات،و ذلـك لأنّ هؤلاء القوم يعتبرون هؤلاء مزاحمين لشـهواتهم،فكانت نقاط القوه لـدى أولئك الأطهار نقاط ضعف و عيب فى نظرهم.

ص :١٠٧

و يحتمل أيضا فى تفسير جمله إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ أنّ قوم لوط كانوا يريدون بهذه العباره أن يتهموا ذلك النّبى العظيم و أتباعه الأتقياء بالرياء و التظاهر بالتطهر،كما سمعنا و قرأنا فى الأشعار كثيرا حيث يتهم الخمارون الأشخاص الطيبين النزيهين بالرياء و التظاهر،و يعتبرون(خرفتهم الملوثه بالخمر)أفضل من (سجاده الزاهد)و هذا نوع من التزكيه الكاذبه للنفس التى يتذرع بها هؤلاء العصاه الأشقياء.

مع ملاحظه كل ما قيل فى الآيات الثلاثه أعلاه،يستطيع كل قاض منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات و الأقوام الذين يتوسلون-فى مقابل إصلاح المصلحين و نصيحه الناصحين،و دعوه نبى إلهىّ عظيم-بالتهديد و الاتهام،و لا يعرفون إلاّ لغه القوه و القهر،و لهذا قال اللّه تعالى فى الآيه اللاحقه:

فَأَنْجَيْنٰاهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كٰانَتْ مِنَ الْغٰابِرِينَ

(۱)

أى لما بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطا و أتباعه الواقعين و أهله الطيبين،إلاّ زوجته التى كانت على عقيده قومه المنحرفين فتركناها.

قال البعض:إنّ كلمه«أهل»و إن كان المتعارف إطلاقها على العائله،و لكن فى الآيه الحاضره استعملت فى الأتباع الصادقين-أيضا-يعنى أنّهم كانوا معدودين جزءا من أهله و عائلته أيضا،و لكن يستفاد من الآيه(۳۶)من سوره الذاريات أنّه لم يؤمن بلوط و دعوته أحد من قومه قط إلاّ عائلته و أقرباؤه،و على هذا الأساس يكون لفظ الأهل هنا مستعملا فى معناه الأصلى،أى أقرباؤه.

من الآيه(۱۰)من سوره التحريم إجمالا-أنّ زوجه لوط كانت فى البدايه امرأه صالحه،و لكنّها سلكت سبيل الخيانه فيما بعد،و جرأت أعداء لوط عليه.

و فى آخر آيه من الآيات إشاره قصيره جدا-و لكن ذات مغزى و معنى

۱- ۱) يقال«الغابر»لمن ذهب أهله و فنوا و بقى وحده،كما ذهبت عائله لوط معه،و بقيت زوجته وحدها معه،و أصيبت بما أصيب به العصاه.

عميق-إلى العقوبه الشديده و الرهيبه التى حلّت بهؤلاء القوم،إذ قال تعالى:

وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً

أيّ مطر...إنّه كان مطرا عجيبا حيث انهالت عليهم الشهب و النيازك كالمطر و أبادتهم عن آخرهم!! إنّ هذه الآيه و إن لم تبيّن نوع المطر الذى نزل على القوم،و لكن من ذكر لفظه «المطر»بصوره مجمله اتضح أنّ ذلك المطر لم يكن مطرا عاديا،بل كان مطرا من الحجاره،كما سيأتى فى سوره هود الآيه(٨٣).

فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَهُ الْمُجْرِمِينَ

.

إنّ هذا الخطاب و إن كان موجها إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّه من الواضح أنّ الهدف هو اعتبار جميع المؤمنين به.

هذا و سيأتى تفصيل قصّه هذه الجماعه،و كذا مضار اللواط المتعدده، و حكمه فى الشريعه الإسلاميه،عند تفسير آيات سوره«هود»و«الحجر».

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۸۵ الی ۸۷]

اشاره

وَ إِلیٰ مَدْیَنَ أَخٰاهُمْ شُعَیْباً قٰالَ یٰا قَوْمِ اُعْبُدُوا اَللّٰهَ مٰا لَکُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَیْرُهُ قَدْ جٰاءَتْکُمْ بَیِّنَهٌ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَوْفُوا اَلْکَیْلَ وَ اَلْمِیزٰانَ وَ لاٰ تَبْخَسُوا اَلنّٰاسَ أَشْیٰاءَهُمْ وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِی اَلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا ذٰلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (۸۵) وَ لاٰ تَقْعُدُوا بِکُلِّ صِرٰاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً وَ اُذْکُرُوا إِذْ کُنْتُمْ قَلِیلاً فَکَثَّرَکُمْ وَ اُنْظُرُوا کَیْفَ کٰانَ عٰاقِبَهُ اَلْمُفْسِدِینَ (۸۶) وَ إِنْ کٰانَ طٰائِفَهٌ مِنْکُمْ آمَنُوا بِالَّذِی أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طٰائِفَهٌ لَمْ یُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّٰی یَحْکُمَ اَللّٰهُ بَیْنَنٰا وَ هُوَ خَیْرُ اَلْحٰاکِمِینَ (۸۷)

التّفسیر

اشاره

رساله شعیب فی مدین:

فی هذه الآیات یستعرض القرآن الکریم فصلا خامسا من قصص الأقوام الماضین،و مواجهه الأنبیاء العظام معهم،و هذا الفصل یتناول قوم شعیب.

بعث شعيب عليه السلام الذى ينتهى نسبه-حسب كتب التاريخ-إلى إبراهيم عبر خمس طبقات،إلى أهل مدين.و هى مدينه من مدن الشام،كان أهلها أهل تجاره و ترف قد سادت فيهم الوثنيه،و كذا الحيله،و التطفيف فى المكيال و الميزان، و البخس فى المعامله.

و قد جاء تفصيل هذه المواجهه بين هذا النّبى العظيم و بين أهل مدين،فى سور متعدده من القرآن الكريم،و بخاصّه فى سوره«هود»و«الشعراء»،و نحن تبعا للقرآن الكريم سنبحث بتفصيل هذه القصّه فى ذيل آيات سوره هود إن شاء اللّه.أمّا هنا فنذكر شيئا عن هذه القصّه باختصار طبقا للآيات المطروحه هنا.

فى البدايه يقول سبحانه:و لقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا وَ إِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً .

روى جماعه من المفسّرين،مثل العلاّمه الطبرسى فى مجمع البيان،و الفخر الرازى فى تفسيره المعروف،أن«مدين»فى الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل،و حيث أنّ أبناءه و أحفاده سكنوا فى أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض«مدين».

هذا و قد أوضحنا السرّ فى استعمال لفظه«أخاهم»فى الآيه(۶۵)من هذه السوره.

ثمّ إنّه تعالى أضاف:إنّ شعيبا مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسأله التوحيد و قٰالَ يٰا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مٰا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ .

و قال:إنّ هذا الحكم مضافا إلى كونه من وحى العقل،ثابت بواسطه الأدله الواضحه التى جاءتهم من جانب اللّه أيضا: قَدْ جٰاءَتْكُمْ بَيِّنَهٌ مِنْ رَبِّكُمْ .

أمّا أنّ هذه«البيّنه»ما هى؟فإنّه لم يرد كلام حولها فى الآيات الحاضره، و لكن الظاهر أنّها إشاره إلى معجزات شعيب عليه السلام.

ثمّ أنّه علیه السلام بعد الدعوه إلی التوحید أخذ فی محاربه المفاسد الاجتماعیه و الأخلاقیه و الاقتصادیه السائده فیهم،و فی البدء منعهم من ممارسه التطفیف، و الغش فی المعامله،یقول: فَأَوْفُوا الْکَیْلَ وَ الْمِیزٰانَ وَ لاٰ تَبْخَسُوا النّٰاسَ أَشْیٰاءَهُمْ (۱) و واضح أن تسرّب أیّ نوع من أنواع الخیانه و الغش فی المعاملات یزعزع بل و یهدم أسس الطمأنینه و الثقه العامّه التی هی أهم دعامه لاقتصاد الشعوب و تلحق بالمجتمع خسائر غیر قابله للجبران.و لهذا السبب کان أحد الموضوعات الهامّه التی رکز علیها شعیب هو هذا الموضوع بالذات.

ثمّ یشیر إلی عمل آخر من الأعمال الأثیمه،و هو الإفساد فی الأرض بعد أن أصلحت أوضاعها بجهود الأنبیاء،و فی ضوء الإیمان فقال: وَ لاٰ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاٰحِهٰا .

و من المسلّم أنّه لا یستفید أحد من إیجاد الفساد و من الإفساد،سواء کان فسادا أخلاقیا،أو من قبیل فقدان الإیمان،أو عدم وجود الأمن،لهذا أضاف فی آخر الآیه قائلا: ذٰلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ .

و کأنّ إضافه عباره:«إن کنتم مؤمنین»إشاره إلی أنّ هذه التعالیم الاجتماعیه و الأخلاقیه إنما تکون متجذره و مثمره إذا کانت نابعه من الإیمان و مستمده من نوره.أمّا لو کانت قائمه علی أساس سلسله من ملاحظه المصالح المادیه،لم یکن لها بقاء و دوام.

و فی الآیه اللاحقه یشیر إلی رابع نصیحه لشعیب،و هی منعهم عن الجلوس علی الطرقات و تهدید الناس،و صدّهم عن سبیل اللّه،و تضلیل الناس بإلقاء

ص:۱۱۲

۱- ۱) البخس یعنی نقص حقوق الأشخاص،و النّزول عن الحد بصوره توجب الظلم و الحیف.

الشبهات و تزييف طريق الحق المستقيم فى نظرهم،فقال: وَ لاٰ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرٰاطٍ تُوعِدُونَ،وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِهِ،وَ تَبْغُونَهٰا عِوَجاً .

و أمّا أنّه كيف كانوا يهدّدون الراغبين فى الإيمان،فقد ذكر المفسّرون فى هذا المجال احتمالات متعدده،فالبعض احتمل أنّه كان ذلك عن طريق التهديد بالقتل،و بعض آخر احتمل أنّه كان عن طريق قطع الطريق و نهب أموال المؤمنين، و لكن المناسب مع بقيه العبارات الأخرى فى الآيه هو المعنى الأوّل.

و فى ختام الآيه جاءت النصيحه الخامسه لشعيب،التى ذكّر فيها قومه بالنعم الإلهيه لتفعيل حسّ الشكر فيهم،فيقول:تذكّروا عند ما كنتم أفرادا قلائل فزادكم اللّه فى الأفراد و ضاعف من قوتكم: وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ .

ثمّ يلفت نظرهم إلى عاقبه المفسدين و نهايه أمرهم و مصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم فى السلوك فيصابوا بما أصيبوا به،فيقول: وَ انْظُرُوا كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

و يستفاد من الجمله الأخيره أنّه على العكس من الدعايات غير المدروسه لتحديد النسل فى هذه الأيّام فإنّ كثره أفراد المجتمع،يمكن أن تكون منشأ القوّه و عظمه و تقدم المجتمع فى أكثر الموارد،طبعا شريطه أن تضمن معيشتهم وفقا لبرامج منظمه،من الناحيه الماديه و المعنويه.

إنّ آخر آيه من الآيات المبحوثه هنا بمثابه إجابه على بعض استفهامات المؤمنين و الكفار من قومه،لأنّ المؤمنين-على أثر الضغوط التى كانت تتوجه إليهم من جانب الكفار-كان من الطبيعى أن يطرحوا هذا السؤال على نبيّهم:إلى متى نبقى فى العذاب و نتحمل الأذى؟ و كان معارضوهم-أيضا-و الذين تجرأوا لأنّهم لم تصبهم العقوبه الإلهيه فورا يقولون:إذا كنت من جانب اللّه حقّا فلما ذا لا يصيبنا شيء رغم كل ما نقوم به

من إیذاء و معارضه؟فیقول لهم شعیب:إن کانت طائفه منکم آمنت بما بعثت به، و أعرض أخری فلا ینبغی أن یکون ذلک سببا لغرور الکفار،و یأس المؤمنین، اصبروا حتی یحکم اللّه بیننا و بینهم.فالمستقبل سوف یکشف عمن یکون علی حق،و من یکون علی باطل وَ إِنْ کانَ طائِفَةٌ مِنْکُمْ آمَنُوا بِالَّذِی أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ یُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتّی یَحْکُمَ اللّهُ بَیْنَنا وَ هُوَ خَیْرُ الْحاکِمِینَ

ص :۱۱۴

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۸۸ الی ۸۹]

اشاره

قٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِینَ اِسْتَکْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّکَ یٰا شُعَیْبُ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مَعَکَ مِنْ قَرْیَتِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنٰا قٰالَ أَ وَ لَوْ کُنّٰا کٰارِهِینَ (۸۸) قَدِ اِفْتَرَیْنٰا عَلَی اَللّٰهِ کَذِباً إِنْ عُدْنٰا فِی مِلَّتِکُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّٰانَا اَللّٰهُ مِنْهٰا وَ مٰا یَکُونُ لَنٰا أَنْ نَعُودَ فِیهٰا إِلاّٰ أَنْ یَشٰاءَ اَللّٰهُ رَبُّنٰا وَسِعَ رَبُّنٰا کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً عَلَی اَللّٰهِ تَوَکَّلْنٰا رَبَّنَا اِفْتَحْ بَیْنَنٰا وَ بَیْنَ قَوْمِنٰا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَیْرُ اَلْفٰاتِحِینَ (۸۹)

التّفسیر

هـذه الآیـات تسـتعرض ردّ فعـل قوم شـعیب مقابـل کلمـات هـذا النّبی العظیم المنطقیه،و حیث أنّ الملا و الأثریاء المتکبرین فی عصره کانوا أقویاء فی الظاهر، کان رد فعلهم أقوی من رد فعل الآخرین.

إنّهم کـانوا-مثـل کل المتکبرین المغرورین یهـددون شـعیبا معتمـدین علی قوتهم و قـدرتهم،کما یقول القرآن الکریم: قٰالَ الْمَلَأُ الَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّکَ یٰا شُعَیْبُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَکَ مِنْ قَرْیَتِنٰا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِی مِلَّتِنٰا .

قد یتصور البعض من ظاهر هذا التعبیر«لتعودن إلی ملتنا»أنّ شعیبا کان قبل

ذلک فی صفوف الوثنیین،و الحال لیس کذلک،بل حیث أنّ شعیبا لم یکن مکلّفا بالتبلیغ،لذلک کان یسکت علی أعمالهم،و کانوا یظنون أنّه کان علی دین الوثنیه فی حین أنّ أحدا من النّبیین لم یکن وثنیا حتی قبل زمان النّبوه،و إنّ عقول الأنبیاء و درایتهم کانت أسمی من أن یرتکبوا مثل هذا العمل غیر المعقول و السخیف،هذا مضافا إلی أنّ هذا الخطاب لم یکن موجها إلی شعیب وحده،بل یشمل المؤمنین من أتباعه-أیضا-و یمکن أن یکون هذا الخطاب لهم.

علی أن تهدید المعارضین لم یقتصر علی هذا،بل کانت هناک تهدیدات أخری سنبحثها فی سائر الآیات المرتبطه بشعیب.

و قد أجابهم شعیب فی مقابل کل تهدیداتهم و خشونتهم تلک بکلمات فی غایه البساطه و الرفق و الموضوعیه،إذ قال لهم:و هل فی إمکانکم أن تعیدوننا إلی دینکم إذا لم نکن راغبین فی ذلک: قٰالَ أَ وَ لَوْ کُنّٰا کٰارِهِینَ (۱) ؟ و فی الحقیقه یرید شعیب أن یقول لهم:هل من العدل أن تفرضوا عقیدتکم علینا،و تکرهوننا علی أن نعتنق دینا ظهر لنا بطلانه و فساده؟هذا مضافا إلی أنّه ما جدوی عقیده مفروضه،و دین جبریّ؟! و فی الآیه اللاحقه یواصل شعیب قوله: قَدِ افْتَرَیْنٰا عَلَی اللّٰهِ کَذِباً إِنْ عُدْنٰا فِی مِلَّتِکُمْ بَعْدَ إِذْ نَجّٰانَا اللّٰهُ مِنْهٰا .

إن هذه الجمله فی الحقیقه توضیح للجمله السابقه المجمله،و مفهوم هذه الجمله هو:نحن لم نترک الوثنیه بدافع الهوی و الهوس،بل أدرکنا بطلان هذه العقیده بجلاء،و سمعنا الأمر الإلهی فی التوحید بأذن القلب،فإذا عدنا من عقیده التوحید إلی الشرک-و الحال هذه-نکون حینئذ قد افترینا علی اللّه عن وعی و شعور،و من المسلّم أنّ اللّه سیعاقبنا علی ذلک بشده.

۱- ۱) إنّ فی هذه الجمله حذفا و تقدیرا،فالکلام فی الأصل علی هذه الصوره:«أ تردوننا فی ملتکم و لو کنّا کارهین».

ثمّ يضيف شعيب قائلا: وَ مٰا يَكُونُ لَنٰا أَنْ نَعُودَ فِيهٰا إِلاّٰ أَنْ يَشٰاءَ اللّٰهُ .

و مراد شعيب من هذا الكلام هو أنّنا تابعون لأمر اللّه،و لا نعصيه قيد شعره، فعودتنا غير ممكنه إلاّ إذا أمر اللّه بذلك.

ثمّ من دون إبطاء يضيف:إنّ اللّه يأمر بمثل هذا،لأنّ اللّه يعلم بكل شيء و يحط علما بجميع الأمور وَسِعَ رَبُّنٰا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً و على هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه،لأنّه لا يعود و لا يرجع عن أمر أعطاه إلاّ من كان علمه محدودا،و اشتبه ثمّ ندم على أمره،أمّا الذى يعلم بكل شيء و يحيط بجميع الأمور علما فيستحيل أن يعيد النظر.

ثمّ لأجل أن يفهمهم بأنّه لا يخاف تهديداتهم،و أنّه ثابت فى موقفه،قال:

عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنٰا

.

و أخيرا لأجل أن يثبت حسن نيّته،و يظهر رغبته فى طلب الحقيقه و السلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب و الفوضويه و الإخلال بالأمن يقول: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنٰا وَ بَيْنَ قَوْمِنٰا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفٰاتِحِينَ .

أي:يا ربّ أنت أحكم بيننا و بين هؤلاء بالحق،و ارفع المشاكل التى بيننا و بين هؤلاء،و افتح علينا أبواب رحمتك،فأنت خير الفاتحين.

و قد روى عن ابن عباس أنّه قال:ما كنت أعرف ماذا يعنى الفتح فى الآيه حتى سمعت امرأه تقول لزوجها:أفاتحك عند القاضى،يعنى أطلبك عند القاضى للفصل بيننا،فعرفت معنى الفتح فى مثل هذه الموارد،و أنّه بمعنى القضاء و الحكم (لأن القاضى يفتح العقده فى مشكله الطرفين) (1)

ص: 117

1- 1) تفسير منهج الصادقين.

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

اشاره

وَ قٰالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اِتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخٰاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دٰارِهِمْ جٰاثِمِينَ (٩١)
اَلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا اَلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كٰانُوا هُمُ اَلْخٰاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلّٰى عَنْهُمْ وَ قٰالَ يٰا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسٰالاٰتِ
رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسىٰ عَلىٰ قَوْمٍ كٰافِرِينَ (٩٣)

التّفسير

تتحدث الآيه الأولى عند الدعايات التى كان يبثّها معارضو شعيب ضدّ من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: وَ قٰالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخٰاسِرُونَ .

و المقصود من الخساره-هنا-الخسارات الماديه التى تصيب المؤمنين بدعوه شعيب،إذ من المسلّم عدم عودتهم إلى عقيده الوثنيه،و على هذا الأساس كان يجب يخرجوا من بلدهم و ديارهم بالقهر،و يتركوا بيوتهم و أملاكهم.

و هناك احتمال آخر فى تفسير الآيه،و هو أنّ مرادهم هو الأضرار المعنويه

ص: ۱۱۸

بالإضافه إلى الأضرار الماديه،لأنّهم كانوا يتصورون أنّ طريق النجاه يتمثل فى الوثنيه لا فى دين شعيب.

و عند ما وصل أمرهم إلى الإصرار على ضلالتهم،و على إضلال غيرهم أيضا، و لم يبق أى أمل فى إيمانهم و هدايتهم،حلّت بهم العقوبه الإلهيه بحكم قانون حسم ماده الفساد،فأصابهم زلزال رهيب شديد بحيث تهاوى الجميع أجسادا ميّته،فى داخل بيوتهم و منازلهم فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ فَأَصْبَحُوا فِى دارِهِمْ جاثِمِينَ .

و قد مرّ فى ذيل الآيه(٧٨)من هذه السوره-تفسير لفظه«جاثمين»و قلنا هناك أنّه قد استعملت عبارات و ألفاظ مختلفه للتعبير عن عامل هلاك هذه الجماعه لا منافاه بينها.

فمثلا:جاء فى شأن قوم شعيب-فى الآيه الحاضره-أنّ عامل هلاكهم كان هو:«الزلزال»و فى الآيه(٩۴)من سوره هود أنّه«صيحه سماويه»و فى الآيه (١٨٩)من سوره الشعراء:أنّه«ظله من السحاب القاتل»و تعود كلها إلى موضوع واحد،و هو أنّ العذاب المهلك كان صاعقه سماويه مخيفه،اندلعت من قلب السحب الكثيفه المظلمه،و استهدفت مدينتهم،و على أثرها حدث زلزال شديد (هو خاصيه الصواعق العظيمه)و دمّر كل شيء.

فى الآيه اللاحقه شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب بالعباره التاليه: اَلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا (١) .أى أنّ الذين كذبوا شعيبا أبيدوا إباده عجيبه،و كأنّهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

و فى ختام الآيه يقول: اَلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ .

و كأنّ هاتين الجملتين جوابا لأقوال معارضى شعيب،لأنّهم كانوا قد هدّدوا بأن يخرجوه هو و أتباعه فى حاله عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين

ص :١١٩

١- ١) «يغنوا»مشتقه من ماده«غنى»بمعنى«الإقامه فى المكان»يقول الطبرسى فى مجمع البيان:لا يبعد أن يكون المفهوم الأصلى للغنى هو عدم الحاجه،لأنّ من كان عنده منزل حاضر،فهو مستغن عن منزل آخر.

السابق،فقال القرآن:إنّهم أبيدوا كامله،و كأنّهم لم يسكنوا فى تلك المنازل،فضلا عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

و فى مقابل قولهم:إنّ أتباع شعيب يستلزم الخسران،قال القرآن الكريم:إنّ نتيجه الأمر أثبتت أنّ مخالفه شعيب هى العامل الأصلى فى الخسران.

و فى آخر آيه-من الآيات المبحوثه-نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال:لقد بلّغت رسالات ربّى،و نصحتكم بالمقدار الكافى، و لم آل جهدا فى إرشادكم: فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّى وَ نَصَحْتُ لَكُمْ .

ثمّ قال فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ أى لست متأسّفا على مصير الكافرين،لأننى قد بذلت كل ما فى وسعى لهدايتهم و إرشادهم،و لكنّهم لم يخضعوا للحق و لم يسلّموا،فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

أمّا أنّه هل قال شعيب هذا الكلام بعد هلاكهم،أم قبل ذلك؟هناك احتمالان، فيمكن أن يكون قبل هلاكهم،و لكن عند شرح القصه جاء ذكره بعد ذلك.

و لكن مع الالتفات إلى آخر عباره،و التى يقول فيها:إنّ مصير هؤلاء الكافرين المؤلم لا يدعو إلى الأسف أبدا،يترجح للنظر أنّ هذه الجمله قيلت بعد نزول العذاب،و أنّ هذه التعابير-كما أشرنا فى ذيل الآيه(۷۹)من هذه السوره قيلت و تقال للأموات كثيرا(و قد أشرنا إلى شواهد ذلك).

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ٩۴ الی ٩۵]

اشاره

وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِی قَرْیَهٍ مِنْ نَبِیٍّ إِلاّٰ أَخَذْنٰا أَهْلَهٰا بِالْبَأْسٰاءِ وَ اَلضَّرّٰاءِ لَعَلَّهُمْ یَضَّرَّعُونَ (٩۴) ثُمَّ بَدَّلْنٰا مَکٰانَ اَلسَّیِّئَهِ اَلْحَسَنَهَ حَتّٰی عَفَوْا وَ قٰالُوا قَدْ مَسَّ آبٰاءَنَا اَلضَّرّٰاءُ وَ اَلسَّرّٰاءُ فَأَخَذْنٰاهُمْ بَغْتَهً وَ هُمْ لاٰ یَشْعُرُونَ (٩۵)

التّفسیر

اشاره

إذ لم تنفع المواعظ:

إنّ هذه الآیات-التی ذکرت بعد استعراض قصص مجموعه من الأنبیاء العظام،مثل نوح و هود و صالح و لوط و شعیب،و قبل أن یعمد القرآن الکریم إلی استعراض قصّه موسی بن عمران-إشاره إلی عدّه أصول و قواعد عامّه تحکم فی جمیع القصص و الحوادث،و هی قواعد و أصول إذا فکّرنا فیها کشفت القناع عن حقائق قیمه ترتبط بحیاتنا-جمیعا-ارتباطا وثیقا.

فی البدایه یقول: وَ مٰا أَرْسَلْنٰا فِی قَرْیَهٍ مِنْ نَبِیٍّ إِلاّٰ أَخَذْنٰا أَهْلَهٰا بِالْبَأْسٰاءِ وَ الضَّرّٰاءِ لَعَلَّهُمْ یَضَّرَّعُونَ فالصعاب و المشاق و البلایا التی تصیب الأفراد إنّما یفعلها اللّه بهم عسی أن ینتبهوا،و یترکوا طغیانهم،و یرجعوا إلی اللّه و یتوبوا إلیه

و ذلك لأنّ الناس ما داموا فی الرخاء و الرفاه فهم فی غفله و لما یکون لدیهم استعداد و قابلیه لقبول الحق.أمّا عند ما یتورّطون فی المحنه و البلاء،یشرق نور فطرتهم و توحیدهم و یتذکرون اللّه قهرا بلا اختیار،و تستعد قلوبهم لقبول الحق.

و لکن هذه الیقظه و النهضه لیست عند الجمیع علی حدّ سواء،فهی فی کثیر من الناس سریعه و عابره و غیر ثابته،و بمجرّد أن تزول المشکلات یعودون إلی غفلتهم و غفوتهم،و لکن هذه المشکلات تعتبر بالنسبه إلی جماعه آخرین نقطه تحول فی الحیاه،و یعودون إلی الحق إلی الأبد.

و الأقوام الذین جری الحدیث-فی الآیات السابقه-حولهم کانوا من النمط الأوّل.

و لهذا قال تعالی فی الآیه اللاحقه:عند ما لم تغیّر تلک الجماعات سلوکها و مسیرها تحت ضغط المشکلات و الحوادث،بل بقوا فی الضلال،رفعنا عنهم المشکلات و جعلنا مکانها النعم و الرخاء فازدهرت حیاتهم و کثر عددهم و زادت أموالهم ثُمَّ بَدَّلْنا مَکانَ السَّیِّئَهِ الْحَسَنَهَ حَتّی عَفَوْا .

و«عفوا»من ماده«عفو»التی تکون أحیانا بمعنی الکثره،و أحیانا بمعنی الترک و الإعراض،و تاره تکون بمعنی محو آثار الشیء.و لکن لا یبعد أن یکون أصل جمیع تلک الأمور هو الترک،غایه ما هنالک قد یترک شیء لحاله حتی یتجذر،و یتوالد و یتناسل و یزداد، و ربّما یترک حتی یهلک و ینهدم تدریجا و شیئا فشیئا.و لهذا جاء بمعنی الزیاده و الهلاک معا.

و قد احتمل المفسّرون فی الآیه المبحوثه ثلاثه احتمالات أیضا:

الأوّل:أنّنا أعطیناهم إمکانیات حتی یزدادوا فیستعیدوا کل ما فقدوه-فی فتره الشدّه و الضراء-من الأفراد و الأموال.

الآخر:أنّنا أعطیناهم نعما کثیره جدا بحیث غرتهم،فنسوا اللّه،و ترکوا شکره.

الثّالث:أنّنا أعطیناهم نعما کی یستطیعوا بها أن یزیلوا آثار فتره النکبه

و يمحوها.

إنّ هذه التفاسير و إن كانت متفاوته من حيث المفهوم،و لكنّها من حيث النتيجه متقاربه فيما بينها.

ثمّ أضاف:أنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقه و هى«النعمه»و«النقمه»بيد اللّه،و أنّهم راجعون إلى اللّه،يتذرعون-لخداع أنفسهم-بهذا المنطق،و هو إذا تعرضنا للمصائب و البلايا،فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء و السراء،و كانت لهم حالات رخاء و حالات بلاء،فالحياه لها صعود و نزول،و الصعاب أمواج غير ثابته و سريعه الزوال وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرّاءُ وَ السَّرّاءُ .فهى إذن قضيه طبيعيه،و مسأله اعتياديه.

فيقول القرآن الكريم فى الختام:إنّ الأمر عند ما بلغ إلى هذا الحد،و لم يستفيدوا من عوامل التربيه-أبدا-بل ازدادوا غرورا و عنجهيّه و تكبرا أهلكناهم فجأه و من غير سابق إنذار،لأنّ ذلك أشد إيلاما و نكالا لهم،و عبره لغيرهم:

فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

.

ص :۱۲۳

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٩٦ الى ١٠٠]

اشاره

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ اَلْقُرىٰ آمَنُوا وَ اِتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَيْهِمْ بَرَكٰاتٍ مِنَ اَلسَّمٰاءِ وَ اَلْأَرْضِ وَ لٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ اَلْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا بَيٰاتاً وَ هُمْ نٰائِمُونَ (٩٧) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ اَلْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اَللّٰهِ فَلاٰ يَأْمَنُ مَكْرَ اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْقَوْمُ اَلْخٰاسِرُونَ (٩٩) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ اَلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهٰا أَنْ لَوْ نَشٰاءُ أَصَبْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ (١٠٠)

التّفسير

اشاره

التّقدم و العمران فى ظل الإيمان و التقوى:

فى الآيات الماضيه وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود و صالح و شعيب و نوح و لوط على نحو الإجمال،و إن كانت تلك الآيات كافيه لبيان

ص: ١٢۴

النتائج المشحونه بالعبر فی هذه القصص،و لکن الآیات الحاضره تبیّن النتائج بصوره أکثر وضوحا فتقول: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُریٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنٰا عَلَیْهِمْ بَرَکٰاتٍ مِنَ السَّمٰاءِ وَ الْأَرْضِ ،أی لو أنّهم سلکوا سبیل الإیمان و التقوی،بدل الطغیان و التمرد و تکذیب آیات اللّه و الظلم و الفساد،لم یتخلصوا من غضب اللّه و عقوبته فسحب،بل لفتحت علیهم أبواب السماء و الأرض.

و لکن للأسف-ترکوا الصراط المستقیم الذی هو طریق السعاده و الرفاه و الأمن،و کذبوا الأنبیاء،و تجاهلوا برامجهم الإصلاحیه،فعاقبناهم بسبب أعمالهم وَ لٰکِنْ کَذَّبُوا فَأَخَذْنٰاهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَکْسِبُونَ .

بحوث

اشاره

و هنا مواضیع ینبغی الوقوف عندها:

۱-برکات الأرض و السماء

لقد وقع حدیث بین المفسّرین فی ما هو المراد من«برکات»الأرض و السماء؟فقال البعض:إنّها المطر،و النباتات التی تنبت من الأرض.

و فسّرها البعض بإجابه الدعاء،و حل مشاکل الحیاه.

و لکن هناک احتمال آخر-أیضا-هو أنّ المراد من البرکات السماویه هی البرکات المعنویه،و المراد من البرکات الأرضیه هی البرکات المادیه.

و لکن مع ملاحظه الآیات السابقه یکون التّفسیر الأوّل أنسب من الجمیع،لأنّه فی الآیات السابقه التی شرحت العقوبات الشدیده التی حلّت بالمجرمین و الطغاه،فأشارت تاره إلی نزول السیول من السماء و طغیان الینابیع و العیون من الأرض(مثل طوفان نوح)و أخری إلی الصواعق و الصیحات السماویه،و ثالثه إلی الزلازل الأرضیه الرهیبه.

و فی الآیه المطروحه هنا طرحت هـذه الحقیقه علی بسط البحث،و هی:أنّ العقوبات ما هی إلاّ لأفعالهم هم،و إلاّ فلو کان الإنسان طاهرا مؤمنا،فإنّه بـدل أن یحل العذاب السـماوی أو الأرضـی بساحته،تتواتر علیه البرکات الإلهیه من السـماء و الأرض...أجل،إنّ الإنسان هو الذی یبدل البرکات بالبلایا.

۲-معنی«البرکات»

«البرکـات»جمع«برکه»و هـذه الکلمه-کما أسـلفنا-تعنی فی الأصل «الثبات»و الاسـتقرار،و یطلق علی کل نعمه و موهبه تبقی و لا تزول،فی مقابل الموجودات العاریه عن البرکه،و السریعه الفناء و الزوال،و الخالیه عن الأثر.

و الملفت للنظر أنّ فائده التقوی و الإیمان لا تقتصـر علی نزول البرکات الإلهیه،بل هما سـبب فی أن یصـرف الإنسان ما لدیه فی المصارف اللازمه الصحیحه.

ففی المثل نلاحظ الیوم أنّ قسما کبیرا من الطاقات الإنسانیه،و المصادر الاقتصادیه تصرف فی سبیل سباق التسلح و صنع الأسلحه المدمّره.و بذلک تنعدم البرکه فیها،و لا تثمر سوی الدمار و الخراب،و لکن المجتمعات البشریه إذا تحلّت بالتقوی و الإیمان،فإنّ هذه المواهب الإلهیه سیکون لها وضع آخر،و من الطبیعی أن تبقی آثارها و تخلد،و تکون مصداقا لکلمه البرکات.

۳-ماذا یعنی«الأخذ»؟

فی الآیه أعلاه اسـتعملت کلمه«أخـذ»فی مفهوم المجازاه و العقوبه،و هذا فی الحقیقه لأجل أنّ الشـخص الذی یراد عقوبته یؤخذ أوّلا فی العاده،ثمّ یوثق بوسائل خاصّه حتی لا تبقی له قدره علی الفرار،ثمّ یعاقب.

۴-المفهوم الواسع للآیه

إنّ الآیه الحاضره و إن کانت ناظره إلی وضع الأقوام الغابره،و لکنّه من المسلّم أن مفهومها مفهوم واسع و عام و دائم،و لا تنحصر فی شعب معین أو قوم خاص،فإنّها سنه إلهیه أن یبتلی غیر المؤمنین،و المتورطین فی المعاصی و الذنوب بأنواع مختلفه و متنوعه من البلایا فی هذه الدنیا،فربّما ینزل علیهم البلاء السماوی و الأرضی،و ربّما تشتعل نیران الحروب العالمیه أو المحلیه فتبتلغ أموالهم و تبیدها و ربّما یفارقهم الأمن و الاستقرار،فتسحق المخاوف و الهواجس بأظلافها أبدانهم و نفوسهم،و حسب تعبیر القرآن یکون کل ذلک بما کسبت أیدیهم ورد فعل لأعمالهم.

إن فیض اللّه لیس محدودا و لا ممنوعا،کما أنّ عقوباته لا تختص بقوم أو شعب.

لماذا تعیش الأمم الکافره فی الرخاء؟

اشاره

من کل ما قلناه یتّضح الجواب علی سؤال یدور کثیرا بین جماعه من الناس، و هو:إذا کان الإیمان و التقوی یبعثان علی نزول أنواع البرکات الإلهیه،و یکون العکس موجبا لسلب البرکات،فلما ذا نشاهد الشعوب غیر المؤمنه ترفل فی الرخاء و الرفاه،فی حین یعیش جماعه من أهل الإیمان بعسر و مشقّه؟ إنّ الإجابه علی هذا السؤال تتّضح بملاحظه نقطتین:

۱-إنّ تصوّر أنّ الشعوب غیر المؤمنه الفاقده للتقوی ترفل فی النعمه و الرخاء و تغرق فی السعاده هو تصور خاطئ ینبع من اشتباه أکبر،و هو اعتبار الثروه دلیلا علی السعاده.

إنّ الناس یتصورون-عاده-أنّ کل شعب امتلک صناعه أکثر تقدما،و ثروه أکبر،کان أسعد من غیره،فی حین لو تسنی لنا أن ننفذ إلی أعماق هذه

المجتمعات و نلاحظ الآلام الممضه التى تحطم روح هذه الشعوب و جسمها عن كثب،فسوف نسلّم أن أكثر تلك الشعوب هى من أشقى سكان الأرض.

هـذا بغض النظر عن أنّ هـذا التقدم النسبىّ إنّما هو نتيجه استخدامهم لأصول و مبادئ مثل السعى و الاجتهاد،و النظم و الشعور بالمسؤوليه التى هى جزء من تعاليم الأنبياء،و من صلب توجيهاتهم.

فى هـذه الأيّام-التى نكتب فيها هذا القسم من التّفسير-نشرت الجرائد و الصحف أنّه حدث فى نيويورك-التى هى واحده من أكبر نقاط العالم المادى ثروه و أكثرها تقدما-حادث جدّ عجيب على أثر انقطاع فجائى للتيار الكهربائى،و ذلك الحادث هو أنّ كثيرا من الناس هاجموا المحلات و المخازن و سرقوا كل ما فيها بحيث أن ثلاثه آلاف من المغيرين على المحلات اعتقلوا بواسطه البوليس.

إنّ من المسلّم أن عدد المغيرين-فى الواقع-أكثر بأضعاف من هـذا العدد، و هذا العدد هم الذين لم يمكنهم الفرار و الهرب و النجاه من قبضه البوليس،كما أنّه من المسلّم أن المغيرين لم يكونوا سراقا محترفين هيّئوا أنفسهم من قبل لمثل هـذه الإغاره العموميه،لأنّ الحادثه المذكوره كانت حادثه فجائيه.

من هـذا نستنتج أنّه مع حاله انقطاع عابر للتيار الكهربائى يتحول عشرات الآلاف من سكان مدينه ثريه و متقدمه-كما يشاءون تسميتها-إلى لصوص و سراق، إن هذا لا يدل على الانحطاط الخلقى لدى شعب من الشعوب فحسب، بل يدل على فقدان الأمن الاجتماعى الشديد أيضا.

و الخبر الآخر الذى نقلته الصحف،و يكمل-فى الحقيقه-هذا الخبر،و هو أن أحد الشخصيات المعروفه كان يقيم فى تلك الأيّام فى نيويورك،فى أحد الفنادق الشهيره ذات العشرات من الطوابق،قال:إنّ انقطاع التيار الكهربائى تسبب فى أن يمسى التجول فى معابر وصالات ذلك الفندق عملا بالغ الخطوره،بحيث أنّ

مسئولی الفندق ما کانوا یسمحون لأحد بأن یغادر مکانه إلی غرفته منعا من أن یتعرض للمغیرین داخل صالات الفندق،و لهذا نظموا المسافرین و النزلاء فی جماعات مکونه من عشره أو أکثر،و تولی موظفون مسلحون إیصالهم إلی غرفهم تحت حراسه مشدده.

ثمّ یضیف ذلک الشخص المذکور:أنّه ما لم یعان من الجوع الشدید لم یجرأ علی الخروج من غرفته.

و لکن انقطاع التیار الکهربائی هذا یقع فی البلاد المتأخره الشرقیه کثیرا، و لکن لا تحدث مثل هذه المشاکل،و هذا یفید أن سکان البلدان المتقدمه رغم کونهم یمتلکون ثروه عظیمه،و صنائع عظیمه،لا یملکون أدنی قدر من الأمن فی بیئتهم.

هذا مضافا إلی أنّ شهود عیان یقولون:إنّ القتل و الاغتیال فی تلک البیئات کشرب الماء من حیث السهوله و الیسر.

و نحن نعلم أنّنا أعطینا الدنیا کلها لأحد و کان یعیش فی مثل هذه الظروف، کان من أشقی أهل الأرض...علی أنّ مشکله الأمن هی واحده من مشکلاتهم، و إلاّ فهناک مفاسد اجتماعیه أخری کل واحد منها بدوره حاله مؤلمه جدا...و مع الالتفات إلی هذه الحقائق فلا معنی لتوهّم أنّ الثروه سعاده.

۲-أمّا ما یقال عن سبب تخلّف المجتمعات المتحلیه بالإیمان و التقوی، فإذا کان المقصود من الإیمان و التقوی هو مجرّد ادعاء الإسلام و ادعاء أتباع مبادئ الأنبیاء و تعالیمهم،فالاعتراض وجیه.و لکننا لا نعتبر حقیقه الإیمان و التقوی إلاّ نفوذهما فی جمیع أعمال الإنسان،و جمیع شؤون الحیاه،و هذا أمر لا یتحقق بمجرّد الادعاء و الزعم.

إنّ من المؤسف جدّا أن نجد التعالیم الإسلامیه و مبادئ الأنبیاء متروکه أو شبه متروکه فی کثیر من المجتمعات الإسلامیه،فملامح هذه المجتمعات لیست

ملامح مجتمعات المسلمين الصادقين الحقيقيين.

لقد دعا الإسلام إلى الطهاره و الاستقامه و الأمانه و الاجتهاد و الجد،فأين تلك الأمانه و الاجتهاد؟ إنّ الإسلام يدعو إلى العلم و المعرفه و اليقظه و الوعى،فأين ذلك العلم و الوعى و اليقظه؟! و إن الإسلام يدعو إلى الاتحاد و التضامن و وحده الصفوف و التفانى،فهل سادت هذه الأصول و المبادئ فى المجتمعات الإسلاميه الحاضره بصوره كامله،و مع ذلك بقيت متخلّفه؟! لهذا يجب أن نعترف بأنّ الإسلام شيء،و المسلمون اليوم شيء آخر.

فى الآيات اللاحقه و المزيد من التأكيد على عموميه هذا الحكم،و أن القانون أعلاه ليس خاصا بالأقوام الغابره بل يشمل الحاضر و المستقبل أيضا-يقول:هل أنّ المجرمين الذين يعيشون فى نقاط مختلفه من الأرض يرون أنفسهم فى أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهيه،فتنزل بهم صاعقه أو يصبهم زلزال فى الليل و هم نائمون أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا بَيٰاتاً وَ هُمْ نٰائِمُونَ .

و هل هم فى أمان من ذلك العذاب فى النهار و هم غارقون فى أنواع اللهو و اللعب أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنٰا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ .

يعنى أنّهم فى قبضه القدره الإلهيه فى جميع الأحوال و الأوقات،ليلا و نهارا، فى اليقظه و النوم،فى ساعات الفرح و الترح،و بإشاره واحده و أمر واحد يقضى عليهم جميعا،و يطوى صفحه حياتهم نهائيا،دون الحاجه الى مقدمات و أسباب قبليه،أو لمرور الزمان لهذا العمل.

أجل فى لحظه واحده،و من دون أيه مقدمات يمكن أن تحل أنواع المصائب و النوائب بهذا الإنسان الغافل.

و العجيب أنّ البشريه الحاضره،رغم كل ما أحرزته من تقدم ورقى فى

الصنائع و فی التکنولوجیا،و مع أنّها سخرت طاقات الکون و الطبیعه المختلفه لخدمه نفسها،فإنّها ضعیفه و عاجزه تجاه هذه الحوادث،بنفس المقدار من العجز و الضعف الذی کان علیه إنسان العصور السابقه.یعنی أن الإنسان لم یتغیر حاله تجاه الزلازل و الصواعق و ما شابهها،حتی بالنسبه إلی إنسان ما قبل التاریخ.

و هذه علامه قویه علی نهایه عجز الإنسان و شده ضعفه رغم قدرته و قوته...

و هذه حقیقه یجب أن یجعلها الإنسان نصب عینیه دائما و أبدا.

و فی الآیه اللاحقه یعود القرآن الکریم إلی ذکر و تأکید هذه الحقیقه بشکل آخر فیقول:أ فأمن المجرمون من المکر الإلهی،فی حین لا یأمن مکره إلاّ الخاسرون أَ فَأَمِنُوا مَکْرَ اللّهِ فَلا یَأْمَنُ مَکْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ .

و«المکر»-کما قلنا فی ذیل الآیه ۹۴ من سوره آل عمران-یعنی فی اللغه العربیه کل حیله و وسیله لصرف الشخص عن الهدف الذی یمضی إلیه،سواء کان حقا أو باطلا،و قد أخذ فی مفهوم هذه اللغه نوع من التدرج و النفوذ التدریجی.

و علی هذا فالمراد من المکر الإلهی،هو أنّ اللّه تعالی یصرفهم بخططه القویه التی لا تقهر عن حیاه الرفاه و اللذه دون اختیارهم و یقطعها علیهم.و هذه إشاره إلی العقوبات الإلهیه الفجائیه و المهلکه.

جواب علی سؤال:

إنّ الجمله التی وردت فی ختام الآیه الحاضره تقول:لا یأمن أحد-إلاّ الخاسرون-من المکر الإلهی و العقوبه الإلهیه،و هنا یطرح هذا السؤال،و هو:هل تشمل هذه العباره الأنبیاء و الأئمّه العظام و الصالحین؟ لقد تصوّر البعض أنّهم خارجون من هذا الحکم،و أنّ الآیه تختص بالمجرمین.و لکن الظاهر أن هذا الحکم عام یشمل الجمیع،لأنّه حتی الأنبیاء و الأئمّه کانوا مراقبین لأعمالهم دائما کی لا تصدر منهم أدنی زله أو عثره،لأنّنا

نعلم أن مقام العصمه ليس مفهومه أن المعصيه مستحيله عليهم،بل يعنى أنّهم مصونون عن الإثمّ و المعصيه بفعل إرادتهم و إيمانهم و حسن اختيارهم،إلى جانب العنايات الربانيه.

إنّهم كانوا يخافون من ترك الأولى و يتجنبونه،و يخشون أن لا يتمكنوا من القيام بمسؤولياتهم الثقيله.و لهذا نقرأ فی الآيه(۱۵)من سوره الأنعام حول الرّسول الأعظم قُلْ إِنِّی أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّی عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

و لقد رويت فی تفسير الآيه الحاضره-أيضا-أحاديث تؤيد ما قلناه:

«صليت خلف أبی عبد اللّه(الصادق)عليه السلام،فسمعته يقول:«اللّهم لا تؤمنی مكرك.

ثمّ جهر فقال: فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ .

و نقرأ

فی نهج البلاغه أيضا: «لا تأمنن على خير هذه الأمّه عذاب اللّه،لقول اللّه سبحانه: فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (۱) .

إنّ عدم الأمن من المكر الإلهی-فی الحقيقه-يعنی الخوف من المسؤوليات و الخوف من التقصير فيها،و من المعلوم أن الخوف يجب أن يكون فی قلوب المؤمنين دائما إلى جانب الأمل بالرحمه الإلهيه بشكل متساو،و أن التوازن بين هذين هو منشأ كلّ حركه و نشاط،و هو الذی يعبّر عنه فی الرّوايات بالخوف و الرجاء.

و قد جاء التصريح فی هذه الرّوايات بوجوب أن يكون المؤمنون دائما بين الخوف و الرجاء،و لكن المجرمين الخاسرين نسوا العقوبات الإلهيه بحيث صاروا يرون أنفسهم فی منتهى الأمن المكر الإلهی.

و فی الآيه اللاحقه يقول القرآن الكريم-بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافيه و إلفات نظرهم إلى العبر التی كانت فی حياه الماضيين:ألا يتنبه الذين ورثوا

۱- ۱) نهج البلاغه،الكلمات القصار،الجمله ۳۷۷.

السیاده علی الأرض-من الأقوام الماضیه-إلی ما فی حیاه الماضیین و قصصهم من عبر،فلو أنّنا أردنا أن نهلکهم بذنوبهم لفعلنا أَ وَ لَمْ یَهْدِ لِلَّذِینَ یَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ .

و یمکننا أیضا أن نترکهم أحیاء و نسلب منهم الشعور و حس التشخیص و التمییز بالمرّه بسبب توغّلهم فی الذنوب،بحیث لا یسمعون معها حقیقه،و لا یقبلون نصیحه،و یعیشون بقیه حیاتهم حیری وَ نَطْبَعُ عَلی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا یَسْمَعُونَ .

أمّا کیف یسلب اللّه تعالی من هذا الفریق من المجرمین حس التمییز و التشخیص، فیمکنک الوقوف علی مزید التوضیح فی هذا المجال فی تفسیر الآیه(۷)من سوره البقره.

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۰۱ الی ۱۰۲]

اشاره

تِلْکَ اَلْقُریٰ نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْبٰائِهٰا وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ فَمٰا کٰانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمٰا کَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ کَذٰلِکَ یَطْبَعُ اَللّٰهُ عَلیٰ قُلُوبِ اَلْکٰافِرِینَ (۱۰۱) وَ مٰا وَجَدْنٰا لِأَکْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنٰا أَکْثَرَهُمْ لَفٰاسِقِینَ (۱۰۲)

التّفسیر

فی هاتین الآیتین رکّز القرآن الکریم علی العبر المستفاده من بیان قصص الماضین،و الخطاب متوجه هنا إلی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلاّ أن الهدف هو الجمیع، یقول القرآن الکریم أوّلا:هذه هی القری و الأقوام التی نقص علیک قصصهم:

تِلْکَ الْقُریٰ نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْبٰائِهٰا

(۱)

ثمّ یقول:لم یکن إهلاکهم قبل إتمام الحجه علیهم،بل لقد جاءهم الأنبیاء أوّلا بالبراهین الجلیه و بذلوا قصاری جهدهم فی إیقاظهم و إرشادهم وَ لَقَدْ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ .

و لکنّهم قاوموا الأنبیاء و خالفوا دعوتهم،و أصروا و لجّوا فی عنادهم،و لم

۱- ۱) «نقصّ»من ماده«قص»و قد مر شرحها فی ذیل الآیه ۷.

يكونوا على استعداد لأن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل،بل استمروا على تكذيبهم حتى مع مشاهدتهم البينات: فَمٰا كٰانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمٰا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ .

من هذه الجمله يستفاد أنّ الأنبياء الإلهيين قاموا بدعوتهم و إرشادهم مرارا و تكرارا،و لكن المشركين لجوا فى عنادهم،و بقوا متصلبين فى مواقفهم المتعنته الرافضه،و أعرضوا عن قبول دعوه الأنبياء حتى بعد وضوح الكثير من الحقائق.

و فى العباره اللاحقه يبيّن تعالى علّه هذا التعنت و اللجاج: كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّٰهُ عَلىٰ قُلُوبِ الْكٰافِرِينَ .

يعنى أنّ الذين يسيرون فى درب خاطئ،و يستمرون فى السير فى ذلك الطريق،ينتقش الانحراف و الكفر على قلوبهم نتيجه تكرار العمل السيء.

و يتجذر الفساد فى نفوسهم،كما يثبت النقش على السكه(و الطبع فى اللغه نقش صوره على شيء كالسكه)و هذا فى الحقيقه هو أثر العمل و خاصيته.

و قد نسب إلى اللّه هو تعالى مسبب الأسباب،و هو منشأ تأثير كل مؤثر،فهو يهب الفعل هذه الخاصيه عند تكراره،حيث يجعله«ملكه»فى نفس الشخص.

و لكن من الواضح و البيّن أن مثل الضلال ليس له أى صفه جبريه و قهريه،بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان و إن كان التأثير بأمر اللّه تعالى(فتأمل).

و فى الآيه اللاحقه بيّن تعالى قسمين آخرين من نقاط الضعف الأخلاقى لدى هذه الجماعات،و التى تسببت فى ضلالها و هلاكها.

فى البدايه يقول:إنّهم كانوا لا يحترمون العهود و المواثيق بل ينقضونها وَ مٰا وَجَدْنٰا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ .

و هذا العهد يمكن أن يكون إشاره إلى«العهد الفطرى»الذى أخذه اللّه على جميع عباده بحكم الجبله و الفطره،لأنّه عند ما أعطاهم العقل و الذكاء و القابليه، كان مفهوم ذلك هو أخذ العهد الميثاق منهم بأن يفتحوا عيونهم و آذانهم،و يروا الحقائق و يسمعوها،و هذا هو ما أشارت إليه الآيات الأخيره من هذه السوره(أى

الآيه ۱۷۳)و هو المعروف ب«عالم الذّر»الذى سنشرحه بإذن اللّه فى ذيل تلك الآيات.

كما أنّه يمكن أن يكون إشاره إلى العهد الذى كان الأنبياء الإلهيون يأخذونه من الناس،و كان أكثر الناس يقبلونه،و لكنّهم ينقضونه.

أو يكون إشاره إلى جميع المواثيق«الفطريه»و«التشريعيه».

و على كل حال فإنّ روح نقض الميثاق كان من أسباب معارضه الأنبياء و الإصرار على سلوك طريق الكفر و النفاق،و الابتلاء بعواقبها المشؤومه.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى عامل آخر إذ يقول: وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ .

يعنى أن روح التمرد و التجاوز على القانون،و الخروج عن نظام الخلقه و القوانين الإلهيه،كان عاملا آخر من عوامل استمرارهم على الكفر،و إصرارهم على مخالفه الدعوه الإلهيه.

و يجب الانتباه إلى أن الضمير فى«أكثرهم»يرجع إلى جميع الأقوام و الجماعات السالفه.

و ما ورد فى الآيه من أن أكثرهم ينقضون العهد إنّما هو من باب رعايه حال الأقليات التى آمنت بالأنبياء السابقين،و بقيت و فيّه لهم، و هذه الجماعات المؤمنه و إن كانت قليله و ضئيله العدد جدّا بحيث أنّها ما كانت تتجاوز أحيانا أسره واحده.و لكن روح الواقعيه و تحرى الحق المتجلّيه فى كل آيات القرآن أوجبت أن لا يتجاهل القرآن الكريم حق هذه الجماعات القليله أو الأفراد المعدودين،بل يراعيها فلا يصف جميع الأفراد فى المجتمعات السالفه بالانحراف و الضلال و نقض العهد و الفسق.

و هذا موضوع جميل جدّا،و جدير بالاهتمام،و هو ما نشاهده و نلحظه فى آيات القرآن كثيرا.

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۰۳ الی ۱۰۸]

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ بِآیاتِنا إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَهُ اَلْمُفْسِدِینَ (۱۰۳) وَ قالَ مُوسىٰ یا فِرْعَوْنُ إِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ اَلْعالَمِینَ (۱۰۴) حَقِیقٌ عَلىٰ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ قَدْ جِئْتُکُمْ بِبَیِّنَهٍ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَرْسِلْ مَعِیَ بَنِی إِسْرائِیلَ (۱۰۵) قالَ إِنْ کُنْتَ جِئْتَ بِآیَهٍ فَأْتِ بِها إِنْ کُنْتَ مِنَ اَلصّادِقِینَ (۱۰۶) فَأَلْقىٰ عَصاهُ فَإِذا هِیَ ثُعْبانٌ مُبِینٌ (۱۰۷) وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذا هِیَ بَیْضاءُ لِلنّاظِرِینَ (۱۰۸)

التّفسیر

اشاره

المواجهه بین موسی و فرعون:

بعد ذکر قصص ثله من الأنبیاء العظام باختصار فی الآیات السابقه بیّن تعالی فی هذه الآیات و الآیات الکثیره اللاحقه قصّه موسی بن عمران،و ما جری بینه و بین فرعون و ملئه و عاقبه أمره.

و علّه بیان هذه القصّه بصوره أکثر تفصیلا من قصص الأنبیاء الآخرین فی هذه السوره قد تکون لأجل أنّ الیهود أتباع موسی بن عمران کانوا أکثر من

ص: ۱۳۷

غیرهم فی بیئه نزول القرآن،و کان إرشادهم إلی الإسلام أوجب. (۱)

و ثانیا:لأنّ قیام النّبی الأکرم کان أشبه بقیام موسی بن عمران من غیره من الأنبیاء.

و علی کل حال فإنّ هذه القصه الزاخره بالعبر قد أشیر إلی فصول أخری منها أیضا فی سور أخری،مثل:سوره البقره،طه،الشعراء،النمل،القصص،و سور أخری،و لو أنّنا درسنا آیات کل سوره علی حده،ثمّ وضعناها جنبا إلی جنب لم نلحظ فیها جانب التکرار علی خلاف ما یتصوره البعض،بل ذکر من هذه الملحمه التاریخیه فی کل سوره ما یناسبها من البحث للاستشهاد به. و حیث أنّ مصر کانت أوسع،و کان لشعبها حضاره أکثر تقدما من قوم نوح و هود و شعیب و ما شابههم،و کانت مقاومه الجهاز الفرعونی-بنفس النسبه-أکثر و أکبر،و لهذا تمتع قیام موسی بن عمران بأهمیه أکبر،و حوی عبرا و نکات أکثر،و قد رکّز القرآن الکریم علی النقاط البارزه المختلفه من حیاه موسی و بنی إسرائیل بمناسبات مختلفه.

و علی العموم یمکن حصر و تلخیص حیاه هذا النّبی الإلهی العظیم فی خمس دورات و مراحل:

۱-مرحله الولاده،و ما جری علیه من الحوادث حتی ترعرعه فی البلاط الفرعون.

۲-مرحله فراره من مصر،و حیاته فی أرض«مدین»فی کنف النّبی شعیب علیه السلام.

۳-مرحله بعثته،ثمّ المواجهات الکثیره بینه و بین فرعون و جهازه.

۴-مرحله نجاته و نجاه بنی إسرائیل من مخالب فرعون،و الحوادث التی

۱- ۱) صحیح أنّ هذه السوره نزلت فی مکّه،و لم تکن مکّه مرکز تجمع الیهود،و لکن من دون شک کان لحضور فی المدینه و سائر نقاط الحجاز أثر واسع فی المجتمع المکّی.

جرت علیه فی الطریق،و عند وروده إلی بیت المقدس.

۵-مرحله مشاکله مع بنی إسرائیل.

و یجب الانتباه إلی أن القرآن الکریم تناول فی کل سوره من سور قسما-أو عدّه أقسام-من هذه المراحل الخمس.

و من تلک الآیات التی تناولت جوانب من قصّه موسی علیه السلام هذه الآیات، و عشرات الآیات الأخر من هذه السوره،و هی تشیر إلی مراحل ما بعد بعثه موسی بن عمران بالنبوه.و لهذا فإنّنا نوکل الأبحاث المتعلقه بالمراحل السابقه علی هذه المرحله إلی حین تفسیر الآیات المرتبطه بتلک الأقسام فی السور الأخری،و بخاصّه سوره القصص.

فی الآیه الأولی من الآیات الحاضره یقول تعالی: ثُمَّ بَعَثْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسیٰ بِآیٰاتِنٰا إِلیٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلاَئِهِ أی من بعد قوم نوح و هود و صالح.

و یجب الالتفات إلی أنّ«فرعون»اسم عام،و هو یطلق علی کل ملوک مصر، کما یطلق علی ملوک الروم«قیصر»و ملوک فارس« کسری».

و لفظه«الملأ»-کما أشرنا إلی ذلک فیما سبق-تعنی الأعیان و الأشراف الذین یملأون ببریقهم و ظواهرهم الباذخه العیون،و لهم حضور ملفت للنظر فی جمیع میادین المجتمع.

و السر فی إرسال موسی فی بدایه الدعوه إلی فرعون و ملأه هو أنّه علاوه علی أنّ إحدی برامج موسی کان هو نجاه بنی إسرائیل من براثن استعمار الفراعنه و تخلیصهم من أرض مصر-و هذا لا یمکن أن یتم من دون الحوار مع فرعون-إنّما هو لأجل أن المفاسد الاجتماعیه و انحراف البیئه لا تعالج بمجرّد الإصلاحات الفردیه و الموضعیه فقط،بل یجب أن یبدأ بإصلاح رؤوس المجتمع و قادته الذین یمسکون بأزمه السیاسه و الإقتصاد و الثقافه،حتی تتهیأ الأرضیه لإصلاح البقیه،کما یقال عرفا:إنّ تصفیه الماء یجب أن تکون من المنبع.

و هذا هو الدرس الذى يعطيه القرآن الكريم لجميع المسلمين،لإصلاح المجتمعات الإسلاميه.

ثمّ يقول تعالى: فَظَلَمُوا بِهٰا .

و نحن نعلم أنّ لفظ الظلم بالمعنى الواسع للكلمه هو:وضع الشىء فى غير محلّه،و لا شك فى أن الآيات الإلهيه توجب أن يسلّم الجميع لها،و بقبولها يصلح الإنسان نفسه و مجتمعه،و لكن فرعون و ملأه بإنكارهم لهذه الآيات ظلموا هذه الآيات.

ثمّ يقول تعالى فى ختام الآيه: فَانْظُرْ كَيْفَ كٰانَ عٰاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

و هذه العباره إشاره إجماليه إلى هلاك فرعون و قومه الطغاه المتمردين، الذى سيأتى شرحه فيما بعد.

و هذه الآيه تشير إشاره مقتضبه إلى مجموع برنامج رساله موسى،و ما وقع بينه و بين فرعون من المواجهه و عاقبه أمرهم.

أمّا الآيات اللاحقه فتسلّط الاضواء بصوره أكثر على هذا الموضوع.

فيقول أوّلا: وَ قٰالَ مُوسىٰ يٰا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ .

و هذه هى أوّل مواجهه بين موسى و بين فرعون،و هى صوره حيه و عمليه من الصراع بين«الحق»و«الباطل».

و الطريف أنّ فرعون كأنّه كان ينادى لأوّل مرّه ب«يا فرعون»و هو خطاب رغم كونه مقرونا برعايه الأدب،خال عن أى نوع من أنواع التملق و التزلف و إظهار العبوديه و الخضوع،لأنّ الآخرين كانوا يخاطبونه عاده بألفاظ فيها الكثير من التعظم مثل:يا مالكنا،يا سيدنا،يا ربنا،و ما شابه ذلك.

و تعبير موسى هذا،كان يمثل بالنسبه إلى فرعون جرس إنذار و ناقوس خطر.هذا مضافا إلى أن عباره موسى إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعٰالَمِينَ كانت-فى الحقيقه-نوعا من إعلان الحرب على جميع تشكيلات فرعون،لأنّ هذا التعبير

يثبت أن فرعون و نظراءه من أدعياء الرّبوبيه يكـذبون جميعـا فى ادعائهم،و أن ربّ العالمين هو اللّه فقط،لا فرعون و لا غيره من البشر.

و فى الآيه اللاحقه نقرأ أنّ موسى عقيب دعوى الرساله من جانب اللّه قال:

فالآـن إذ أنـا رسول ربّ العـالمين ينبغى ألا أقول عن اللّه إلاّ الحق،لأنّ المرسل من قبل اللّه المنزّه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذبا حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ .

ثمّ لأجـل توثيق دعواه للنّبوه،أضاف:أنا لا أدعى ما أدّعيه من دون دليل، بل إنّ معى أدله واضـحه من جانب اللّه قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَهٍ مِنْ رَبِّكُمْ .

فإذا كان الأمر هكذا فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِى إِسْرائِيلَ .

و كـان هـذا فى الحقيقه قسـما من رساله موسـى بن عمران الـذى حرّر بنى إسـرائيل من قبضه الاسـتعمار الفرعونى،و وضع عنهم إصرهم و أغلال العبوديه التى كـانت تكبّل أيـديهم و أرجلهم،لأـنّ بنى إسـرائيل كـانوا فى ذلـك الزمـان عبيـدا أذلاّء بأيـدى القبطيين(أهالى مصر)فكانوا يستفيدون منهم فى القيام بالأعمال السافله و الصعبه و الثقليه.

و يستفاد من الآيـات القـادمه-و كـذا الآيـات القرآنيه الأـخرى بوضوح و جلاـء أنّ موسـى كان مكلفا بـدعوه فرعون و غيره من سكان أرض مصر إلى دينه،يعنى أن رسالته لم تكن منحصره فى بنى إسرائيل.

فقـال فرعون بمجرّد سـماع هـذه العبـاره-(أى قوله:قـد جئتكم ببيّنه)-هات الآيه التى معك من جانب اللّه إن كنت صادقا قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَهٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ .

و بهذه العباره اتّخذ فرعون-ضـمن إظهار التشـكيك فى صدق موسـى-هيئه الطالب للحق المتحرى للحقيقه ظاهرا،كما يفعل أى متحر للحقيقه باحث عن الحق.

و من دون تـأخير أخرج موسـى معجزتيه العظيمتين التى كـانت إحـداهما مظهر«الخوف»و الأـخرى مظهر«الأمـل»و كانتا تكملان مقام إنذاره و مقام تبشيره،و ألقى فى البدايه عصاه: فَأَلْقىٰ عَصٰاهُ فَإِذٰا هِيَ ثُعْبٰانٌ مُبِينٌ (1) .

و التعبير ب«المبين»إشـاره إلى أنّ تلـك العصـا التى تبـدلت إلى ثعبـان حقّـا،و لم يكن سـحرا و شـعبذه و مـا شاكـل ذلـك،على العكس من فعـل السـحره لأنّه يقول فى شأنهم:إنّهم مارسوا الشـعبذه و السـحر،و عملوا ما تصوره الناس حيات تتحرك، و ما هى بحيات حقيقه و واقعا.

إنّ ذكر هـذه النقطه أمر ضـرورى،و هى أنّنا نقرأ فى الآيه(10)من سوره النمل،و الآيه(31)من سوره القصص،أن العصا تحركت كالجانّ،و«الجانّ»هى الحيات الصغيره السريعه السير،و إنّ هذا التعبير لا ينسجم مع عباره«ثعبان»التى تعنى الحيه العظيمه ظاهرا.

و لكن مع الالتفـات إلى أنّ تينـك الآـيتين ترتبطـان ببـدايه بعثه موسـى،و الآيه المبحوثه هنا ترتبط بحين مواجهته لفرعون،تنحل المشـكله،و كأن اللّه أراد أن يوقف موسـى على هذه المعجزه العظيمه تدريجا فهى تظهر فى البدايه أصغر، و فى الموقف اللاحق تظهر أعظم.

هل يمكن قلب العصا إلى حيه عظيمه؟!

على كـل حال لا شك فى أنّ تبـديل«العصا»إلى حيه عظيمه معجزه،و لا يمكن تفسـيرها بالتحليلات الماديه المتعارفه،بل هى من وجهه نظر الإلـهى الموحـد-الـذى يعتبر جميع قوانين المـاده محكومه للمشـيئه الربـانيه-ليس فيهـا ما يـدعو للعجب فلا عجب أن تتبدل قطعه من الخشب إلى حيوان بقوه ما فوق

1- 1) احتمل«الراغب»فى«المفردات»أن تكون كلمه ثعبان متخذه من ماده«ثعب»بمعنى جريان الماء،لأنّ حركه هذا الحيوان تشبه الأنهر التى تجرى بصوره ملتويه.

الطبیعه.

و یجب أن لا ننسی أن جمیع الحیوانات فی عالم الطبیعه توجد من التراب، و الأخشاب و النباتات هی الأخری من التراب،غایه ما هنالک أن تبدیل التراب إلی حیه عظیمه یحتاج عاده إلی ملایین السنین،و لکن فی ضوء الإعجاز تقصر هذه المدّه إلی درجه تتحقق کل تلک التحولات و التکاملات فی لحظه واحده و بسرعه،فتتخذ القطعه من الخشب-التی تستطیع وفق الموازین الطبیعیه أن تغیر بهذه الصوره بعد مضی ملایین السنین-تتخذ مثل هذه الصوره فی عدّه لحظات.

و الذین یحاولون أن یجدوا لمعاجز الأنبیاء تفسیرات طبیعیه و مادیه-و ینفوا طابعها الإعجازی،و یظهروها فی صوره سلسله من المسائل العادیه مهما کانت هذه التفاسیر مخالفه لصریح الکتب السماویه.إنّ هؤلاء یجب أن یوضحوا موقفهم:هل یؤمنون باللّه و قدرته و یعتبرونه حاکما علی قوانین الطبیعه،أم لا؟ فإذا کانوا لا یؤمنون به و بقدرته،لم یکن کلام الأنبیاء و معجزاتهم إلاّ لغوا لدیهم.

و إذا کانوا مؤمنین بذلک،فما الداعی لنحت،مثل هذه التّفسیرات و التبریرات المقرونه بالتکلف و المخالفه لصریح الآیات القرآنیه.(و إن لم نر أحدا من المفسّرین-علی ما بینهم من اختلاف السلیقه-عمد إلی هذا التّفسیر المادی، و لکن ما قلناه قاعده کلیه).

ثمّ إنّ الآیه اللاحقه تشیر إلی المعجزه الثّانیه للنّبی موسی علیه السلام التی لها طابع الرجاء و البشاره،یقول تعالی: وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذٰا هِیَ بَیْضٰاءُ لِلنّٰاظِرِینَ .

«نزع»تعنی فی الأصل أخذ شیء من مکان،مثلا أخذ العباءه من الکتف و اللباس عن البدن یعبر عنه فی اللغه العربیه بالنزع فیقال:نزع ثوبه و نزع عباءته، و هکذا أخذ الروح من البدن یطلق علیه النزع.و بهذه المناسبه قد یستعمل فی الاستخراج،و قد جاءت هذه اللفظه فی الآیه الحاضره بهذا المعنی.

و مع أنّ هذه الآیه لم یرد فیها أی حدیث عن محل إخراج الید،و لکن من

الآیه(۳۲)من سوره القصص اُسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضٰاءَ یستفاد أنّ موسی کان یدخل یده فی جیبه ثمّ یخرجها و لها بیاض خاص،ثمّ تعود إلی سیرتها و حالتها الأولی.

و نقرأ فی بعض الأحادیث و الرّوایات و التفاسیر أنّ ید موسی کانت مضافا إلی بیاضها تشعّ بشدّه،و لکن الآیات القرآنیه ساکته عن هذا الموضوع،مع عدم تناف بینهما.

إنّ هذه المعجزه و المعجزه السابقه حول العصا-کما قلنا سابقا-لیس لها جانب طبیعی و عادی،بل هی من صنف خوارق العاده التی کان یقوم بها الأنبیاء، و هی غیر ممکنه من دون تدخل قوه فوق طبیعیه فی الأمر.

و هکذا أراد موسی بإظهار هذه المعجزه أن یوضح هذه الحقیقه،و هی أن برامجه لیس لها جانب الترهیب و التهدید،بل الترهیب و التهدید للمخالفین و المعارضین،و التشویق و الإصلاح و البناء و النورانیه للمؤمنین.

ص:۱۴۴

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۰۹ الی ۱۱۲]

اشاره

قَالَ اَلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِیمٌ (۱۰۹) یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ (۱۱۰) قٰالُوا أَرْجِهْ وَ أَخٰاهُ وَ أَرْسِلْ فِی اَلْمَدٰائِنِ حٰاشِرِینَ (۱۱۱) یَأْتُوکَ بِکُلِّ سٰاحِرٍ عَلِیمٍ (۱۱۲)

التّفسیر

اشاره

بدء المواجهه:

فی هذه الآیات جاء الحدیث عن أوّل ردّ فعل لفرعون و جهازه فی مقابل دعوه موسی علیه السلام و معجزاته.

الآیه الأولی تـذکر عن ملأ فرعون أنّهم بمجرّد مشاهـدتهم لأعمال موسـی الخارقه للعاده اتهموه بالسـحر،و قالوا:هـذا ساحر علیم ماهر فی سحره: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِیمٌ .

و لکن یستفاد من آیات سوره الشعراء الآیه(۳۴)أن هذا الکلام قاله فرعون حول موسی: قٰالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذٰا لَسٰاحِرٌ عَلِیمٌ .

و لکن لا منافاه بین هاتین الآیتین،لأنّه لا یبعد أن یکون فرعون قال هذا

ص:۱۴۵

الکلام فی البدایه،و حیث أن عیون الملأ کانت متوجهه إلیه،و لم یکن لهذا الملأ المتملق المتزلف هدف إلاّ رضی رئیسه و سیده،و ما ینعکس علی محیاه،و ما توحی به إشارته،کرّر هو أیضا ما قاله الرّئیس،فقالوا:أجل،إن هذا لساحر علیم.

و هذا السلوک لا یختص بفرعون و حواشیه،بل هو دأب جمیع الجبارین فی العالم و حواشیهم.

ثمّ أضافوا:إنّ هدف هذا الرجل أن یخرجکم من وطنکم یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ .

یعنی أنّه لا یهدف إلاّ استعمارکم و استثمارکم،و إنّ الحکومه علی الناس، و غصب أراضی الآخرین،و هذه الأعمال الخارقه للعاده و ادعاء النّبوه کلّها لأجل الوصول إلی هذا الهدف.

ثمّ قالوا بعد ذلک:مع ملاحظه هذه الأوضاع فما هو رأیکم: فَمٰا ذٰا تَأْمُرُونَ ؟ یعنی أنّهم جلسوا یتشاورون فی أمر موسی،و یتبادلون الرأی فیما یجب علیهم اتّخاذه تجاهه،لأنّ ماده«أمر»لا تعنی دائما الإیجاب و الفرض،بل تأتی-أیضا-بمعنی التشاور.

و هنا لا بدّ من الالتفات إلی أنّ هذه الجمله وردت فی سوره الشعراء الآیه (۳۵)أیضا،و ذلک عن لسان فرعون،حیث قال لملائه:فما ذا تأمرون.و قد قلنا:

إنّه لا منافاه بین هذین.

و قد احتمل بعض المفسّرین-أیضا-أن تکون جمله«فما ذا تأمرون»فی الآیه الحاضره خطابا وجهه ملأ فرعون و حاشیته إلی فرعون، و صیغه الجمع إنما هی لرعایه التعظیم،و لکن الاحتمال الأوّل-و هو کون هذا الخطاب موجها من ملأ فرعون إلی الناس-أقرب إلی النظر.

و علی کل حال فقد قال الجمیع لفرعون:لا تعجل فی أمر موسی و هارون، و أجلّ قرارک بشأنهما إلی ما بعد،و لکن ابعث من یجمع لک السحره من جمیع

أنحاء البلاد قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ .

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر فی حرفته علیم فی سحره یَأْتُوکَ بِکُلِّ ساحِرٍ عَلِیمٍ .

فهل هذا الاقتراح من جانب حاشیه فرعون کان لأجل أنّهم کانوا یحتملون صدق ادعاء موسی للنّبوه،و کانوا یریدون اختباره؟ أو أنّهم علی العکس کانوا یعتبرونه کاذبا فی دعواه،و یریدون افتعال ذریعه سیاسیه لأی موقف سیتخذونه ضد موسی کما کانوا یفعلون ذلک فی بقیه مواقفهم و نشاطاتهم الشخصیه؟و لهذا اقترحوا ارجاء أمر قتل موسی و أخیه نظرا لمعجزتیه اللتین أورثتا رغبه فی مجموعه کبیره من الناس فی دعوته و انحیازهم إلیه،و مزجت صوره«نبوته»بصوره«المظلومیه و الشهاده»و أضفت بضم الثّانیه إلی الأولی-مسحه من القداسه و الجاذبیه علیه و علی دعوته.

و لهذا فکروا فی بدایه الأمر فی إجهاض عمله بأعمال خارقه للعاده مماثله، و یسقطوا اعتباره بهذه الطریقه،ثمّ یأمرون بقتله لتنسی قصه موسی و هارون و تمحی عن الأذهان إلی الأبد.

یبدو أن الاحتمال الثّانی بالنظر إلی القرائن الموجوده فی الآیات-أقرب إلی النظر.

ص:۱۴۷

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١١٣ الى ١٢٢]

اشاره

وَ جٰاءَ اَلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قٰالُوا إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً إِنْ كُنّٰا نَحْنُ اَلْغٰالِبِينَ (١١٣) قٰالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ اَلْمُقَرَّبِينَ (١١۴) قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِمّٰا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمّٰا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ اَلْمُلْقِينَ (١١۵) قٰالَ أَلْقُوا فَلَمّٰا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ اَلنّٰاسِ وَ اِسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جٰاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١۶) وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ أَنْ أَلْقِ عَصٰاكَ فَإِذٰا هِيَ تَلْقَفُ مٰا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ اَلْحَقُّ وَ بَطَلَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنٰالِكَ وَ اِنْقَلَبُوا صٰاغِرِينَ (١١٩) وَ أُلْقِيَ اَلسَّحَرَةُ سٰاجِدِينَ (١٢٠) قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ اَلْعٰالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ (١٢٢)

التّفسير

اشاره

كيف انتصر الحقّ فى النهايه؟

فى هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهه بين النّبى موسى عليه السلام،و بين السحره،و ما آل إليه أمرهم فى هذه المواجهه،و فى البدايه تقول الآيه:إنّ السحره

بادروا إلى فرعون بـدعوته،و كان أوّل ما دار بينهم و بين فرعون هو:هل لنا من أجر إذا غلبنا العـدوّ وَ جٰاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قٰالُوا إِنَّ لَنٰا لَأَجْراً إِنْ كُنّٰا نَحْنُ الْغٰالِبِينَ ؟! و كلمه«الأجر»و إن كـانت تعنى أى نـوع من أنـواع الثـواب،و لكن نظرا إلى ورودهـا هنـا فى صـوره«النكره»،و«النكره»فى هـذه الموارد إنّمـا تكون لتعظيم الموضوع و إبراز أهميته بسـبب إخفـاء مـاهيته و نوعيته،لهـذا يكون الأجر هنا بمعنى الأجر المهم و العظيم و بخاصّه أنّه لم يكن ثمّه نزاع فى أصل اسـتحقاقهم للأجر و المثوبه،فالمطلوب من فرعون هو الوعد بإعطائهم أجرا عظيما و عوضا مهمّا.

فوعـدهم فرعون-فورا-وعـدا جيدا و قال:إنّكم لن تحصـلوا على الأجر السـخى فقط،بل سـتكونون من المقرّبين عندى قٰالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

و بهـذه الطريقـه أعطـاهم وعـدا بالمـال و وعـدا بمنصـب كـبير لـديه،و يسـتفاد مـن هـذه الآـيه أنّ التقرب إلى فرعـون فى ذلك المحيط،و تلك البيئه كان أعلى و أسـمى و أهم من المال و الثروه،لأنّه كان يعنى منزله معنويه كان من الممكن أن تصـبح منشأ لأموال كثيره و ثروات كبيره.

و فى المـآل حـدّد موعـد معين لمواجهه السـحره لموسـى،و كمـا جاء فى سوره «طه»و«الشـعراء»دعى جميع الناس لمشاهـده هـذا النزال،و هذا يدل على أنّ فرعون كان مؤمنا بانتصاره على موسى عليه السلام.

و حـلّ اليوم الموعود،و هيّأ السـحره كل مقـدمات العمل...حفنه من العصـىّ و الحبال التى يبـدو أنّها كانت معبأه بمواد كيمياويه خاصّه،تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس،لأنّها تتحول إلى غازات خفيفه تحرّك تلك العصى و الحبال المجوفه.

و كانت واقعه عجيبه،فموسى وحده(ليس معه إلاّ أخوه)يواجه تلك

المجموعه الهائله من السحره،و ذلك الحشد الهائل من الناس المتفرجين الذين كانوا على الأغلب من أنصار السحره و مؤيديهم.

فالتفت السحره فى غرور خاص و كبير إلى موسى عليه السلام و قالوا:إمّا أن تشرع فتلقى عصاك،و إمّا أن نشرع نحن فنلقى عصيّنا؟ قٰالُوا يٰا مُوسىٰ إِمّٰا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمّٰا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ .

فقال موسى عليه السلام بمنتهى الثقه و الاطمئنان:بل اشرعوا أنتم قٰالَ أَلْقُوا .

و عند ما ألقى السحره بحبالهم و عصيّهم فى وسط الميدان سحروا أعين الناس،و أوجدوا بأعمالهم و أقاويلهم المهرجه و مبالغاتهم و هرطقاتهم خوفا فى قلوب المتفرجين،و أظهروا سحرا كبيرا رهيبا: فَلَمّٰا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النّٰاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جٰاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

و كلمه«السحر»-كما مرّ فى المجلد الأوّل من هذه الموسوعه التفسيريه، عند تفسير الآيه(١٠٢)من سوره البقره-تعنى فى الأساس الخداع و الشعبذيه، و قد يطلق أيضا على كل عامل غامض،و دافع غير مرئى.

و على هذا الأساس،فإن هذه الجماعه كانت توجد أفعالا عجيبه بالاعتماد على سرعه حركه الأيدى،و المهاره الفائقه فى تحريك الأشياء لتبدو و كأنّها أمور خارقه للعاده و كذلك الأشخاص الذين يستفيدون من الخواص الكيمياويه و الفيزياويه الغامضه الموجوده فى الأشياء و المواد،فيظهرون أعمالا مختلفه خارقه للعاده.كل هؤلاء يدخلون تحت عنوان«الساحر».

هذا علاوه على أن السحره يستفيدون-عاده-من سلسله من الإيحاءات المؤثره فى مستمعيهم،و من العبارات و الجمل المبالغه،و ربّما الرهيبه المخوفه لتكميل عملهم،و التى تترك آثارا جدّ عجيبه فى مستمعيهم و متفرجيهم و جمهورهم.

و يستفاد من آيات مختلفه فى هذه السوره و من سور قرآنيه أخرى حول

قصه سحره فرعون،أنّهم استخدموا کل هذه العوامل و الأدوات،و عباره«سحروا أعین الناس»و جمله«استرهبوهم»أو تعبیرات أخری فی سور«طه» و«الشعراء»جمیعها شواهد علی هذه الحقیقه

بحوث

اشاره

و هنا لا بدّ من الإشاره إلی نقطتین:

١-المشهد العجیب لسحر السّاحرین

لقد أشار القرآن الکریم إشاره إجمالیه من خلال عباره وَ جٰاؤُ بِسِحْرٍ عَظِیمٍ إلی الحقیقه التالیه و هی:أنّ المشهد الذی أوجده السحره کان عظیما و مهما،و مدروسا و مهیبا،و إلاّ لما استعمل القرآن الکریم لفظه«عظیم»هنا.

و یستفاد من کتب التاریخ و من روایات و أحادیث المفسّرین فی ذیل هذه الآیه،و کذا من آیات مشابهه-بوضوح-سعه أبعاد ذلک المشهد.

فبناء علی ما قاله بعض المفسّرین کان عدد السحره یبلغ عشرات الألوف، و کانت الأجهزه و الوسائل المستعمله کذلک تبلغ عشرات الآلاف،و نظرا إلی أن السحره المهره و المحترفین لهذا الفن فی مصر کانوا فی ذلک العصر کثیرین جدّا، لهذا لا یکون هذا الکلام موضع استغراب و تعجب.خاصّه أنّ القرآن الکریم فی سوره«طه»الآیه(۶٧)یقول: فَأَوْجَسَ فِی نَفْسِهِ خِیفَهً مُوسیٰ أی أنّ المشهد کان عظیما جدّا و رهیبا إلی درجه أن موسی شعر بالخوف قلیلا-و إن کان ذلک الخوف-حسب تصریح نهج البلاغه- (١) لأجل أنّه خشی أن من الممکن أن

ص:١۵١

١- ١) الخطبه،۴.

يتأثر الناس بذلك المشهد العظيم،فيكون إرجاعهم إلى الحق صعبا،و على أى حال فإنّ ذلك يكشف عن عظمه ذلك المشهد و رهبته.

۲-الاستفاده من السلاح المشابه

من هذا البحث يستفاد-بجلاء و وضوح-أنّ فرعون بالنظر إلى حكومته العريضه فى أرض مصر،كانت له سياسات شيطانيه مدروسه،فهو لم يستخدم لمواجهه موسى و أخيه هارون من سلاح التهديد و الإرعاب،بل سعى للاستفاده من أسلحه مشابهه-كما يظن-فى مواجهه موسى،و من المسلّم أنّه لو نجح فى خطّته لما بقى من موسى و دينه أى أثر أو خبر،و لكان قتل موسى عليه السلام فى تلك الصوره أمرا سهلا جدا،بل و موافقا للرأى العام،جهلا منه بأنّ موسى لا يعتمد على قوه إنسانيه يمكن معارضتها و مقاومتها،بل يعتمد على قوّه أزليه إلهيه مطلقه،تحطّم كلّ مقاومه،و تقضى على كل معارضه.

و على أيه حال،فإنّ الاستفاده من السلاح المشابه أفضل طريق الإنتصار على العدو المتصلّب،و تحطيم القوى الماديه.

فى هذه اللحظه التى اعترت الناس فيها حاله من النشاط و الفرح،و تعالت صيحات الابتهاج من كل صوب،و علت وجوه فرعون و ملائه ابتسامه الرضى، و لمع فى عيونهم بريق الفرح،أدرك الوحى الإلهى موسى عليه السلام و أمره بإلقاء العصى، و فجأه انقلب المشهد و تغير،و بدت الدهشه على الوجوه،و تزعزت مفاصل فرعون و أصحابه كما يقول القرآن الكريم: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ .

و«تلقف»مشتقه من ماده«لقف»(على وزن سقف)بمعنى أخذ شىء بقوه و سرعه،سواء بواسطه الفم،و الأسنان،أو بواسطه الأيدى،و لكن تأتى فى بعض الموارد بمعنى البلع و الابتلاع أيضا،و الظاهر أنّها جاءت فى الآيه الحاضره بهذا

المعنى.

و«يأفكون»مشتّه من ماده«إفك»على وزن«مسك»و هى تعنى فى الأصل الانصراف:عن الشىء،و حيث أن الكذب يصرف الإنسان من الحق أطلق على الكذب لفظ«الإفك».

و هناك احتمال آخر فى معنى الآيه ذهب إليه بعض المفسّرين،و هو أن عصا موسى بعد أن تحولت إلى حيّه عظيمه لم تبتلع أدوات سحر السحره،بل عطّلها عن العمل و الحركه و أعادها إلى حالتها الأولى.و بذلك أوصد هذا العمل طريق الخطأ على الناس،فى حين أن الابتلاع لا يمكنه أن يقنع الناس بأنّ موسى لم يكن ساحرا أقوى منهم.

و لكن هذا الاحتمال لا يناسب جمله«تلقف»كما لا يناسب مطالب الآيه، لأنّ«تلقف»-كما أسلفنا-تعنى أخذ شىء بدقه و سرعه لا قلب الشىء و تغييره.

هذا مضافا إلى أنّه لو كان المقرر أن يظهر إعجاز موسى عليه السلام عن طريق إبطال سحر السحره،لم تكن حاجه إلى أن تتحول العصى إلى حيّه عظيمه،كما قال القرآن الكريم فى بدايه هذه القصّه.

و بغض النظر عن كل هذا،لو كان المطلوب هو إيجاد الشك و الوسوسه فى نفوس المتفرجين،لكانت عوده وسائل السحره و أدواتهم إلى هيئتها الأولى-أيضا-قابله للشك و الترديد،لأنّه من الممكن أن يحتمل أن موسى بارع فى السحر براعه كبرى بحيث أنّه استطاع إبطال سحر الآخرين و إعادتها إلى هيئتها الأولى.

بل إن الذى تسبب فى أن يعلم الناس بأن عمل موسى أمر خارق للعاده، و أنّه عمل إلهى تحقق بالاعتماد على القدره و الإلهيه المطلقه،هو أنّه كان فى مصر آنذاك مجموعه كبيره من السحره الماهرين جدّا،و كان أساتذه هذا الفن وجوها معروفه فى تلك البيئه،فى حين أن موسى الذى لم يكن متصفا بأى واحده من

هـذه الصـفات،و كـان-فى الظـاهر-رجلاـ مغمورا،نهض من بين بنى إسـرائيل، و أقـدم على مثـل ذلـك العمل الـذى عجز أمامه الجميع.و من هنا علم أن هناك قوه غيّبه تدخلت فى عمل موسى،و أن موسى ليس رجلا عاديا.

و فى هـذا الوقت ظهر الحق،و بطلت أعمـالهم المزّيفه فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ .لأـنّ عمل موسـى كان عملا واقعيا،و كانت أعمالهم حفنه من الحيل و من أعمال الشعبذه،و لا شك أنّه لا يستطيع أى باطل أن يقاوم الحق دائما.

و هذه هى أوّل ضربه توجهت إلى أساس السلطان الفرعونى الجبّار.

ثمّ يقول تعالى فى الآيه اللاحقه:و بهذه الطريقه ظهرت آثار الهزيمه فيهم، و صاروا جميعا أذلاء: فَغُلِبُوا هُنٰالِكَ وَ انْقَلَبُوا صٰاغِرِينَ .

و بالرغم من أنّ المؤرخين ذكروا فى كتب التاريـخ قضايا كثيره حول هـذه الواقعه،و لكن حتّى من دون نقل ما جاء فى التواريخ يمكن الحـدس أيضـا بما حـدث فى هـذه الساعه من اضـطراب فى الجماهير المتفرجه...فجماعه خالفوا بشـدّه بحيث أنّهم فرّوا و هربوا،و أخذ آخرون يصيحون من شدّه الفزع،و بعض أغمى عليه.

و أخـذ فرعون و ملأه ينظرون إلى ذلك المشـهد مبهوتين مستوحشـين،و قـد تحدّرت على وجوههم قطرات العرق من الخجل و الفشل،فأجمعوا يفكرون فى مسـتقبلهم الغامض المبهم،و لم يـدر فى خلـدهم أنّهم سـيواجهون مثل هذا المشـهد الرهيب الذى لا يجدون له حلاّ.

و الضـربه الأقوى كانت عند ما تغير مشـهد مواجهه السـحره لموسى عليه السلام تغييرا كلّيا،و ذلك عند ما وقع السحره فجأه على الأرض ساجدين لعظمه اللّه وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سٰاجِدِينَ .

ثمّ نادوا بأعلى صوتهم و قٰالُوا آمَنّٰا بِرَبِّ الْعٰالَمِينَ رَبِّ مُوسىٰ وَ هٰارُونَ .

و بذكر هذه الجمله بينوا-بصراحه-الحقيقه التاليه و هى:أنّنا آمنا بربّ هو

غير الربّ المختلق،المصطنع،إنّه الربّ الحقيقى.

بل لم يكتفوا بلفظه«ربّ العالمين»أيضا،لأنّ فرعون كان يـدعى أنّه ربّ العالمين،لهـذا أضافوا:«ربّ موسـى و هارون»حتى يقطعوا الطريق على كل استغلال.

و لم يكن فرعون و الملأـ يتوقعون هـذا الأـمر مطلقـا،يعنى أنّ الجماعه التى كان يعلّق الجميع آمالهم عليها للقضاء على موسـى و دعـوته،أصـبحت فى الطليعه من المؤمنين بموسـى و دعوته،و وقعوا ساجـدين للّه أمـام أعين النـاس عـامّه، و أعلنوا عن تسـليمهم المطلق و غير المشروط لدعوه موسى عليه السلام.

على أنّ هذا الموضوع الذى غيّر أناسا بمثل هذه الصوره،يجب أن لا يكون موضوع استغراب و تعجب،لأنّ نور الإيمان و التوحيد موجود فى جميع القلوب، و يمكن أن تخفيه بعض الموانع و الحجب الاجتماعيه مدّه طويله أو قصـيره، و لكن عند ما تهب بعض العواصف بين حين و آخر تنزاح تلك الحجب،و يتجلّى ذلك النور و يأخذ بالأبصار.

و بخاصّه أن السحره المذكورين كانوا أساتذه مهره فى صناعتهم،و كانوا أعرف من غيرهم بفنون عملهم و رموز سحرهـم،فكانوا يعرفون-جيدا-الفرق بين«المعجزه»و«السحر»فالأمر الذى يحتاج الآخرون لمعرفته إلى المطالعه الطويله و الدقه الكبيره،كان واضحا عند السحره و بينا،بل أوضح و أبين من الشمس فى رابعه النهار.

إنّهم مع معرفتهم بفنون و رموز السـحر الذى تعلموه طوال سـنوات،عرفوا و أدركوا أن عمل موسـى لم يكن يشـبه-أبدا-السحر،و أنّه لم يكن نابعـا من قـدره البشـر،بل كان نابعا من قـدره فوق الطبيعه و فوق البشـر،و بـذلك لا مجال للاسـتغراب و التعجب فى اعلانهم إيمانهم بموسى بمثل تلك السرعه و الصراحه و الشجاعه و عدم الخوف من المستقبل.

ص :١٥٥

و جمله«ألقی السحره»التی جاءت فی صیغه الفعل المبنی للمجهول،شاهد ناطق علی الاستقبال البالغ لدعوه موسی و تسلیم السحره المطلق له علیه السلام.یعنی أنّ جاذبیه موسی کان لها من الأثر القوی البالغ فی قلوب و نفوس أولئک السحره، بحیث أنّهم سقطوا علی الأرض من دون اختیار،و دفعهم ذلک إلی الإقرار و الاعتراف.

الآيات [سوره الأعراف (۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۶]

اشاره

قٰالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هٰذٰا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي اَلْمَدِينَهِ لِتُخْرِجُوا مِنْهٰا أَهْلَهٰا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۲۴) قٰالُوا إِنّٰا إِلىٰ رَبِّنٰا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ مٰا تَنْقِمُ مِنّٰا إِلاّٰ أَنْ آمَنّٰا بِآيٰاتِ رَبِّنٰا لَمّٰا جٰاءَتْنٰا رَبَّنٰا أَفْرِغْ عَلَيْنٰا صَبْراً وَ تَوَفَّنٰا مُسْلِمِينَ (۱۲۶)

التّفسير

اشاره

التّهديدات الفرعونيه الجوفاء:

عند ما توجهت ضربه جديده-بانتصار موسى على السحره و إيمانهم به- إلى أركان السلطه الفرعونيه،استوحش فرعون و اضطرب بشدّه و رأى أنّه إذا لم يظهر أى ردّ فعل فى مقابل هذا المشهد،فسيؤمن بموسى كل الناس أو أكثرهم، و ستكون السيطره على الأوضاع غير ممكنه،لهذا عمد فورا إلى عملين مبتكرين:

فى البدايه وجه اتهاما(لعلّه مرغوب عند السواد من الناس)إلى السحره،ثمّ

هـددهم بأشـدّ التهديـدات،و لكن على العكس من توقعـات فرعـون أظهر السـحره مقـاومه عجيبه تجـاه هـذين الموقفين،مقـاومه أغرقت فرعون و جهازه فى تعجب شديد،و أفشلت جميع خططه.و بهذه الطريقه وجهوا ضربه ثالثه إلى أركان السلطان الفرعونى المتزلزل،و قد رسمت الآيات اللاحقه هذا المشهد بصوره رائعه.

فى البـدايه يقول:إنّ فرعونـا قـال للسـحره:هـل آمنتم بموسـى قبـل أن آذن لكم قٰالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ؟! و كأنّ التغيير ب«بـه»لأجـل تحقير موسـى و الاـزدراء بـه،و كـأنّه بجملـه«قبـل أن آذن لكـم»أراد أن يظهر أنّـه يتحرى الحقيقـه و يطلب الحق،فلو كـان عمل موسى عليه السـلام يتسم بالحقيقه و الواقعيه لأذنت أنا للناس بأن يؤمنوا به،و لكن اسـتعجالكم كشـفت عن زيفكم،و أنّ هناك مؤامره مبيّنه ضد شعب مصر.

و على أيه حـال،أفـادت الجمله أعلاـه أنّ فرعون الجبار الغارق فى جنون السـلطه كان يـدعى أن لا يحق للشـعب أن يتصـرف أو يعمل أو يقول شيئا من دون إجازته و إذنه،بل لا يحق لهم أن يفكروا و يؤمنوا بدون أمره و إذنه أيضا!! و هذه هى أعلى درجات الاستعباد و الاستحمار،أن يكون شعب من الشعوب أسيرا و عبدا بحيث لا يحق له حتى التفكير و الإيمان القلبى بأحد أو بعقيده.

و هـذا هـو البرنامـج الـذى يواصـله«الاسـتعمار الجديـد»،يعنى أنّ المسـتعمرين لاـ يكتفـون بالاسـتعمار الاقتصـادى و السياسـى و الاجتماعى،بل يسعون إلى تقويه جذورهم عن طريق الاستعمار الفكرى.

و تتجلى مظـاهر هـذا الاسـتعباد الفكرى فى البلاد الشـيوعيه أكثر فأكثر، بالحـدود المغلقه،و الأسوار الحديـديه و الرقابه الشديـده المفروضه على كل شىء، و بخاصّه على الأجهزه الثقافيه.

ص :۱۵۸

و لكن فى البلاد الرأسماليه الغربيه التى يظن البعض أنّه لا يوجد استعباد فكرى و ثقافى على الأقل و أن لكل أحد أن يفكر و يختار بحريه،يمارس الاستعباد بنحو آخر،لأنّ الرأسماليين الكبار بتسلّطهم الكامل على الصحف المهمّه،و الإذاعات،و محطات التلفزيون،و جميع سبل الارتباط الجمعى و وسائل الإعلام،يفرضون على المجتمع أفكارهم و آراءهم فى لباس الحريه الفكريه،و يوجهون المجتمع-عن طريق عمليه غسيل دماغ واسعه و مستمره- إلى الوجهه التى يريدون،و هذا بلاء عظيم يعانى منه عصرنا الحاضر.

ثمّ يضيف فرعون قائلا إِنَّ هٰذٰا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَهِ لِتُخْرِجُوا مِنْهٰا أَهْلَهٰا .

و نظرا إلى الآيه(٧١)من سوره«طه»التى تقول إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ يتّضح أنّ مراد فرعون هو أنّ هناك مؤامره مدروسه و تواطؤا مبيّنا قد دبرتموه قبل مدّه للسيطره على أوضاع مصر و استلام زمام السلطه،لا أنّكم دبرتموه للتو و قبل قليل فى لقاء محتمل بينكم و بين موسى.

و من هنا يتّضح أنّ المراد من«المدينه»هو مجموع القطر المصرى،و الألف و اللام ألف و لام الجنس،و المراد من«لتخرجوا منها أهلها»هو تسلط موسى عليه السلام و بنى إسرائيل على أوضاع مصر،و إقصاء حاشيه فرعون و أعوانه عن جميع المناصب الحساسه،أو إبعاد بعضهم إلى النقاط البعيده من البلاد،و الآيه(١١٠) فى هذه السوره شاهده على ذلك أيضا.

و على كل حال،فإنّ هذه التهمه كانت خاويه و مفضوحه،إلى درجه أنّه لم يكن يقتنع بها إلاّ العوام و الجهله من الناس،لأنّ موسى عليه السلام لم يكن حاضرا فى مصر،و لم يلتق بأحد من السحره من قبل،و لو كان أستاذهم و كبيرهم الذى علمهم السحر،لوجب أن يكون معروفا و مشهورا فى جميع الأماكن،و أن يعرفه أكثر الناس،و هذه لم تكن أمورا يمكن إخفاؤها و كتمانها،لأنّ التواطؤ مع

أشخاص المنتشرين فی شتی مناطق مصر علی أمر بهذا القدر من الاهمیه غیر ممکن عملا.

ثمّ إنّ فرعون هـدّدهم بتهدیـد غـامض و لکنّه شدیـد و محکم،إذ قـال: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ !! و فی الآیه اللاحقه بیّن تفاصیل ذلک التهدیـد الـذی هـدّد به السـحره فاقسم بأن یقطع أیـدیهم و أرجلهم و یصـلبهم،إذ قال: لَأُقَطِّعَنَّ أَیْدِیَکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّکُمْ أَجْمَعِینَ .

و فی الحقیقه کـان مراده أن یقتلهم بالتعـذیب و التنکیـل، و یجعـل من هـذا المشـهد الرهیب درسـا للآخرین،لأن قطع الأیـدی و الأرجل،ثمّ الصـلب علی الشجر أمام الناس،و منظر تدفق الدم من أجسامهم و ما یرافق هذا من حالات النزع فوق المشانق إلی أن یموتوا،سیکون عبره لمن یعتبر(و لا بـدّ من ملاحظه أن الصـلب فی ذلک الزمان لم یکن یتمّ علی النحو الـذی یتمّ به الآن،و هو تعلیق المشنوق بوضع الحبل فی عنقه،بل کان الحبل یوضع تحت کتفیه حتی لا یموت بسرعه).

و لعل قطع الیـد و الرجل من خلاف،کان لأجل أن هذا العمل یتسـبب فی أن یموتوا بصوره أبطأ،و یتحملوا قدرا أکثر من الألم و العذاب.

و الجدیر بالتأمل أن البرامج التی انتهجها فرعون لمکافحه السـحره الذین آمنوا بموسی،کانت برامج عامّه فی مکافحه الجبارین و تعاملهم الوحشی الرخیص مع أنصار الحق و المنادین به،فهم من جانب یستخدمون حربه التهمه حتی یزعزعوا مکانه أنصار الحق فی نفوس الجمـاهیر،و من جانب آخر یتوسـلون بسـلاح القوه و القهر و التهدیـد لتحطیم إرادتهم،و لکن-کما نقرأ فی ذیل قصّه موسی-لم یستطع هذان السلاحان أن یفعلا شیئا فی نفوس أنصار الحق، و لن یفعلا.

لقد قاوم السحره كلتا حربتی فرعون،و أجابوه جواب رجل واحد:إنّنا نرجع إلی ربّنا إذن قالُوا إِنّا إِلی رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ .

یعنی إذا تحقق تهدیدک الثّانی(و هو القتل)فمعناه أنّنا سننال الشهاده فی سبیل الدفاع عن الحق،و هذا لا یوجب ضررا علینا،و لا ینقصنا شیئا،بل یعدّ سعاده و فخرا عظیما لنا.

ثمّ إنّهم للردّ علی تهمه فرعون،و لإیضاح الحقیقه لجماهیر المتفرجین علی هذا المشهد،و اثبات براءتهم من أی ذنب،قالوا:إنّ الإشکال الوحید الذی تورده علینا هو أنّنا آمنا بآیات اللّه و قد جاءتنا وَ ما تَنْقِمُ مِنّا إِلاّ أَنْ آمَنّا بِآیاتِ رَبِّنا لَمّا جاءَتْنا .

یعنی أنّنا لسنا مشاغبین،و لا متآمرین،و لا متواطئین ضدک،و لیس إیماننا بموسی یعنی أنّنا نرید استلام أزمه الحکم،و لا أن نخرج أهل هذه البلاد من دیارهم،و أنت نفسک تعلم أننا لسنا بهذا الصدد،بل نحن عند ما رأینا الحق و شاهدنا علائمه بوضوح أجبنا داعی اللّه و لبینا نداءه و آمنا به،و هذا هو ذنبنا الوحید فی نظرک لیس غیر.

و هکذا أظهروا لفرعون بالجمله الأولی أنّهم لا یخافون أی تهدید،و أنّهم یستقبلون جمیع الحوادث و التبعات حتی الشهاده بمنتهی الشهامه.و بالجمله الثّانیه ردّوا بصراحه علی الاتهامات التی وجهها فرعون إلیهم.

إن جمله«تنقم»مشتقه من ماده«نقمه»علی وزن«نعمه»و هی فی الأصل تعنی رفض شیء باللسان أو بالعمل و العقوبه.و علی هذا فإنّ الآیه أعلاه یمکن أن تکون بمعنی إنّ العمل الوحید الذی تنکره علینا هو أنّنا آمنا،أو یعنی أنّ العقوبه التی ترید أن تعاقبنا بها إنما هو لأجل إیماننا.

ثمّ إنّهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون و توجهوا إلی اللّه سبحانه،و طلبوا منه الصبر و الاستقامه،لأنّهم کانوا یعلمون أنّهم لا یستطیعون أن یقاوموا تلک

العقوبات الثقيله من دون نصره و تأييده و عونه،لهذا قالوا: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ .

و الملفت للنظر أنّهم بعباره أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أظهروا أن الخطر المحدق بهم بلغ الدرجه القصوى،فأعطنا يا ربّ أنت-أيضا-آخر درجات الصبر و الاستقامه،لأنّ«أفرغ»من ماده«الإفراغ»بمعنى صبّ السائل من وعاء حتى يفرغ.

الاستقامه الواعيه:

يمكن أن يتملك الإنسان عجب شديد عند أوّل اطلاعه على قصّه السحره فى زمان موسى عليه السلام الذين صاروا من المؤمنين الصادقين،هل يمكن أن يحدث مثل هذا الانقلاب و التحول العميق فى الروح الإنسانيه فى مثل هذه المدّه القصيره،بحيث يقطع الشخص كل علاقاته مع الصف المخالف،و يصير فى صف الموافق،ثمّ يدافع عن عقيدته الجديده بإصرار و عناد عجيبين إلى درجه أنّه يتجاهل مكانته و مصالحه و حياته جميعا،و يستقبل الشهاده بشجاعه منقطعه النظير،و بوجه مستبشر؟ و لكن هذا الاستغراب يتبدد إذا التفتنا إلى هذه النقطه،و هى أنّ هؤلاء-نظرا إلى سوابقهم الكثيره فى علم السحر-وقفوا جيدا على عظمه معجزه النّبى موسى عليه السلام و حقانيته،و سلكوا هذا السبيل عن وعى كامل...و هذا الوعى صار منشأ لعشق ملتهب سر بل كل وجودهم و كيانهم،و هو عشق لا يعرف حدّا و سدّا، و فوق جميع النوازع و الرغبات البشريه.

إنّهم كانوا يعلمون جيدا أى طريق يسلكونه؟و لماذا يجاهدون؟و من يكافحون؟و أى مستقبل مشرق ينتظر هذا الجهاد العظيم؟ أجل،إذا كان الإيمان مقرونا بالوعى الكامل فإنّه ينتهى إلى مثل هذا العشق

الملتهب الذی لا یکون هذا التفانی فی سبیله مثار للعجب.

و لهذا نری کیف أن السحره قالوا بصراحه و شجاعه(کما فی سوره طه الآیه (۷۲): قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَکَ عَلیٰ مَا جٰاءَنٰا مِنَ الْبَیِّنٰاتِ وَ الَّذِی فَطَرَنٰا فَاقْضِ مٰا أَنْتَ قٰاضٍ إِنَّمٰا تَقْضِی هٰذِهِ الْحَیٰاهَ الدُّنْیٰا .

و أخیرا-و کما جاء فی الرّوایات و کتب التأریخ-استقام أولئک الجماعه من السحره الذین آمنوا بموسی حتی نفّذ فرعون تهدیداته،و مثّل بأجسامهم تمثیلا مروعا،و صلبهم علی جذوع النخل علی مقربه من نهر النیل.و هکذا کتبت أسماؤهم مع أحرار التاریخ بأحرف من نور،و کانوا کما وصفهم المفسّر الکبیر العلاّمه الطبرسی:کانوا أوّل النهار کفارا سحره،و آخر النهار شهداء و برره.

و لکن مع الالتفات إلی أنّ مثل هذا الانقلاب و التحول و الاستقامه لیس ممکنا إلاّ فی ظلّ الإمدادات الإلهیه،و من المسلّم أن کلّ من اختار سلوک طریق الحق،شملته هذه العنایات الرّبانیه،و الإمدادات الإلهیه.

ص :۱۶۳

الآيات [سوره الأعراف (۷): الآيات ۱۲۷ الی ۱۲۹]

اشاره

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (۱۲۷) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۱۲۸) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۲۹)

التّفسير

اشاره

فی هذه الآیات یبیّن لنا القرآن الکریم مشهدا آخر من الحوار الذی دار بین فرعون و بین ملائه حول وضع موسی علیه السّلام،و یستفاد من القرائن الموجوده فی نفس الآیه أنّ محتوی هذه الآیات یرتبط بفتره ما بعد المواجهه بین موسی و بین السحره.

تقول الآیه فی البدایه: وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ .

ص:۱۶۴

يستفاد من هذا التعبير-جيدا-أنّ فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السّلام ترك موسى و بنى إسرائيل أحرارا(طبعا الحريه النسبيه)مدّه من الزمن،و لم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصه من دون أن يشتغلوا بالدعوه و التبليغ لصالح دين موسى عليه السّلام إلى درجه أن قوم فرعون قلقوا من انتشاره و نفوذ دعوتهم،فحضروا عند فرعون و حرضوه على اتّخاذ موقف مشدد تجاه موسى و بنى إسرائيل.

فهل فتره الحريه النسبيه هذه كانت لأجل الخوف و الرعب الذى أصاب فرعون بسبب ما رأى من معجزه موسى عليه السّلام القويه،أو للاختلاف الذى برز فى شعب مصر(و حتى القبطيين منهم)حول موسى و دينه،حيث أنّ جماعه رغبوا فى دينه،و كان فرعون شاهدا لهذه الحاله فلم يمكنه أن يتخذ فى مثل هذه الأجواء و الظروف موقفا متشددا من موسى و دينه.

كلا الاحتمالين قريبان إلى ذهن فرعون،و يمكن أن يكون كلاهما معا قد تركا أثرا فى نفسه و فكره.

و على كل حال فإنّ فرعون-بسبب تحذيرات أعوانه و حاشيته-صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بنى إسرائيل،فقال لحاشيته فى معرض الجواب على تحريضهم و تحذيرهم:سأقتل أبناءهم و استخدام نساءهم و نحن متفوقون عليهم على كل حال: قٰالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنٰاءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِسٰاءَهُمْ وَ إِنّٰا فَوْقَهُمْ قٰاهِرُونَ .

و قد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من لفظه«آلهتك»و الظاهر من الآيه هو أنّ فرعون كانت له معبودات و أصنام،و إن كان يفهم من الآيه(۴)من سوره النازعات أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلىٰ و من الآيه(۳۸)من سوره القصص مٰا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي إنّ فرعون كان أعظم إله لشعب مصر،أو على الأقل كان فرعون يعتبر نفسه أعظم معبود لشعب مصر و لكن مع ذلك كان قد اختار آلهه لنفسه و كان يعبدها.

و النقطه الأخرى أن فرعون عمد هنا إلى مكافحه جذريه و عميقه،و قرر

تحطیم قوه بنی إسرائیل تحطیما کاملا،و ذلک بالقضاء علی المقاتلین و رجال الحرب بقتل أبناء بنی إسرائیل و استئصالهم،و یستبقی نساءهم و بناتهم لاسترقاقهن و استخدامهن،و هذا هو نهج کل مستعمر قدیم و جدید،فهو یقضی علی الرجال العالمین و القوی المؤثره فی المواجهه،أو یقتل فیهم روح الرجوله و الشهامه و الغیره و الحمیه بالوسائل المختلفه،و یستبقی غیر المؤثرین فی هذا المجال.

علی أنّه یحتمل-أیضا-أن فرعون کان یرید أن یبلغ هذا الکلام إلی مسامع بنی إسرائیل،فتتحطم معنویاتهم من جهتین:أوّلاهما من جهه قتل أبنائهم و رجال مستقبلهم،و الأخری:من جهه وقوع نسائهم و أعراضهم فی أیدی العدو.

و علی کل حال أراد بعباره إِنّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ أن یزیل الخوف و القلق من قلوب حاشیته و أعوانه،و یخبرهم بأنّه مسیطر علی الأوضاع سیطره کامله.

سؤال:

و هنا یطرح سؤال،و هو:لماذا لم یقرر فرعون قتل موسی،و إنّما قرر-فقط- القضاء علی أبناء بنی إسرائیل؟

جواب:

یستفاد من آیات سوره المؤمن-جیدا-أنّ فرعون کان عازما فی البدایه علی قتل موسی،و لکن نصائح مؤمن آل فرعون المقترنه بالتهدید،فی أنّ قتل موسی یمکن أن یقترن بالخطر فیحتمل أن یکون مرسلا من اللّه حقیقه و واقعا، و أن کل ما یقوله من العقوبات الإلهیه یتحقق بمقتله،أثرت فی روح فرعون و فکره.

هذا مضافا إلی أنّ خبر انتصار موسی علی السحره انتشر فی کل مکان،

ص :۱۶۶

و وقع بسببه خلاف بين شعب مصر فى مخالفه أو تأييد موسى.و لعل فرعون خاف إن هو اتّخذ من موسى عليه السّلام موقفا حادا واجه ردّ فعل قوى من جانب الناس الذين تأثروا بهذه المسأله،و لهذا انصرف عن فكره قتل موسى عليه السّلام.

و الآيه اللاحقه بيّنت-فى الحقيقه-خطّه موسى التى اقترحها على بنى إسرائيل لمواجهه تهديدات فرعون،و شرح فيها شروط الغلبه على العدو، و ذكرهم بأنّهم إذا عملوا بثلاث مبادئ انتصروا على العدو حتما:

أوّلها:الاتكال على اللّه فقط قٰالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّٰهِ .

و الآخر:أن يثبتوا و لا يخافوا من تهديدات العدو: وَ اصْبِرُوا .

و للتأكيد على هذا المطلب،و من باب ذكر الدليل،ذكّرهم بأنّ الأرض كلّها ملك اللّه،و هو الحاكم عليها و المالك المطلق لها،فهو يعطيها لمن يشاء إِنَّ الْأَرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهٰا مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ .

و آخر هذه المبادئ هو أن يعتمدوا التقوى لأنّ العاقبه لمن اتّقى وَ الْعٰاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

هذه المبادئ و الشروط الثلاثه-أحدها فى العقيده(الاستعانه باللّه)و الثّانى فى الأخلاق(الصبر و الثبات)و الأخير فى العمل(التقوى)-ليست شرائط انتصار قوم بنى إسرائيل وحدهم على العدو،بل كل شعب أراد الغلبه على أعدائه لا بدّ له من تحقيق هذه البرامج الثلاثه فالأشخاص غير المؤمنين و الجبناء الضعفاء الإراده،و الشعوب الفاسقه الغارقه فى الفساد،إذا ما انتصرت فإنّ انتصارها يكون لا محاله مؤقتا غير باق.

و الملفت للنظر أنّ هذه الشروط الثلاثه كل واحد منها متفرع على الآخر، فالتقوى لا تتوفر من دون الثبات و الصبر فى مواجهه الشهوات،و أمام بهارج العالم المادّى،كما أنّ الصبر و الثبات لا يكون لهما أى بقاء و دوام من دون الإيمان

باللّه.

و فی آخر آیه من الآیات الحاضره یعکس القرآن الکریم شکایات بنی إسرائیل و عتابهم من المشکلات التی ابتلوا بها بعد قیام موسی علیه السّلام فیقول: قالُوا أُوذِینا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِیَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا فإذا متی یحصل الفرج؟! و کأنّ بنی إسرائیل مثل کثیر منّا کانوا یتوقعون أن تصلح جمیع الأمور بقیام موسی علیه السّلام فی لیله واحده...أن یزول فرعون و یسقط،و یهلک الجهاز الفرعونی برمته،و تصبح مصر بجمیع ثرواتها تحت تصرف بنی إسرائیل،و یتحقق کل ذلک عن طریق الإعجاز،من دون أن یتحمل بنو إسرائیل أیّ عناء.

و لکن موسی علیهم السّلام أفهمهم بأنّهم سینتصرون فی المآل،و لکن أمامهم طریقا طویلا،و إنّ هذا الإنتصار-طبقا للسنه الإلهیه-یتحقق فی ظل الاستقامه و الثبات و السعی و الاجتهاد،کما جاء ذلک فی الآیه الحاضره قالَ عَسی رَبُّکُمْ أَنْ یُهْلِکَ عَدُوَّکُمْ وَ یَسْتَخْلِفَکُمْ فِی الْأَرْضِ .

و ذکر کلمه«عسی»مثل کلمه«لعلّ»التی وردت فی کثیر من الآیات القرآنیه إشاره-فی الحقیقه-إلی أنّ لهذا التوفیق و الإنتصار شرائط،من دونها لا یصلون إلیه،(للوقوف علی المزید فی هذا المجال راجع ما کتبناه فی تفسیر الآیه ۸۴ من سوره النساء).

ثمّ یقول فی ختام الآیه:إنّ اللّه أعطاکم هذه النعمه،و أعاد إلیکم حریتکم المسلوبه کی ینظر کیف تتصرفون أنتم فَیَنْظُرَ کَیْفَ تَعْمَلُونَ ؟ یعنی ستبدأ-بعد الإنتصار-مرحله امتحانکم و اختبارکم،اختبار شعب کان فاقدا لکل شیء ثمّ حصل علی کل شیء فی ضوء الهدایه الإلهیه.

إنّ هذا التعبیر-هو ضمنا-إشعار بأنّکم سوف لا تخرجون من هذا الاختبار-فی المستقبل-بنجاح،و ستفسدون و تظلمون کما فعل من کان قبلکم.

و نقرأ

فی روایه وردت فی کتاب الکافی مرویه عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال:

«وجدنا فی کتاب علی صلوات اللّه علیه:إنّ الأرض للّه یورثها من یشاء من عباده و العاقبه للمتقین،أنا و أهل بیتی الذین أورثنا اللّه الأرض و نحن المتقون» (۱) و هذه إشاره إلی أن الحکم المذکور فی هذه الآیه حکم شامل،و قانون عام، و الأرض هی الآن-فی الحقیقه-للمتقین.

۱- ۱) التّفسیر نور الثقلین،المجلد الثانی،الصفحه ۵۶.

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۳۰ الی ۱۳۱]

اشاره

وَ لَقَدْ أَخَذْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِینَ وَ نَقْصٍ مِنَ اَلثَّمَرٰاتِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذٰا جٰاءَتْهُمُ اَلْحَسَنَهُ قٰالُوا لَنٰا هٰذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَهٌ یَطَّیَّرُوا بِمُوسیٰ وَ مَنْ مَعَهُ أَلاٰ إِنَّمٰا طٰائِرُهُمْ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لاٰ یَعْلَمُونَ (۱۳۱)

التّفسیر

اشاره

العقوبات التنبیهیه:

لقد کان القانون الإلهی العام فی دعوه الأنبیاء-کما قلنا فی تفسیر الآیه(۹۴) من نفس هذه السوره-هو أنّهم کلّما واجهوا معارضه کان اللّه تعالی یبتلی الأقوام المعاندین بأنواع المشاکل و البلایا،حتی یحسّوا بالحاجه فی ضمائرهم و أعماق نفوسهم،و تستیقظ فیهم فطره التوحید المتکسّله تحت حجاب الغفله عند الرفاه و الرخاء،فیعودوا إلی الإحساس بضعفهم و عجزهم،و یتوجهوا إلی المبدأ القادر مصدر جمیع النعم.

و فی أوّل آیه من الآیتین الحاضرتین إشاره إلی نفس هذا المطلب فی قصّه فرعون،إذ یقول تعالی: وَ لَقَدْ أَخَذْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِینَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرٰاتِ

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

.

و«السنين»جمع«سنه»بمعنى العام،و لكنّها إذا قرنت بلفظه«أخذ»أعطت معنى الابتلاء بالقحط و الجدب،و على هذا يكون معنى أخذته السنه هو:أصيب بالقحط و الجدب،و لعل علّه ذلک هی أن أعوام القحط و الجدب قليله بالقياس إلى أعوام الخصب و الخير،و على هذا إذا كان المراد من السنه السنين العاديه لم يكن ذلک موضوعا جديدا،و يتبيّن من ذلک أنّ المراد من السنين هی السنين الاستثنائيه،أی سنوات القحط و أعوام الجدب.

و كلمه«آل»كانت فی الأصل«أهل»ثمّ قلبت فصارت هكذا،و الأهل بمعنى أقرباء الإنسان و خاصته،سواء أقرباؤه أو زملاؤه و نظراؤه فی المسلک و التفكير و أعوانه.

و مع أنّ القحط و الجدب أصابا حاشيه فرعون و مؤيديه أجمع،و لكن الخطاب فی الآيه موجه إلى خصوص أقربائه و خاصته،و هو إشاره إلى أن المهم هو أن يستيقظ هؤلاء،لأنّ بيدهم أزمه الناس...أن يضلوا الناس،أو يهدونهم، و لهذا توجه الخطاب إليهم فقط،و إن كان البلاء قد أصاب الآخرين أيضا.

و يجب أن لا نستبعد هذه النقطه،و هی أن الجدب كان يعدّ بلاء عظيما لمصر، لأنّ مصر كانت بلدا زراعيا،فكان الجدب مؤذيا لجميع الطبقات،و لكن من المسلّم أنّ آل فرعون-و هم الأصحاب الأصليين للأراضی الزراعيه و إنتاجها- كانوا أكثر تضررا بهذا البلاء.

ثمّ إنّه يعلم من الآيه الحاضره أنّ الجدب استمر عدّه سنوات،لأنّ كلمه «سنين»صيغه جمع،و خاصّه أنّه أضيف إليها عباره نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرٰاتِ لأنّ الجدب المؤقت و العابر يمكن أن يترک شيئا من الأثر فی الأشجار و لكن عند ما يكون الجدب طويلا فإنّه يبيد الأشجار أيضا.و يحتمل أيضا أنّه علاوه على الجدب فانّ الفواكه و الثمار أصيبت بآفات قاتله كذلک.

و كأنّ جمله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ إشاره إلى هذه النقطه،و هى:أنّ التوجه إلى حقيقه التوحيد موجوده من البدايه فى الروح الآدميه،و لكنّه على أثر التربيه غير الصحيحه أو بطر النعمه ينساها الإنسان،و عند حلول البلايا و الأزمات يتذكر ذلك مجددا،و ماده«تذكر»تناسب هذا المعنى.

هذا و الجدير بالانتباه أنّ جمله لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ جاءت فى ذيل الآيه (۹۴)و هى مقدمه أخرى-فى الحقيقه-لأنّ الإنسان يتذكر أوّلا،ثمّ يخضع و يسلّم،أو يطلب من اللّه الصفح و المغفره.

و لكن بدل أن يستوعب«آل فرعون»هذه الدروس الإلهيه،و يستيقظوا من غفلتهم و غفوتهم العميقه،أساءوا استخدام هذا الظرف و الحاله، و فسّروها حسب مزاجهم،فإذا كانت الأحوال مؤاتيه و مطابقه لرغبتهم،و كانوا يعيشون فى راحه و استقرار قالوا:إنّ الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا،و صلاحنا فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هٰذِهِ .

و لكن عند ما تنزل بهم النوائب فإنّهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السّلام و جماعته فورا و يقولون هذا من شومهم: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسىٰ وَ مَنْ مَعَهُ .

و«يطّيروا»مشتقه من ماده«تطيّر»بمعنى التشاؤم،و أصلها من الطير،فقد كان العرب غالبا ما يتشاءمون بواسطه الطيور.و ربّما تشاءموا بصوت الغراب،أو بطيران الطير،فإذا طار من ناحيه اليسار اعتبروا ذلك علامه الشقاء و الفشل، و كلمه التطير تعنى مطلق التشاؤم.

و لكن القرآن الكريم قال فى معرض الردّ عليهم:اعلموا أنّ منشأ كل شؤم و بلاء أصابكم انّما هو من قبل اللّه،و أنّ الله تعالى أراد أن تصيبكم نتيجه أعمالكم المشؤومه،و لكن أكثرهم لا يعلمون أَلاٰ إِنَّمٰا طٰائِرُهُمْ عِنْدَ اللّٰهِ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ .

و الجدير بالتأمل أن هذا النمط من التفكير لم يكن خاصا بالفرعونيين،بل

ص:۱۷۲

هو أمر نلاحظه بوضوح الآن بين الشعوب المصابه بالأنانيه و الضلال،فهى-بغيه قلب الحقائق،و خداع ضميرها أو ضمائر الآخرين-كلما أصابها نجاح و تقدم اعتبرت ذلك ناشئا من جدارتها و كفاءتها،و إن لم يكن فى ذلك النجاح و التقدم أدنى شيء من تلك الكفاءه و الجداره،و بالعكس إذا أصابها أى إخفاق و شقاء نسبت ذلك فورا إلى الأجانب و إلى أيادى العدو الخفيّه أو المكشوفه،و إن كانوا هم بأنفسهم سبب ذلك الشقاء و الإخفاق.

يقول القرآن الكريم:إنّ أعداء الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يتوسلون بمثل هذا المنطق أيضا فى مقابل رسول اللّه(كما نقرأ فى الآيه ۷۸ من سوره النساء).

و فى مكان آخر يقول:إنّ المنحرفين هم هكذا(كما فى سوره فصلت الآيه ۵۰)و هذا فى الحقيقه هو أحد مظاهر الأنانيه و اللجاج البارز. (۱)

التفاؤل و التشاؤم(الفأل و الطيره):

مسأله التطيّر و التفاؤل و التشاؤم قد تكون منتشره فى مختلف المجتمعات البشريه،فيتفاءلون بأمور و أشياء و يعتبرونها دليل النجاح،و يتشاءمون بأمور و أشياء و يعتبرونها آيه الهزيمه و الفشل.فى حين لا توجد أيه علاقه منطقيه بين النجاح و الإخفاق و بين هذه الأمور،و بخاصّه فى مجال التشاؤم حيث كان له غالبا جانب خرافى غير معقول.

إنّ هذين الأمرين و إن لم يكن لهما أى أثر طبيعى إلاّ أنّه يمكن أن يكون لهما أثر نفسى لا ينكر،و إنّ التفاؤل غالبا يوجب الأمل و التحرك،و التشاؤم يوجب اليأس و الوهن و التراجع.

و لعله لأجل هذا لم ينه فى الرّوايات و الأحاديث الإسلاميه عن التفاؤل،

ص: ۱۷۳

---

۱ - ۱) ذكر«حسنه»محلاه بالألف و اللام و«إذا»و ذكر«سيئه»مع(إن)بصوره النكره إشاره إلى النعم كانت تنزل عليهم بصوره متتابعه،بينما كانت البلايا تنزل أحيانا.

بینما نهی عن التشاؤم بشدّه،

ففی حدیث معروف مروی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال:

«تفاءلوا بالخیر تجدوه» و قد شوهد فی أحوال النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الهداه علیهم السلام- أنفسهم-أنّهم ربّما تفاءلوا بأشیاء،مثلا عند ما کان المسلمون فی «الحدیبیه»و قد منعهم الکفار من الدخول إلی مکّه جاءهم«سهیل بن عمرو»مندوب من قریش، فلمّا علم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باسمه قال متفائلا باسمه:

«قد سهل علیکم أمرکم» (۱) و قد أشار العالم المعروف«الدمیری»و هو من کتّاب القرن الثامن الهجری، فی إحدی کتاباته إلی نفس هذا الموضوع،و قال:إنّما أحب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الفأل لأنّ الإنسان إذا أمل فضل اللّه کان علی خیر،و إن قطع رجاءه من اللّه کان علی شر، و الطیره فیها سوء ظن و توقع للبلاء (۲) و لکن فی مجال التشاؤم الذی یسمّیه العرب«التطیر»و«الطیره»ورد فی الأحادیث الإسلامیه-کما أسلفنا-ذم شدید،کما أشیر إلیه فی القرآن الکریم مرارا و تکرارا أیضا،و شجب بشدّه (۳) .

و من جمله ذلک ما

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «الطیره شرک» (۴) و ذلک لأن من یعتقد بالطیره کأنّه یشرکها فی مصیر الإنسان و تشیر بعض الأحادیث أنّه إذا کان للطیره أثر سیء فهو الأثر النفسی،

قال الإمام الصادق علیه السلام: «الطیره علی ما تجعلها،إن هونتها تهونت،و إن شددتها تشدّدت،و إن لم تجعلها شیئا لم تکن شیئا» (۵) و ورد أنّ طریقه مکافحه الطیره تتمثل فی عدم الاعتناء بها،

فقد روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «ثلاث لا یسلّم منها أحد:الطیره و الحسد و الظن.قیل:فما

۱- ۱) المیزان،المجلد ۱۹،الصحفه ۸۶.

۲- ۲) سفینه البحار،المجلد الثانی،الصفحه ۱۰۲.

۳- ۳) مثل سوره«یس»الآیه(۱۹)،و سوره النمل الآیه(۴۷)،و الآیه المطروحه علی بساط البحث هنا.

۴- ۴) المیزان فی ذیل الآیه المبحوثه هنا.

۵- ۵) المیزان،فی ذیل الآیه المبحوثه هنا.

نصنع؟قال:إذا تطيرت فامض(أی لا تعتن بها)و إذا حسدت فلا تبغ(أی لا تعمل بوحی منه شیئا)و إذا ظننت فلا تحقق».

و العجیب أنّ مسأله الفأل و الطیره کانت و لا تزال موجوده حتی فی البلاد الصناعیه المتقدمه،و فی أوساط من یسمّون بالمثقفین،بل و حتی النوابغ المعروفین،و من جملتها:یعتبر المرور من تحت السلّم عند الغربیین-و سقوط المملحه،و إهداء سکین،أمورا یتشاءم بها بشدّه.

علی أنّ وجود الفأل الجید-کما قلنا-لیس مسأله مهمّه،بل لها غالبا آثار حسنه طیبه،و لکن یجب مکافحه عوامل التشاؤم و فکره الطیره،و نبذها من الأذهان،و أفضل وسیله لمکافحتها هی تقویه روح التوکل،و الثقه باللّه و الاعتماد علیه کما أشیر إلی ذلک فی الأحادیث الإسلامیه.

ص:١٧۵

الآيتان [سوره الأعراف (۷): الآيات ۱۳۲ الی ۱۳۳]

اشاره

وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَهٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳)

التّفسير

اشاره

النّوائب المتنوعه:

فی هاتين الآيتين أشير إلى مرحله أخرى من الدروس المنبهه التی لقّنها اللّه لقوم فرعون،فعند ما لم تنفع المرحله الأولى،يعنی أخذهم بالجدب و السنين و ما ترتب عليه من الأضرار الماليه فی إيقاظهم و تنبيههم،جاء دور المرحله الثّانيه و تمثلت فی عقوبات أشدّ،فأنزل اللّه عليهم نوائب متتابعه مدمره،و لكنّهم- و للأسف-لم ينتبهوا مع ذلک.

و فی الآيه الأولى من الآيات المبحوثه يقول القرآن الكريم من باب المقدمه لنزول النّوائب:إنّهم بقوا يلجّون فی إنكار دعوه موسى،و قالوا:مهما تأتنا من آيه و تريد أن تسحرنا بها فإننا لن نؤمن بک: وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَهٍ لِتَسْحَرَنا بِها

فَمٰا نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ

.

إنّ التعبیر ب«الآیه»لعلّه من باب الاستهزاء و السخریه،لأنّ موسی علیه السلام وصف معاجزه بأنّها آیات اللّه،و لکنّهم کانوا یفسرونها بالسحر.

إنّ لحن الآیات و القرائن یفید أنّ الجهاز الإعلامی الفرعونی الذی کان-تبعا لذلک العصر-أقوی جهاز إعلامی،و کان النظام الحاکم فی مصر یستخدمه کامل الاستخدام...إنّ هذا الجهاز الإعلامی قد عبّأ قواه فی توکید تهمه السحر فی کل مکان،و جعلها شعارا عاما ضد موسی علیه السلام،لأنّه لم یکن هناک تهمه منها أنسب بالنسبه إلی معجزات موسی علیه السلام للحیلوله دون انتشار الدعوه الموسویه و نفوذها المتزاید فی الأوساط المصریه.

و لکن حیث أن اللّه سبحانه لا یعاقب أمّه أو قوما من دون أن یتمّ علیهم الحجّه قال فی الآیه اللاحقه:نحن أنزلنا علیهم بلایا کثیره و متعدده لعلهم یتنبهون ...فقال أولا: فَأَرْسَلْنٰا عَلَیْهِمُ الطُّوفٰانَ .

و کلمه«الطوفان»مشتقّه من ماده«الطوف»علی وزن«خوف»و تعنی الشیء الذی یطوف و یدور،ثمّ أطلقت هذه اللفظه علی الحادثه التی تحیط بالإنسان،و لکنّها أطلقت-فی اللغه-علی السیول و الأمواج المدمره التی تأتی علی کل شیء فی الأغلب،و بالتالی تدمر البیوت،و تقتلع الأشجار من جذورها.

ثمّ سلط الجراد علی زروعهم و أشجارهم(و الجراد).

و قد جاء فی الأحادیث أن هجوم أسراب الجراد کان عظیما جدّا إلی درجه أنّها وقعت فی أشجارهم و زروعهم أکلا و قضما و إتلافا،حتی أنّها أفرغتها من جمیع الغصون و الأوراق،و حتی أنّها أخذت تؤذی أبدانهم،بحیث تعالت صیحاتهم و استغاثاتهم.

و کلّما کان یصیبهم بلاء کانوا یلجأون إلی موسی علیه السلام و یسألونه أن یطلب من اللّه أن یرفع عنهم ذلک البلاء،فقد فعلوا هذا بعد الطوفان و الجراد أیضا،و قبل

موسى علیه السلام،و ارتفع عنهم البلاء و لکنّهم مع ذلک لم یکفّوا عن لجاجهم و تعنتهم.

و فی المرّه الثّالثه سلط علیهم القمل وَ الْقُمَّلَ .

و أمّـا مـا هو المراد من«القمل»فقـد وقع فیه کلام بین المفسّـرین،و لکن الظاهر أنّه نوع من الآفات الزراعیه التی تصـیب الغلات،و تفسدها و تتلفها.

و عنـد ما خفت أمواج هـذا البلاء،و اسـتمرّوا فی عنادهم سـلط اللّه علیهم فی المرحله الرّابعه،الضـفادع،فقـد تزاید نسل الضـفادع تزایدا شدیدا حتى أنّه تحول إلى بلاء عظیم عکّر علیهم صفو حیاتهم: وَ الضَّفٰادِعَ (۱) .

ففی کـل مکـان کـانت الضـفادع الصـغیره و الکبیره تزاحمهم،حتى فی البیوت و الغرف و الموائـد و أوانی الطعـام،بحیث ضاقت علیهم الحیاه بما رحبت،و لکنّهم مع ذلک لم یخضعوا للحق،و لم یسلّموا.

و فی هذا الوقت بالذات سلّط اللّه علیهم الدم.

قـال البعض:إنّ داء الرعـاف(و هو نزیف الـدم من الأـنف)شـاع بینهم کـداء عـام، و أصـیب الجمیع بـذلک.و لکن أکـثر الرّواه و المفسّرین ذهبوا إلى أن نهر النیل العظیم تغیر و صار لونه کلون الدم،بحیث صار تعافه الطباع،و لم یعد قابلا للانتفاع.

و قال تعالى فی ختام ذلک:إنّ هـذه الآیات و المعاجز الباهره-رغم أنّها أظهرت لهم حقانیه موسـى-و لکنّهم اسـتکبروا عن قبول الحق و کانوا مجرمین.

آیٰاتٍ مُفَصَّلاٰتٍ فَاسْتَکْبَرُوا وَ کٰانُوا قَوْماً مُجْرِمِینَ

.

و فی بعض الرّوایات نقرأ أن کل واحده من هذه البلایا کانت تقع فی سـنه واحده،یعنی أنّه أصابهم الطوفان فی سنه،و الجراد فی سنه أخرى،و الآفات الزراعیه فی سنه ثالثه،و هکذا.و لکن نقرأ فی بعض الرّوایات أنّه کان یفصل بین کل بلاء و آخر شهر واحد لا أکثر و على أی حال،لا شک أنّها کانت تقع بصوره

۱- ۱) الضّفادع جمع ضـفدعه و قد جاء ذکر هذا البلاء فی الآیه بصوره الجمع،و لکن البلایا السابقه جاءت فی صوره المفرد. و لعل هذا یفید أن اللّه سلّط علیهم أنواعا مختلفه من الضفادع.

منفصله،و فی فواصل زمنیه مختلفه (کما یقول القرآن:مفصلات)کی تکون هناک فرصه للتفکر و التنبه و الیقظه.

هذا و الجدیر بالانتباه أنّنا نقرأ فی الرّوایات أن هذه البلایا کانت تصیب آل فرعون و قومه خاصّه،و کان بنو إسرائیل فی معزل عن ذلک،و لا شک أنّ هذا نوع من الإعجاز،و لکن یمکن أن نبرر قسما من ذلک بتبریر علمی معقول،لأنّنا نعلم أنّ أجمل نقطه فی بلد مثل مصر هی شاطئا النیل و ضفتاه،و کانت هذه الشواطئ و الضفاف برمتها تحت تصرف الفرعونیین و القبطیین و محل سکناهم،فقصورهم الجمیله الشامخه،و مزارعهم الخضراء و بساتینهم العامره،کانت فی هذه الضفاف.

و بطبیعه الحال کان نصیب بنی إسرائیل الذین کانوا عبیدا للفرعونیین و القبطیین هی النقاط النائیه و الصحاری البعیده الشحیحه الماء.

و من الطبیعی أنّ الطوفان عند ما یحدث یکون الأقرب إلی الخطر ضفتا النیل و شاطئاه و من یسکنها،و کذا عند ما کانت الضفادع تخرج من الماء،و کذا انقلاب الماء إلی هیئه الدم کان یظهر فی میاه الفرعونیین الذین کانوا یسکنون إلی جانب النیل دون بنی إسرائیل،و أمّا الجراد و الآفات النباتیه فقد کانت تتعرض لها المناطق الزراعیه و البساتین الخضراء الوفیره المحصول فی الدرجه الأولی.

کل ما قیل فی الآیات السابقه جاء فی التوراه أیضا،و لکن ثمّه فروق واضحه بین محتویات القرآن الکریم و ما جاء فی التوراه راجع سفر الخروج الفصل السابع إلی العاشر من التوراه).

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۳۴ الی ۱۳۶]

اشاره

وَ لَمّٰا وَقَعَ عَلَیْهِمُ اَلرِّجْزُ قٰالُوا یٰا مُوسَی اُدْعُ لَنٰا رَبَّکَ بِمٰا عَهِدَ عِنْدَکَ لَئِنْ کَشَفْتَ عَنَّا اَلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِی إِسْرٰائِیلَ (۱۳۴) فَلَمّٰا کَشَفْنٰا عَنْهُمُ اَلرِّجْزَ إِلیٰ أَجَلٍ هُمْ بٰالِغُوهُ إِذٰا هُمْ یَنْکُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنٰاهُمْ فِی اَلْیَمِّ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ کٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِینَ (۱۳۶)

التّفسیر

اشاره

نقض العهد المتکرر:

فی هذه الآیات نلاحظ رد فعل الفرعونیین فی مقابل النوائب و البلایا المتبّهه الإلهیّه،و یستفاد من مجموعها أنّهم عند ما کانوا یقعون فی مخالب البلاء ینتبهون من غفوتهم بصوره مؤقته شأنهم شأن جمیع العصاه، و کانوا یبحثون عن حیله للتخلص منها،و یطلبون من موسی علیه السلام أن یدعو لهم،و یسأل اللّه فی خلاصهم، و لکن بمجرّد أن یزول عنهم طوفان البلاء و تهدأ أمواج الحوادث،ینسون کل شیء و یعودون إلی سیرتهم الأولی.

و فی الآیه الأولی نقرأ: وَ لَمّٰا وَقَعَ عَلَیْهِمُ الرِّجْزُ قٰالُوا یٰا مُوسَی ادْعُ لَنٰا رَبَّکَ

بِمٰا عَهِدَ عِنْدَکَ

.

إنّهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى و يطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم،و أن يفى اللّه بما وعده له من استجابه دعائه: بِمٰا عَهِدَ عِنْدَکَ .

ثمّ يقولون:إذا دعوت فرفع عنّا البلاء فإنّنا نحلف لک بأن نؤمن بک،و نرفع طوق العبوديه عن بنى إسرائيل: لَئِنْ کَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَکَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَکَ بَنِی إِسْرٰائِيلَ .

و لفظه«الرجز»استعملت فى معانى كثيره:البلايا الصعبه،الطاعون،الوثن و الوثنيه،وسوسه الشيطان،و الثلج أو البرد الصلب.

و لكن جميع ذلک مصاديق مختلفه لمفهوم يشكّل الجذر الأصلى لتلک المعانى،لأن أصل هذه اللفظه كما قال«الراغب»فى«المفردات»هو الاضطراب.

و حسب ما قال«الطبرسى»فى«مجمع البيان»مفهومه الأصلى هو الانحراف عن الحق.

و على هذا الأساس إطلاق لفظ«الرجز»على العقوبه و البلاء،لأنّها تصيب الإنسان لانحرافه عن الحق،و ارتكاب الذنب،و كذا يكون الرجز نوعا من الانحراف عن الحق،و الاضطراب فى العقيده،و لهذا أيضا يطلق العرب هذا اللفظ على داء يصيب الإبل،و يسبب اضطراب أرجلها حتى أنّها تلجأ للمشى بخطوات قصيره،أو تمشى تاره و تتوقف تاره أخرى،فيقال لهذا الداء«الرجز»على وزن «المرض».

و السبب فى إطلاق الرجز على الأشعار الحربيّه،لأنّها ذات مقاطع قصيره و متقاربه.

و على كل حال،فإنّ المقصود من«الرجز»فى الآيات الحاضره هو العقوبات المنبهه الخمسه التى أشير إليها فى الآيات السابقه،و إن احتمل بعض المفسّرين أن يكون إشاره إلى البلايا الأخرى التى أنزلها اللّه عليهم و لم يرد ذكرها

فی الآیات السابقه،و منها الطاعون أو الثلج و البرد القاتل،الذی وردت الإشاره إلیها فی التوراه.

هذا،و قد وقع کلام بین المفسّرین فی المراد من عباره بِمٰا عَهِدَ عِنْدَکَ و أنّه ما هو المقصود من ذلک العهد الإلهی الذی أعطاه سبحانه لموسی؟ إنّ ما هو الأقرب إلی النظر هو أن المقصود من ذلک الوعد الإلهی هو أن یستجیب دعاءه إذا دعاه،و لکن یحتمل أیضا أن یکون المقصود هو عهد«النبوه» و تکون«الباء»باء القسم،یعنی نقسم علیک بحق مقام نبوتک إلاّ ما دعوت اللّه لیرفع عنّا هذا البلاء.

و فی الآیه اللاحقه یشیر إلی نقضهم للعهد و یقول: فَلَمّٰا کَشَفْنٰا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلیٰ أَجَلٍ هُمْ بٰالِغُوهُ إِذٰا هُمْ یَنْکُثُونَ (1) .

إنّ جمله إِلیٰ أَجَلٍ هُمْ بٰالِغُوهُ إشاره إلی أنّ موسی حدّد لهم وقتا و عیّن أمدا،فکان یقول لهم:فی الوقت الفلانی سیرفع هذا البلاء عنکم،حتی یتّضح لهم أنّ ارتفاع ذلک البلاء عنهم لیس أمرا اتفاقیا و صدقه،بل هو بفضل دعائه و طلبه من اللّه تعالی.

إنّ جمله إِذٰا هُمْ یَنْکُثُونَ و بالنظر إلی أن«ینکثون»فعل مضارع یدلّ علی الاستمراریه یفید أنّه قد تکرر تعهدهم لموسی علیه السلام ثمّ نقضهم للعهد،حتی أصبح نقض العهد جزءا من برنامجهم و سلوکهم الدائم.

و آخر هذه الآیات تبیّن-من خلال جملتین قصیرتین-عاقبه کلّ هذا التعنت،و نقض العهد،فتقول بصوره مجمله فَانْتَقَمْنٰا مِنْهُمْ .

ثمّ تشرح هذا الانتقام و تذکر تفصیله فَأَغْرَقْنٰاهُمْ فِی الْیَمِّ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ کٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِینَ (2)

1- 1) النکث علی وزن مکث،یعنی فل الحبل المفتول،ثمّ أطلق علی نقض المیثاق و العهد.

2- 2) یستفاد من مصادر اللغه،و کتب الأحادیث أن المراد من الیم هو«البحر»،و هو یطلق علی نهر النیل أیضا،أمّا أن لفظه الیم

إنّهم لم يكونوا غافلين واقعا،لأنّ موسى عليه السلام ذكّرهم مرارا و بالوسائل المختلفه المتعدده و نبههم،بل أنّهم تصرّفوا عمليا كما يفعل الغافلون،فلم يعتنوا بآيات اللّه أبدا.

و لا شك أن المقصود من الانتقام الإلهى ليس هو أنّ اللّه كان يقوم بردّ الفعل فى مقابل أعمالهم،كما يفعل الأشخاص الحاقدون الذين ينطلقون فى ردود أفعالهم من مواقع الحقد و الانتقام،بل المقصود من الانتقام الإلهى هو أن الجماعه الفاسده و غير القابله للإصلاح لا يحق لها الحياه فى نظام الخلق،و لا بدّ أن تمحى من صفحه الوجود.

و الانتقام فى اللغه العربيه-كما أسلفنا-يعنى العقوبه و المجازاه،لا ما هو شائع فى عرف الناس اليوم.

۲)

هل هى عربيه أو سريانيه أو هيرغلوفيه،فقد وقع فى ذلك كلام بين العلماء،يقول صاحب تفسير المنار و هو أحد علماء مصر المعروفين و الذى جمع وجوه اشتراك اللغات الهيروغلوفيه و العربيه و ألف كتاب المعجم الكبير فى هذا المجال نقل:أنه وجد بعد التحقيق أن لفظه اليم كانت فى اللغه المصريه تعنى البحر،و على هذا الأساس حيث أن هذه القصه تتعلق بمصر لهذا استفاد القرآن من لغات المصريين فى بيان هذه الحادثه.

الآیه [سوره الأعراف (۷): آیه ۱۳۷]

اشاره

وَ أَوْرَثْنَا اَلْقَوْمَ اَلَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ اَلْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا اَلَّتِی بارَکْنا فِیها وَ تَمَّتْ کَلِمَتُ رَبِّکَ اَلْحُسْنی عَلی بَنِی إِسْرائِیلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما کانَ یَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما کانُوا یَعْرِشُونَ (۱۳۷)

التّفسیر

اشاره

قوم فرعون و المصیر المؤلم:

بعد هلاک قوم فرعون،و تحطّم قدرتهم،و زوال شوکتهم،ورث بنو إسرائیل الذین طال رزوحهم فی أغلال الأسر و العبودیه أراضی الفراعنه الشاسعه و الآیه الحاضره تشیر إلی هذا الأمر وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِی بارَکْنا فِیها .

و«الإرث»کما أسلفنا یعنی فی اللغه المال الذی ینتقل من شخص إلی آخر من دون تجاره و معامله،سواء کان المنتقل منه حیا أو میّتا.

و«یستضعفون»مشتقّه من ماده«الاستضعاف»و تطابق کلمه«الاستعمار» التی تستعمل الیوم فی عصرنا الحاضر،و مفهومها هو أن یقوم جماعه بإضعاف

جماعه أخرى حتى يمكن للجماعه الأولى أن تستغل الجماعه الضعيفه فى سبيل مآربها و مصالحها،غايه ما هنالك أن هناك تفاوتا بين هذه اللفظه و لفظه الاستعمار،و هو:أن الاستعمار ظاهره تعمير الأرض،و باطنه الإباده و التدمير، و لكن الاستضعاف ظاهره و باطنه واحد.

و التعبير ب كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ إشاره إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بنى إسرائيل فى حاله ضعف دائميه:ضعف فكرى،و ضعف أخلاقى،و ضعف اقتصادى،و من جميع الجهات و فى جميع النواحى.

و التعبير ب مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا إشاره إلى الأراضى الواسعه العريضه التى كانت تحت تصرّف الفرعونيين،لأنّ الأراضى الصغيره ليس لها مشارق و مغارب مختلفه،و بعباره أخرى«ليس لها آفاق متعدده»و لكن الأراضى الواسعه جدا من الطبيعى أن يكون مشارق و مغارب بسبب كرويه الأرض فيكون التعبير بمشارق الأرض و مغاربها كنايه عن أراضى الفرعونيين الواسعه العريضه جدّا.

و جمله بارَكْنا فِيها إشاره إلى الخصب العظيم الذى كانت تتمتع به هذه المنطقه-يعنى مصر و الشام-التى كانت تعدّ آنذاك،و فى هذا الزمان أيضا،من مناطق العالم الخصبه الكثيره الخيرات.حتى أن بعض المفسّرين كتب:إن بلاد الفراعنه فى ذلك العصر كانت واسعه جدّا بحيث كانت تشمل بلاد الشام أيضا.

و على هذا الأساس لم يكن المقصود من العباره هو الحكومه على كل الكره الأرضيه،لأنّ هذا يخالف التاريخ حتما.بل المقصود هو حكومه بنى إسرائيل على كل أراضى الفراعنه و بلادهم.

ثمّ يقول: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا أى تحقق الوعد الإلهى لبنى إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين،بسبب صبرهم و ثباتهم.

و هذا هو الوعد الذى أشير إليه فى الآيات السابقه(الآيه ۱۲۸ و ۱۲۹ من نفس هذه السوره).

صحیح أنّ هذه الآیه تحدّثت عن بنی إسرائیل و نتیجه ثباتهم فی وجه الفرعونیین فقط،إلاّ أنّه یستفاد من الآیات القرآنیه الأخری أن هذا الموضوع لا یختص بقوم أو شعب خاص،بل إن کان شعب مستضعف نهض و حاول تخلیص نفسه من مخالب الأسر و الاستعمار،استعان فی هذا السبیل بالثبات و الاستقامه، سوف ینتصر آخر المطاف و یحرر الأراضی التی احتلها الظلمه الجائرون.

ثمّ یضیف فی آخر الآیه:نحن الذین دمرنا قصور فرعون و قومه العظیمه، و أبنیتهم الجمیله الشامخه،و کذا بساتینهم و مزارعهم العظیمه وَ دَمَّرْنٰا مٰا کٰانَ یَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ مٰا کٰانُوا یَعْرِشُونَ .

و«صنع»کما یقول«الراغب»فی«المفردات»یعنی الأعمال الجمیله،و قد وردت هذه اللفظه فی الآیه الحاضره بمعنی الهندسه الجملیه الرائعه التی کان یستخدمها الفرعونیین فی أبنیتهم.

و«ما یعرشون»فی الأصل تعنی الأشجار و البساتین التی تنصب بواسطه العروش و السقف،و لها جمال عظیم و روعه باهره.

و«دمرنا»من ماده«التدمیر»بمعنی الإهلاک و الإباده.

و هنا یطرح السؤال التالی و هو:کیف أبیدت هذه القصور و البساتین، و لماذا؟ و نقول فی الجواب:لا یبعد أن ذلک حدث بسبب زلازل و طوفانات جدیده و أمّا الضروره التی قضت بهذا الفعل فهی أن جمیع الفرعونیین لم یغرقوا فی النیل، بل غرق فرعون و جماعه من خواصّه و عسکره الذین کانوا یلاحقون موسی علیه السلام، و من المسلّم أنّه لو بقیت تلک الثروات العظیمه،و الإمکانیات الاقتصادیه الهائله بید من بقی من الفراعنه الذین کان عدد نفوسهم فی شتی نواحی مصر کثیرا جدا لاستعادوا بها شوکتهم،و لقدروا علی تحطیم بنی إسرائیل،أو الحاق الأذی بهم علی الأقل.أمّا الإمکانیات و الوسائل فإن من شأنه أن یجردهم من أسباب الطغیان إلی الأبد.

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٣٨ الی ١٤١]

اشاره

وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِی إِسْرٰائِیلَ اَلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلیٰ قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلیٰ أَصْنٰامٍ لَهُمْ قٰالُوا یٰا مُوسَی اِجْعَلْ لَنٰا إِلٰهاً کَمٰا لَهُمْ آلِهَهٌ قٰالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هٰؤُلاٰءِ مُتَبَّرٌ مٰا هُمْ فِیهِ وَ بٰاطِلٌ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (١٣٩) قٰالَ أَ غَیْرَ اَللّٰهِ أَبْغِیکُمْ إِلٰهاً وَ هُوَ فَضَّلَکُمْ عَلَی اَلْعٰالَمِینَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَیْنٰاکُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَسُومُونَکُمْ سُوءَ اَلْعَذٰابِ یُقَتِّلُونَ أَبْنٰاءَکُمْ وَ یَسْتَحْیُونَ نِسٰاءَکُمْ وَ فِی ذٰلِکُمْ بَلاٰءٌ مِنْ رَبِّکُمْ عَظِیمٌ (١٤١)

التّفسیر

اشاره

الاقتراح علی موسی بصنع الوثن:

فی هـذه الآیات إشاره إلی جانب حساس آخر من قصّه بنی إسـرائیل التی بدأت فی أعقاب الإنتصار علی الفرعونیین،و ذلک هو مسأله توجه بنی إسـرائیل إلی الوثنیه التی بحثت بدایاتها فی هذه الآیات،و جاءت نتیجتها النهائیه بصوره مفصّله فی سوره طه من الآیه(٨٦)إلی(٩٧)،و بصوره مختصره فی الآیه(١٤٨) فما بعد من هذه السوره.

ص:١٨٧

و فی الحقیقه فإنّه مع انتهاء قصه فرعون بدأت مشکله موسی الداخلیه الکبری،یعنی مشکلته مع جهله بنی إسرائیل،و الأشخاص المتعنتین و المعاندین.

و کانت هذه المشکله أشدّ علی موسی علیه السلام و أثقل بمراتب کثیره-کما سیّتضح من قضیه مواجهته لفرعون و الملأ و هذه هی خاصیه المشاکل و المجابهات الداخلیه.

فی الآیه الأولی: وَ جٰاوَزْنٰا بِبَنِی إِسْرٰائِیلَ الْبَحْرَ أی النیل العظیم.

و لکن فی مسیرهم مرّوا علی قوم یخضعون للأصنام فَأَتَوْا عَلیٰ قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلیٰ أَصْنٰامٍ لَهُمْ .

و«عاکف»مشتقّه من ماده«العکوف»بمعنی التوجه إلی شیء و ملازمته المقارنه لاحترامه و تبجیله.

فتأثّر الجهله الغافلون بهذا المشهد بشدّه إلی درجه قالوا لموسی من دون إبطاء:یا موسی اتّخذ لنا معبودا علی غرار معبودات هؤلاء قٰالُوا یٰا مُوسَی اجْعَلْ لَنٰا إِلٰهاً کَمٰا لَهُمْ آلِهَهٌ .

فانزعج موسی علیه السلام من هذا الافتراح الأحمق بشدّه،و قال لهم: قٰالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

بحوث

اشاره

و هنا لا بدّ من الانتباه إلی نقاط:

۱-الجهل منشأ الوثنیه

یستفاد من هذه الآیه بوضوح أنّ منشأ الوثنیه هو جهل البشر باللّه تعالی من جانب،و عدم معرفته بذاته المقدسه و أنّه لا یتصور له شبیه أو نظیر أو مثیل.

و من جانب آخر جهل الإنسان بالعلل الأصلیه لحوادث العالم الذی یتسبب

أحيانا فى أن ينسب الحوادث إلى سلسله من العلل الخرافيه و الخياليه و منها الأصنام.

و من جانب ثالث جهل الإنسان بما وراء الطبيعه،و قصور فكره إلى درجه أنّه لا يرى و لا يؤمن إلاّ بالقضايا الحسيه.

إن هذه الجهالات تضافرت و تعاضدت،و صارت على مدار التأريخ منشأ للوثنيه و عباده الأصنام،و إلاّ فكيف يمكن أن يأخذ إنسان واع فاهم عارف باللّه و صفاته،عارف بعلل الحوادث،عارف بعالم الطبيعه و عالم بما بعد الطّبيعه.قطعه من الصخر منفصله من الجبل مثلا،فيستعمل قسما منها فى بناء بيته،أو صنع سلالم منزله،و يتخذ قسما آخر معبودا يسجد أمامه،و يسلّم مقدراته بيده.

و الجدير بالذكر أنّنا نقرأ فى كلام موسى عليه السلام فى الآيه الحاضره كيف يقول لهم:أنتم غارقون فى الجهل دائما،(لأنّ تجهلون فعل مضارع و يدل غالبا على الاستمراريه)و بخاصّه أن متعلق الجهل لم يبيّن فى الآيه،و هذا يدل على عموميه المجهول و شموليته.

و الاغرب من كل ذلك أنّ بنى إسرائيل بقولهم اِجْعَلْ لَنٰا إِلٰهاً أظهروا أن من الممكن أن يصير الشىء التافه ثمينا- بمجرّد اختيارهم و جعلهم و وضع اسم الصنم و المعبود عليه-و توجب عبادته التقرب إلى اللّه،و عدم عبادته البعد عنه تعالى،و تكون عبادته منشأ للخير و البركه،و احتقاره منشأ للضرر و الخساره، و هذه هى نهايه الجهل و الغفله.

صحيح أنّ مقصود بنى إسرائيل لم يكن إيجاد معبود يكون خالق العالم،بل كان مقصودهم هو:اجعل لنا معبودا نتقرب بعبادته إلى اللّه،و يكون مصدرا للخير و البركه،و لكن هل يمكن أن يصير شىء فاقدا للروح و التأثير مصدرا للخيرات و التأثيرات بمجرّد تسمّيته معبودا و إلها؟هل الدافع لذلك العمل شىء سوى

الجهل و الخرافه،و الخيال الواهی و التصور الخاوی؟! (۱)

۲-أرضیه الوثنیه عند بنی إسرائیل

لا شک أنّه کانت لدی بنی إسرائیل-قبل مشاهده هذا الفریق من الوثنیین-أرضیه فکریه مساعده لهذا الموضوع،بسبب معاشرتهم الدائمه للمصریین الوثنیین،و لکن مشاهده هذا المشهد الجدید کان بمثابه شراره کشفت عن دفائن جبلّتهم،و علی کل حال فإنّ هذه القضیه تکشف لنا أنّ الإنسان إلی أیّ مدی یتأثر بعامل البیئه،فإنّ البیئه هی التی تستطیع أن تسوق الإنسان إلی اللّه، کما أنّ البیئه هی التی تسوقه إلی الوثنیه،و أنّ البیئه یمکن أن تصیر سببا لأنواع المفاسد و الشقاء،أو منشأ للصلاح و الطهر.(و إن کان انتخاب الإنسان نفسه هو العامل النهائی)و لهذا اهتم الإسلام بإصلاح البیئه اهتماما بالغا.

۳-الکفره بالنعم فی بنی إسرائیل

الموضوع الآخر الذی یستفاد من الآیه بوضوح،أنّه کان بین بنی إسرائیل أشخاص کثیرون ممن یکفرون النعمه و لا یشکرونها،فمع أنّهم رأوا کل تلک المعاجز التی أتی بها موسی علیه السلام،و مع أنّهم تمتعوا بکل تلک المواهب الإلهیه التی خصّهم اللّه بها،فإنّه لم ینقص عن هلاک عدوهم فرعون و نجاتهم من الغرق برهه من الزمن حتی نسوا کل هذه الأمور دفعه واحده،و طلبوا من موسی أن یصنع لهم أصناما لیعبدوها!! و نقرأ فی نهج البلاغه أنّ أحد الیهود اعترض علی المسلمین عند أمیر المؤمنین علیه السلام قائلا:ما دفنتم نبیّکم حتی اختلفتم فیه.فردّ علیه الإمام صلوات اللّه

۱- ۱) مرّت أبحاث أخری حول تاریخ الوثنیه فی تفسیر الآیه(۲۵۸)سوره البقره.

علیه قائلا:

«إنّما اختلفنا عنه لا ـ فیه،و لکنّکم ما جفّت أرجلکم من البحر حتی قلتم لنبیّکم اجعل لنا إلها کما لهم آلهه،فقال إنّکم قوم تجهلون».

أی أنّنا اختلفنا فی الأحادیث و الأوامر التی وصلت إلینا عن نبیّنا،لا أنّنا اختلفنا حول النّبی و نبوته،(فکیف بألوهیه اللّه)و لکنّکم ما إن خرجتم من میاه البحر إلاّ و اقترحتم علی نبیّکم أن اجعل لنا آلهه کما للوثنیین آلهه،و قال موسی:

إنّکم قوم تجهلون.

و فی الآیه اللاحقه نقرأ أنّ موسی علیه السلام-لتکمیل حدیثه لبنی إسرائیل-قال:إنّ هذه الجماعه الوثنیه التی ترونها سینتهی أمرها إلی الهلاک،و إن عملهم هذا باطل لا أساس له إِنَّ هٰؤُلاٰءِ مُتَبَّرٌ مٰا هُمْ فِیهِ وَ بٰاطِلٌ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ .

فعمل هذه الجماعه باطل،و جهودهم غیر منتجه،کما أن مصیر مثل هؤلاء القوم و کل قوم وثنیین و مشرکین هو الهلاک و الدمار.(لأنّ«متبر»مشتقّه من التبار أی الهلاک).

ثمّ تضیف الآیه التوکید:إنّ موسی علیه السلام قٰالَ أَ غَیْرَ اللّٰهِ أَبْغِیکُمْ إِلٰهاً وَ هُوَ فَضَّلَکُمْ عَلَی الْعٰالَمِینَ .

یعنی إذا کان الدافع إلی عباده اللّه هو حسّ الشکر،فجمیع النعم التی ترفلون فیها هی من اللّه،و إذا کان الدافع للعباده و العبودیه کون هذه العباده منشأ لأثر ما، فإنّ ذلک أیضا یرتبط باللّه سبحانه،و علی هذا الأساس مهما یکن الدافع،فلیس سوی اللّه القادر المنّان یصلح للعباده و مستحقا لها.

و فی الآیه اللاحقه یذکر القرآن الکریم إحدی النعم الإلهیه الکبری التی وهبها اللّه سبحانه لبنی إسرائیل،لیبعث بالالتفات إلی هذه النعمه الکبری حسّ الشکر فیهم،و لیعلموا أن اللائق بالخضوع و العباده هو الذات الإلهیه المقدسه فحسب،و لیس هناک أی دلیل یسوّغ لهم الخضوع أمام أصنام لا تضر و لا تنفع شیئا أبدا.

يقول فى البدايه:تذكّروا يوم أنجيناكم من مخالب آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائما وَ إِذْ أَنْجَيْنٰاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ .

و«يسومون»مشتقّه من ماده«سوم»و تعنى فى الأصل-كما قال«الراغب» فى«المفردات»-الذهاب فى طلب شىء،كما يستفاد من القاموس تضمنه لمعنى الاستمرار و المضّى أيضا،و على هذا يكون معنى يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ أنّهم كانوا يعذبونكم بتعذيبات قاسيه باستمرار.

ثمّ تمشيا مع أسلوب القرآن فى بيان الأمور بتفصيل بعد إحمال شرح هذا العذاب المستمر،و هو:قتل الأبناء،و استبقاء النساء للخدمه و الاسترقاق يُقَتِّلُونَ أَبْنٰاءَكُمْ،وَ يَسْتَحْيُونَ نِسٰاءَكُمْ .

و قد كان فى هذا اختبار عظيم من اللّه لكم وَ فِى ذٰلِكُمْ بَلاٰءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

و سياق الآيه يكشف عن أن هذه العباره قالها موسى عليه السلام عن اللّه لنبى إسرائيل عند ما رغبوا بعد عبورهم بحر النيل فى الوثنيه و عباده الأصنام.

صحيح أنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون المخاطبون فى هذه الآيه هم يهود عصر الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،لأنّ التّفسير الأوّل يحتاج إلى تقدير شىء بأن يقال:إن الآيه كانت فى الأصل هكذا:قال موسى:قال ربّكم...و هذا خلاف الظاهر.

و لكن مع الالتفات إلى أنّه لو كان المخاطبون فى هذه الآيه هم يهود عصر النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لانقطع ارتباط الآيه بما يسبقها و ما يلحقها بصوره كامله، و كانت هذه الآيه كالجمله المعترضه،يبدو للنظر أن التّفسير الأوّل أصح.

هذا و لا بدّ-ضمنا-من الالتفات إلى أن نظير هذه الآيه مرّ فى سوره البقره الآيه(۴۹)مع فارق جدا بسيط،و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآيه(۴۹)من سوره البقره.

ص:۱۹۲

الآیه [سوره الأعراف (٧): آیه ١۴٢]

اشاره

وَ وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنٰاهٰا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقٰاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قٰالَ مُوسىٰ لِأَخِيهِ هٰارُونَ اُخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِيلَ اَلْمُفْسِدِينَ (١۴٢)

التّفسیر

اشاره

المیعاد الکبیر:

فی هذا الآیه إشاره إلی مشهد من مشاهد حیاه بنی إسرائیل،و مشکله موسی علیه السلام معهم،و ذلک هو قصّه ذهاب موسی إلی میقات ربّه،و تلقی أحکام التّوراه عن طریق الوحی و کلامه مع اللّه،و اصطحاب جماعه من کبار بنی إسرائیل و شخصیاتهم إلی المیقات لمشاهده هذه الحادثه و إثبات أنّ اللّه لا یمکن أن یدرک بالأبصار،و التی ذکرت بعد قصّه عباده بنی إسرائیل للعجل و انحرافهم عن مسیر التوحید،و ضجّه السامریّ العجیبه.

یقول تعالی أوّلا: وَ وٰاعَدْنٰا مُوسىٰ ثَلاٰثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْنٰاهٰا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقٰاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً .

و کلمه«المیقات»مشتقّه من ماده«الوقت»بمعنی الموعد المضروب للقیام

بعمل ما، و يطلق عاده على الزمان،و لكنّه قد يطلق على المكان الذى يجب أن يتمّ العمل فيه،مثل«ميقات الحج»يعنى المكان الذى لا يجوز أن يجتازه أحد إلّا محرما.

ثمّ ذكرت الآيه أنّ موسى استخلف هارون و أمره بالإصلاح فى قومه،و أن لا يتبع سبيل المفسدين: وَ قٰالَ مُوسىٰ لِأَخِيهِ هٰارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لاٰ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ .

بحوث

اشاره

و هنا عدّه نقاط ينبغى التوقف عندها و الالتفات إليها:

١-لماذا التفكيک بين الثلاثين و العشر؟

إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه فى مجال الآيه الحاضره،هو:لماذا لم يبيّن مقدار الميقات بلفظ واحد هو الأربعين،بل ذكر أنّه واعده ثلاثين ليله ثمّ أتمّه بعشر،فى حين أنّه تعالى ذكر ذلك الموعد فى لفظ واحد هو أربعين فى الآيه(١٥١)من سوره البقره.

ذكر المفسّرون تفسيرات عديده لهذا التفكيک،و الذى يبدو أقرب إلى النظر و أكثر انسجاما مع أحاديث أهل البيت عليهم السلام هو أنّه و إن كان الواقع هو أربعين يوما، إلّا أنّه فى الحقيقه وعد اللّه موسى فى البدايه ثلاثين يوما ثمّ مدّده عشره أيّام أخرى،اختبارا لبنى إسرائيل كى يعرف المنافقون فى صفوف بنى إسرائيل.

فقد روى عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام أنّه قال: إنّ موسى عليه السلام لما خرج وافدا إلى ربّه واعدهم ثلاثين يوما،فلمّا زاده اللّه على الثلاثين عشرا قال قومه،قد أخلفنا

موسی فصنعوا ما صنعوا (من عباده العجل) (۱) .

و أمّا أن هذه الأيّام الأربعين صادفت أيّام أی شهر من الشهور الإسلامیه، فیستفاد من بعض الرّوایات أنّها بدأت من أوّل شهر ذی القعده و ختمت بالیوم العاشر من شهر ذی الحجه(عید الأضحی).و قد جاء التعبیر بلفظ أربعین لیله فی القرآن الکریم لا أربعین یوما،فالظاهر أنّه لأجل أن مناجاه موسی لربّه کانت تتمّ غالبا فی اللیالی.

۲-کیف نصب موسی علیه السلام هارون قائدا و إماما؟

السؤال الثّانی الذی یطرح نفسه هنا،هو:إنّ هارون کان نبیّا،فکیف نصبه موسی علیه السلام خلیفه له و إماما و قائد لبنی إسرائیل؟ و الجواب علی هذا السؤال یتّضح بعد الالتفات إلی أنّ مقام النّبوه شیء و مقام الإمام شیء آخر،و لقد کان هارون نبیّا،و لکن لم یکن قد أنیط به مقام الإمامه العامّه لبنی إسرائیل،بل کان مقام الإمامه و منصب القیاده العامّه خاصا بموسی علیه السلام،و لکنّه عند ما قصد أن یفارق قومه إلی میقات ربّه اختار هارون إماما و قائدا.

۳-لماذا طلب موسی علیه السلام من أخیه الإصلاح و عدم اتّباع المفسدین؟

السؤال الثّالث الذی یطرح نفسه هنا،هو:لماذا قال موسی علیه السلام لأخیه:أصلح و لا تتبع سبیل المفسدین، مع أن هارون نبی معصوم من المستحیل أن یتبع طریق المفسدین و ینهج نهجهم الفاسد؟ نقول فی الجواب:إنّ هذا-فی الحقیقه-نوع من التوکید لإلفات نظر أخیه

۱- ۱) تفسیر البرهان،المجلد الثّانی،الصفحه ۳۳-نور الثقلین،المجلد الثّانی،الصفحه ۶۱.

إلى أهميه مكانته فى بنى إسرائيل.و لعله أراد بهذا الموضوع أن يوضح لبنى إسرائيل و يفهمهم أن عليهم أن يمتثلوا لتعاليم هارون و نصائحه و مواعظه الحكيمه،و لا يستثقلوا أوامره و نواهيه،و لا يعتبروا تلك الأوامر و النواهى و كذلك قياده هارون لهم دليلا على قصرهم و صغرهم...بل يفعلون كما يفعل هارون حيث كان رغم منزلته البارزه و مقام نبوته تابعا و مطيعا لنصائح موسى عليه السلام.

۴-ميقات واحد أو مواقيت متعدده؟

السؤال الرّابع الذى يطرح نفسه هنا،هو:هل ذهب موسى إلى ميقات ربّه مرّه واحده،و هى هذه الأربعون يوما،و تلقى أحكام التوراه و شريعته السماويه عن طريق الوحى فى هذه الأربعين يوما،كما اصطحب معه جماعه من شخصيات بنى إسرائيل معه كممثلين عن قومه،ليشهدوا نزول أحكام التوراه عليه،و ليفهمهم أن اللّه لا يدرك بالأبصار أبدا،فى هذه الأربعين يوما نفسها؟ أم أنّه كانت له مع اللّه أربعينات متعدده،أحدها لأخذ الأحكام،و فى الأخرى اصطحب كبار قومه،و له-احتمالا-أربعون ثالثه لمقاصد و مآرب أخرى غير هذه،(كما يستفاد من سفر الخروج من التوراه الفعليه الفصل ۱۹ إلى ۲۴).

و هنا أيضا وقع كلام بين المفسّرين،و لكن الذى يبدو أنّه أقرب إلى الذهن- بملاحظه الآيه المبحوثه و الآيات السابقه عليها و اللاحقه لها-أن جميع هذه الأمور ترتبط بحادثه واحده لا متعدده،لأنّه بغض النظر عن أن عباره الآيه اللاحقه وَ لَمّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا تناسب تماما وحده هاتين القصّتين،فإنّ الآيه (۱۴۵)من نفس هذه السوره تفيد-بجلاء-أن قصّه ألواح التوراه،و استلام أحكام هذه الشريعه قد تمّت جميعها فى نفس هذا السفر أيضا.

۵-حدیث المنزله

اشاره

أشار کثیر من المفسّرین الشیعه و السنه-فی ذیل الآیه المبحوثه-إلی حدیث«المنزله»المعروف،بفارق واحد هو:أنّ الشیعه اعتبروا هذا الحدیث من الأدله الحیّه و الصریحه علی خلافه علی علیه السلام لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباشره و بلا فصل.

و لکی یتّضح هذا البحث ندرج هنا أوّلا أسانید و نص هذا الحدیث باختصار، ثمّ نبحث فی دلالته،ثمّ نتکلم حول الحملات التی وجهها بعض المفسّرین إلی الشیعه.

أسانید حدیث المنزله:

-۱

روی جمع کبیر من صحابه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول غزوه تبوک: أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خرج إلی تبوک و استخلف علیا فقال:أ تخلفنی فی الصبیان و النساء؟ قال:«ألا ترضی أن تکون منی بمنزله هارون من موسی إلاّ أنّه لیس نبیّ بعدی».

و هذا النص ورد فی أوثق الکتب الحدیثیه لدی أهل السنّه،یعنی صحیح البخاری و عن سعد بن أبی وقاص. (۱)

و

قد روی هذا الحدیث-أیضا-فی صحیح مسلم الذی یعدّ من المصادر الرئیسیه عن أهل السنّه،فی باب«فضائل الصحابه»عن سعد أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السلام: «أنت منی بمنزله هارون من موسی إلاّ أنّه لا نبیّ بعدی» (۲) .

فی هذا الحدیث الذی نقله صحیح مسلم أعلن عن الموضوع بصوره کلیّه، و لم یرد فیه ذکر عن غزوه تبوک.

و هکذا نقل حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذا فی سیاق ذکر غزوه تبوک بعد ذکر الحدیث بصوره کلّیه،بصوره مستقله کما جاء فی صحیح البخاری.

۱- ۱) صحیح البخاری،الجزء السّادس،الصفحه ۳،طبعه دار إحیاء التراث العربی.

۲- ۲) صحیح مسلم،المجلد الرّابع،الصفحه ۱۸۷،طبعه دار إحیاء التراث العربی.

و قد ورد عين هذا الموضوع فى سنن ابن ماجه أيضا (۱) .

و قد أضيف فى سنن الترمذى مطلب آخر،و هو أنّ معاويه قال لسعد ذات يوم:ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟!قال:أمّا ما ذكرت ثلاثا قالهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلن أسبّه،لئن تكون لى واحده منهن أحبّ إلىّ من حمر النعم.ثمّ عدد الأمور الثلاثه فكان أحدها ما قاله رسول اللّه لعلى فى تبوك و هو

قوله: «أمّا ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبوه بعدى» (۲) .

و قد أشير إلى هذا الحديث فى عشره موارد من مسند أحمد بن حنبل،تاره ذكرت فيه غزوه تبوك،و تاره من دون ذكر غزوه تبوك بل بصوره كلّيه (۳) .

و قد روى فى أحد هذه المواضع أنّه أتى ابن عباس-بينما هو جالس-تسعه رهط،فقالوا:يا ابن عباس،إمّا أن تقوم معنا،و إمّا أن تخلونا هؤلاء،فقال ابن عباس:بل أقوم معكم(إلى أن قال)و خرج بالناس(أى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)فى غزوه تبوك ثمّ نقل كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلى عليه السلام و أضاف:

«إنّه لا ينبغى أن أذهب إلاّ و أنت خليفتى» (۴) .

و جاء نفس هذا الحديث فى«خصائص النسائى» (۵) و هكذا فى مستدرك الحاكم (۶) ،و فى تاريخ الخلفاء للسيوطى (۷) و فى الصواعق المحرقه لابن حجر (۸)

ص: ۱۹۸

۱- ۱) المجلد الأوّل،الصفحه ۴۳،طبعه دار إحياء الكتب العربيه.

۲- ۲) المجلد الخامس،الصفحه ۶۳۸،طبعه المكتبه الإسلاميه لصاحبها الحاج رياض الشيخ.

۳- ۳) مسند أحمد بن حنبل،المجلد الأول،الصفحه ۱۷۳ و ۱۷۵ و ۱۷۷ و ۱۷۹ و ۱۸۳ و ۱۸۵ و ۲۳۱،و المجلد السّادس، الصفحه ۳۶۹ و ۴۳۸.

۴- ۴) مسند أحمد،المجلد الأوّل،الصفحه ۲۳۱.

۵- ۵) خصائص النسائى،ص ۴ و ۱۴.

۶- ۶) المجلد الثالث،الصفحه ۱۰۸ و ۱۰۹.

۷- ۷) المجلد الأوّل،الصفحه ۶۵.

۸- ۸) الصفحه ۱۷۷.

و سیره ابن هشام (۱) و السیره الحلبیه (۲) و کتب کثیره أخری.

و نحن نعلم أن هذه الکتب من الکتب المعروفه،و المصادر الأولی لأهل السنه.

و الجدیر بالذکر أن هذا الحدیث لم یروه«سعد بن أبی وقاص»عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده،بل رواه-أیضا-مجموعه کبیره من الصحابه الذین یتجاوز عددهم عشرین شخصا منهم:«جابر بن عبد اللّه»و«أبو سعید الخدری»و«أسماء بنت عمیس»و«ابن عباس»و«أم سلمه»و«عبد اللّه بن مسعود»و«أنس بن مالک» و«زید بن أرقم»و«أبو أیوب»و الأجدر بالذکر أنّ هذا الحدیث رواه عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم«معاویه بن أبی سفیان»و«عمر بن الخطاب»أیضا.

و

ینقل«محب الدین الطبری»فی«ذخائر العقبی» أنّه جاء رجل إلی معاویه فسأله عن مسأله فقال:سل عنها علی بن أبی طالب فهو أعلم.قال:یا أمیر المؤمنین(و یقصد به معاویه)جوابک فیها أحبّ إلیّ من جواب علیّ.

قال:بئسما قلت،لقد کرهت رجلا کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یغره بالعلم غرا،و قد قال له:أنت منّی بمنزله هارون من موسی إلاّ أنّه لا نبیّ بعدی،و کان عمر إذا أشکل علیه أخذ منه (۳) .

و

روی أبو بکر البغدادی فی«تأریخ بغداد»بسنده عن عمر بن الخطّاب أنّه رأی رجلا یسبّ علیّا علیه السلام فقال:إنّی أظنّک منافقا،سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:

«إنّما علیّ منّی بمنزله هارون من موسی،إلاّ أنّه لا نبی بعدی» (۴) .

۱- ۱) السیره النبویه،المجلد الثّالث،الصفحه ۱۶۳ طبعه مصر.

۲- ۲) السیره الحلبیه،المجلد الثّالث،الصفحه ۱۵۱ طبعه مصر.

۳- ۳) ذخائر العقبی،الصفحه ۷۹،طبعه مکتبه القدس،الصواعق المحرقه،ص ۱۷۷،طبعه مکتبه القاهره.

۴- ۴) تاریخ بغداد،المجلد السابع،الصفحه ۴۵۲ طبعه السعاده.

حديث المنزله في سبعه مواضع:

النقطه الأخرى،إنّ النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم-و خلافا لما يتصّوره البعض-لم يقل هذا البحث في على عليه السلام في غروه تبوك فقط،بل قال هذه العباره في عدّه مواضع منها:

۱-في المؤاخاه الأولى:يعنى في المرّه الأولى التى آخى فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين المهاجرين و اختار عليّا عليه السلام في هذه المؤاخاه لنفسه و

قال: «أنت منى بمنزله هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدى» (۱) .

۲-في يوم المؤاخاه الثّانيه:و كانت في المدينه بعد الهجره بخمسه أشهر، حيث آخى بين المهاجرين و الأنصار،و اصطفى لنفسه منهم عليّا و اتخذه من دونهم أخاه،و

قال له: «أنت منّى بمنزله هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدى و أنت أخي و وارثى» (۲) .

۳-أم سليم-التى كانت على جانب من الفضل و العقل،و كانت تعدّ من أهل السوابق،و هي من الدعاه إلى الإسلام،و استشهد أبوها و أخوها بين يدى النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فارقت زوجها لأنّه أبى أن يعتنق الإسلام،و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يزورها في بيتها بين الحين و الآخر و يسلّيها-تروى أم سليم هذه

أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لها ذات يوم: «إنّ عليّا لحمه من لحمى و دمه من دمى، و هو منّى بمنزله هارون من موسى» (۳) .

۴-

قال ابن عباس:سمعت عمر بن الخطاب يقول: كفّوا عن ذكر على بن أبي طالب فقد رأيت من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيه خصالا لئن تكون لى واحده منهن في آل الخطّاب أحبّ إلى ممّا طلعت عليه الشمس،كنت أنا و أبو بكر و أبو عبيده في نفر من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فانتهينا إلى باب أمّ سلمه و على

۱- ۱) كنز العمال،الحديث ۹۱۸،المجلد الخامس،الصفحه ۴۰،و المجلد السّادس،الصفحه ۳۹۰.

۲- ۲) منتخب كنز العمال،(في حاشيه مسند أحمد)،المجلد الخامس،من مسند أحمد،الصفحه ۳۱.

۳- ۳) كنز العمال،المجلد السّادس،الصفحه ۱۶۴.

قائم على الباب،فقلنا:أردنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:يخرج إليكم،فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسرنا إليه،فاتكأ على على بن أبى طالب ثمّ ضرب بيده منكبه ثمّ قال:

«أنت(يا على)أوّل المؤمنين إيمانا،و أوّلهم إسلاما،و أنت منّى بمنزله هارون من موسى» (۱) .

-۵

روى النسائى فى كتاب«الخصائص» أن عليا و زيدا و جعفر اختصموا فى من يكفل ابنه حمزه،و كان كل واحد منهم يريد أن يكفلها هو دون غيره فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلى:«أنت منّى بمنزله هارون من موسى» (۲) .

-۶

روى جابر بن عبد اللّه أنّه عند ما أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بسدّ جميع أبواب المنازل التى كانت مشرعه إلى المسجد إلاّ باب بيت على عليه السلام،قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«إنّه يحلّ لك فى المسجد ما يحلّ لى،و إنّك بمنزله هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبى بعدى» (۳) .

هذه الموارد الستّه النّبى هى غير غزوه تبوك،أخذناها برمتها من المصادر المعروفه لأهل السنّه،و إلاّ فإن هناك فى الرّوايات المرويّه عن طريق الشيعه موارد أخرى قال فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذه العباره فى شأن على عليه السلام أيضا.

من مجموع ذلك يستفاد-بوضوح و جلاء-أنّ حديث المنزله لم يكن مختصا بغزوه تبوك،بل هو أمر عام و دائم فى شأن على عليه السلام.

و من هنا يتّضح أيضا-أنّ ما تصوره بعض علماء السنّه مثل«الآمدى»من أن هذا الحديث يتكفل حكما خاصا فى مجال خلافه على عليه السلام و أنّه يرتبط بظرف غزوه تبوك خاصّه،و لا يرتبط بغيره من الظروف و الأوقات،تصوّر باطل أساسا، لأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كرّر هذه العباره فى مناسبات متنوعه ممّا يفيد أنّه كان حكما عاما.

۱- ۱) كنز العمال،المجلد السّادس،الصفحه ۳۹۵.

۲- ۲) خصائص النسائى،الصفحه ۱۹.

۳- ۳) ينابيع الموده،آخر باب ۱۷،الصفحه ۸۸ الطبعه الثّانيه دار الكتب العراقيه.

محتوى حديث المنزله:

لو درسنا-بموضوعيه و تجرّد-هذا الحديث،و تجنّبنا الأحكام المسبّقه و التحججات الناشئه من العصبيه،لاستفدنا من هذا الحديث أنّ عليّا عليه السلام كان له-بموجب هذا الحديث-جميع المنازل التى كانت لهارون فى بنى إسرائيل- إلاّ النّبوه-لأنّ لفظ الحديث عام،و الاستثناء(إلاّ أنّه لا نبىّ بعدى)يؤكّد هو الآخر هذه العموميّه،و لا يوجد أىّ قيد أو شرط فى هذا الحديث يخصصه و يقيّده.

و على هذا الأساس يمكن أن يستفاد من هذا الحديث الأمور التاليه:

١-إنّ الإمام عليا عليه السلام أفضل الأئمّه بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما كان لهارون مثل هذا المقام.

٢-إنّ عليا وزير النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و معاونه الخاص و عضده،و شريكه فى قيادته، لأنّ القرآن أثبت جميع هذه المناصب لهارون عند ما يقول حاكيا عن موسى قوله: وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هٰارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (١) .

٣-إنّه كان لعلى عليه السلام-مضافا إلى الأخوه الإسلاميه العامّه مقام الأخوه الخاصّه و المعنويه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۴-إنّ عليّا عليه السلام كان خليفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و مع وجوده لم يكن أى شخص آخر يصلح لهذا المنصب.

أسئله حول حديث المنزله:

لقد أورد بعض المتعصبين إشكالات و اعتراضات على هذا الحديث و التمسک به لإثبات خلافه على لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلا فصل.

١- ١) سوره طه،٢٩ الى ٣٢.

بعض الإشكالات و الاعتراضات واهیه جدا إلی درجه لا تصلح للطرح علی بساط المناقشه،بل لا یملک المرء عند السماع بها إلّا إن یتأسف علی حال البعض کیف صدّتهم الأحکام المسبقه غیر المدروسه عن قبول الحقائق الواضحه؟ أمّا البعض الآخر من الإشکالات القابله للمناقشه و الدراسه فنطرحها علی بساط البحث تکمیلا لهذه الدراسه:

الإشکال الأوّل:إن هذا الحدیث یبین-فقط-حکما خاصا محدودا،لأنّه ورد فی غزوه تبوک،و ذلک عند ما انزعج علی علیه السلام من استبقائه فی المدینه بین النساء و الصبیان،فسلّاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذه العباره:

و علی هذا الأساس کان المقصود هو:إنّک وحدک الحاکم و القائد لهذه النسوه و الصبیان دون غیرک.

و قد اتضح الجواب علی هذا الإشکال من الأبحاث السابقه-بجلاء-و تبیّن أنّه-علی خلاف تصور المعترضین-لم یرد هذا الحدیث فی واقعه واحده،و لم یصدر فی واقعه تبوک فقط،بل صدر فی موارد عدیده علی أساس کونه یتکفل حکما کلیّا،و قد أشرنا إلی سبعه موارد و مواضع منها مع ذکر أسانیدها من مؤلفات علماء أهل السنه.

هذا مضافا إلی أنّ بقاء علیّ علیه السلام فی المدینه لم یکن أمرا بسیطا یهدف المحافظه علی النساء و الصبیان فقط،بل لو کان الهدف هو هذا،لتیسر للآخرین القیام به،و إنّ النّبی لم یکن لیترک بطل جیشه البارز فی المدینه لهدف صغیر،و هو یتوجه إلی قتال امبراطوریه کبری(هی إمبراطوریه الروم الشرقیه).

إنّ من الواضح أنّ الهدف کان هو منع أعداء الرساله الکثیرین الساکنین فی أطراف المدینه و المنافقین القاطنین فی نفس المدینه،الذین کانوا یفکرون فی استغلال غیبه النّبی الطویله لاجتیاح المدینه قاعده الإسلام،و لهذا عمد رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن يخلف فى غيبته شخصيّه قويّه يمكنه أن يحفظ هذا المركز الحساس،و لم تكن هذه الشخصيه سوى على عليه السلام.

الإشكال الثّانى:نحن نعلم-كما اشتهر فى كتب التاريخ أيضا-أنّ هارون توفى فى عصر موسى عليه السلام نفسه،و لهذا لا يثبت التشبيه بهارون أن عليّا عليه السلام خليفه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد وفاته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لعل هذا هو أهم إشكال أورد على هذا البحث و التمسك به،و لكن جمله

«إلاّ أنّه لا نبى بعدى» تجيب على هذا الإشكال بوضوح،لأنّه إذا كان كلام

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يقول: أنت منّى بمنزله هارون من موسى، خاصا بزمان حياه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما كانت هناك ضروره إلى جمله

«إلاّ أنّه لا نبى بعدى» لأنّه إذا اختص هذا الكلام بزمان حياه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكان التحدث حول من يأتى بعده غير مناسب أبدا(إذ يكون لهذا الاستثناء-كما اصطلح فى العربيه-طابع الاستثناء المنقطع الذى هو خلاف الظاهر).

و على هذا الأساس يكشف وجود هذا الاستثناء-بجلاء-أنّ كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ناظر إلى مرحله ما بعد وفاته،غايه ما هنالك و لكى لا يلتبس الأمر،و لا يعتبر أحد عليّا عليه السلام نبيّا بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:إنّ لك جميع هذه المنازل و لكنّك لن تكون نبيّا بعدى.

فيكون مفهوم كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أن لك جميع ما لهارون من المناصب و المنازل،لا فى حياتى فقط،بل أنّ هذه المنازل تظلّ مستمره و باقيه لك إلاّ مقام النّبوه.

و بهذه الطريقه يتّضح أن تشبيه على عليه السلام بهارون،إنّما هو من حيث المنازل و المناصب،لا من حيث مدّه استمرار هذه المنازل و المناصب،و لو أنّ هارون كان يبقى حيا لكان يتمتع بمقام الخلافه لموسى و مقام النّبوه معا.

و مع ملاحظه أنّ هارون كان له-حسب صريح القرآن-مقام الوزاره

و المعاونه لموسی،و کذا مقام الشرکه فی أمر القیاده(تحت إشراف موسی)کما أنّه کان نبیّا،تثبت جمیع هذه المنازل لعلی علیه السلام إلاّ النّبوه،حتی بعد وفاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بشهاده عباره

(إلاّ أنّه لا نبی بعدی).

الإشکال الثّالث:إنّ الاستدلال بهذا الحدیث یستلزم أنّه کان لعلی علیه السلام منصب الولایه و القیاده حتی فی زمن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حین لا یمکن أن یکون هناک إمامان و قائدان فی عصر واحد.

و لکن مع الالتفات إلی النقطه التالیه یتّضح الجواب علی هذا الإشکال أیضا، و هی أنّ هارون کان له-من دون شک-مقام قیاده بنی إسرائیل حتی فی عصر موسی علیه السلام،و لکن لا بقیاده مستقله،بل کان قائدا یقوم بممارسه وظائفه تحت إشراف موسی.و قد کان علی علیه السلام فی زمان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم معاونا للنّبی فی قیاده الأمّه أیضا،و علی هذا الأساس یصیر قائدا مستقلا بعد وفاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و علی کل حال،فإنّ حدیث المنزله الذی هو من حیث الأسانید من أقوی الأحادیث و الرّوایات الإسلامیه التی وردت فی مؤلفات جمیع الفرق الإسلامیه بلا استثناء،إنّ هذا الحدیث یوضح لأهل الإنصاف من حیث الدلاله أفضلیه علی علیه السلام علی الأمّه جمعاء،و أیضا خلافته المباشره(و بلا فصل)بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و لکن مع العجب العجاب أنّ البعض لم یکتف برفض دلاله الحدیث علی الخلافه،بل قال:إنّه لا یتضمّن و لا یثبت أدنی فضیله لعلیّ علیه السلام...و هذا حقّا أمر محیّر.

ص:٢٠۵

الآيه [سوره الأعراف (٧): آيه ١٤٣]

اشاره

وَ لَمّٰا جٰاءَ مُوسىٰ لِمِيقٰاتِنٰا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قٰالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ قٰالَ لَنْ تَرٰانِى وَ لٰكِنِ اُنْظُرْ إِلَى اَلْجَبَلِ فَإِنِ اِسْتَقَرَّ مَكٰانَهُ فَسَوْفَ تَرٰانِى فَلَمّٰا تَجَلّٰى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسىٰ صَعِقاً فَلَمّٰا أَفٰاقَ قٰالَ سُبْحٰانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ اَلْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)

التّفسير

اشاره

المطالبه برؤيه اللّه:

فى هذه الآيات و الآيات اللاحقه يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياه بنى إسرائيل،و ذلك عند ما طلب جماعه من بنى إسرائيل من موسى عليه السلام-بإلحاح و إصرار-أن يروا اللّه سبحانه،و أنّهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه،فاختار موسى سبعين رجلا من قومه و اصطحبهم معه إلى ميقات ربّه، و هناك رفع طلبهم إلى اللّه سبحانه، فسمع جوابا أوضح لبنى إسرائيل كل شىء فى هذا الصعيد.

و قد جاء قسم من هذه القصّه فى سوره البقره الآيه(۵۵)و(۵۶)،و قسم آخر

ص: ۲۰۶

منه فی سوره النساء الآیه(۱۵۳)،و قسم ثالث فی الآیات المبحوثه هنا فی الآیه (۱۵۵)من هذه السوره.

ففی الآیات الحاضره یقول أوّلا: وَ لَمّا جاءَ مُوسیٰ لِمِیقاتِنا وَ کَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِی أَنْظُرْ إِلَیْکَ .

و لکن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الرّبوبی:کلا،لن ترانی أبدا قالَ لَنْ تَرانِی وَ لٰکِنِ انْظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَکانَهُ فَسَوْفَ تَرانِی فَلَمّا تَجَلّٰی رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَکًّا . (۱)

فلمّا رأی موسی هذا المشهد الرهیب تملکه الرعب إلی درجه أنّه سقط علی الأرض مغمی علیه وَ خَرَّ مُوسیٰ صَعِقاً .

و عند ما أفاق قال:ربّاه سبحانک،أنبت إلیک،و أنا أوّل من آمن بک فَلَمّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَکَ تُبْتُ إِلَیْکَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِینَ .

بحوث

اشاره

و فی هذه الآیه نقاط ینبغی التوقف عندها و الالتفات إلیها:

۱-لماذا طلب موسی رؤیه اللّه؟

إنّ أوّل سؤال یطرح نفسه هنا هو:کیف طلب موسی علیه السلام-و هو النّبی العظیم و من أولی العزم-رؤیه اللّه و هو یعلم جیدا أن اللّه لیس بجسم،و لیس له مکان،و لا هو قابل للمشاهده و الرؤیه،و الحال أن مثل هذا الطلب لا یلیق حتی بالأفراد العادیّین من الناس؟

۱- ۱) «دک»فی الأصل بمعنی سوّی الأرض،و علی هذا فالمقصود من عباره«جعله دکّا»هو أنّه حطم الجبال و سواها کالأرض و جاء فی بعض الرّوایات أنّ الجبل تناثر أقساما،سقط کلّ قسم منه فی جانب أو غار فی الأرض نهائیا.

صحیح أنّ المفسّرین ذکروا أجوبه مختلفه علی هذا السؤال،و لکن أوضح الأجوبه هو أن موسی علیه السلام طرح مطلب قومه،لأنّ جماعه من جهله بنی إسرائیل أصرّوا علی أن یروا اللّه حتی یؤمنوا(و الآیه ۱۵۳ من سوره النساء خیر شاهد علی هذا الأمر)و قد أمر موسی علیه السلام من جانب اللّه أن یطرح مطلب قومه هذا علی اللّه سبحانه حتی یسمع الجمیع الجواب الکافی،و قد صرّح بهذا فی روایه مرویّه عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام فی کتاب عیون أخبار الرضا أیضا (۱) .

و من القرائن الواضحه التی تؤید هذا التّفسیر ما نقرأه فی الآیه(۱۵۵)من نفس هذه السوره،من أنّ موسی علیه السلام قال بعد ما حدث ما حدث: أَ تُهْلِکُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنّا .

فیتّضح من هذه الجمله أنّ موسی علیه السلام لم یطلب لنفسه مثل هذا الطلب إطلاقا، بل لعلّ الرجال السبعین الذین صعدوا معه إلی المیقات هم أیضا لم یطلبوا مثل هذا الطلب غیر المعقول و غیر المنطقی،إنّهم کانوا مجرّد علماء،و مندوبین من جانب بنی إسرائیل خرجوا مع موسی علیه السلام لینقلوا فیما بعد مشاهداتهم لجماعات الجهله و الغافلین الذین طلبوا رؤیه اللّه سبحانه و تعالی و مشاهدته.

۲-هل یمکن رؤیه اللّه أساسا؟

نقرأ فی الآیه الحاضره أنّ اللّه سبحانه قال لموسی علیه السلام: اُنْظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَکانَهُ فَسَوْفَ تَرانِی فهل مفهوم هذا الکلام هو أنّ اللّه قابل للرؤیه أساسا؟ الجواب هو أن هذا التعبیر هو کنایه عن استحاله مثل هذا الموضوع،مثل جمله(حتی یلج الجمل فی سمّ الخیاط)و حیث أنّه کان من المعلوم أنّ الجبل یستحیل أن یستقر فی مکانه عند تجلّی اللّه له،لهذا ذکر هذا التعبیر.

ص:۲۰۸

۱- ۱) تفسیر نور الثقلین،المجلد الثّانی،الصفحه ۶۵.

۳-ما هو المراد من تجلّی اللّه؟

لقد وقع کلام کثیر بین المفسّرین فی هذا الصعید،و لکن ما یبدو للنظر من مجموع الآیات أنّ اللّه أظهر إشعاعه من أحد مخلوقاته علی الجبل(و تجلّی آثاره بمنزله تجلیه نفسه)و لکن ماذا کان ذلک المخلوق؟هل کان إحدی الآیات الإلهیه العظیمه التی بقیت مجهوله لنا إلی الآن،أو أنّه نموذج من قوه الذرّه العظیمه،أو الأمواج الغامضه العظیمه التأثیر و الدفع،أو الصاعقه العظیمه الموحشه التی ضربت الجبل و أوجدت برقا خاطفا للأبصار و صوتا مهیبا رهیبا و قوّه عظیمه جدا،بحیث حطّمت الجبل و دکّته دکّا (۱) ؟! و کأنّ اللّه تعالی أراد أن یری-بهذا العمل-شیئین لموسی علیه السلام و بنی إسرائیل:

الأوّل:أنّهم غیر قادرین علی رؤیه ظاهره جد صغیره من الظواهر الکونیه العظیمه،و مع ذلک کیف یطلبون رؤیه اللّه الخالق.

الثانی:کما أن هذه الآیه الإلهیه العظیمه مع أنّها مخلوق من المخلوقات لا أکثر،لیست قابله للرؤیه بذاتها،بل المرئی هو آثارها،أی الرجه العظیمه، و المسموع هو صوتها المهیب.أمّا أصل هذه الأشیاء أی تلک الأمواج الغامضه أو القوه العظیمه فلا هی تری بالعین،و لا هی قابله للإدراک بواسطه الحواس الأخری،و مع ذلک هل یستطیع أحد أن یشک فی وجود مثل هذه الآیه،و یقول:

حیث أنّنا لا نری ذاتها،بل ندرک فقط آثارها فلا یمکن أن نؤمن بها.

فإذا یصح الحکم هذا حول مخلوق من المخلوقات،فکیف یصح أن یقال عن اللّه تعالی:بما أنّه غیر قابل للرؤیه،إذن لا یمکننا الإیمان به،مع أنّه ملأت

۱- ۱) الصاعقه عباره عن التبادل الکهربائی بین قطع الغیوم و الکره الأرضیه،فالسحب ذات الکهربیه الموجبه عند ما تقترب إلی الأرض ذات الکهربیه السلبیه تندلع شراره من بینهما یعنی السطح المجاور من الکره الأرضیه،و هی خطره مدمره فی الغالب، و لکن البرق و الرعد ینشآن من التبادل الکهربائی بین قطعتین من السحاب أحدهما موجب،و الآخر سلبی،و حیث أنّهما یحدثان فی السماء لذلک لا یشکلان خطرا فی العاده إلاّ للطائرات.و السفن الفضائیه.

آثاره کل مکان؟ و هناک احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیه و هو أنّ موسی علیه السلام طلب لنفسه هذا المطلب حقیقه،و لکن لم یکن مقصوده مشاهدته بالعین التی تستلزم جسمانیته تعالی،و تنافی نبوه موسی علیه السلام،بل المقصود هو نوع من الإدراک الباطنی و المشاهده الباطنیه،نوع من الشهود الکامل الروحیّ و الفکری،لأنّه کثیرا ما تستعمل الرؤیه فی هذا المعنی مثلما نقول:«أنا أری فی نفسی قدره علی القیام بهذا العمل»فی حین أنّ القدره لیست شیئا قابلا للرؤیه،بل المقصود هو أنّنی أجد هذه الحاله فی نفسی بوضوح.

کان موسی علیه السلام یرید أن یصل إلی هذه المرحله من الشهود و المعرفه،فی حین أن الوصول إلی هذه المرحله لم یکن ممکنا فی الدنیا،و إن کان ممکنا فی عالم الآخره الذی هو عالم الشهود.

و لکن اللّه تعالی أجاب موسی علیه السلام قائلا:إنّ مثل هذه الرؤیه غیر ممکنه لک، و لإثبات هذا المطلب تجلّی للجبل،فتحطّم الجبل و تلاشی،و بالتالی تاب موسی من هذا الطلب (۱) .

و لکن هذا التّفسیر مخالف لظاهر الآیه المبحوثه هنا،و یتطلب ارتکاب التجوّز من جهات عدیده (۲) هذا مضافا إلی أنّه ینافی بعض الرّوایات الوارده فی تفسیر الآیه أیضا،فالحق هو التّفسیر الأول.

۱- ۱) ملخص من تفسیر المیزان،المجلد الثامن،الصفحه ۲۴۹ إلی ۲۵۴.

۲- ۲) فهو مخالف لمفهوم الرؤیه،و لإطلاق جمله«لن ترانی»و جمله«أ تهلکنا بما فعل السفهاء منّا» هذا بغض النظر عن أن طلب الشهود الباطنی لیس أمرا سیئا لیتوب منه موسی،فقد طلب إبراهیم من اللّه مثل هذا المطلب فی مجال المعاد أیضا و لبی اللّه طلبه. و لو أن الجواب فی مجال الشهود الباطنی للّه بالنفی لما کان دلیلا علی المؤاخذه و العقاب.

۴-مم تاب موسی علیه السلام؟

إنّ آخر سؤال یطرح نفسه هنا هو:أن موسی علیه السلام بعد أن أفاق قال: تُبْتُ إِلَیْکَ فی حین أنّه لم یرتکب إثما أو معصیه،لأن هذا الطلب کان من جانب بنی إسرائیل،و کان طرحه بتکلیف من اللّه،فهو أدی واجبه إذن،ثمّ إذا کان هذا الطلب لنفسه و کان مراده الشهود الباطنی لم یحسب هذا العمل إثما؟؟ و لکن یمکن الجواب علی هذا السؤال من جانبین:

الأوّل:أن موسی طلب مثل هذا الطلب بالنیابه عن بنی إسرائیل،و مع ذلک طلب من اللّه أن یتوب علیه،و أظهر الإیمان.

الآخر:أنّ موسی علیه السلام و إن کان مکلّفا بأن یطرح طلب بنی إسرائیل،و لکنّه عند ما تجلی ربّه للجبل و اتّضحت حقیقه الأمر،انتهت مدّه هذا التکلیف،و فی هذا الوقت لا بدّ من العوده إلی الحاله الأولی یعنی الرجوع إلی ما قبل التکلیف، و إظهار إیمانه حتی لا تبقی شبهه لأحد،و قد بیّن ذلک بجمله،إنی تُبْتُ إِلَیْکَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِینَ .

۵-اللّه غیر قابل للرؤیه مطلقا

إنّ هذه الآیه من الآیات التی تشهد بقوه و جلاء أنّ اللّه غیر قابل للرؤیه و المشاهده مطلقا،لأنّ کلمه«لن»حسب ما هو مشهور بین اللغویین للنفی الأبدی،و علی هذا الأساس یکون مفهوم جمله لَنْ تَرانِی إنّک لا ترانی لا فی هذا العالم و لا فی العالم الآخر.

و لو أنّ أحدا شکّک-افتراضا-فی أن یکون«لن»للنفی التأبیدی یدل إطلاق الآیه،و کون نفی الرؤیه ذکر من دون قید أو شرط علی أن اللّه غیر قابل للرؤیه فی مطلق الزمان و جمیع الظروف.

إنّ الأدله العقلیه هی الأخری تهدینا إلی هذه الحقیقه،لأنّ الرؤیه تختص

بالأجسام.

و على هذا الأساس،إذا جاء فی الأحادیث و الأخبار الإسـلامیه أو الآیات القرآنیه عباره«لقاء اللّه»فإن المقصود هو المشاهده بعین القلب و العقـل،لأنّ القرینه العقلیه و النقلیه أفضل شاهـد علی هـذا الموضوع و قـد کان لنا أبحاث أخری فی ذیل الآیه(۱۰۲)من سوره الأنعام فی هذا الصعید.

ص :۲۱۲

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۴۴ الی ۱۴۵]

اشاره

قالَ یا مُوسی إِنِّی اِصْطَفَیْتُکَ عَلَی اَلنّاسِ بِرِسالاتِی وَ بِکَلامِی فَخُذْ ما آتَیْتُکَ وَ کُنْ مِنَ اَلشّاکِرِینَ (۱۴۴) وَ کَتَبْنا لَهُ فِی اَلْأَلْواحِ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَهً وَ تَفْصِیلاً لِکُلِّ شَیْءٍ فَخُذْها بِقُوَّهٍ وَ أْمُرْ قَوْمَکَ یَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِیکُمْ دارَ اَلْفاسِقِینَ (۱۴۵)

التّفسیر

اشاره

ألواح التوراه:

و فی النهایه أنزل اللّه شرائع و قوانین دینه علی موسی علیه السلام.

ففی البدایه: قالَ یا مُوسی إِنِّی اصْطَفَیْتُکَ عَلَی النّاسِ بِرِسالاتِی وَ بِکَلامِی .

فإذا کان الأمر کذلک فَخُذْ ما آتَیْتُکَ وَ کُنْ مِنَ الشّاکِرِینَ .

فهل یستفاد من هذه الآیه أن التکلم مع اللّه کان من امتیازات موسی الخاصّه به دون بقیه الأنبیاء،یعنی اصطفیتک لمثل هذا الأمر من بین الأنبیاء؟ الحق أنّ هذه الآیه لیست بصدد إثبات مثل هذا الأمر،بل إن هدف الآیه-بقرینه ذکر الرسالات التی کانت لجمیع الأنبیاء-هو بیان امتیازین کبیرین

ص: ۲۱۳

لموسی علی النـاس:أحـدهما تلقی رسالاـت اللّه و تحمّلهـا،و الآـخر التكلّم مع اللّه، و كلا هـذين الأمرين من شأنهما تقويه مقام قيادته بين أمته.

ثمّ أضاف تعالی واصفا محتويات الألواح التی أنزلها علی موسی عليه السلام بقوله:

وَ كَتَبْنٰا لَهُ فِی الْأَلْوٰاحِ مِنْ كُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَهً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَیْءٍ

.

ثمّ أمره بأن يأخذ هذه التعاليم و الأوامر مأخذ الجد،و يحرص عليها بقوه فَخُذْهٰا بِقُوَّهٍ .

و أن يأمر قومه أيضا بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهٰا .

كما يحذرهم بأن مخالفه هذه الأوامر و التعاليم و الفرار من المسؤوليات و الوظائف تستتبع نتائج مؤلمه،و أن عاقبتها هی جهنم و سوف يری الفاسقون مكانهم سَأُرِيكُمْ دٰارَ الْفٰاسِقِينَ .

بحوث

اشاره

ثمّ إن هاهنا نقاط عديده ينبغی التوقف عندها و الالتفات إليها:

١-نزول الألواح علی موسی

إنّ ظاهر الآيه الحاضـره يفيد أن اللّه تعالی أنزل ألواحا علی موسـی عليه السلام قد كتب فيها شرائع التوراه و قوانينها،لا أنّه كانت فی يدی موسی عليه السلام ألواح ثمّ انتقشت فيها هذه التعاليم بأمر اللّه.

و لكن مـاذا كـانت تلـك الأـلواح،و من أی مـاده؟إنّ القرآن لم يتعرض لـذكر هـذا الأـمر،و إنمـا أشـار إليهـا بصوره الإجمال و بلفظه«الألواح»فقط،و هذه الكلمه جمع«لوح»،و هی مشتّقه من ماده«لاح يلوح»بمعنی الظهور و السطوع،و حيث

أنّ المواضيع تتّضح و تظهر بكتابتها على صفحه،تسمى الصفحه لوحا (۱) .

و لكن ثمّه احتمالات مختلفه فى الرّوايات و أقوال المفسّرين حول كيفيه و جنس هذه الألواح،و حيث إنّها ليست قطعيه أعرضنا عن ذكرها و التعرض لها.

۲-كيف كلّم اللّه موسى؟

يستفاد من الآيات القرآنيه المتنوعه أنّ اللّه تعالى كلّم موسى عليه السلام،و كان تكليم اللّه لموسى عن طريق خلق أمواج صوتيه فى الفضاء أو فى الأجسام، و ربّما انبعثت هذه الأمواج الصوتيه من خلال«شجره الوادى الأيمن»و ربّما من «جبل طور»و تبلغ مسمع موسى فما ذهب اليه البعض من أن هذه الآيات تدلّ على جسمانيه اللّه تعالى جمودا على الألفاظ تصوّر خاطئ بعيد عن الصواب.

على أنّه لا شك فى أن ذلك التكلّم كان من جانب اللّه تعالى بحيث أن موسى عليه السلام كان لا يشك عند سماعه له فى أنّه من جانب اللّه،و كان هذا العلم حاصلا لموسى،إمّا عن طريق الوحى و الإلهام أو من قرائن أخرى.

۳-عدم وجوب جميع تعاليم الألواح

يستفاد من عباره مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً أنّه لم تكن جميع المواعظ و المسائل موجوده فى ألواح موسى عليه السلام لأنّ اللّه يقول: وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً و هذا لأجل أن دين موسى عليه السلام لم يكن آخر دين،و لم يكن موسى عليه السلام خاتم الأنبياء،و من المسلّم أن الأحكام الإلهيه التى نزلت كانت فى حدود ما يحتاجه الناس فى ذلك الزمان،و لكن عند ما وصلت البشريه إلى آخر مرحله حضاريه للشرايع السماويه نزل آخر دستور إلهى يشمل جميع حاجات

۱- ۱) تفسير التبيان،المجلد الرّابع،الصفحه ۵۳۹.

الناس الماديه و المعنويه.

و تتّضح من هذا أيضا عله تفضيل مقام على عليه السلام على مقام موسى عليه السلام فى بعض الرّوايات (۱) ،و هى أن عليا عليه السلام كان عارفا بجميع القرآن،الذى فيه تبيان كل شىء نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ فى حين أنّ التوراه لم يرد فيها إلاّ بعض المسائل.

۴-هل فى الألواح تعاليم حسنه و أخرى غير حسنه؟

إنّ ما نقرؤه فى الآيه وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها لا يعنى أنّه كانت فى ألواح موسى تعاليم«حسنه»و أخرى«سيئه»و أنّهم كانوا مكلّفين بأن يأخذوا بالحسنه و يتركوا السيئه،أو كان فيها الحسن و الأحسن،و كانوا مكلّفين بالأخذ بالأحسن فقط،بل ربّما تأتى كلمه«أفعل التفضيل»بمعنى الصفه المشبهه،و الآيه المبحوثه من هذا القبيل ظاهرا،يعنى أن«الأحسن»هنا بمعنى«الحسن»و هذا إشاره إلى أن جميع تلك التعاليم كانت حسنه و جيده.

ثمّ إنّ هناك احتمالا آخر فى الآيه الحاضره-أيضا-و هو أن الأحسن بمعنى أفعل التفضيل،و هو إشاره إلى أنّه كان بين تلك التعاليم أمور مباحه(مثل القصاص)و أمور أخرى و صفت بأنّها أحسن منها(مثل العفو)يعنى:قل لقومك و من اتبعك ليختاروا ما هو أحسن ما استطاعوا،و للمثال يرجحوا العفو على القصاص(إلاّ فى موارد خاصّه) (۲) .

۵-فى مجال قوله: سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ الظاهر أن المقصود منها هو جهنم،و هى مستقرّ كل أولئك الذين يخرجون من طاعه اللّه،و لا يقومون

ص: ۲۱۶

۱- ۱) للوقوف على هذه الرّوايات يراجع تفسير نور الثقلين،المجلد الثّانى،الصفحه ۶۸.

۲- ۲) و يحتمل أيضا أن الضمير فى«أحسنها»يرجع إلى«القوه»أو«الأخذ بقوه»و هو إشاره إلى أن عليهم أن يأخذوا بها بأفضل أنواع الجديه و القوه و الحرص.

بوظائفهم الإلهيه.

ثمّ إنّ بعض المفسّرين احتمل أيضا أن يكون المقصود هو أنّكم إذا خالفتم هذه التعاليم فإنكم سوف تصابون بنفس المصير الذى أصيب به قوم فرعون و الفسقه الآخرون،و تتبدل أرضكم إلى دار الفاسقين (۱) .

۱- ۱) تفسير المنار المجلد التاسع الصفحه ۱۹۳.

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۴۶ الی ۱۴۷]

اشاره

سَأَصْرِفُ عَنْ آیاتِیَ اَلَّذِینَ یَتَکَبَّرُونَ فِی اَلْأَرْضِ بِغَیْرِ اَلْحَقِّ وَ إِنْ یَرَوْا کُلَّ آیَهٍ لاٰ یُؤْمِنُوا بِهٰا وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ اَلرُّشْدِ لاٰ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلاً وَ إِنْ یَرَوْا سَبِیلَ اَلْغَیِّ یَتَّخِذُوهُ سَبِیلاً ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ کٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِینَ (۱۴۶) وَ اَلَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ اَلْآخِرَهِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ هَلْ یُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۱۴۷)

التّفسیر

اشاره

مصیر المتکبرین:

البحث فی هاتین الآیتین هو فی الحقیقه نوع من عملیه استنتاج من الآیات الماضیه عن مصیر فرعون و ملئه و العصاه من بنی إسرائیل،فقد بیّن اللّه فی هذه الآیات الحقیقه التالیه و هی:إذا کان الفراعنه أو متمرّدو بنی إسرائیل لم یخضعوا للحق مع مشاهده کل تلک المعاجز و البینات،و سماع کل تلکم الحجج و الآیات الإلهیه،فذلک بسبب أنّنا نصرف المتکبرین و المعاندین للحق-بسبب أعمالهم-عن قبول الحق.

ص:۲۱۸

و بعباره أخرى:إنّ الإصرار على تكذيب الآيات الإلهيه قد ترك فى نفوسهم و أرواحهم أثرا عجيبا،بحيث خلق منهم أفرادا متصلبين منغلقين دون الحق،لا يستطيع نور الهدى من النفوذ إلى قلوبهم.

و لهذا يقول أوّلا: سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

و من هنا يتّضح أنّ الآيه الحاضره لا تنافى أبدا الأدله العقليه حتى يقال بتأويلها كما فعل كثير من المفسّرين-إنّها سنه إلهيه أن يسلب اللّه من المعاندين الألدّاء توفيق الهدايه بكل أشكاله و أنواعه فهذه هى خاصيه أعمالهم القبيحه أنفسهم،و نظرا لانتساب جميع الأسباب إلى اللّه الذى هو علّه العلل و مسبب الأسباب فى المآل نسبت إليه.

و هذا الموضوع لا هو موجب للجبر،و لا مستلزم لأى محذور آخر،حتى نعمد إلى توجيه الآيه بشكل من الأشكال.

هذا،و لا بدّ من الالتفات-ضمنيا-إلى أنّ ذكر عباره بِغَيْرِ الْحَقِّ بعد لفظه:

التكبر إنّما هو لأجل التأكيد،لأنّ التكبر و الشعور بالاستعلاء على الآخرين و احتقار عباد اللّه يكون دائما بغير حق،و هذا التعبير يشبه الآيه(۶۱)من سوره البقره،عند ما يقول سبحانه: وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ فقيد بغير الحق هنا قيد توضيحى،و توكيدى لأنّ قتل الأنبياء هو دائما بغير حق.

خاصّه أنّها أردفت بكلمه«فى الأرض»الذى يأتى بمعنى التكبر و الطغيان فوق الأرض،و لا شك أنّ مثل هذا العمل يكون دائما بغير حق.

ثمّ أشار تعالى إلى ثلاثه أقسام من صفات هذا الفريق«المتكبر المتعنت» و كيفيه سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الأولى قوله تعالى: وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَهٍ لاٰ يُؤْمِنُوا بِهٰا إنّهم لا يؤمنون حتى و لو رأوا جميع المعاجز و الآيات و الثّانيه، وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاٰ يَتَّخِذُوهُ

سَبِيلاً

و الثّالثه إنّهم على العكس وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .

بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكيه برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق،أشار إلى عللها و أسبابها،فقال: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ كٰانُوا عَنْهٰا غٰافِلِينَ .

و لا شک أنّ التكذيب لآيات اللّه مرّه-أو بضع مرات-لا يستوجب مثل هذه العاقبه،فباب التوبه مفتوح فى وجه مثل هذا الإنسان،و إنّما الإصرار فى هذا الطريق هو الذى يوصل الإنسان إلى نقطه لا يعود معها يميّز بين الحسن و القبيح، و المستقيم و المعوج،أى يسلب القدره على التمييز بين«الرشد»و«الغى».

ثمّ تبيّن الآيه اللاحقه عقوبه مثل هؤلاء الأشخاص و تقول: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ لِقٰاءِ الْآخِرَهِ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ .

و«الحبط»يعنى بطلان العمل و فقدانه للأثر و الخاصيه،يعنى أنّ مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيرا فإنّ عملهم لن يعود عليهم بنتيجه (و للمزيد من التوضيح حول هذا الموضوع راجع ما كتبناه عند تفسير الآيه ۲۱۷ من سوره البقره).

و فى ختام الآيه أضاف بأن هذا المصير ليس من باب الانتقام منهم،إنما هو نتيجه أعمالهم هم،بل هو عين أعمالهم ذاتها و قد تجسمت أمامهم هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ ؟! إنّ هذه الآيه نموذج آخر من الآيات القرآنيه الداله على تجسّم الأعمال، و حضور أعمال الإنسان خيرها و شرها يوم القيامه.

ص :۲۲۰

الآيتان [سوره الأعراف (۷): الآيات ۱۴۸ الی ۱۴۹]

اشاره

وَ اِتَّخَذَ قَوْمُ مُوسىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوٰارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاٰ يُكَلِّمُهُمْ وَ لاٰ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اِتَّخَذُوهُ وَ كٰانُوا ظٰالِمِينَ (۱۴۸) وَ لَمّٰا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قٰالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنٰا رَبُّنٰا وَ يَغْفِرْ لَنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلْخٰاسِرِينَ (۱۴۹)

التّفسير

اشاره

اليهود و عبادتهم للعجل:

فی هذه الآيات يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفه،و فی نفس الوقت العجيبه التی وقعت فی بنی إسرائيل بعد ذهاب موسی عليه السلام إلی ميقات ربّه، و هی قصّه عبادتهم للعجل التی تمّت علی يد شخص يدعی«السامری»مستعينا بحلی بنی إسرائيل و ما كان عندهم من آلات الزّينه.

إنّ هذه القصّه مهمّه جدّا بحيث إنّ اللّه تعالی أشار إليها فی أربع سور،فی سوره البقره الآيه(۵۱)و(۵۴)و(۹۲)و(۹۳)،و فی سوره النساء الآيه(۱۵۳)، و الأعراف الآيات المبحوثه هنا،و فی سوره طه الآيه(۸۸)فما بعد.

على أنّ هـذه الحادثه مثل بقيه الظواهر الاجتماعيه لم تكن لتحدث من دون مقدمه و أرضيّه،فبنوا إسـرائيل من جهه قضوا سـنين مديـده فى مصـر و شاهـدوا كيف يعبـد المصـريون الأبقـار أو العجول.و من جـانب آخر عنـد ما عبروا النيل شاهـدوا فى الضـفه الأخرى مشهدا من الوثنيه،حيث وجدوا قوما يعبدون البقر، و كما مرّ عليك فى الآيات السابقه طلبوا من موسى عليه السلام صنما كتلك الأصنام، و لكن موسى عليه السلام وبّخهم و ردّهم،و لا مهم بشدّه.

و ثالث،تمديد مدّه ميقات موسـى عليه السلام من ثلاثين إلى أربعين،الذى تسبب فى أن تشيع فى بنى إسرائيل شائعه وفاه موسى عليه السلام بواسطه بعض المنافقين،كما جاء فى بعض التفاسير.

و الأمر الرابع،جهل كثير من بنى إسرائيل بمهاره السامرىّ فى تنفيذ خطته المشئومه،كل هذه الأمور ساعدت على أن تقبل أكثريه بنى إسرائيل فى مدّه قصيره على الوثنيه،و يلتفوا حول العجل الذى أوجده لهم السامرىّ للعباده.

و فى الآيه الحاضره يقول القرآن الكريم أوّلا:إنّ قوم موسى عليه السلام بعد ذهابه إلى ميقات ربّه صنعوا من حليّهم عجلا،و كان مجرّد تمثال لا روح فيه،و لكنّه كان له صوت كصوت البقر،و اختاروه معبودا لهم: وَ اتَّخَـذَ قَوْمُ مُوسـىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَـداً لَهُ خُوٰارٌ و مع أنّ هـذا العمل(أى صـنع العجل من الحلىّ)صدر من السامرىّ(كما تشـهد بذلك آيات سوره طه)إلاّ أنّه مع ذلـك نسب هـذا العمـل إلى بنى إسـرائيل لأنّ كثيرا منهم ساعـد السامرىّ فى هـذا العمل و عاضـده،و بـذلك كانوا شـركاء فى جريمته، فى حين رضى بفعله جماعه أكبر منهم.

و ظاهر هـذه الآيه و إن كان يفيـد-فى بـدء النظر-أنّ جميع قوم موسـى شاركوا فى هذا العمل،إلاّ أنّه بالتوجه إلى الآيه(١۵٩)من هذه السوره،التى تقول: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ يستفاد أنّ المراد من الآيه المبحوثه

هنا ليس كلّهم،بل أكثريه عظيمه منهم سـلكوا هذا السبيل،و ذلك بشـهاده الآيات القادمه التى تعكس عجز هارون عن مواجهتها و صرفها عن ذلك.

كيف كان للعجل الذهبى خوار؟

و«الخوار»هو الصوت الخاص الـذى يصـدر من البقر أو العجل،و قـد ذهب بعض المفسّـرين إلى أنّ السامرى بسبب ما كان عنده من معلومات وضع أنابيب خاصّه فى باطن صدر العجل الذهبى،كان يخرج منها هواء مضغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبىّ شبيه بصوت البقر.

و يقول آخرون:كـان العجـل قـد وضع فى مسـير الريـح بحيث كـان يسـمع منه صوت على أثر مرور الريـح على فمه الـذى كـان مصنوعا بهيئه هندسيه خاصّه.

أمّا ما ذهب إليه جماعه من المفسّـرين من أن السامرىّ أخـذ شـيئا من تراب من موضع قدم جبرئيل و صـبّه فى العجل فصار كائنا حيا،و أخذ يخور خوارا طبيعيا فلا شاهد عليه فى آيات القرآن الكريم،كما سيأتى بإذن اللّه فى تفسير آيات سوره طه.

و كلمه«جسـدا»شاهـد على أن ذلـك العجـل لم يكن حيوانـا حيـا،لأنّ القرآن يسـتعمل هـذه اللفظه فى جميع الموارد فى القرآن الكريـم بمعنى الجسم المجرّد من الحيـاه و الروح (1) و بغض النظر عن جميع هـذه الأمور يبعـد أن يكون اللّه سـبحانه قد أعطى الرجـل المنـافق(مثل السامرىّ)مثل تلك القـدره التى يسـتطيع بها أن يأتى بشـىء يشـبه معجزه النّبى موسـى عليه السـلام،و يحيى جسما ميتا،و يأتى بعمل يوجب ضلال الناس حتما و لا يعرفون وجه بطلانه و فساده.

١- ١) راجع الآيات(٨)من سوره الأنبياء،و(٣۴)من سوره ص.

أمّا لو كان العجل بصوره تمثال ذهبى كانت أدله بطلانه واضحه عندهم، و كان من الممكن أن يكون وسيله لاختبار الأشخاص لا شيء آخر.

و النقطه الأخرى التى يجب الانتباه إليها،هى أنّ السامرى كان يعرف أن قوم موسى عليه السلام قد عانوا سنين عديده من الحرمان،مضافا إلى أنّهم كانت تغلب عليهم روح الماديه-كما هو الحال فى أجيالهم فى العصر الحاضر-و يولون الحليّ و الذهب احتراما خاصّا،لهذا صنع عجلا من ذهب حتى يستقطب إليه اهتمام بنى إسرائيل من عبيد الثروه.

أمّا أن هذا الشعب الفقير المحروم من أين كان له كل ذلك الذهب و الفضه؟ فقد جاء فى الرّوايات أن نساء بنى إسرائيل كنّ قد استعرن من الفرعونيين كميه كبيره من الحليّ و الذهب و الفضّه لإقامه أحد أعيادهن،ثمّ حدثت مسأله الغرق و هلاك آل فرعون،فبقيت تلك الحلى عند بنى إسرائيل (1) .

ثمّ يقول القرآن الكريم معاقبا و موبّخا:ألم ير بنو إسرائيل أن هذا العجل لا يتكلم معهم و لا يهديهم لشيء،فكيف يعبدونه؟ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاٰ يُكَلِّمُهُمْ وَ لاٰ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً .

يعنى أن المعبود الحقيقى هو من يعرف-على الأقل-الحسن و القبيح، و تكون له القدره على هدايه أتباعه،و يتحدث إلى عبدته و يهديهم سواء السبيل، و يعرّفهم على طريقه العباده.

و أساسا كيف يسمح العقل البشرى بأن يعبد الإنسان شيئا ميتا صنعه و سوّاه بيده،حتى لو استطاع-افتراضا-أن يبدّل الحلّى إلى عجل واقعى فإنّه لا يليق به أن يعبده،لأنّه عجل يضرب ببلادته المثل.

إنّهم فى الحقيقه ظلموا بهذا العمل أنفسهم،لهذا يقول فى ختام الآيه:

۱- ۱) راجع تفسير مجمع البيان،ذيل الآيه المبحوثه هنا.

اِتَّخَذُوهُ وَ كٰانُوا ظٰالِمِينَ

.

بيـد أنّه برجوع موسـى عليه السـلام إليهم،و اتضاح الأمر عرف بنو إسـرائيل خطأهم، و نـدموا على فعلهم،و طلبوا من اللّه أن يغفر لهم، و قـالوا:إذا لم يرحمنـا اللّه و لم يغفر لنـا فإنّنـا لا شك خاسـرون وَ لَمّٰا سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قٰالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنٰا رَبُّنٰا وَ يَغْفِرْ لَنٰا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰاسِرِينَ .

و جمله سُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ أى عند ما عثروا على الحقيقه،أو عند ما وقعت نتيجه عملهم المشؤومه بأيديهم،أو عند ما سـقطت كل الحيـل من أيـديهم و لم يبق بأيـديهم شـىء فى الأـدب العربى كنـايه عن النـدامه،لأنّه عنـد ما يقف الإنسان على الحقائق،و يطلع عليها،أو يصل إلى نتائـج غير مرغوب فيها،أو تغلق فى وجهه أبواب الحيله،فإنّه ينـدم بطبيعه الحال،و لهـذا يكون النـدم من لوازم مفهوم هذه الجمله.

و على كل حال،فقد ندم بنو إسرائيل من عملهم،و لكن الأمر لم ينته إلى هذا الحدّ،كما نقرأ فى الآيات اللاحقه.

ص :۲۲۵

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۵۰ الی ۱۵۱]

اشاره

وَ لَمّا رَجَعَ مُوسی إِلی قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِی مِنْ بَعْدِی أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّکُمْ وَ أَلْقَی اَلْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِیهِ یَجُرُّهُ إِلَیْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ اَلْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ کادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلا تُشْمِتْ بِیَ اَلْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِی مَعَ اَلْقَوْمِ اَلظّالِمِینَ (۱۵۰) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ اَلرّاحِمِینَ (۱۵۱)

التّفسیر

اشاره

رده فعل شدیده تجاه عباده العجل:

فی هاتین الآیتین بیّن تعالی بالتفصیل ما جری بین موسی علیه السلام و بین عبده العجل عند عودته من میقاته المشار الیه فی الآیه السابقه. فهاتان الآیتان تعکسان رده فعل موسی علیه السلام الشدیده التی أدت إلی یقظه هذه الجماعه.

یقول فی البدء:و لما عاد موسی علیه السلام إلی قومه غضبان ممّا صنع قومه من عباده العجل،قال لهم:ضیعتم دینی و أسأتم الخلافه وَ لَمّا رَجَعَ مُوسی إِلی قَوْمِهِ

غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِی مِنْ بَعْدِی

(۱)

.

إنّ هذه الآیه تفید بوضوح أن موسی عند رجوعه إلی قومه من المیقات و قبل أن یلتقی ببنی إسرائیل کان غضبان أسفا،و هذا لأجل أن اللّه تعالی کان قد أخبر موسی علیه السلام بأنّه اختبر قومه من بعده و قد أضلّهم السامریّ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِیُّ (۲) .

ثمّ إنّ موسی علیه السلام قال لهم: أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّکُمْ .

للمفسّرین کلام کثیر فی تفسیر هذه الجمله،و قد ذکروا احتمالات عدیده مختلفه،إلاّ أن ظاهر الآیات یفید أن المراد هو أنّکم تعجلتم فی الحکم بالنسبه إلی أمر اللّه تعالی فی قضیه تمدید مدّه المیقات من ثلاثین إلی أربعین، فاعتبرتم عدم مجیئی فی المده المقرره-أوّلا-دلیلا علی موتی،فی حین کان یتعین علیکم أن تتریثوا و تنتظروا قلیلا ریثما تمرّ أیّام ثمّ تتّضح الحقیقه.

و فی هذا الوقت بالذات،أی عند ما واجه موسی علیه السلام هذه الأزمه الخطیره من حیاه بنی إسرائیل،و کان الغضب الشدید یسرب بل کل کیانه،و یثقل روحه حزن عمیق،و قلق شدید علی مستقبل بنی إسرائیل،لأنّ التخریب و الإفساد أمر سهل، و ربّما استطاع شخص واحد تخریب کیان عظیم و لکن الإصلاح و التعمیر أمر صعب و عسیر جدّا.خاصّه أنّه إذا سرت فی شعب جاهل متعنت نغمه مخالفه شاذه،وافقت هوی و رغبه،فإنّ محوها لا شک لن یکون أمرا ممکنا و سهلا.

فهنا لا بدّ أن یظهر موسی علیه السلام غضبه الشدید و یقوم بالحدّ الأعلی من ردّ الفعل و السخط،کی یوقظ الأفکار المخدّره لدی بنی إسرائیل،و یوجد انقلابا فی

۱- ۱) «الأسف»کما یقول الراغب فی«المفردات»بمعنی الحزن المقرون بالغضب،و هذه الکلمه قد تستعمل فی أحد المعنیین أیضا.و تعنی فی الأصل أن ینزعج الإنسان من شیء بشده،و من الطبیعی أن هذا الانزعاج إذا کان بسبب من هو دونه ظهر مقرونا بالغضب،و برده فعل غاضبه،و إذا کان ممن هو فوقه ممن لا یستطیع مقاومته ظهر من صوره الحزن المجرّد،و قد نقل عن ابن عباس أیضا أن للحزن و الغضب أصل واحد و إن اختلفا لفظا.

۲- ۲) سوره طه،۸۵.

ذلك المجتمع الذى انحرف عن الحق،إذ العوده إلى الحق و الصواب عسيره فى غير هذه الصوره.

إنّ القرآن يستعرض ردّه فعل موسى الشديده فى قبال ذلك المشهد و فى تلك الأزمه،إذ يقول:إنّ موسى ألقى ألواح التوراه التى كانت بيده،و عمد إلى أخيه هارون و أخذ برأسه و لحيته و جرهما إلى ناحيته ساخطا غاضبا.

و كما يستفاد من آيات قرآنيه أخرى،و بخاصّه فى سوره طه،أنّه علاوه على ذلك لام هارون بشدّه،و صاح به،لماذا قصّرت فى المحافظه على عقائد بنى إسرائيل و خالفت أمرى (۱) .

و فى الحقيقه كان هذا الموقف يعكس-من جانب-حاله موسى عليه السلام النفسيه، و انزعاجه الشديد تجاه و ثنيه بنى إسرائيل و انحرافهم،و من جانب آخر كان ذلك وسيله مؤثره لهزّ عقول بنى إسرائيل الغافيه،و الفاتهم إلى بشاعه عملهم.

و بناء على هذا إذا كان إلقاء ألواح التوراه فى هذا الموقف قبيحا-فرضا- و كان الهجوم على أخيه لا يبدو كونه عملا صحيحا،و لكن مع ملاحظه الحقيقه التاليه،و هى أنّه من دون إظهار هذا الموقف الانزعاجى الشديد لم يكن من الممكن إلفات نظر بنى إسرائيل إلى بشاعه خطئهم...و لكان من الممكن أن تبقى رواسب الوثنيه فى أعماق نفوسهم و أفكارهم...إنّ هذا العمل لم يكن فقط غير مذموم فحسب،بل كان يعد عملا واجبا و ضروريا.

و من هنا يتّضح أنّنا نحتاج أبدا إلى التبريرات و التوجيهات التى ذهب إليها بعض المفسّرين،للتوفيق بين عمل موسى عليه السلام هذا و بين مقام العصمه التى يتحلى بها الأنبياء،لأنّه يمكن أن يقال هنا:إنّ موسى عليه السلام انزعج فى هذه اللحظه من تأريخ بنى إسرائيل انزعاجا شديدا لم يسبق له مثيل،لأنّه وجد نفسه أمام أسوأ

۱- ۱) سوره طه:۹۲-۹۳.

المشاهد ألا و هو الانحراف عن التوحيد إلى عباده العجل،و كان يرى جميع آثارها و أخطارها المتوقعه.

و على هذا فإنّ إلقاء الألواح و مؤاخذه أخيه بشدّه فى مثل هذه اللحظه مسأله طبيعيه تماما.

إنّ رده الفعل الشديده هذه و إظهار الغضب هذا،كان له أثر تربوى بالغ فى بنى إسرائيل،فقد قلب المشهد رأسا على عقب فى حين أنّ موسى لو كان يريد أن ينصحهم بالكلمات اللينه و المواعظ الهادئه،لكان قبولهم لكلامه و نصحه أقلّ بكثير.

ثمّ إنّ القرآن الكريم ذكر أنّ هارون قال-و هو يحاول استعطاف موسى و إثبات برائته فى هذه المسأله-:يا ابن أمّ هذه الجماعه الجاهله جعلونى ضعيفا إلى درجه أنّهم كادوا يقتلوننى،فإذن أنا برىء،فلا تفعل بى ما سيكون موجبا لشماته الأعداء بى و لا تجعلنى فى صف هؤلاء الظالمين قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ کادُوا یَقْتُلُونَنِی فَلاٰ تُشْمِتْ بِیَ الْأَعْدٰاءَ وَ لاٰ تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظّٰالِمِینَ .

إن التعبير ب:«ابن أمّ»فى الآيه الحاضره أو«يا ابن أمّ»(كما فى الآيه ۹۴ من سوره طه)مع أن موسى و هارون كانا من أب و أم واحده،إنّما هو لأجل تحريك مشاعر الرحمه و العطف لدى موسى عليه السلام فى هذه الحاله الساخنه.

و فى المآل تركت هذه القصّه أثرها،و سرعان ما التفت بنو إسرائيل إلى قبح أعمالهم،فاستغفروا اللّه و طلبوا العفو منه.

لقد هدأ غضب موسى عليه السلام بعض الشيء،و توجه إلى اللّه قٰالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنٰا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرّٰاحِمِینَ .

إنّ طلب موسى عليه السلام العفو و المغفره من اللّه تعالى لنفسه و لأخيه،لم يكن لذنب اقترفاه،بل كان نوعا من الخضوع للّه،و العوده إليه،و إظهار النفره من أعمال

الوثنيين القبيحه،و كـذا لإعطـاء درس عملى للجميع حتى يفكروا و يروا إذا كـان موسـى و أخوه-و هما لم يقترفا انحرافا-يطلبان من اللّه العفـو و المغفره هكـذا، فالأجـدر بالآـخرين أن ينتبهـوا و يحاسـبوا أنفسـهم،و يتوجهوا إلى اللّه و يسـألوه العفو و المغفره لذنوبهم.و قد فعل بنو إسرائيل هذا فعلا-كما تفيد الآيتان السابقتان.

مقاربه بين تواريخ القرآن و التوراه الحاضره:

يسـتفاد من الآيـات الحاضـره،و آيـات سوره طه أن بنى إسـرائيل هم الـذين صـنعوا العجل لا هارون،و أنّ شـخصا خاصا فى بنى إسـرائيل يـدعى السامرىّ هو الـذى أقدم على مثل هذا العمل،و لكن هارون-أخا موسـى و وزيره و مساعده-لـم يكن يتفرج على هذا الأمر بل عارضه،و لم يأل جهدا فى هذا السبيل،حتى أنّهم كادوا أن يقتلوه لمعارضته لهم.

و لكن العجيب أنّ التوراه الفعليه تنسب صنع العجل و الدعوه إلى عبادته إلى هارون خليفه موسى عليه السلام و وزيره و أخيه،إذ نقرأ فى الفصل ۳۲ من سفر الخروج من التوراه،ما يلى:

«لما رأى الشـعب أن موسـى أبطأ فى النّزول من الجبل،اجتمع الشـعب على هارون و قالوا له:قم اصنع لنا آلهه تسير أمامنا.لأنّ هذا موسـى الرجـل الـذى أصـعدنا من أرض مصـر لا نعلم ماذا أصابه.فقال لهم هارون:انزعوا أقراط الـذهب التى فى آذان نسائكم و بنيكم و بنـاتكم و أتونى بهـا،فنزع كـل الشـعب أقراط الـذهب التى فى آذانهم و أتوا بهـا إلى هارون،فأخـذ ذلك من أيـديهم و صوّره بالإزميل و صنعه عجلا مسبوكا،فقالوا:هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر.

فلمّا نظر هارون بنى مذبحا أمامه و نادى هارون و قال:غدا عيد للربّ(ثمّ بين مراسيم تقديم القرابين لهذا العمل».

ثمّ تشرح التوراه قصّه رجوع موسى عليه السلام غاضبا إلى بنى إسرائيل و إلقاء التوراه،ثمّ تقول:

«و قال موسى لهارون:ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطيّه عظيمه؟! فقال هارون:لا يحم غضب سيدى.أنت تعرف الشعب إنّه فى شرّ».

إنّ ما ذكر هو قسم من قصه عباده بنى إسرائيل للعجل بروايه التوراه الحاضره بالنص،فى حين أن التوراه نفسها تشير فى فصول أخرى إلى سمّو مقام هارون و علو منزلته،و من ذلك التصريح بأنّ بعض معاجز موسى قد ظهرت و تحققت على يدى هارون(الإصحاح الثامن من سفر الخروج من التوراه).

كما أنّها تصف هارون بأنّه نبى قد أعلن عن نبوته موسى(الإصحاح الثامن من سفر الخروج أيضا).

و على كل حال،تعترف التوراه لهارون-الذى كان خليفه لموسى عليه السلام و عارفا بتعاليم شريعته-بمنزله ساميه...و لكن انظروا إلى الخرافه التى تصف بأنّه كان صانع العجل،و من عوامل حصول الوثنيه فى بنى إسرائيل،و حتى أنّه اعتذر لموسى عليه السلام عليه بما هو أقبح من الذنب حيث قال:إنّهم كانوا يميلون إلى الشرّ أساسا و قد شجعتهم عليه.

فى حين أنّ القرآن الكريم ينزه هذين القائدين من كل ألوان التلوّث بأدران الشرك و الوثنيه.

على أنّه ليس هذا المورد هو المورد الوحيد الذى ينزّه فيه القرآن الكريم ساحه الأنبياء و الرسل،و تنسب التوراه الحاضره أنواع الإهانات و الخرافات إلى الأنبياء المطهرين.و فى اعتقادنا أنّ أحد الطرق لمعرفه أصاله القرآن و تحريف التوراه و الإنجيل الفعليين،هو هذه المقارنه بين القضايا التأريخيه التى وردت فى هذه الكتب حول الأنبياء و الرسل.

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۵۲ الی ۱۵۴]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ اِتَّخَذُوا اَلْعِجْلَ سَیَنٰالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّهٌ فِی اَلْحَیٰاهِ اَلدُّنْیٰا وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی اَلْمُفْتَرِینَ (۱۵۲) وَ اَلَّذِینَ عَمِلُوا اَلسَّیِّئٰاتِ ثُمَّ تٰابُوا مِنْ بَعْدِهٰا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِهٰا لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۵۳) وَ لَمّٰا سَکَتَ عَنْ مُوسَی اَلْغَضَبُ أَخَذَ اَلْأَلْوٰاحَ وَ فِی نُسْخَتِهٰا هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِلَّذِینَ هُمْ لِرَبِّهِمْ یَرْهَبُونَ (۱۵۴)

التّفسیر

اشاره

لقد فعلت رده فعل موسی علیه السلام الشدیده فعلتها فی المآل فقد ندم عبده العجل الإسرائیلیون-و هم أکثریه القوم-علی فعلهم،و قد طرح هذا الندم فی عدّه آیات قبل هذه الآیه أیضا(الآیه ۱۴۹) و من أجل أن لا یتصور أن مجرّد الندم من مثل هذه المعصیه العظیمه یکفی للتوبه،یضیف القرآن الکریم قائلا: إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَیَنٰالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّهٌ فِی الْحَیٰاهِ الدُّنْیٰا .

و هکذا لأجل أن لا یتصور أنّ هذا القانون یختص بهم أضاف قائلا: وَ کَذٰلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ .

ص:۲۳۲

إن التعبير ب«اتّخذوا»إشاره إلى أنّ الوثن ليس له أيه واقعيه،و لكن انتخاب عبده الأوثان هو الذى أعطاه تلك الشخصيه و القيمه الوهميه،و لهذا أتى بكلمه «العجل»وراء هذه الجمله فورا،يعنى أنّ ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتّى بعد انتخابه للعباده.

أمّا أنّ هـذا الغضب ما هو؟و هذه الذّله ما هى؟فالقرآن لم يصرح بشىء عنهما فى هذه الآيه،و إنّما اكتفى بإشاره مجمله،و لكن يمكن أن تكون إشاره إلى الشقاء و المصائب و المشكلات التى ابتلوا بها بعد هذه الحادثه و قبل دخولهم الأرض المقدسه.

أو أنّه إشاره إلى مهمّه قتل بعضهم بعضا العجيبه التى كلّفوا بها كجزاء و عقوبه لمثل ذلك الذنب العظيم.

و هنـا قـد يطرح هـذا السؤال،و هو أنّ من المرتكزات الفكريه هو أنّ حقيقه التوبه تتحقق بالنـدامه،فكيف لم يشـمل العفو الإلهى بنى إسـرائيل مـع أنّهم نـدموا على فعلهم؟ و الجواب هو أنّه ليس لـدينا أى دليـل على أنّ مجرّد النـدامه لوحـدها تنفع فى جميع الأحوال و المواضع.صحيح أنّ الندامه هى أحد أركان التوبه،و لكنّها ليست كل شىء.

إنّ معصـيه عباده الأوثان السـجود للعجل فى ذلك النطاق الواسع و فى تلك المـدّه القصـيره،و بالنسـبه إلى ذلك الشـعب الـذى شاهـد بـأم عينيـه كـل تلكـم المعـاجز و الآيـات،لـم تكـن معصــيه يمكـن التغاضــى عنهـا بمثـل هـذه الســهوله،و كفـايه يقـول مرتكبها:«أستغفر اللّه»و ينتهى كلّ شىء.

بل لا بـدّ أن يرى هذا الشعب غضب اللّه و يذوق طعم المذله فى هذه الحياه، و يساط الذين افتروا على اللّه الكذب بسوط البلاء حتى لا يفكروا مرّه أخرى فى ارتكاب مثل هذا الذنب العظيم.

و فی الآیه اللاحقه یکمّل القرآن الکریم هذا الموضوع و یقول فی صوره قانون عام: وَ الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ فالذین یتوبون من بعد السیئه و تتوفر کل شروط التوبه لدیهم یغفر اللّه لهم و یعفو عنهم.

جواب علی سؤالین:

۱-هل الآیتان الحاضرتان جمله معترضه وقعت وسط قصّه بنی إسرائیل کتذکیر لرسول اللّه و المسلمین؟أو أنّه خطاب اللّه لموسی علیه السلام بعد قصّه عباده بنی إسرائیل للعجل؟ ذهب بعض المفسّرین إلی الاحتمال الأوّل،و ارتضی بعض آخر الاحتمال الثّانی.

و الذین ارتضوا الاحتمال الأوّل استدلوا بجمله إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ لأنّ الجمله فی صوره خطاب إلی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و الذین ارتضوا الاحتمال الثّانی استدلوا بجمله سَیَنالُهُمْ غَضَبٌ الذی جاء فی صوره الفعل المضارع.

و لکن ظاهر الآیات یفید أنّ هذه الجمله قسم من خطاب اللّه إلی موسی علیه السلام فی تعقیب قصّه العجل،و فعل المضارع(سینالهم)شاهد جید علی هذا الموضوع، و لیس هناک ما یمنع أن یکون«إنّ ربّک»خطاب موجه إلی موسی علیه السلام (۱) .

۲-لماذا جاء الإیمان فی الآیه الحاضره بعد ذکر التوبه و الحال أنّه ما لم یکن هناک إیمان لا تتحقق توبه؟ إنّ الجواب علی هذا السؤال یتّضح من أن قواعد الإیمان تتزلزل عند

۱- ۱) فیکون التقدیر فی الآیه الحقیقه هکذا:«قال اللّه لموسی أن الذین...».

ارتکاب المعصیه،و یصیبها نوع من الوهن،إلی درجه أنّنا نقرأ فی الأحادیث الإسلامیه:

«لا یشرب الخمر و هو مؤمن،و لا یزنی و هو مؤمن»أی أن الإیمان یتضاءل ضوؤه،و یفقد أثره.

و لکن عند ما تتحقق التوبه یعود الإیمان إلی ضوئه و أثره الأوّل،و کأنّ الإیمان تجدّد مرّه أخری.

ثمّ إنّ الآیات الحاضره رکزت-فقط-علی الذله فی الحیاه الدنیا،و یستفاد من ذلک أن توبه بنی إسرائیل من هذه المعصیه بعد الندامه من قضیه الوثنیه و تذوق العقوبه فی هذه الدنیا،قد قبلت بحیث أنّها أزالت عقوبتهم فی الآخره، و إن بقیت أعباء الذنوب الأخری التی لم یتوبوا منها فی أعناقهم.

الآیه الأخیره من الآیات المبحوثه تقول:و لما سکن غضب موسی علیه السلام، و حصل علی النتیجه التی کان یتوخاها،أخذ الألواح من الأرض،تلک الألواح التی کانت تحتوی-من أوّلها إلی آخرها-علی الرحمه و الهدایه،رحمه و هدایه للذین یشعرون بالمسؤولیه،و الذین یخافون اللّه،و یخضعون لأوامره و تعالیمه وَ لَمّٰا سَکَتَ عَنْ مُوسَی الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوٰاحَ وَ فِی نُسْخَتِهٰا هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِلَّذِینَ هُمْ لِرَبِّهِمْ یَرْهَبُونَ .

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۵۵ الی ۱۵۶]

اشاره

وَ اِخْتٰارَ مُوسیٰ قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلاً لِمِیقٰاتِنٰا فَلَمّٰا أَخَذَتْهُمُ اَلرَّجْفَهُ قٰالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیّٰایَ أَ تُهْلِکُنٰا بِمٰا فَعَلَ اَلسُّفَهٰاءُ مِنّٰا إِنْ هِیَ إِلاّٰ فِتْنَتُکَ تُضِلُّ بِهٰا مَنْ تَشٰاءُ وَ تَهْدِی مَنْ تَشٰاءُ أَنْتَ وَلِیُّنٰا فَاغْفِرْ لَنٰا وَ اِرْحَمْنٰا وَ أَنْتَ خَیْرُ اَلْغٰافِرِینَ (۱۵۵) وَ اُکْتُبْ لَنٰا فِی هٰذِهِ اَلدُّنْیٰا حَسَنَهً وَ فِی اَلْآخِرَهِ إِنّٰا هُدْنٰا إِلَیْکَ قٰالَ عَذٰابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ فَسَأَکْتُبُهٰا لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ اَلزَّکٰاهَ وَ اَلَّذِینَ هُمْ بِآیٰاتِنٰا یُؤْمِنُونَ (۱۵۶)

التّفسیر

اشاره

مندوبو بنی إسرائیل فی المیقات:

فی الآیتین الحاضرتین یعود القرآن الکریم مرّه أخری إلی قصه ذهاب موسی إلی المیقات«الطور»فی صحبه جماعه،و یقص قسما آخر من تلک الحادثه.

ص:۲۳۶

هذا و قد وقع بين المفسّرين كلام فى أنّه هل كان لموسى عليه السلام ميقات واحد مع ربّه،أو أكثر من ميقات واحد؟و قد أقام كل واحد منهم شواهد لإثبات مقصوده من القرآن الكريم،و لكنّه كما قلنا سابقا-فى ذيل الآيه(۱۴۲)من هذه السوره- أنّه يظهر من مجموع القرائن فى القرآن الكريم و الرّوايات أن موسى عليه السلام كان له ميقات واحد،و ذلك برفقه جماعه من بنى إسرائيل.

و فى هذا الميقات بالذات أنزل اللّه الألواح على موسى و كلمه عليه السلام،و فى نفس هذا الميقات اقترح بنو إسرائيل على موسى عليه السلام أن يطلب من اللّه أن يريهم نفسه جهره.فى هذا الوقت نفسه نزلت الصاعقه أو حدث الزلزال و غشى على موسى عليه السلام و سقط بنو إسرائيل على الأرض مغشيا عليهم،و قد ورد هذا الموضوع فى حديث مرويّ عن على بن إبراهيم فى تفسيره.

إنّ كيفيه وضع آيات هذه السوره و إن كان يحدث-فى بادئ النظر- إشكالا،و هو:كيف أشار اللّه تعالى أولا إلى ميقات موسى عليه السلام ثمّ ذكر قصّه عباده العجل،ثمّ عاد مرّه أخرى إلى مسأله الميقات؟ هل هذا النظم و هذا الطراز من الكلام يناسب الفصاحه و البلاغه التى يتسم بها القرآن الكريم؟ و لكن مع الالتفات إلى أنّ القرآن ليس كتاب تأريخ يسجل الحوادث حسب تسلسلها،بل هو كتاب هدايه و تربيه و بناء إنسانى،و فى مثل هذا الكتاب توجب أهميه الموضوع أن يترك متابعه حادثه مؤقتا،و يعمد إلى بحث ضرورى آخر،ثمّ يعود مرّه أخرى لنفس الحادثه الأولى.

بناء على هذا لا توجد أيه ضروره إلى أن نعتبر الآيه المذكوره هنا إشاره إلى بقيه قصه عباده العجل،و نقول:إنّ موسى عليه السلام ذهب مرّه أخرى بصحبه بنى إسرائيل إلى جبل الطور بعد قضيه عباده العجل للاعتذار إلى اللّه و التوبه،كما قال بعض المفسّرين،لأنّ هذا الاحتمال بغض النظر عن جهات أخرى يبدو بعيدا فى

النظر من جهه أنّه آل إلى هلاك جماعه ذهبت إلى الميقات للاعتذار و التوبه،فهل من الممكن أن يهلك اللّه تعالى جماعه أتوا إلى الميقات للاعتذار إلى اللّه بالنيابه عن قومهم؟! و على كل حال،فقد قال القرآن الكريم فى الآيتين الحاضرتين أوّلا:

وَ اخْتٰارَ مُوسىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقٰاتِنٰا

.

و لكن بنى إسرائيل حيث إنّهم سمعوا كلام اللّه طلبوا من موسى عليه السّلام أن يطلب من اللّه تعالى أن يريهم نفسه-لبنى إسرائيل-جهره،و فى هذا الوقت بالذات أخذهم زلزال عظيم و هلك الجماعه،و وقع موسى عليه السّلام على الأرض مغشيا عليه، و عند ما أفاق قال:ربّاه لو شئت لأهلكتنا جميعا،يعنى بماذا أجيب قومى لو هلك هؤلاء فَلَمّٰا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَهُ قٰالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيّٰایَ .

ثمّ قال:ربّاه إنّ هذا المطلب التافه إنّما هو فعل جماعه من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم: أَ تُهْلِكُنٰا بِمٰا فَعَلَ السُّفَهٰاءُ مِنّٰا ؟ و لقد اعتبر بعض المفسّرين-وجود كلمه«الرجفه»فى هذه الآيه،و كلمه «الصاعقه»فى الآيه(۵۵)من سوره البقره المتعلقه بطلب رؤيه اللّه جهره-دليلا على التفاوت بين الميقاتين.و لكن-كما قلنا سابقا-إن الصاعقه فى كثير من الأوقات ترافق الرجفه الشديده،لأنّه على أثر التصادم بين الشحنات الكهربائيه الموجبه فى السحب و السالبه فى الأرض تبرق شراره عظيمه تهزّ الجبال و الأراضى بشدّه،و ربّما تحطمها و تبعثرها كما جاء فى قصّه البلاء الذى نزل على قوم صالح العصاه،حيث يعبر فيه عنه بالصاعقه تاره(سوره فصلت الآيه ۱۷) و تاره بالرجفه(سوره الأعراف الآيه ۷۸).

و قد استدل بعض المفسّرين بعباره بِمٰا فَعَلَ السُّفَهٰاءُ مِنّٰا على أنّ العقوبه هنا كانت لأجل الفعل الذى صدر من بنى إسرائيل(مثل عباده العجل)لا لأجل الكلام الذى قالوه فى مجال طلب رؤيه اللّه جهره.

و الجواب على هذا الكلام واضح أيضا،لأنّ الكلام فعل من أفعال الإنسان أيضا،و إطلاق«الفعل»على«الكلام»ليس أمرا جديدا و غير متعارف،مثلا عند ما نقول:إنّ اللّه يثيبنا يوم القيامه على أعمالنا،فإنّ من المسلّم أنّ لفظه أعمالنا تشمل كلماتنا أيضا.

ثمّ إنّ موسى عليه السّلام قال فى عقيب هذا التضرع و الطلب من اللّه:ربّاه إنّى أعلم أن هذا كان اختبارک و امتحانک،فأنت تضلّ من تشاء(و كان مستحقا لذلک)و تهدى من تشاء(و كان لائقا لذلک) إِنْ هِيَ إِلاّٰ فِتْنَتُكَ و اختبارک.

و هنا أيضا تكلّم المفسّرون فى معنى«الفتنه»كثيرا و ذهبوا مذاهب شتى، و لكن بالنظر إلى أن لفظه«الفتنه»جاءت فى القرآن الكريم بمعنى الاختبار و الامتحان مرارا كما فى الآيه(۲۸)من سوره الأنفال: أَنَّمٰا أَمْوٰالُكُمْ وَ أَوْلاٰدُكُمْ فِتْنَةٌ و كذا فى الآيه(۲)من سوره العنكبوت،و الآيه(۱۲۶)من سوره التوبه)لا يكون مفهوم الآيه الحاضره غامضا.لأنّه لا شک فى أن بنى إسرائيل واجهوا فى هذا المشهد اختبارا شديدا،فأراهم اللّه تعالى أن هذا الطلب(طلب رؤيه اللّه) طلب تافه و مستحيل الوقوع.

و فى ختام الآيه يقول موسى عليه السّلام:رباه: أَنْتَ وَلِيُّنٰا فَاغْفِرْ لَنٰا وَ ارْحَمْنٰا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغٰافِرِينَ .

من مجموع الآيات و الرّوايات يستفاد أنّ الهالكين قد استعادوا حياتهم فى المآل و عادوا برفقه موسى عليه السّلام إلى بنى إسرائيل،و قصّوا عليهم كلّ ما سمعوه و شاهدوه،و أخذوا فى إرشاد الغافلين الجاهلين و هدايتهم.

و فى الآيه اللاحقه يشير إلى طلب موسى عليه السّلام من ربّه و تكميل مسأله التوبه التى ذكرت فى الآيات السابقه،يقول موسى: وَ اكْتُبْ لَنٰا فِي هٰذِهِ الدُّنْيٰا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ .

و«الحسنه»تعنی کل خیر و جمال،و علی هـذا الأساس تشـمل جمیع النعم، و کـذا التوفیق للعمل الصالح،و المغفره،و الجنّه،و کل نوع من أنواع السعاده،و لا دلیل علی حصرها بنوع خاص من هذه المواهب،کما ذهب إلیه بعض المفسّرین.

ثمّ یبیّن القرآن الکریم دلیل هـذا الطلب هکـذا: إِنّٰا هُدْنٰا إِلَیْکَ أی عدنا إلیک و اعتذرنا عمّا فعله سـفهاؤنا،حیث طلبوا ما لا یلیق بمقام عظمتک.

و«هـدنا»مشـتقه من ماده«هود»بمعنی العوده المقترنه بالرفق و الهـدوء،و کما قال بعض اللغویین:تشـمل العوده من الخیر إلی الشر أیضا،و کذا من الشر إلی الخیر (۱) ،و لکن جاءت فی کثیر من الموارد بمعنی التوبه و العوده إلی طاعه اللّه.

یقول الراغب فی«المفردات»نقلا عن بعض:«یهود فی الأصل من قولهم:

هدنا إلیک،و کان اسم مدح،ثمّ صار بعد نسخ شریعتهم لازما لهم،و إن لم یکن فیه معنی المدح».

و لکن بمـا أن بعض اللغـویین ذکر أن معنی هـذه اللفظه هو الرجوع من الشـر إلی الخیر،أو من الخیر إلی الشـر،یمکن القول بـأن هـذه الکلمه لیست متضـمنه للمـدح بحـال،بل هی حاکیه عن الاضـطراب الروحی و القلق الأخلاقی الـذی کانت تعانی منه تلک الجماعه.

و قال بعض آخر من المفسّـرین أنّ علّه تسـمیه هؤلاء القوم ب«الیهود»لا یرتبط مطلقا بهذه اللفظه،بل لفظه یهود متخذه أصـلا من ماده«یهوذا»الـذی هو اسم لأحـد أبناء یعقوب علیه السّـلام ثمّ تبـدلت الـذال إلی الـدال،و صارت یهودا،فیطلق علی المنسوب إلیه یهودی (۲) .

و لقد أجاب اللّه-فی النهایه-دعاء موسی علیه السّلام و قبل توبته، و لکن لا بصوره

۱- ۱) تفسیر المنار،المجلد التاسع،الصفحه ۲۲۱،و قد نقل هذا المعنی عن ابن الأعرابی.

۲- ۲) تفسیر أبو الفتوح،المجلد الخامس،الصفحه ۳۰۰،فی تفسیر الآیه الحاضره.

مطلقه،بل جاء ذلک فی ختام الآیه مشروطا بشروط،إذ یقول: قٰالَ عَذٰابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشٰاءُ و کان مستحقا.

و قد قلنا مرارا،إنّ«المشیئه»فی هذه الموارد،بل فی جمیع الموارد،لیس بمعنی الإراده المطلقه و من غیر قید أو شرط،بل هی إراده مقترنه بالحکمه و الصلاحیات و اللیاقات،و بهذا یتّضح الجواب علی کل إشکال فی هذا الصعید.

ثمّ یضیف تعالی قائلا وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ .

إنّ هذه الرحمه الواسعه یمکن أن تکون إشاره إلی النعم و المواهب الدنیویه التی تشمل الجمیع و یستفید منها الکل،برا و فاجرا،صالحا و طالحا.

کما یمکن أن تکون إشاره إلی أنواع الرحمه المادیه و المعنویه،لأنّ النعم المعنویه لا تختص بقوم دون قوم،و إن کان لها شرائط تتوفر لدی الجمیع.

و بعباره أخری:إن أبواب الرحمه الإلهیه مفتوحه للجمیع،و إنّ الناس هم الذین علیهم أن یقرروا دخول هذه الأبواب فلو لم تتوفر شرائط الورود فی بعض الناس فإنّ ذلک دلیل علی تقصیرهم هم،لا محدودیه الرحمه الإلهیه(و التّفسیر الثّانی أنسب مع مفهوم الآیه و الجمله التی ستأتی).

و لکن حتی لا یظن أحد أنّ قبول التوبه،أو سعه الرحمه الإلهیه و شمولیتها، غیر مقیده و غیر مشروطه،و من دون حساب أو کتاب،یضیف فی ختام الآیه:

سرعان ما أکتب رحمتی للّذین تتوفر فیهم ثلاثه أمور:اتقوا،و آتوا الزکاه،و آمنوا بآیاتی فَسَأَکْتُبُهٰا لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکٰاهَ وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیٰاتِنٰا یُؤْمِنُونَ و«التقوی»إشاره إلی اجتناب کل معصیه و إثم.

و«الزکاه»مراده هنا بمعناها الواسع،و حسب الحدیث المعروف«لکل شیء زکاه»یشمل جمیع الأعمال الصالحه و الطیبه.

و جمله وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیٰاتِنٰا یُؤْمِنُونَ تشمل الإیمان بالمقدسات.

ص:۲۴۱

و بهذه الطريقه تتضمّن الآيه برنامجا كاملا و جامعا.

و إذا فسرنا الزكاه بمعنى خاص(أى المعنى المتعارف و المصطلح للزكاه) كان ذكرها من بين سائر الوظائف الإلهيه،لأجل أهميتها فى صعيد العداله الاجتماعيه.

و

قد روى فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قام فى الصلاه فقال أعرابى و هو فى الصلاه:اللّهم ارحمنى و محمّدا و لا ترحم معنا أحدا،فلمّا سلّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال للأعرابى:لقد تحجرت واسعا،أى جعلت شيئا واسعا،أمرا ضيقا محدودا فالرحمه الإلهيه لا تنحصر فى أحد من الناس (۱) .

۱- ۱) مجمع البيان فى تفسير هذه الآيه.

الآیه [سوره الأعراف (۷): آیه ۱۵۷]

اشاره

اَلَّذِینَ یَتَّبِعُونَ اَلرَّسُولَ اَلنَّبِیَّ اَلْأُمِّیَّ اَلَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی اَلتَّوْراهِ وَ اَلْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهاهُمْ عَنِ اَلْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ اَلطَّیِّباتِ وَ یُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ اَلْخَبائِثَ وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ اَلْأَغْلالَ اَلَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اِتَّبَعُوا اَلنُّورَ اَلَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ اَلْمُفْلِحُونَ (۱۵۷)

التّفسیر

اشاره

اتبعوا هذا النّبی:

هذه الآیه فی الحقیقه تکمل الآیه السابقه التی تحدثت عن صفات الذین تشملهم الرحمه الإلهیه الواسعه،أی من تتوفر فیهم الصفات الثلاث:التقوی، و أداء الزکاه،و الإیمان بآیات اللّه.و فی هذه الآیه یذکر صفات أخری لهم من باب التوضیح،و هی اتّباع الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،لأنّ الإیمان باللّه غیر قابل للفصل عن الإیمان بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اتباع دینه،و هکذا التقوی و الزکاه لا یتمان و لا یکملان من دون اتباع القیاده.

ص:۲۴۳

لهذا يقول تعالى: اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ .

ثمّ يبيّن ست صفات لهذا الرّسول مضافا إلى مقام الرساله:

۱-أنّه نبيّ اللّه اَلنَّبِيَّ .

و النّبى يطلق على كـل من يبيّن رسـاله اللّه إلى النـاس،و يوحى إليه و إن لم يكن مكلّفـا بالـدعوه و التبليغ،و لكن الرّسول مضافا إلى كونه نبيّا-مكلّف بالدعوه إلى دين اللّه،و تبليغه و الاستقامه فى هذا السبيل.

و على هـذا يكون مقـام الرسـاله أعلى من مقـام النّبوه،و بنـاء على هـذا يكون معنى النّبوه مـأخوذا فى مفهوم الرساله أيضا،و لكن حيث أنّ الآيه بصدد توضـيح و تفصـيل خصوصـيات النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لهذا ذكرهما على نحو الاسـتقلال،و فى الحقيقه إنّ ما أخذ فى مفهوم الرّسول مجملا،ذكر فى الآيه بصوره مستقله من باب توضيح و تحليل صفاته.

۲-أنّه نـبيّ أمّى لم يتعلم القراءه و الكتـابه،و قـد نهض من بين جمـاهير النـاس من أرض مكّه أم القرى قاعـده التوحيـد الأصـليه: (الأمى).

و حول مفهوم«الأميّ»المشـتقه من ماده«أمّ»بمعنى الوالده،أو من«الأمّه» بمعنى الجماعه،دار كلام كثير بين المفسّـرين،فبعض فسّـره بأنّه لم يتعلم و لم يـدرس،يعنى أنّه باق على الحاله التى ولـد بها من أمّه أوّل يوم،و لم يتتلمذ على أحد،و بعض فسّـره بمن نهض من بين جمـاهير الأـمّه،لاـ من بين طبقه الأعيان و المترفين و الجبارين،و فسّـرته جماعه ثالثه بأنّه ظهر من مكّه«أمّ القرى»لأنّ هـذه الكلمه مرادفه ل«المكى».

و الأحاديث الإسلاميه الوارده فى مصادر مختلفه هى أيضا تفسّر هذه الكلمه تاره بأنّه:لم يدرس و أخرى:بأنّه مكّى (۱) .

---

۱ - ۱) للاطلاـع على هـذه الرّوايـات راجع تفسـير نور الثقلين،المجلـد الثّـانى،الصـفحه ۷۸ و ۷۹،و تفسـير روح المعـانى،المجلد التّاسع،الصفحه ۷۰،فى تفسير الآيه الحاضره.

و لكن لا ـ مانع أبدا من أن تكون كلمه«الأمّى»إشاره إلى كل المفاهيم و المعانى الثلاثه،و قد قلنا مرارا:إنّه لا مانع من استعمال لفظه واحده فى عده معان،و لهذا الموضوع شواهد كثيره فى الأدب العربى.(و سنبحث بتفصيل حول أميّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد الفراغ من تفسير هذه الآيه).

۳-ثمّ إنّ هذا النّبى هو اَلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرٰاةِ وَ الْإِنْجِيلِ .

و فى صعيد وجود البشارات المختلفه فى كتب العهدين(التوراه و الإنجيل) حتى التوراه و الإنجيل المحرفين الحاضرين أيضا،سيكون لنا بحث تفصيلى بعد الفراغ من تفسير هذه الآيه.

۴-و من سمات هذا النّبى أنّ دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقه كامله،فهو يدعو إلى كل الخيرات و ينهى عن كل الشرور و الممنوعات العقليه: يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهٰاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .

۵-كما أنّ محتوى دعوته منسجم مع الفطره الإنسانيه السليمه،فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السليمه و يحرم ما تنفر منه وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبٰاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبٰائِثَ .

۶-أنّه ليس كأدعياء النّبوه و الرساله الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاستعمار و الاستثمار و الاستغلال،بل هو على العكس من ذلك،إنّه يرفع عنهم إصرهم و الأغلال التى تكبّل عقولهم و أفكارهم و تثقل كاهلهم وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلاٰلَ الَّتِي كٰانَتْ عَلَيْهِمْ (۱) .

و حيث أنّ هذه الصفات الست بالإضافه إلى الصفه السابعه و هى مقام الرساله تشكّل من حيث المجموع علامه واضحه و دليل قاطع على صدق دعواه،

۱- ۱) «الإصر»يعنى فى الأصل عقد الشيء و حبسه،و يطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعاليه و الحركه،و يطلق على العهد و الميثاق أو العقوبات،لفظ الإصر،لأنّ هذه الأمور تحدّ من حركه الإنسان.

فيضيف القرآن الكريم: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ،وَ نَصَرُوهُ،وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أَنْزِلَ مَعَهُ أُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

و«عزروه»المشتقّه من ماده«تعزير»تعنى الحمايه و النصره المقترنه بالاحترام و التبجيل،و يقول البعض إن هذه اللفظه تعنى-فى الأصل-المنع،فإذا كان المنع من العدوّ،كان مفهومه النصره،و إذا كان المنع من الذنب كان مفهومه العقوبه و التنبيه،و لهذا يقال للعقوبات الخفيفه«تعزير».

و الجدير بالانتباه استعمال كلمه أُنْزِلَ مَعَهُ بدل«أنزل إليه»فى حين أننا نعلم أنّه لم يكن لشخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزول من السماء،و لكن حيث أن النبوه و الرساله نزلا مع القرآن من جانب اللّه،لهذا عبر ب«أنزل معه».

بحوث

اشاره

و هنا لا بد من الوقوف عند نقاط هامه هى:

١-خمسه أدله على النّبوه فى آيه واحده

لم ترد فى آيه من آيات القرآن أدله عديده على حقانيه دعوه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما جاء فى هذه الآيه...فلو أننا أمعنا النظر بدقه فى الصفات السبع التى ذكرها اللّه تعالى فى هذه الآيه لنبيه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لوجدنا أنّها تحتوى على سبعه أدله واضحه لإثبات نبوته:

الأوّل:أنّه«أمّى»لم يدرس،و لكنّه مع ذلک أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط،بل كان نقطه تحول هام فى التأريخ البشرى،حتى أنّ الذين لم يقبلوا بنبوته لم يشكوا فى عظمه كتابه و تعاليمه.

فهل يتفق و الحسابات الطبيعيه أن يقوم بهذا العمل شخص نشأ فى بيئه

جاهلیه و لم یتتلمذ علی أحد؟ الثّانی:أنّ دلائل نبوته قد وردت بتعابیر مختلفه فی الکتب السماویه السابقه علی نحو توجد علما لدی المرء بحقانیته...فإنّ البشارات التی جاءت فی تلک الکتب لا تنطبق إلاّ علیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقط.

الثّالث:أن محتویات دعوته تنسجم انسجاما کاملا-مع العقل،لأنّه یدعو إلی المعروف،و النهی عن المنکر و القبائح،و هذا الموضوع یتّضح بجلاء بمطالعه تعالیمه.

الرّابع:أنّ محتویات دعوته منسجمه مع الطبع السلیم و الفطره السویّه.

الخامس:لو لم یکن من جانب اللّه لکان علیه أن یقوم بما یضمن مصالحه الخاصّه،و فی هذه الصوره کان یتعین علیه أن لا یرفع الأغلال و السلاسل عن الناس،بل علیه أن یبقیهم فی حاله الجهل و الغفله لاستغلالهم بنحو أفضل،فی حین أنّنا نجده یحرر الناس من الأغلال الثقیله.

أغلال الجهل و الغفله عن طریق الدعوه المستمره إلی العلم و المعرفه.

أغلال الوثنیه و الخلافه عن طریق الدعوه إلی التوحید.

أغلال التمییز بکل أنواعه،و الحیاه الطبقیه بجمیع أصنافها،عن طریق الدعوه إلی الأخوه الدینیه و الإسلامیه،و المساواه أمام القانون.

و هکذا سائر الأغلال الأخری.

إنّ کل واحد من هذه الدلائل لوحده دلیل علی حقانیه دعوته،کما أنّ مجموعها دلیل أوضح و أقوی.

۲-کیف کان النّبی أمیّا؟

هناک احتمالات ثلاثه معروفه حول مفهوم«الأمّی»کما قلنا سابقا:

أوّلها:أن معناه:الذی لم یدرس.

الثّانی:أنّ معناه:المولود فی أرض مکّه،و الناهض منها.

الثّالث:أنّ معناه الذی قام من بین صفوف الجماهیر.

و لکن الرأی الأشهر هو التّفسیر الأوّل،و هو أکثر انسجاما مع موارد استعمال هذه اللفظه،و یمکن أن تکون المعانی الثلاثه مراده برمتها أیضا،کما قلنا.

ثمّ إنّه لا نقاش بین المؤرخین بأنّ الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یدرس،و لم یکتب شیئا،و قد قال القرآن الکریم-أیضا-فی الآیه(۴۸)من سوره العنکبوت حول وضع النّبی قبل البعثه: وَ مٰا کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتٰابٍ وَ لاٰ تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لاَرْتٰابَ الْمُبْطِلُونَ .

و أساسا کان عدد العارفین بالکتابه و القراءه فی المحیط الحجازی قلیلا جدّا،حیث کان الجهل هو الحاله السائده علی الناس بحیث أن هؤلاء العارفین بالکتابه و القراءه کانوا معروفین بأعیانهم و أشخاصهم،فقد کان عددهم فی مکّه من الرجال لا یتجاوز(۱۷)شخصا، و من النساء امرأه واحده (۱) .

من المسلّم أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لو کان قد تعلّم القراءه و الکتابه-فی مثل هذه البیئه-لدی أستاذ لشاع ذلک و صار أمرا معروفا للجمیع،و علی فرض أنّنا لم نقبل بنبوته،و لکن کیف یمکنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن ینفی-فی کتابه-بصراحه هذا الموضوع؟ألا یعترض علیه الناس و یقولون:إن دراستک و تعلّمک للقراءه و الکتابه أمر مسلّم معروف لنا،فکیف تنفی ذلک؟ إنّ هذه قرینه واضحه علی أمیّه النّبی.

و علی کل حال،فإنّ وجود هذه الصفه فی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان تأکیدا علی نبوته حتی ینتفی أی احتمال فی ارتباطه إلاّ باللّه و بعالم ما وراء الطبیعه فی صعید دعوته.

۱- ۱) فتوح البلدان،للبلاذری،ط مصر،الصفحه ۴۵۹.

هـذا بالنسـبه إلى فتره ما قبل النّبوه،و أمّا بعـد البعثه فلم ينقل أحـد المورّخين أنّه تلقى القراءه أو الكتابه من أحد،و على هذا بقى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أميّته حتى نهايه عمره.

و لكن من الخطأ الكبير أن تتصوّر أنّ عـدم التعلّم عنـد أحـد يعنى عـدم المعرفه بالكتـابه و القراءه،و الـذين فسّـروا«الأـمّيه»بعـدم المعرفه بالكتابه و القراءه كأنّهم لم يلتفتوا إلى هذا التفاوت.

و لا مانع أبدا من أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كان عارفا بالقراءه و الكتابه بتعليم اللّه،و من دون أن يتتلمذ على يد أحد من البشر،لأنّ مثل هذه المعرفه هى بلا شك من الكمالات الإنسانيه،و مكمله لمقام النّبوه.

و يشهد بذلك ما ورد فى الأحاديث المرويه عن أهل البيت عليهم السّلام (۱) أن نص الروايه و لكنّه لأجل أن لا يبقى أى مجال لأدنى تشكيك فى دعوته لم يكن صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستفيد من هذه المقدره.

و قول البعض:إنّ القـدره على الكتـابه و القراءه لاـ تعـدّ كمالا،فهما وسـيله للوصول إلى الكمالات العلميّه،و ليسا بحـدّ ذاتها علما حقيقيا و لا كمالا واقعيا فإن جوابه كامن فى نفسه،لأنّ العلم بطريق الكمال كمال أيضا.

قد يقال:إنّه نفى فى روايتين عن أئمّه أهل البيت عليهم السّـلام بصراحه تفسير «الأمّى»بعدم القراءه و الكتابه،بل بالمنسوب إلى«أم القرى»(مكّه).

و نقول فى الردّ:إنّ إحـدى هاتين الروايتين«مرفوعه»حسب اصـطلاح علم الحـديث فلا قيمه لها من حيث السـند،و الروايه الأخرى منقوله عن«جعفر بن محمّد الصوفى»و هو مجهول.

۱- ۱) تفسير البرهان المجلد الخامس،الصفحه ۳۷۳ ذيل آيات سوره الجمعه.

و أمّا ما تصوّره البعض من أن الآيه الثّانيه من سوره الجمعه يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ و آيات أخرى دليل على أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يتلو القرآن على الناس من شىء مكتوب،فهو خطأ بالغ،لأنّ التلاوه تطلق على التلاوه من مكتوب على شىء،كما تطلق على القراءه حفظا و من ظهر القلب،و استعمال لفظه التلاوه فى حق الذين يقرءون الأشعار أو الأدعيه حفظا و من على ظهر القلب كثير.

من مجموع ما قلناه نستنتج:

١-أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يتلق القراءه و الكتابه من أحد حتما،و بهذا تكون إحدى صفاته أنّه لم يدرس عند أستاذ.

٢-أنّنا لا نملك أى دليل معتبر على أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قرأ أو كتب شيئا قبل النبوه،أو بعدها.

٣-إنّ هذا الموضوع لا يتنافى مع تعليم اللّه تعالى القراءه أو الكتابه لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

٣-البشارات بظهور النّبى فى العهدين:

إنّ الشواهد التأريخيه القطعيه،و كذا محتويات كتب اليهود و النصارى المقدسه(التوراه و الإنجيل)تفيد أن هذه الكتب ليست هى الكتب السماويه التى نزلت على موسى و عيسى عليهما السّلام و أن يد التحريف قد طالتهما،بل إنّ بعضها اندرس و اندثر،و أن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسه بينهم ما هى إلّا خليط من نسائج الأفكار و الأدمغه البشريه و شىء من التعاليم التى نزلت على موسى و عيسى عليهما السّلام ممّا بقى فى أيدى تلامذتهم.

و على هذا الأساس لا غرور و لا عجب إذا لم نقف على عبارات صريحه حول البشاره بظهور النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لكن مع هـذا فـإنّه يلحظ فى ثنايـا هـذه الكتب المحرفه عبارات تتضـمّن إشارات معتـدّ بها حول ظهور هـذا النّبى العظيم،و قد جمعهـا ثلّه من علمائنـا فى كتب و مؤلفـات مسـتقله،أو مقالات تتحـدث فى هـذا المجـال.و حيث أن ذكر كل تلك البشائر و ما حولها من حديث و كلام ممّا يطول به المقام،فإنّنا نكتفى بذكر بعض منها على سبيل المثال لا الحصر.

١-جاء فى سـفر التكوين الاصـطلاح ١٧ العباره ١٧ إلى ٢٠:«و قـال إبراهيم للّه ليت إسـماعيل يعيش أمامـك،فقـال اللّه... و أمّا إسـماعيل فقـد سـمعت لك فيه(أى دعاءك فى حقه)ها أنا أباركه و أثمره و أكثره كثيرا جيـدا.اثنى عشـر رئيسا يلد و أجعله أمّه كبيره».

٢-«لا يزول قضيب من يهوذا و مشترع من بين رجيله حتى يأتى شيلون و له يكون خضوع شعوب».

و الجـدير بالانتبـاه أن أحـد معـانى شـيلون-حسب تصـريح المستر هاكس فى كتاب قاموس الكتاب المقـدس-هو الإرسال،و هو يوافق كلمه«رسول»أو «رسول اللّه».

٣-و فى إنجيـل يوحنا الباب ١۵ العباره رقم ١۶ جاء ما يلى:«و أمّا المعزى الروح القدس الذى سيرسـله الأب باسـمى فهو يعلّمكم كل شىء و يذكركم بكل ما قلته لكم».

۴-و كذا جاء فى إنجيل يوحنا ذاته الاصـطلاح ١۶ العباره رقم ٧:«لكنّى أقول لكم الحق:إنّه خير لكم أن أنطلق.لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّى.و لكن إن ذهبت أرسله إليكم،و متى جاء ذاك هو يرشدكم إلى جميع الحق،لأنّه لا يتكلم

من نفسه بل کل ما یسمع یتکلم به و یخبرکم بأمور آتیه». (۱)

و النقطه الجدیره بالاهتمام أنّه جاءت الکلمه فی إنجیل یوحنا باللغه الفارسیه«المسلّی»و لکنّها فی الإنجیل العربی طبعه لندن(مطبعه ولیام وطس عام ۱۸۵۷)جاء مکانها:«فارقلیطا».

ص: ۲۵۲

۱- ۱) کل النصوص المنقوله هنا مقتبسه من کتاب العهد القدیم و الجدید طباعه و إصدار دار الکتاب المقدس فی العالم العربی عام ۱۹۷۹.

الآیه [سوره الأعراف (۷): آیه ۱۵۸]

اشاره

قُلْ یا أَیُّهَا اَلنّاسُ إِنِّی رَسُولُ اَللّهِ إِلَیْکُمْ جَمِیعاً اَلَّذِی لَهُ مُلْکُ اَلسَّماواتِ وَ اَلْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاّ هُوَ یُحیِی وَ یُمِیتُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ اَلنَّبِیِّ اَلْأُمِّیِّ اَلَّذِی یُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ کَلِماتِهِ وَ اِتَّبِعُوهُ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۸)

التّفسیر

اشاره

دعوه النّبی العالمیّه:

جاء فی حدیث عن الإمام الحسن المجتبی علیه السّلام قال: جاء نفر من الیهود إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا:یا محمّد،أنت الذی تزعم أنّک رسول اللّه،و أنّک الذی یوحی إلیک کما یوحی إلی موسی بن عمران؟فسکت النّبی ساعه ثمّ قال:«نعم أنا سید ولد آدم و لا فخر،و أنا خاتم النّبیین،و إمام المتقین،و رسول ربّ العالمین.» قالوا:إلی من،إلی العرب أم إلی العجم،أم إلینا؟فأنزل اللّه هذه الآیه التی صرّحت بأنّ رساله النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رساله عالمیه (۱) .

و لکن مع ذلک لا یمکن إنکار ارتباط هذه الآیه بالآیه السابقه المتعلقه

ص :۲۵۳

۱- ۱) عن المجالس حسب نقل تفسیر الصافی،ج ۱،فی ذیل هذه الآیه.

بصفات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الدعوه إلى اتباع دينه و شريعته.

و فى البدايه يأمر اللّه تعالى رسول اللّه قائلا: قُلْ يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ إِنِّى رَسُولُ اللّٰهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً .

إنّ هذه الآيه مثل آيات كثيره أخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالميه دعوه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى الآيه(٢٨)من سوره«سبأ»أيضا نقرأ: وَ مٰا أَرْسَلْنٰاكَ إِلاّٰ كَافَّةً لِلنّٰاسِ .

و فى الآيه(١٩)من سوره الأنعام أيضا نقرأ: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أى بلغه القرآن.

و فى مطلع سوره الفرقان نقرأ: تَبٰارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً فهو أرسل إلى الناس كافه ليحذرهم من المسؤوليات.

هذه نماذج من الآيات التى تشهد بعالميه دعوه الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و سوف نبحث حول هذه المسأله أيضا فى ذيل الآيه(٧)من سوره الشورى،و قد مر لنا فى ذيل الآيه(٩٢)من سوره الأنعام-أيضا-بحث مبسوط نوعا ما فى هذا الصعيد.

ثمّ إنّه وصف الإله الذى يدعو إليه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بثلاث صفات:

١-اَلَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ فله الحاكميه المطلقه.

٢-لاٰ إِلٰهَ إِلاّٰ هُوَ فلا معبود يليق للعباده سواه.

٣-يُحيِي وَ يُمِيتُ بيده نظام الحياه و الموت.

و بهذه الطريقه تنفى هذه الآيه ألوهيه غير خالق السماوات و الأرض، و ألوهيّه كل صنم،و كذا تنفى التثليث المسيحى،كما و تؤكّد على رساله النّبى العالميه و قدره اللّه تعالى على أمر المعاد.

و فى الختام تدعو جميع أهل العالم إلى الإيمان باللّه و برسوله الذى لم يتعلّم

القراءه و الكتابه و القائم من بين الناس فَآمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ .

النّبى الـذى لاـ يكتفى بـدعوه الآخرين إلى هـذه الحقائق فحسب،بل يؤمن هو فى الـدرجه الأولى-بما يقول،يعنى الإيمان باللّه و كلماته اَلَّذِی یُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ کَلِماتِهِ .

إنّه لا يؤمن فقط بالآيات التى نزلت عليه،بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقه للأنبياء السابقين.

إنّ إيمانه بـدينه و الـذى يتجلى من خلال أعماله و تصـرّفاته دليل واضح على حقانيته،لأن عمل الآمر بشـىء يعكس مدى إيمانه بما يأمر به و يدعو إليه.و إيمانه بقوله أحد الأدله على صدقه.إنّ تأريخ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم برمّته يشهد بهذه الحقيقه و هى أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان أكثر من غيره التزاما بالتعاليم التى جاء بها.

أجل،لا بدّ لكم من اتّباع مثل هذا النّبى حتى تسطع أنوار الهدايه على قلوبكم،لتهتدوا إلى طريق السعاده وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

و هذا إشاره إلى أنّه لا يكفى مجرّد الإيمان،و إنما يفيد الإيمان إذا اقترن بالاتباع العملىّ.

و الجدير بالالتفات إلى أن الآيه الحاضره نزلت فى مكّه يوم كان المسلمون يشكلون أقليه صغيره جدّا بحيث إنّه قلّما كان هناك من يحتمل أن يسيطر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على مكّه فضلا عن جزيره العرب،أو قسم كبير من العالم.

و على هـذا الأسـاس،فإنّ الـذين يتصورون أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ادعى فى البـدايه تبليغ الرسـاله لأهل مكّه فقـط،و عنـد مـا انتشـر دينه و علاـ أمره فكر فى السـيطره على الحجاز،ثمّ فكر فى البلاد الأخرى،و راسل ملوك العالم و أمراءه و قادته،و أعلن عن رسالته العالميه.تجيب الآيه الحاضره التى نزلت فى مكّه على كل تصوراتهم هذه،فهى تصرح فى غير إبهام و لا غموض بأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعلن عن دعوته العالميه منذ البدايه.

ص :۲۵۵

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٥٩ الى ١٦٠]

اشاره

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) وَ قَطَّعْنٰاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبٰاطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ إِذِ اسْتَسْقٰاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصٰاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتٰا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنٰاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنٰا عَلَيْهِمُ الْغَمٰامَ وَ أَنْزَلْنٰا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبٰاتِ مٰا رَزَقْنٰاكُمْ وَ مٰا ظَلَمُونٰا وَ لٰكِنْ كٰانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

التّفسير

اشاره

جانب من نعم اللّه على بنى إسرائيل:

فى الآيات الحاضره إشاره إلى حقيقه رأينا نظيرها فى القرآن الكريم، و هذه الحقيقه هى تحرى القرآن للحق،و احترامه لمكانه الأقليات الدينيه الصالحه، يعنى أنّه لم يكن ليصف جميع بنى إسرائيل بأسرهم بالفساد و الإفساد،و بأنّ هذا العزق القومى برمته ضالّ متمرد من دون استثناء،بل اعترف بأن منهم أقليه صالحه غير موافقه على أعمال الأكثريه،و قد أولى القرآن الكريم اهتماما خاصا بهؤلاء فيقول: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ .

إنّ هذه الآيه قد تشير إلى فريق صغير لم يسلّموا للسامرىّ و دعوته،و كانوا يدافعون عن دين موسى دائما و أبدا،أو إلى الفرق و الطوائف الصالحه الأخرى التى جاءت بعد موسى عليه السّلام.

و لكن هذا المعنى يبدو غير منسجم مع ظاهر الآيه،لأن«يهدون» و«يعدلون»فعل مضارع،و هو على الأقل يحكى عن زمان الحال،يعنى عصر نزول القرآن،و يثبت وجود مثل هذا الفريق فى ذلك الزمان،إلاّ أن نقدّر فعل «كان»فتكون الآيه إشاره إلى الزمان الماضى،و نعلم أن التقدير من دون قرينه خلاف الظاهر.

و كذلك يمكن أن يكون ناظرا إلى الأقليه اليهوديه الذين كانوا يعيشون فى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذين اعتنقوا الإسلام تدريجا و بعد مطالعه دعوه النّبى و محتوى رسالته،و انضموا إلى صفوف المسلمين الصادقين.و هذا التّفسير ينسجم أكثر مع ظاهر الفعلين المضارعين المستعملين فيها.

و ما جاء فى بعض روايات الشيعه و السنه من أنّ هذه الآيه إشاره إلى فريق صغير من بنى إسرائيل يعيشون فيما وراء الصين،عيشه عدل و تقوى و توحيد و عبوديه اللّه تعالى فغير مقبول،لأنّه مضافا إلى عدم موافقته لما نعلمه من جغرافيا العالم اليوم،و مضافا إلى أن التواريخ الحاضره الموجوده لا تؤيد هذا الموضوع، فإنّ الأحاديث المذكوره غير معتبره من حيث السند،و لا يمكن أن يعتمد عليها كأحاديث صحيحه حسب قواعد علم الرجال.

و فى الآيه اللاحقه يشير القرآن الكريم إلى عدّه أقسام من نعم اللّه على بنى إسرائيل.

فيقول أوّلا: وَ قَطَّعْنٰاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبٰاطاً أُمَماً و هذا التقطيع و التقسيم إنّما هو لأجل أن يسودهم نظام عادل،بعيد عن المصادمات الخشنه.

و واضح أنّه عند ما يكون فى شعب من الشعوب تقسيمات إداريه صحيحه

و منظمه،و يخضع كـل قسم من تلـك الأقسـام لقيـاده قائـد قـدير،فإنّ إدارتهم و رعايه العـداله بينهم تكون أسـهل،و لنفس هـذا السبب عمدت جميع الدول إلى مثل هذا العمل و أخذت بهذه القاعده.

و«أسـباط»جمع سبط(بفتح السين و بكسرها)تعنى فى الأصل الانبساط فى سهوله،ثمّ يطلق السبط و الأسباط على الأولاد و بخاصّه الأحفاد لأنّهم امتداد العائله.

و المراد من الأسباط-هنا-هو قبائل بنى إسرائيل و فروعها،الذين كان كل واحد منها منشعبا و منحدرا من أحد أولاد يعقوب عليه السّلام.

و النّعمه الأخرى هى:أنّه عنـد ما كان بنو إسـرائيل متوجهين إلى بيت المقـدس و أصابهم العطش الشديد الخطير فى الصـحراء،و طلبوا من موسـى عليه السّـلام الماء، أوحى إليه أن اضـرب بعصاك الحجر...ففعل فنبع الماء فشـربوا و نجوا من الهلاك وَ أَوْحَيْنٰا إِلىٰ مُوسىٰ إِذِ اسْتَسْقٰاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصٰاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتٰا عَشْرَةَ عَيْناً .

و قـد كانت الينابيع هـذه مقسـمه بين أسـباط بنى إسـرائيل بحيث عرف كل سـبط منهم نبعه الـذى يشـرب منه قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنٰاسٍ مَشْرَبَهُمْ .

و يسـتفاد من هذه الجمله أنّ هذه الينابيع الاثنى عشـر التى نبعت من تلك الصـخره العظيمه كانت معلّمه بعلامات و متميز بعضها عن بعض بفوارق،بحيث كان يعرف كل فريق من فرق بنى إسرائيل نبعه المختص به و المقرّر له،لا يقع بينهم أى خلاف و يسود النظم و الانضباط فى جماعتهم،و يتمّ الشرب بصوره أسهل و أفضل.

و النّعمه الثالثه هى:أن اللّه تعالى أرسل لهم-فى تلك الصـحارى الملتهبه حيث لا سـقف و لا ضـلال-سحبا ظلّلتهم وَ ظَلَّلْنٰا عَلَيْهِمُ الْغَمٰامَ .

و النّعمه الرّابعه إنزال المنّ و السلوى عليهم كغذائين لذيذين و مقويين

وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى

.

ثمّ إنّ المفسّرين أعطوا تفسيرات متنوعه لهذين الغذاءين«المنّ» و«السلوى»اللذين أنزلهما اللّه على بنى إسرائيل فى تلك الصحراء القاحله(و قد ذكرنا هذه التفاسير عند دراسه الآيه ۵۷ من سوره البقره)و قلنا بأنّه لا يبعد أنّ «المن»كان نوعا من العسل الطبيعى الذى كان فى بطون الجبال المجاوره،أو عصارات و إفرازات نباتيه كانت تظهر على أشجار كانت نابته هنا و هناك فى تلك الصحراء،و«السلوى»نوع من الطير الحلال اللحم شبيه بالحمام.

ثمّ يقول اللّه تعالى:و قلنا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ .

و لكنّهم أكلوا و كفروا النعمه و لم يشكروها و بذلك ظلموا فى الحقيقه أنفسهم وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

و يجب الانتباه إلى أن مضمون هذه الآيه جاء فى الآيات(۵۷)و(۶۰)من سوره البقره مع فارق بسيط،غايه ما فى الأمر أنّه عبر عن نبوع الماء من الصخر هنا ب«انبجست»و هناك ب«انفجرت»،و حسب اعتقاد جماعه من المفسّرين أنّ التفاوت بين هاتين العبارتين هو أن «انفجرت»تعنى«خروج الماء بدفع،و كثره» و«انبجست»تعنى«خروج الماء بقلّه»و لعل هذا التفاوت لأجل الإشاره إلى أنّ عيون الماء المذكوره لم تنبع من الصخره العظيمه دفعه حتى يصير ذلك سببا لاستيحاشهم و خوفهم و قلقهم،و لا تكون لهم قدره على تنظيم المياه المندفقه و حصرها،بل خرجت ابتداء بهدوء و قله،ثمّ توسعت المجارى و كثرت المياه النابعه.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هاتين الكلمتين ترجعان إلى مفهوم واحد.

ص :۲۵۹

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٦١ الى ١٦٢]

اشاره

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اُسْكُنُوا هٰذِهِ اَلْقَرْيَهَ وَ كُلُوا مِنْهٰا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّهٌ وَ اُدْخُلُوا اَلْبٰابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئٰاتِكُمْ سَنَزِيدُ اَلْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ اَلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ اَلسَّمٰاءِ بِمٰا كٰانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)

التّفسير

اشاره

فى تعقيب الآيات السابقه تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهيه لبنى إسرائيل و طغيانهم تجاه تلك النعم،و كفرانهم بها.

يقول تعالى:(و)اذكروا إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هٰذِهِ الْقَرْيَهَ وَ كُلُوا مِنْهٰا حَيْثُ شِئْتُمْ .

و قلنا لهم اطلبوا من اللّه حطّ الذنوب عنكم و عفوه عن خطاياكم،و ادخلوا من باب بيت المقدس بخضوع وَ قُولُوا حِطَّهٌ وَ ادْخُلُوا الْبٰابَ سُجَّداً .

فإذا قمتم بهذه الأمور غفرنا لكم خطاياكم،و أعطينا للمحسنين ثوابا أكبر و نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئٰاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

و بالرغم من أن اللّه فتح أمامهم أبواب الرحمه،و لو أردوا اغتنام الفرصه لاستطاعوا حتما إصلاح ماضيهم و حاضرهم،و لكن لم يغتنم الظالمين من بنى إسرائيل هذه الفرصه فحسب،بل بدّلوا أمر اللّه،و قالوا خلاف ما أمروا أن يقولوه:

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ

.

و فى المآل نزل عليهم بسبب هذا الطغيان و الظلم للنفس و للآخرين عذاب من السماء فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ .

و يجب الانتباه إلى أنّ مضمون هاتين الآيتين جاء أيضا-مع فارق بسيط- فى سوره البقره الآيه(۵۸)و(۵۹)و قد أوردنا تفسيرا أكثرا تفصيلا هناك.

و الفرق الوحيد بين هذه الآيات المبحوثه هنا،و آيات سوره البقره هو أنّه يقول هنا: بِما كانُوا يَظْلِمُونَ ،و قال هناك: بِما كانُوا يَفْسُقُونَ ،و لعل الفارق بين هذين إنما هو لأجل أن الذنوب لها جانبان:أحدهما الجانب المرتبط باللّه، و الجانب الآخر مرتبط بنفس الإنسان.و قد أشار القرآن إلى الجانب الأوّل فى آيه سوره البقره بعباره«الفسق»الذى مفهومه الخروج عن طاعه اللّه،و إلى الثّانى فى الآيه الحاضره بعباره«الظلم».

ما هى«حطّه»و ماذا تعنى؟

الجدير بالذكر أن بنى إسرائيل كانوا مكلّفين بأن يطهروا قلوبهم و أرواحهم عند دخولهم بيت المقدس من أدران الذنوب بتوبه خالصه و واقعيه تتلخص فى كلمه«حطّه»و أن يطلبوا من اللّه المغفره لكل تلك الجرائم التى ارتكبوها، و بخاصّه ما آذوا به نبيّهم العظيم موسى بن عمران قبل ورودهم بيت المقدس.

و كلمه«حطّه»التى كانت-فى الحقيقه-شعارهم عند دخولهم بيت المقدس،هى صوره اختصاريه لعباره«مسألتنا حطّه»يعنى نطلب منك يا ربّ أن تحطّ عنّا ذنوبنا بإنزال شآبيب الرحمه و العفو علينا،لأنّ«حطّه»معناها إنزال

الشیء من علو و هذا الشعار شأنه شأن جمیع الشعارات الأخری لا یکفی فیه أن یکون مجرّد لقلقه لسان،بل یجب أن یکون اللسان ترجمان الروح و مرآه الوجدان،و لکنّهم-کما سیأتی فی الآیه اللاحقه-مسخوا کثیرا من تلک الشعارات حتی هذا الشعار التربوی،و جعلوه وسیله للّهو و الاستهزاء و السخریه.

ص:۲۶۲

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۶۳ الی ۱۶۶]

اشاره

وَ سْـئَلْهُمْ عَنِ اَلْقَرْیَهِ اَلَّتِی کٰانَتْ حٰاضِـرَهَ اَلْبَحْرِ إِذْ یَعْدُونَ فِی اَلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِیهِمْ حِیتٰانُهُمْ یَوْمَ سَـبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ یَوْمَ لاٰ یَسْبِتُونَ لاٰ تَأْتِیهِمْ کَذٰلِکَ نَبْلُوهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَفْسُـقُونَ (۱۶۳) وَ إِذْ قٰالَتْ أُمَّهٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اَللّٰهُ مُهْلِکُهُمْ أَوْ مُعَـذِّبُهُمْ عَـذٰاباً شَدِیـداً قٰالُوا مَعْذِرَهً إِلیٰ رَبِّکُمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ (۱۶۴) فَلَمّٰا نَسُوا مٰا ذُکِّرُوا بِهِ أَنْجَیْنَا اَلَّذِینَ یَنْهَوْنَ عَنِ اَلسُّوءِ وَ أَخَذْنَا اَلَّذِینَ ظَلَمُوا بِعَذٰابٍ بَئِیسٍ بِمٰا کٰانُوا یَفْسُقُونَ (۱۶۵) فَلَمّٰا عَتَوْا عَنْ مٰا نُهُوا عَنْهُ قُلْنٰا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَهً خٰاسِئِینَ (۱۶۶)

التّفسیر

اشاره

قصّه فیها عبره:

فی هـذه الآیات یسـتعرض مشـهدا آخر من تاریخ بنی إسـرائیل الزاخر بالحوادث،و هو مشـهد یرتبط بجماعه منهم کانوا یعیشون عند ساحل بحر.غایه ما فی الأمر أن الخطاب موجه فیها إلی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فیقول له:اسأل یهود

ص: ۲۶۳

عصرك حول تلك الجماعه،يعنى جدّد هذه الخاطره فى أذهانهم عن طريق السؤال ليعتبروا بها،و يجتنبوا المصير و العقاب الذى ينتظرهم بسبب طغيانهم و تعنتهم.

إنّ هذه القصّه-كما أشير إليها فى الأحاديث الإسلاميه-ترتبط بجماعه من بنى إسرائيل كانوا يعيشون عند ساحل أحد البحار(و الظاهر أنّه ساحل البحر الأحمر المجاور لفلسطين)فى ميناء يسمى بميناء«أيله»(و الذى يسمى الآن بميناء ايلات)و قد أمرهم اللّه تعالى على سبيل الاختبار و الامتحان أن يعطّلوا صيد الأسماك فى يوم السبت،و لكنّهم خالفوا هذا التعليم،فأصيبوا بعقوبه موجعه مؤلمه نقرأ شرحها فى هذه الآيات.

فى البدايه تقول الآيه: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَهِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَهَ الْبَحْرِ .أى اسأل يهود عصرك عن قضيه القريه التى كانت تعيش على ساحل البحر.

ثمّ تقول:و ذكّرهم كيف أنّهم تجاوزوا-فى يوم السبت-القانون الإلهى إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ لأنّ يوم السبت كان يوم عطلتهم،و كان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب،و عن صيد السمك و يشتغلوا بالعباده،و لكنّهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثمّ يشرح القرآن العدوان المذكور بالعباده التاليه: إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً فالأسماک كانت تظهر على سطح الماء فى يوم السبت،بينما كانت تختفى فى غيره من الأيّام.

و«السبت»فى اللغه تعنى تعطيل العمل للاستراحه،و ما نقرؤه فى سوره النبأ وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً أشاره-كذلک-إلى هذا الموضوع،و سمّى«يوم السبت»بهذا الاسم لأنّ الأعمال العاديه و المشاغل كانت تتعطل فى هذا اليوم،ثمّ بقى هذا الاسم لهذا اليوم علما له.

و من البديهى أنّ صيد الأسماك يشكّل لدى سكنه ساحل البحر مورد كسبهم و تغذيتهم،و كأنّ الأسماك بسبب تعطيل عمليه الصيد فى يوم السبت صارت

تحس بنوع من الأمن من ناحیه الصیادین،فکانت تظهر علی سطح الماء أفواجا أفواجا،بینما کانت تتوغل بعیدا فی البحر فی الأیّام الأخری التی کان الصیّادون فیها یخرجون للصید.

إنّ هذا الموضوع سواء کان له جانب طبیعی عادی أم کان له جانب استثنائی و إلهی،کان وسیله لامتحان و اختبار هذه الجماعه،لهذا یقول القرآن الکریم:

و هکذا اختبرناهم بشیء یخالفونه و یعصون الأمر فیه کَذٰلِکَ نَبْلُوهُمْ بِمٰا کٰانُوا یَفْسُقُونَ .

و جمله بِمٰا کٰانُوا یَفْسُقُونَ إشاره إلی أنّ اختبارهم کان بما من شأنه أن یجذبهم و یدعوهم إلی نفسه،و إلی المعصیه و المخالفه،و جمیع الاختبارات کذلک،لأن الاختبار یجب أن یبیّن مدی مقاومه الأشخاص أمام جاذبیه المعاصی و الذنوب.

عند ما واجهت هذه الجماعه من بنی إسرائیل هذا الامتحان الکبیر الذی کان متداخلا مع حیاتهم تداخلا کاملا،انقسموا إلی ثلاث فرق:

«الفریق الأوّل»و کانوا یشکّلون الأکثریه،و هم الذین خالفوا هذا الأمر الإلهی.

«الفریق الثّانی»و کانوا علی القاعده یشکلون الأقلیه،و هم الذین قاموا- تجاه الفریق الأوّل بوظیفه الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

«الفریق الثّالث»و هم الساکتون المحایدون الذین لم یوافقوا العصاه،و لا قاموا بوظیفه الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

و فی الآیه الثّانیه من الآیات المبحوثه هنا یشرح الحوار الذی دار بین العصاه،و بین الذین نهوهم عن ارتکاب هذه المخالفه فیقول: وَ إِذْ قٰالَتْ أُمَّهٌ

مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّٰهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذٰاباً شَدِيداً

(۱)

.

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر:بأنّنا ننهى عن المنكر لأنّنا نؤدى واجبنا تجاه اللّه تعالى،و حتى لا نكون مسئولين تجاهه،هذا مضافا إلى أنّنا نأمل أن يؤثر كلامنا فى قلوبهم،و يكفوا عن طغيانهم و تعنتهم قٰالُوا مَعْذِرَةً إِلىٰ رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

و يستفاد من الجمله الحاضره أنّ هؤلاء الواعظين كانوا يفعلون ذلك بهدفين:

الأوّل:أنّهم كانوا يعظون العصاه حتى يكونوا معذورين عند اللّه.

و الآخر:عسى أن يؤثروا فى نفوس العصاه،و يفهم من هذا الكلام أنّهم حتى مع عدم احتمال التأثير،فإنّهم كانوا لا يحجمون عن الوعظ و النصيحه فى حين أن المعروف هو أن وجوب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر مشروطين باحتمال التأثير.

و لكن لا-بدّ من الانتباه إلى أنّه ربّما يجب بيان الحقائق و الوظائف الإلهيه حتى مع عدم احتمال التأثير،و ذلك عند ما يكون عدم بيان الأحكام الإلهيه، و عدم إنكار المنكر سببا لتناسى و تنامى البدع،و حينما يعدّ السكوت دليلا على الرضا و الموافقه.ففى هذه الموارد يجب إظهار الحكم الإلهى فى مكان حتى مع عدم تأثيره فى العصاه و المذنبين.

إنّ هذه النقطه جديره بالالتفات،و هى أنّ الناهين عن المنكر كانوا يقولون:

نحن نريد أن نكون معذورين عند(ربّكم)و كأنّ هذا إشاره إلى أنّكم أيضا مسئولون أمام اللّه،و إنّ هذه الوظيفه ليست وظيفتنا فقط،بل هى وظيفتكم تجاه ربّكم فى الوقت ذاته.

۱- ۱) التعبير ب«أمّه منهم»يكشف عن أن الفريق الثّانى كانوا أقلّ من العصاه،لأنّه عبّر عنهم بلفظه«قوما»بدون كلمه منهم) و تقرأ فى بعض الآيات أنّ عدد نفوس هذه المدينه كان ثمانين ألف و بضعه آلاف،و قد ارتكب ۷۰ ألفا منهم هذه المعصيه(راجع تفسير البرهان،المجلد الثّانى،الصفحه ۴۲).

ثمّ إنّ الآيه اللاحقه تقول:و فى المآل غلبت عباده الدنيا عليهم،و تناسوا الأمر الإلهى،و فى هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهون عن المنكر،و عاقبنا الظالمين بعقاب أليم منهم بسبب فسقهم و عصيانهم فَلَمّا نَسُوا مّا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِمّا كانُوا يَفْسُقُونَ (١) .

و لا شك أنّ هذا النسيان ليس نسيانا حقيقيا غير موجب للعذر،بل هو نوع من عدم الاكتراث و الاعتناء بأمر اللّه،و كأنّه قد نسى بالمرّه.

ثمّ يشرح العقوبات هكذا: فَلَمّا عَتَوْا عَنْ مّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَهً خاسِئِينَ (٢) .

و واضح أن أمر«كونوا»هنا أمر تكوينى مثل: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣) .

بحوث

اشاره

و هنا نقاط عديده يجب الالتفات إليها:

١-كيف ارتكبوا هذه المعصيه؟

و أمّا كيف بدأت هذه الجماعه عمليه التجاوز على هذا القانون الإلهى؟فقد وقع فيه كلام بين المفسّرين.

١- ١) بئيس مشتقه من ماده«بأس»يعنى الشديد.

٢- ٢) «عتوا»من ماده عتّو على وزن«غلوّ»بمعنى الامتناع عن طاعه أمر،و ما ذكره بعض المفسّرين من تفسيره بمعنى الامتناع فقط يخالف ما قاله أرباب اللغه.

٣- ٣) سوره يس،٢٨.

و یستفاد من بعض الرّوایات أنّهم عمدوا فی البدایه إلی ما یسمی بالحیله الشرعیه،فقد أحدثوا أحواضا إلی جانب البحر،و فتحوا لها أبوابا إلی البحر، فکانوا یفتحون هذه الأبواب فی یوم السبت فتقع فیها أسماک کثیره مع ورود الماء إلیها،و عند الغروب حینما کانت الأسماک ترید العوده إلی البحر یوصدون تلک فتحبس الأسماک فی تلک الأحواض،ثمّ یعمدون فی یوم الأحد إلی صیدها، و أخذها من الأحواض،و کانوا یقولون:إنّ اللّه أمرنا أن لا نصید السمک،و نحن لم نصد الأسماک إنّما حاصرناها فقط (۱) .

و یقول بعض المفسّرین:إنّهم کانوا یرسلون کلالیبهم و صناراتهم و شباکهم فی البحر یوم السبت،ثمّ یسحبونها یوم الأحد و قد علقت بها الأسماک،و هکذا کانوا یصیدون السمک حتی فی یوم السبت و لکن بصوره ما کره.

و یظهر من بعض الرّوایات الأخری أنّهم کانوا یصیدون السمک یوم السبت من دون مبالاه بالنهی الإلهی،و لیس بواسطه أیه حیله.

و لکن من الممکن أن تکون هذه الرّوایات صحیحه بأجمعها و ذلک أنّهم فی البدایه استخدموا ما یسمی بالحیله الشرعیه،و ذلک بواسطه حفر أحواض إلی جانب البحر،أو إلقاء الکلالیب و الصنارات،ثمّ لما صغرت هذه المعصیه فی نظرهم،جرأهم ذلک علی کسر احترام یوم السب و حرمته،فأخذوا یصیدون السمک فی یوم السبت تدریجا و علنا،و اکتسبوا من هذا الطریق ثروه کبیره جدا.

۲-من هم الذین نجوا؟

الظاهر من الآیات الحاضره أنّ فریقا واحدا من الفرق الثلاثه(العصاه، المتفرجون،الناصحون)هو الذی نجی من العذاب الإلهی و هم افراد الفریق

۱- ۱) تفسیر البرهان،المجلد ۲،الصفحه ۲۲،و قد روی هذا الکلام عن ابن عباس فی تفسیر مجمع البیان فی ذیل الآیه.

الثّالث.

و كما جاء فى الرّوايات،فإنّه عند ما رأى هذا الفريق أن عظاته و نصائحه لا تجدى مع العصاه انزعجوا و قالوا:سنخرج من المدينه،فخرجوا إلى الصحراء ليلا،و اتفق أن أصاب العذاب الإلهى كلا الفريقين الآخرين.

و أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ العصاه هم الذين أصيبوا بالعذاب فقط،و نجى الساكتون أيضا،فهو لا يتناسب مع ظاهر الآيات الحاضره.

۳-هل أنّ كلا الفريقين عوقبوا بعقاب واحد

يظهر من الآيات الحاضره أنّ عقوبه المسخ كانت مقتصره على العصاه،لأنّه تعالى يقول: فَلَمّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ... و لكن من جانب آخر يستفاد من الآيات الحاضره-أيضا-أنّ الناصحين الواعظين فقط هم الذين نجوا من العقاب، لأنّه تعالى يقول: أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ .

من مجموع هاتين الآيتين يتبيّن أنّ العقوبه نالت كلا الفريقين،و لكن عقوبه المسخ اختصت بالعصاه فقط،و أمّا عقوبه الآخرين فمن المحتمل أنّها كانت الهلاك و الفناء،بالرغم من أن العصاه أيضا هلكوا بعد مدّه من المسخ حسب ما جاء فى هذا الصدد من الرّوايات. (۱)

۴-هل المسخ كان جسمانيا أو روحانيا؟

«المسخ»أو بتعبير آخر«تغيير الشكل الإنسانى إلى الصوره الحيوانيه»و من المسلّم أنّه حدث على خلاف العاده و الطبيعه.

على أنّه قد شوهدت حالات جزئيه من(موتاسيون)و القفزه،و تغيير الشكل

ص:۲۶۹

۱- ۱) و إذا كان يستفاد من بعض الرّوايات خلاف هذا الموضوع،فإنّه مضافا إلى أنّه لا يمكن الاعتماد عليه فى مقابل ظاهر الآيات فإنّما ضعيفه من حيث السند أيضا،و يحتمل أن يكون الراوى قد أخطأ فى نقل الروايه.

و الصوره فی الحیوانات إلی أشکال و صور أخری،و قد شکّلت أسس فرضیه التکامل فی العلوم الطبیعیه الحاضره.

و لکنّ الموارد التی شوهدت فیها ال«موتاسیون»و القفزه إنّما هی فی صفات الحیوانات الجزئیه،لا الصفات الکلیّه،یعنی أنّه لم یشاهد إلی الآن نوعا من أنواع الحیوان تغیّر علی أثر ال«موتاسیون»إلی نوع آخر،بل یمکن أن تتغیر خصوصیات معینه من الحیوان،ناهیک عن أنّ هذه التغییرات إنّما تظهر فی الأجیال التی توجد فی المستقبل،لا أن یحصل هذا التغییر فی الحیوان یتولد من أمّه.

و علی هذا الأساس،یکون تغیر صوره إنسان أو حیوان إلی صوره نوع آخر أمرا خارقا للعاده.

و لکن تقدم أنّ هناک أمورا تحدث علی خلاف العاده و الطبیعه،و هذه الأمور ربّما تقع فی صوره المعاجز التی یأتی بها الأنبیاء،و أحیانا تکون فی صوره الأعمال الخارقه للعاده التی تصدر من بعض الأشخاص،و إن لم یکونوا أنبیاء (و هی تختلف عن معاجز الأنبیاء طبعا).

و بناء علی هذا،و بعد القبول بإمکان وقوع المعاجز و خوارق العاده،لا مانع من مسخ صوره إنسان إلی إنسان آخر.و لا یکون ذلک مستحیلا تأباه العقول.

و وجود مثل هذه الخوارق للعاده-کما قلنا فی مبحث إعجاز الأنبیاء-لا هو استثناء و خرق لقانون العلیه،و لا هو خلاف العقل،بل هو مجرّد کسر قضیه «عادیّه طبیعیّه»فی مثل هذه الموارد،و لها نظائر رأیناها فی الأشخاص غیر العادیین (1) .

1- 1) لقد جمع أحد الکتّاب المعاصرین نماذج کثیره-من مصادر موثوقه-لأشخاص من البشر أو حیوانات استثنائیّه،ملفته للنظر و مثیره للعجب،و من جمله ذلک:إنسان یستطیع قراءه السطور بأصابعه،أو امرأه وضعت مرتین فی خلال شهرین،و فی کل مره ولدت ولدا،أو طفلا کان قلبه خارج صدره،أو امرأه لم تکن تعرف أنّها حامل حتی لحظه وضعها لولیدها،و ما شابه ذلک.

بناء على هـذا لا ـ مـانع من قبـول«المسـخ»على مـا هو عليه فى معنـاه الظـاهرى الوارد فى الآ ـيه الحاضـره و بعض الآيـات القرآنيه الأخرى،و أكثر المفسّرين قبلوا هذا التّفسير أيضا.

و لكن بعض المفسّرين-و هم الأقليّه-قالوا:إنّ المسخ هو«المسخ الروحانى»و الانقلاب فى الصفات الأخلاقيه،بمعنى ظهور صفات مثل صـفات القرود أو الخنازير فى الطغاه و المتعنتين،مثل الإقبال على التقليـد الأعمى و التوجه الشديد إلى البطنه و الشـهوه،التى هى صفات بارزه لهذين الحيوانين.

و هذا الاحتمال نقل عن أحد المفسّرين القدامى و هو مجاهد.

و مـا أخـذه البعض على مسـأله المسـخ،و أنّه خلاف التكامل،و أنّه يوجب العوده و الرجوع و التقهقر فى الخلقه غير صـحيح،لأنّ قـانون التكامـل يرتبط بالـذين يسـيرون فى طريق التكامل،لا أولئك الـذين انحرفوا عن مسـيره التكامل، و خرجوا عن دائره هـذا القانون.

فعلى سبيل المثال:الإنسان السـليم ينمو نموا منتظما فى أعوام الطفوله، و لكنّه إذا حصلت فى وجوده بعض النقائص،فيمكن أن لا يتوقف الرشد و النمو فحسب،بل يتقهقر و يفقد نموه الفكرى و الجسمانى تدريجا.

و لكن يجب الانتباه على كل حال إلى أنّ المسـخ و التبـدل و التحول الجسـمانى يتناسب مع الأعمال التى قام بها الشـخص،يعنى أنّ بعض العصاه يسلكون سبيل الطغيان تحت ضغط من دوافع الهوى و الشهوه،و جماعه أخرى تتلوث حياتهم بأدران الذنوب أثر التقليد الأعمى،و لهذا يظهر المسخ فى كل فريق من هذه الفرق بصوره متناسبه مع كيفيه أعمالهم.

على أنّه قـد جرى الحديث فى الآيات الحاضـره فقط عن«القرده»و لم يجر أى حديث عن«الخنازير»و لكن فى الآيه(۶۰)من سوره المائده يدور الحديث حول جماعه مسخ بعضهم فى صورتين(بعض قرده و بعض خنازير)و هذه الآيه

حسبما قال بعض المفسّرين:نزلت حول أصحاب السبت،فالكبار منهم الذين أطاعوا أمر الشهوه و البطن مسخوا خنازير،و الشباب المقلد لهم تقليدا أعمى و كانوا يشكلون الأكثريه مسخوا قرده.

و لكن على كل حال يجب الالتفات إلى أنّ الممسوخين-حسب الرّوايات- بقوا على هذه الحاله عده أيّام ثمّ هلكوا،و لم يتولد منهم نسل أبدا.

۵-المخالفه تحت غطاء الحيله الشّرعيه

إنّ الآيات الحاضره و إن كانت لا تتضمّن الإشاره إلى تحايل أصحاب السبت فى صعيد المعصيه،و لكن-كما أسلفنا-أشار كثير من المفسّرين فى شرح هذه الآيات إلى قصّه حفر الأحواض،أو نصب الصنارات فى البحر فى يوم السبت،و يشاهد هذا الموضوع نفسه فى الرّوايات الإسلاميه،و بناء على هذا تكون العقوبه الإلهيه التى جرت على هذا الفريق-بشده-تكشف عن أن الوجه الحقيقى للذنب لا يتغير أبدا بانقلاب ظاهره،و باستخدام ما يسمى بالحيله الشرعيه،فالحرام حرام سواء أتى به صريحا،أو تحت لفافات كاذبه،و معاذير واهيه.

إنّ الذين تصوروا أنّه يمكن بالتغيير الصورى تبديل عمل حرام إلى حلال يخدعون أنفسهم فى الحقيقه،و من سوء الحظ أن هذا العمل رائج بين بعض الغفله الذين ينسبون أنفسهم إلى الدين و هذا هو الذى يشوّه وجه الدين فى نظر الغرباء عن الدين،و يكرّهه إليهم بشدّه.

إن العيب الأكبر الذى يتسم به هذا العمل-مضافا إلى تشويه صوره الدين- هو أن هذا العمل التحايلى يصغر الذنب فى الأنظار و يقلّل من أهميته و خطورته و قبحه،و يجرّئ الإنسان فى مجال الذنب إلى درجه أنّه يتهيأ شيئا فشيئا لارتكاب الذنوب و المعاصى بصوره صريحه و علينه.فنحن

نقرأ فى نهج البلاغه

أنّ الإمام عليّا عليه السّلام قال: «إنّ القوم سيفتنون بأموالهم،و يمنون بدينهم على ربّهم، و يتمنون رحمته،و يأمنون سطوته،و يستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبه و الأهواء الساهيه،فيستحلّون الخمر بالنّبيذ (1) و السحت بالهديه،و الربا بالبيع» (الخطبه ۱۵۶).

و يجب الانتباه إلى الدافع وراء أمثال هذه الحيل،إمّا إلباس الباطن القبيح بلباس قشيب و إظهاره بمظهر حسن أمام الناس،و إمّا خداع الضمير،و اكتساب طمأنينه نفسيه كاذبه.

۶-أنواع الابتلاء الإلهى المختلفه

صحيح أنّ صيد السمك من البحر لسكان السواحل لم يكن مخالفه،و لكن قد ينهى اللّه جماعه من الناس و بصوره مؤقّته،و بهدف الاختبار و الامتحان عن مثل هذا العمل،ليرى مدى تفانيهم،و يختبر مدى إخلاصهم،و هذا هو أحد أشكال الامتحان الإلهى.

هذا مضافا إلى أنّ يوم السبت كان عند اليهود يوما مقدسا،و كانوا قد كلّفوا-احتراما لهذا اليوم بالتفرغ للعباده و ممارسه البرامج الدينيه-و الكف-عن الكسب و الإشتغال بالأعمال اليوميه،و لكن سكان ميناء«أيله»تجاهلوا كلّ هذه الاعتبارات و المسائل،فعوقبوا معاقبه شديده جعلت منهم و من حياتهم المأساويه و مصيرهم المشؤوم درس و عبره للأجيال اللاحقه.

۱- ۱) كان النبيذ عباره عن وضع مقدار من التمر أو الشعير أو الزبيب فى الماء،عدّه أيّام،ثمّ شربه و هذا و إن لم يكن حراما شرعا، و لكنّه على أثر سخونه الهواء تتبدل المواد السكريه فيه إلى مواد كحوليه خفيفه.

الآیتان [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۶۷ الی ۱۶۸]

اشاره

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَیَبْعَثَنَّ عَلَیْهِمْ إِلیٰ یَوْمِ اَلْقِیٰامَهِ مَنْ یَسُومُهُمْ سُوءَ اَلْعَذٰابِ إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِیعُ اَلْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۶۷) وَ قَطَّعْنٰاهُمْ فِی اَلْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ اَلصّٰالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذٰلِکَ وَ بَلَوْنٰاهُمْ بِالْحَسَنٰاتِ وَ اَلسَّیِّئٰاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۱۶۸)

التّفسیر

اشاره

تفرق الیهود و تشتتهم:

هـذه الآیات إشاره إلی قسم من العقوبات الدنیویه التی أصابت جماعه من الیهود خالفت أمر اللّه تعالی،و سحقت الحق و العدل و الصدق.

فیقول فی البدایه:و اذکروا یوم أخبرکم اللّه بأنّه سیسلّط علی هذه الجماعه العاصیه المتمرده فریقا یجعلها حلیفه العذاب و الأذی إلی یوم القیامه وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّکَ لَیَبْعَثَنَّ عَلَیْهِمْ إِلیٰ یَوْمِ الْقِیٰامَهِ مَنْ یَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذٰابِ .

و«تأذّن»و«أذّن»کلاهما بمعنی الإخبار و الإعلام،و کذا جاء بمعنی الحلف و القسم،و فی هذه الصوره یکون معنی الآیه أنّ اللّه تعالی أقسم بأن یکون مثل

هؤلاء الأشخاص فی العذاب إلی یوم القیامه.

و یستفاد من هذه الآیه أنّ هذه الجماعه المتمرده الطاغیه لن تری وجه الاستقرار و الطمأنینه أبدا،و إن أسّست لنفسها حکومه و شیّدت دوله،فإنّها مع ذلک ستعیش حاله اضطراب دائم و قلق مستمر،إلاّ أن تغیّر-بصدق-سلوکها، و تکفّ عن الظلم و الفساد.

و فی ختام الآیه یضیف تعالی قائلا: إِنَّ رَبَّکَ لَسَرِیعُ الْعِقٰابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِیمٌ فبالنسبه إلی الکفار سریع العقاب،و بالنسبه للمذنبین التائبین التائبین غفور رحیم.

و هذه الجمله تکشف عن أنّ اللّه قد ترک الباب مفتوحا أمامهم حتی لا یظن أحد أنّه قد کتب علیهم المصیر المحتوم و الشقاء الابدی الذی لا خلاص منه.

و فی الآیه اللاحقه یشیر تعالی إلی تفرق الیهود فی العالم فیقول: وَ قَطَّعْنٰاهُمْ فِی الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصّٰالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذٰلِکَ فهم متفرقون منقسمون علی أنفسهم بعضهم صالحون،و لهذا عند ما سمعوا بنداء الإسلام و عرفوا دعوه النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم آمنوا به،و بعضهم لم یکونوا کذلک بل ألقوا الحق وراءهم ظهریا،و لم یرتدعوا عن معصیه فی سبیل ضمان مصالحهم و حیاتهم المادیه.

و مرّه أخری تتجلی هذه الحقیقه فی هذه الآیه و هی أنّ الإسلام لا یعادی العنصر الیهودی،و لا یشجبهم لکونهم أتباع دین معیّن،أو منتمین إلی عنصر و عرق معیّن،بل یجعل أعمالهم هی مقیاس تقییمهم.

ثمّ یضیف تعالی قائلا: وَ بَلَوْنٰاهُمْ بِالْحَسَنٰاتِ وَ السَّیِّئٰاتِ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ .

أی ربّما نکرمهم و نجعلهم فی رفاه و نعمه حتی نثیر فیهم روح الشکر، و یعودوا إلی طریق الحق.و ربّما نغرقهم فی الشدائد و المصاعب و المصائب حتی ینزلوا عن مرکب الغرور و الأنانیه و التکبر،و یقفوا علی عجزهم،لعلهم یستیقظون

و يعودون إلى اللّه،و الهدف فى كلتا الحالتين هو التربيه و الهدايه و العوده إلى الحق.

و على هذا الأساس تشمل«الحسنات»كل نعمه و رفاه و استقرار،كما تشمل «السيئات»كل نقمه و شده،و حصر هذين المفهومين فى دائر ضيّقه معيّنه لا دليل عليه

ص: ۲۷۶

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٦٩ الى ١٧٠]

اشاره

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا اَلْكِتٰابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا اَلْأَدْنىٰ وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنٰا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثٰاقُ اَلْكِتٰابِ أَنْ لاٰ يَقُولُوا عَلَى اَللّٰهِ إِلاَّ اَلْحَقَّ وَ دَرَسُوا مٰا فِيهِ وَ اَلدّٰارُ اَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَ اَلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتٰابِ وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰةَ إِنّٰا لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ اَلْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

التّفسير

فى الآيات الماضيه دار الحديث حول أسلاف اليهود،و لكن فى الآيه الحاضره دار الكلام حول أبنائهم و أخلافهم.

و فى البـدايه يقول تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتٰابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنىٰ إنّهم ورثوا التوراه عن أسـلافهم، و كان عليهم أن ينتفعوا بها و يهتدوا،و لكنّهم رغم ذلك فتنوا بمتاع هذه الدنيا و حطامها الرخيص التافه، و استبدلوا الحق و الهدى بمنافعهم الماديّه.

و«خلف»على وزن«حرف»يأتى غالبا فى الأولاد غير الصالحين-كما

ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين،فى حين أنّ«الخلف»على وزن«شرف»يأتى بمعنى الولد الصالح (۱) .

ثمّ يضيف قائلا:و عند ما وقعوا بين مفترق طريقين:بين ضغط الوجدان من جهه،و الرغبات و المنافع الماديه من جهه أخرى عمدوا إلى الأمانى و الآمال الكاذبه و قالوا:لنأخذ المنافع الدنيويه فعلا-سواء من حلال أو حرام،و اللّه سيرحمنا و يغفر لنا وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنٰا .

إنّ هذه الجمله تكشف عن أنّهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يتخذون حاله من الندم العابر و التوبه الظاهريه،و لكن هذه الندامه-كما يقول القرآن الكريم-لم تكن لها أيه جذور فى أعماق نفوسهم،و لهذا يقول تعالى: وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ .

و«عرض»على وزن«غرض»يعنى الشىء الذى لاثبات له و لا-دوام،و من هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادى اسم العرض،لكونه زائلا-غير ثابت فى الغالب،فهو يقصد الإنسان يوما و يقبل عليه بوفره بحيث يضيع الإنسان حسابه و لا يعود قادرا على عده و إحصائه و يبتعد عنه و جمعه و حصره،يوما آخر بالكليه بحيث لا يملك منه إلاّ الحسره و التذكر المؤلم،هذا مضافا إلى أن جميع نعم هذه الدنيا هى أساسا غير دائمه،و غير ثابته (۲) .

و على كل حال،فإنّ هذه الجمله إشاره إلى عمليات الارتشاء التى كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السماويه،و نسيان أحكام اللّه لمضادتها لمصالحهم و منافعهم الماديه.

و لهذا قال تعالى فى عقيب ذلك:

۱- ۱) مجمع البيان،و تفسير ابن الفتوح الرازى،فى ذيل الآيه الحاضره.

۲- ۲) يجب الانتباه،إلى أن«عرض»على وزن«غرض»يختلف عن«عرض»على وزن(فرض)فالأول بمعنى كل رأس مال دنيوى،و الثانى بمعنى المال النقدى.

أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثٰاقُ الْكِتٰابِ أَنْ لاٰ يَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ إِلاَّ الْحَقَّ

أى أنّهم أخذ عليهم الميثاق-بواسطه كتابهم السماوى التوراه-أن لا يفتروا على اللّه كذبا،و لا يحرفوا كلماته،و لا يقولوا إلاّ الحق.

ثمّ يقول:لو كان هؤلاء الذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهيه،لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أعذارا،و لكن المشكله هى أنّهم رأوا التوراه مرارا و فهموا محتواها و مع ذلك ضيعوا أحكامها،و نبذوا أمرها وراء ظهورهم وَ دَرَسُوا مٰا فِيهِ و«الدرس»فى اللغه يعنى تكرار شيء،و حيث أن الإنسان عند المطالعه، و تلقى العلم من الأستاذ و المعلم يكرّر المواضيع،لهذا أطلق عليه لفظ«الدرس» و إذا ما رأينا أنّهم يستعملون لفظه«درس و الاندراس»على انمحاء أثر الشيء فإنّما هو لهذا السبب و بهذه العنايه،و لأنّ الأمطار و الرياح و الحوادث الأخرى تتوالى على الأبنيه القديمه و تبليها.

و فى ختام الآيه يقول:إنّ هؤلاء يخطئون فى تقديرهم للأمور،و إنّ هذه الأعمال لن تجديهم نفعا وَ الدّٰارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ .

ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحه أَ فَلاٰ تَعْقِلُونَ ؟؟ و فى مقابل الفريق المشار إليه سابقا يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقتراف جريمه تحريف الآيات الإلهيه و كتمانها فحسب،بل تمسكوا بحذافيرها و طبقوها فى حياتهم حرفا بحرف،و القرآن يصف هذه الجماعه بأنّهم مصلحو العالم،و يعترف لهم بأجر جزيل و ثواب عظيم،و يقول عنهم: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتٰابِ وَ أَقٰامُوا الصَّلاٰةَ إِنّٰا لاٰ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ .

و قد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من«الكتاب»و هل أنّه التوراه أو القرآن الكريم؟بعض ذهب إلى الأوّل،و بعض إلى الثّانى.و الظاهر أنّه إشاره إلى فريق من بنى إسرائيل الذين انفصلوا عن الضالين الظالمين،و عاكسوهم فى سلوكهم و موقفهم.و لا شك أن التمسك بالتوراه و الإنجيل و ما فيهما من بشائر

بظهور نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،لا ینفصل عن الإیمان بهذا النّبی.

إنّ فی التعبیر ب«یمسّکون»الـذی هو بمعنی الاعتصام و التمسک بشـیء نکته ملفته للنظر،لأنّ التمسک بمعنی الأخذ و الالتصاق بشیء لحفظه و صیانته،و هذه هی الصوره الحسیّه للکلمه،و أمّا الصوره المعنویه لها فهی أن یلتزم الإنسان بالعقیده بمنتهی الجدیه و الحرص،و یسعی فی حفظها و حراستها.

إنّ التمسک بالکتاب الإلهی لیس هو أن یمسک الإنسان بیده أوراقا من القرآن أو التوراه أو الإنجیل أو أی کتاب آخر و یشدّها علیه بقوه،و یجتهد فی حفظ غلافه و ورقه من التلف،بل التمسک الواقعی هو أن لا یسمح لنفسه بأن یرتکب أدنی مخالفه لتعالیم ذلک الکتاب،و أن یجتهد فی تحقیق و تطبیق مفاهیمه من الصمیم.

إنّ الآیات الحاضره تکشف لنا بوضوح عن أنّ الإصلاح الواقعی فی الأرض لا یمکن من دون التمسک بالکتب السماویه،و من دون تطبیق الأوامر و التعالیم الإلهیه،و هـذا التعبیر یؤکّد-مرّه أخری-هذه الحقیقه،و هی أنّ الدین لیس مجرّد برنامج یرتبط بعالم ما وراء الطبیعه،و بدار الآخره،بل هو برنامج للحیاه البشریه، و یهدف إلی حفظ مصالح جمیع أفراد البشر،و إجراء مبادئ العدل و السلام و الرفاه و الاستقرار،و بالتالی کل مفهوم تشمله کلمه«الإصلاح»الواسعه المعنی.

و ما نراه من الترکیز علی خصوص«الصلاه»من بین الأوامر و التعالیم الإلهیه،فإنّما هو لأجل أن الصلاه الواقعیه تقوّی علاقه الإنسان باللّه الـذی یراه حاضرا و ناظرا لجمیع أعماله و برامجه،و مراقبا لجمیع أفعاله و أقواله،و هـذا هو الـذی عبر عنه فی آیات أخری بتأثیر الصلاه فی الدعوه إلی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

و ارتباط هذا الموضوع بإصلاح المجتمع الإنسانی أوضح من أن یحتاج إلی بیان.

من کـل مـا قیـل یتّضـح أنّ هـذا المبـدأ و المرتکز الفکری لا یختص بالیهود،بل هو أصل فی حیاه الأمم و الشـعوب.و علی هـذا الأساس فإنّ الـذین یجمعون متاعا زائلا بواسـطه کتمان الحقائق و تحریفها،ثمّ یرون نتائجه المشؤومه یتّخذون لأنفسـهم حاله من التوبه الکـاذبه،توبه سـرعان مـا تزول و تـذوب أمـام ابتسامه من منفعه مادیه متجـدّده،کما یـذوب الثلـج فی حرّ القیظ فهؤلاء هم المخالفون لإصـلاح المجتمعات البشـریه،و هم الذین یضحون بمصالح الجماعه فی سبیل مصالح الفرد،سواء صدر هذا الفعل من یهودیّ أو مسیحی أو مسلم.

الآیه [سوره الأعراف (۷): آیه ۱۷۱]

اشاره

وَ إِذْ نَتَقْنَا اَلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّهٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وٰاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مٰا آتَيْنٰاكُمْ بِقُوَّهٍ وَ اُذْكُرُوا مٰا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۱)

التّفسیر

اشاره

آخر کلام حول الیهود:

«نتقنا»من ماده«نتق»علی وزن«قلع»تعنی فی الأصل قلع و انتزاع شیء من مکانه،و إلقاءه فی جانب آخر،و یطلق علی النساء اللواتی یلدن کثیرا أیضا «ناتق»لأنّهن یفصلن الأولاد من أرحامهن و یخرجنهم بسهوله.

و هذه الآیه آخر آیه فی هذه السوره تتحدث حول حیاه بنی إسرائیل،و هی تتضمّن تذکیر قصّه أخری لیهود عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،قصّه فیها عبره،کما أنّها دلیل علی إعطاء میثاق و عهد،إذ یقول:و اذکروا إذ قلعنا الجبل من مکانه و جعلناه فوق رؤوسهم کأنّه مظلّه وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّهٌ .

و قد ظنوا أنّه سیسقط علی رؤوسهم،فإنتابهم اضطراب شدید و فزع:

وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وٰاقِعٌ بِهِمْ

.

و فی تلک الحاله قلنا لهم:خذوا ما أعطیناکم من الأحکام بقوه و جدّیه

خُذُوا مٰا آتَيْنٰاكُمْ بِقُوَّةٍ

و اذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا،و خافوا من العقاب الإلهى و اعملوا بما أخذناه فيه منكم من المواثيق وَ اذْكُرُوا مٰا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

إنّ هذه الآيه نفسها جاءت-بفارق بسيط فى الآيه(۶۳)من سوره البقره، و كما قلنا هناك فإنّ هذه القصه وقعت-حسب ما قال المفسّر المعروف العلاّمه الطبرسى فى مجمع البيان عن ابن زيد-عند ما عاد موسى عليه السلام من جبل الطور، و اصطحب معه أحكام التوراه...فعند ما عرض على قومه الواجبات و الوظائف و أحكام الحلال و الحرام تصوروا أنّ العمل بكل هذه الوظائف أمر مشكل،و لهذا بنوا على المخالفه و العصيان...فى هذا الوقت نفسه،رفعت قطعه عظيمه من الجبل فوق رؤوسهم،بحيث وقعوا فى اضطراب عظيم،فالتجأوا إلى موسى عليه السلام و طلبوا منه رفع هذا الخطر و الخوف عنهم،فقال لهم موسى عليه السلام فى تلك الحاله:

لو تعهدتم بأن تكونوا أوفياء لهذه الأحكام لزال عنكم هذا الخطر...فسلّموا و تعهّدوا و سجدوا للّه تعالى فزال عنهم الخطر،و أزيحت الصخره من فوق رؤوسهم.

أسئله و أجوبه:

و هنا سؤالان أشرنا إليهما فى سوره البقره و إلى جوابيهما،و نذكر مختصرا عنهما هنا بالمناسبه.

السّؤال الأوّل:ألم يكن لأخذ الميثاق فى هذه الحاله صفه الإجبار؟ و الجواب:لا شك أنّه كانت تحكم فى ذلك الظرف حاله من الإجبار و الاضطرار،و لكن من المسلّم أنّه لمّا ارتفع و زال الخطر فيما بعد كان بإمكانهم مواصله هذا السلوك باختيارهم.

هـذا مضافـا إلى أنّه لاـ معنى للإجبار فى مجال الإعتقاد،أمّا فى مجال العمل فلا مانع من أن يجبر الناس على أمور تربويه تضـمن خيرهم و سـعادتهم و صـلاحهم.فهل من العيب لو أنّنا أجبرنا شـخصا على ترک عاده شـريره،أو سـلوک طريق آمن من الخطر،و عدم سلوک طريق محفوف بالأخطار؟ السّؤال الثّانى:كيف رفع الجبل فوق رؤوسهم:

الجواب:ذهب بعض المفسّرين إلى أن الجبل قلع من مكانه بأمر اللّه،و استقر فو رؤوسهم كمظلّه.

و ذهب آخرون إلى أنّه اهتز الجبل اهتزازا شديدا بفعل زلزال شديد بحيث شاهد الناس الذين كانوا يسكنون فى سفح الجبل ظلّ قسم منه فوق رؤوسهم.

و يحتمل أيضا أن قطعه من الجبل انتزعت من مكانها و استقرت فوق رؤوسهم لحظه واحده،ثمّ مرّت و سقطت فى جانب آخر.

و لا شک فى أنّ هذا الأمر كان أمرا خارقا للعاده و ليس حدثا طبيعيا عاديا.

و الموضوع الآخر الذى يجب الانتباه إليه هو أنّ القرآن لا يقول:إنّ الجبل صار مظلّه فوق رؤوسهم بل قال:(كأنّه ظلّه).

و هـذا التعبير إنّما هو لأجل أنّ المظلّه تنصب على رؤوس الأشـخاص لإظهار الحب،و الحال أنّ هـذه العمليه-المذكوره فى الآيه الحاضره-كانت من باب التهديد،أو لأجل أنّ المظله شىء مستقر و ثابت،و لكن رفع الجبل فوق رؤوسهم كان يتسم بعدم الثبات و الدوام.

قلنـا:مـع هـذه الآـيه تختم الآيـات المتعلقه بقصه بنى إسـرائيل و الحـوادث المختلفه،و الـذكريات الحلـوه و المرّه الـتى وقعت فى حياتهم.

و هـذه القصّه هى آخر قصـص الأنبيـاء التى جـاءت فى هـذه السوره.و ذكر هـذه القصّه فى نهـايه قصصـهم-مع أنّهـا ليست آخر حدث من الحوادث المرتبطه بهذه

الجماعه-لعله لأجل أنّ الهدف من جميع هذه القصص هو التمسک بآیات اللّه و العمل بالمواثيق،و لأجل الوصول إلى التقوى الذى جاء بيانه فى هذه الآيه و الآيه السابقه.

يعنى أنّ رساله موسى عليه السلام و سائر الأنبياء و أعمالهم مواجهاتهم المستمره و الصعبه و ما لقوا من صعاب و متاعب و شدائد مضنيه كانت لأجل تطبيق أوامر اللّه،و تنفيذ مبادئ الحق و العداله و الطهر و التقوى فى المجتمعات البشريه بشكل كامل.

ص: ۲۸۵

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

اشاره

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ قالُوا بَلیٰ شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا یَوْمَ اَلْقِیامَهِ إِنّا کُنّا عَنْ هٰذا غافِلِینَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَکَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ کُنّا ذُرِّیَّهً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِکُنا بِما فَعَلَ اَلْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَ کَذٰلِکَ نُفَصِّلُ اَلْآیاتِ وَ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (١٧۴)

التّفسیر

اشاره

العهد الأوّل و عالم الذّر:

الآیات المذکوره أعلاه،تشیر إلی«التوحید الفطری»و وجود الإیمان فی أعماق روح الإنسان...و لذلک فإنّ هذه الآیات تکمل الأبحاث الوارده فی الآیات المتقدمه من هذه السوره فی شأن«التوحید الاستدلالی»! و بالرغم من کثره الأقوال و الکلام بین المفسّرین فی شأن عالم الذّر،إلاّ أنّنا نحاول أن نبیّن التّفسیر الإجمالی لهذه الآیات الکریمه،ثمّ نختار الأهم من أبحاث المفسّرین،و نبیّن وجهه نظرنا بصوره استدلالیه موجزه! یقول اللّه سبحانه مخاطبا نبیّه فی هذه الآیه وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلىٰ شَهِدْنٰا!...

.

«الذريّه»كما يقول أهل اللغه و علماؤها،معناها في الأصل الأبناء الصغار اليافعون،إلاّ أنّها تطلق في الغالب على عموم الأبناء،و قد تستعمل هذه الكلمه في معنى المفرد،كما قد تستعمل في معنى الجمع،إلاّ أنها في الأصل تحمل معنى الجمع! و الجذر اللغوي لهذه الكلمه مختلف فيه،إذ احتملوا له أوجها متعدده.

فقال بعضهم:إنّ جذر هذه الكلمه مأخوذ من«ذرأ»على زنه«زرع»و معناه الخلق،فعلى هذا الوجه يكون معنى الذريه مساويا«للمخلوق».

و قال بعضهم:بل الجذر مأخوذ من«ذرّ»على وزن«شرّ»و يعني الموجودات الصغيره جدّا كذرّات الغبار مثلا و النمل الصغير،و من هنا فإنّ أبناء الإنسان تبدأ حياتهم من نطفه صغيره جدا.

و الاحتمال الثّالث أنّه مأخوذ من ماده ذرو و معناه النشر و التفريق و التنقيه [و منه ذرو الحنطه (1)]

و إنما سمي أبناء الإنسان بالذريه لأنّهم يتفرقون في أنحاء الأرض بعد التكاثر! ثمّ يشير اللّه سبحانه إلى الهدف النهائي من هذا السؤال و الجواب،و أخذ العهد من ذريه آدم في مسأله التوحيد،فيقول: أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيٰامَهِ إِنّٰا كُنّٰا عَنْ هٰذٰا غٰافِلِينَ .

الآيه التّاليه تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد،و هو أنّه إنّما أخذ ربّك هذا العهد من ذريه بني آدم لئلا تعتذروا أَوْ تَقُولُوا إِنَّمٰا أَشْرَكَ آبٰاؤُنٰا مِنْ قَبْلُ وَ كُنّٰا ذُرِّيَّهً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنٰا بِمٰا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ .

أجل... وَ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

١- ١) يقال ذرأ فلان الحنطه ذروأ أو ذرّاها تذريه،أي نقّاها من الشوائب.

إيضاح لما ورد عن عالم الذّر.

رأينا أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن أخذ العهد من ذريّه آدم،لكن كيف أخذ هذا العهد؟! لم يرد فى النص إيضاح فى جزئيات هذا الموضوع،إلاّ أنّ للمفسّرين آراء متعدده تعويلا منهم على الرّوايات الإسلاميه«الوارده عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام»و من أهم هذه الآراء رأيان.

١-حين خلق آدم ظهر أبناؤه على صوره الذّر إلى آخر نسل له من البشر «و طبقا لبعض الرّوايات ظهر هذا الذّر أو الذرّات من طينه آدم نفسه»و كان لهذا الذرّ عقل و شعور كاف للاستماع و الخطاب و الجواب،فخاطب اللّه سبحانه الذرّ قائلا أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟!...

فأجاب الذرّ جميعا: بَلىٰ شَهِدْنٰا ثمّ عاد هذا الذرّ«أو هذه الذرات»جميعا إلى صلب آدم«أو إلى طينته»و من هنا فقد سمى بهذا العالم بعالم الذرّ...و هذا العهد بعهد«أ لست»؟ فبناء على ذلك،فإنّ هذا العهد المشار إليه آنفا هو عهد تشريعى،و يقوم على أساس«الوعى الذاتى»بين اللّه و الناس.

٢-إنّ المراد من هذا العالم و هذا العهد هو عالم الاستعداد«و الكفاءات»، و«عهد الفطره»و التكوين و الخلق.فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأمهات،و هم نطف لا تعدو الذرات الصغار،و هبهم اللّه الاستعداد لتقبل الحقيقه التوحيديه،و أودع ذلك السرّ الإلهى فى ذاتهم و فطرتهم بصوره إحساس داخلى...كما أودعه فى عقولهم و أفكارهم بشكل حقيقه واعيه بنفسها.

فبناء على هذا،فإنّ جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد،و ما أخذه اللّه من عهد منهم أو سؤاله إيّاهم:أ لست بربكم؟كان بلسان التكوين و الخلق،و ما أجابوه كان باللسان ذاته!

و مثل هذه التعابير غير قليله فی أحاديثنا اليوميّه،إذ نقول مثلا:لون الوجه يخبر عن سره الباطنی«سيماهم فی وجوهم»،أو نقول:إنّ عينی فلان المجهدتين تنبئان أنّه لم ينم الليله الماضيه.

و قد روی عن بعض أدباء العرب و خطبائهم أنّه قال فی بعض كلامه:سل الأرض من شق أنهارک و غرس أشجارک و أينع ثمارک؟فإنّ لم تجبک حوارا أجابتک اعتبارا!...

كما ورد فی القرآن الكريم التعبير علی لسان الحال،كالآيه(١١)من سوره فصلت،إذ جاء فيها فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

هذا باختصار هو خلاصه الرأيين أو النظرتين المعروفتين فی تفسير الآيات آنفه الذكر...

إلّا أنّ التّفسير الأوّل فيه بعض الإشكالات،و نعرضها فی ما يلی:

١-ورد التعبير فی نصّ الآيات المتقدمه عن خروج الذريّه من بنی آدم من ظهورهم،إذ قال تعالی... مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ مع أنّ التّفسير الأوّل يتكلم عن آدم نفسه أو عن طينه آدم.

٢-إذا كان هذا العهد قد أخذ عن وعی ذاتی و عن عقل و شعور،فكيف نسيه الجميع؟!و لا يتذكر أحد مع أنّ الفاصله الزمانيه بين زماننا ليست بأبعد مدی من الفاصله بين هذا العالم و العالم الآخر«أو القيامه»؟و نحن نقرأ فی آيات عديده من القرآن الكريم أنّ الناس سواء كانوا من أهل الجنّه أو من أهل النّار لا ينسون أعمالهم الدنيويه فی يوم القيامه،و يتذكرون ما اكتسبوه بصوره جيده، فلا يمكن أن يوجّه هذا النسيان العمومی فی شأن عالم الذر أبدا«و لا مجال لتأويله!».

٣-أیّ هدف كان من وراء مثل هذا العهد؟!فإذا كان الهدف أن يسير المعاهدون،فی طريق الحق عند تذكرهم مثل هذا العهد،و ألّا يسلكوا إلّا طريق معرفه اللّه،فينبغی القول بأنّ مثل هذا الهدف لا يتحقق أبدا و بأی وجه كان،لأنّ

الجميع نسوه!!...

و بدون هذا الهدف يعدّ هذا العهد لغوا و لا فائده فيه.

۴-إنّ الإعتقاد بمثل هـذا العالم يسـتلزم-فى الواقع-القبول بنوع من التناسخ،لأنّه ينبغى-طبقا لهذا التّفسـير-أن تكون روح الإنسان قـد خلقت فى هـذا العالم قبل ولادته الفعليه،و بعد فتره طويله أو قصـيره جاء إلى هذا العالم ثانيه، و على هذا فسوف تحوم حوله كـثيرا من الإشـكالات فى شـأن التناسـخ! غير أنّنـا إذا أخـذنا بالتّفسـير الثّـانى،فلاـ يرد عليه أىّ إشـكال ممّـا سـبق،لأـنّ السـؤال و الجواب،أو العهد المذكور-عهد فطرى،و ما يزال كلّ منّا يحس بآثاره فى أعماق روحه،و كما يعبر عنه علماء النفس ب«الشـعور الـدينى»الـذى هو من الإحساسات الأصـيله فى العقل الباطنى للإنسان.و هـذا الإحساس يقود الإنسان على امتداد التأريخ البشـرى إلى«طريق»معرفه اللّه...و مع وجود هـذا الإحساس أو الفطره لا يمكن التـذرّع بأنّ أباءنا كانوا عبـده للأصـنام و نحن على آثارهم مقتدون!!...

فِطْرَتَ اللّهِ الَّتِی فَطَرَ النّاسَ عَلَیْها

(۱)

.

و الإشـكال الوحيـد الـذى يرد على التّفسـير الثّانى هو أنّ هذا السؤال و الجواب يتخذ شـكلا«كنائيّا»و يتسم بلغه الحوار.إلاّ أنّه مع الالتفات إلى ما بيّناه آنفا بأن مثل هذه التعابير كثير فى لغه العرب و جميع اللغات،فلا يبقى أىّ إشكال فى هذا المجال.

و يبدو أن هذا التّفسير أقرب من سواه!

ص: ۲۹۰

۱- ۱) الروم،۳۰.

عالم الذر فی الرّوایات الإسلامیّه:

وردت روایات کثیره فی مختلف المصادر الإسلامیّه من کتب الشیعه و أهل السنه حول عالم الذّر...بحیث تتصور لأوّل وهله و کأنّها روایه متواتره...فمثلا فی تفسیر البرهان وردت ۳۷ روایه،و فی تفسیر نور الثقلین وردت ذیل الآیات الآنفه ۳۰ روایه بعضها مشترک و الآخر مختلف،و بملاحظه الاختلاف فیها فقد یصل مجموع ما ورد من الرّوایات إلی أربعین روایه...

إلاّ أنّنا سنجد-بعد التدقیق فی مضامینها و محتواها و تقسیمها إلی مجامیع، و فحصها-أنّه لا یمکن أن نعثر روایه واحده معتبره منها،فکیف یمکن الإعتقاد بتواترها؟! إنّ أکثر تلک الرّوایات منقول عن زراره،و بعضها عن صالح بن سهل،و بعضها عن أبی بصیر،و بعضها عن جابر،و بعضها عن عبد اللّه بن سنان،و من ذلک یظهر لنا أنّه لو روی شخص واحد روایات کثیره لکنّها متحده المضمون فهی تعد بحکم الروایه الواحده،و بناء علی ذلک فسیقلّ عدد تلک الرّوایات الکثیره و تتضاءل نسبتها و تبلغ ما بین ۱۰ إلی ۲۰ روایه،هذا من ناحیه السند.

أمّا من ناحیه المضمون و الدلیل فإنّ مضامینها تختلف بعضها عن بعض، فمنها ما یوافق التّفسیر الأوّل،و منها ما یوافق التّفسیر الثّانی،و بعضها لا یوافق التّفسیرین...

فالرّوایات المرقمه(۳)و(۴)و(۸)و(۱۱)و(۲۸)و(۲۹)و المرویه عن زراره فی تفسیر البرهان-ذیل الآیات محل البحث-تتفق و التّفسیر الأوّل.و ما روی عن عبد اللّه بن سنان فی الروایتین(۷)و(۱۲)فی تفسیر البرهان نفسه،یتفق و التّفسیر الثانی...

أی أنّ بعض هذه الرّوایات مبهم،و بعضها یمثّل رموزا و عبارات مجازیه، کما فی الروایتین(۱۸)و(۲۳) المرویتین عن أبی سعید الخدری و عبد اللّه الکلبی،

ص:۲۹۱

الواردتین فی التّفسیر آنف الذکر.

و بعض الرّوایات یذکر«أرواح بنی آدم»کما فی الروایه(۲۰)المرویّه عن المفضّل!...

ثمّ إن الرّوایات-المذکوره آنفا-بعضها ذو سند معتبر،و بعضها فاقد للسند أو مرسل.

فبناء علی ذلک-و بملاحظه التعارض بین الرّوایات-لا یمکننا التعویل علیها علی أنّها وثیقه معتبره...و کما عبّر أکابر علمائنا فی مثل هذه الموارد فإنّه ینبغی أن نتجنّب الحکم علی مثل هذه الرّوایات،و أن نکلها إلی أصحابها و رواتها.

و فی هذه الصوره نبقی متمسّکین بالنص القرآنی،و کما ذکرنا أنفا فإن التّفسیر الثّانی أکثر انسجاما مع الآیات.

و لو کان أسلوبنا فی البحث التفسیری یسمح لنا أن نذکر جمیع طوائف الرّوایات،و التحقیق فیها-کنا أشرنا آنفا-لفعلنا ذلک لیکون البحث أکثر وضوحا.

إلاّ أنّ الراغبین یمکنهم الرجوع إلی التّفسیر«نور الثقلین،و تفسیر البرهان، و بحار الأنوار»،و لیبحثوا فی مجامیعها و یصنفوها،و ینظروا فی أسانیدها و مضامینها.

الآیات [سوره الأعراف (۷): الآیات ۱۷۵ الی ۱۷۸]

اشاره

وَ اُتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اَلَّذِی آتَيْنٰاهُ آيٰاتِنٰا فَانْسَلَخَ مِنْهٰا فَأَتْبَعَهُ اَلشَّيْطٰانُ فَكٰانَ مِنَ اَلْغٰاوِينَ (۱۷۵) وَ لَوْ شِئْنٰا لَرَفَعْنٰاهُ بِهٰا وَ لٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى اَلْأَرْضِ وَ اِتَّبَعَ هَوٰاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ اَلْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذٰلِكَ مَثَلُ اَلْقَوْمِ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا فَاقْصُصِ اَلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۱۷۶) سٰاءَ مَثَلاً اَلْقَوْمُ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا وَ أَنْفُسَهُمْ كٰانُوا يَظْلِمُونَ (۱۷۷) مَنْ يَهْدِ اَللّٰهُ فَهُوَ اَلْمُهْتَدِی وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولٰئِكَ هُمُ اَلْخٰاسِرُونَ (۱۷۸)

التّفسیر

اشاره

فی هذه الآیات إشاره لقصّه أخری من قصص بنی إسرائیل،و هی تعد مثلا و أنموذجا لجمیع أولئک الذین یتصفون بمثل هذه الصفات.

و کما سنلاحظ خلال تفسیر الآیات-محل البحث-فإنّ للمفسّرین احتمالات متعدده فی الذی تتحدث عنه أو(علیه)الآیات...إلاّ أنّه ممّا لا ریب

فيه أن مفهوم الآيات-كسائر الآيات النازله فی ظروف خاصّه-عام و شامل.

و الآيه الأولى من هذه الآيات يخاطب بها النّبیّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول القرآن الكريم وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِی آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ .

فهذه الآيه واضحه أنّها تحكی قصّه رجل كان فی البدايه فی صف المؤمنين، و حاملا للعلوم الإلهيه و الآيات،إلاّ أنّه انحراف عن هذا النهج،فوسوس له الشيطان،فكانت عاقبه أمره أن انجرّ إلى الضلال و الشقاء!...

و التعبير ب«انسلخ»و هو من ماده«الانسلاخ»معناه فی الأصل الخروج من الجلد...يدلّ على أن الآيات و العلوم الإلهيه كانت تحيط به إحاطه الجلد بالبدن، إلاّ أنّه خرج منها على حين غرّه و استدار إلى الوراء و غيّر مسيره بسرعه! كما أنّ التعبير القرآنی«فأتبعه الشيطان»يستفاد منه أنّ الشيطان كان أوّل الأمر آيسا منه تقريبا،لأنّه كان يسلك سبيل الحق تماما،و بعد أن انحرف لحقه الشيطان و تربص له و أخذ يوسوس له حتى انتهى أمره إلى أن يكون من الضالين المنحرفين الأشقياء (۱) .

و الآيه التّاليه تكمل هذا الموضوع على النحو التّالی وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها .

إلاّ أن من المسلّم أنّ إكراه الناس و إجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم و السنن الإلهيه و حريه الإداره،و لا يكون ذلك دليلا على عظمه الشخص، لهذا فإنّ الآيه تضيف مباشره.إنّنا تركناه و هواه،و بدلا من أن ينتفع من معارفه فإنّه هوى و انحطّ وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ .

و كلمه(أخلد)من(الإخلاد)و هی تعنی السكن الدائم فی مكان واحد مع

۱- ۱) تبع و اتبع بمعنى لحق أو أدرک.

حریه الإراده،فجمله(أخلد إلی الأرض)تعنی اللصوق الدائم بالأرض،و هی کنایه عن عالم الماده و بهارجها،و اللذائذ غیر المشروعه للحیاه المادیه.

ثمّ تشبّه الآیه هذا الفرد بالکلب الذی یخرج لسانه لاهثا دائما کالحیوانات العطاشی فتقول فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ الْکَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَیْهِ یَلْهَثْ أَوْ تَتْرُکْهُ یَلْهَثْ .

فهو لفرط اتّباعه الهوی و تعلقه بعالم الماده انتابته حاله من التعطش الشدید غیر المحدود وراء لذائذ الدنیا،و کل ذلک لم یکن لحاجه،بل لحاله مرضیّه،فهو کالکلب المسعور الذی یظهر بحاله عطش کاذب لا یمکن ارواؤها و هی حاله عبید الذین لا یهمهم غیر جمع المال و اکتناز الثروه فلا یحسون معه بشبع أبدا.

ثمّ تضیف الآیه:إنّ هذا المثال الخاص لا یتعلق بفرد معین،بل: ذٰلِکَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ

العالم المنحرف«بلعم بن باعوراء»:

کما لاحظنا أنّ الآیات السالفه لم تذکر اسم أحد بعینه،بل تحدثت عن عالم کان یسیر فی طریق الحق ابتداء و بشکل لا یفکر معه أحد بأنّه سینحرف یوما،إلاّ أنّه نتیجه لاتّباعه لهوی النفس و بهارج الدنیا انتهی إلی السقوط فی جماعه الضالین و أتباع الشیاطین.

غیر أنّنا نستفید من أغلب الرّوایات و أحادیث المفسّرین أن هذا الشخص یسمّی(بعلم بن باعوراء)الذی عاصر النّبی موسی علیه السلام و کان من مشاهیر علماء بنی إسرائیل،حتی أن موسی علیه السلام کان یعوّل علیه علی أنّه داعیه مقتدر،و بلغ أمره أن دعاءه کان مستجابا لدی الباری جل و علا،لکنّه مال نحو فرعون و إغراءاته فانحرف عن الصواب،و فقد مناصبه المعنویه تلک حتی صار بعدئذ فی جبهه

أعداء موسى عليه السلام (۱) .

إلّا أننا نستبعد ما يحتمله بعضهم من أن المقصود هو(أميه بن الصلت) الشاعر المعروف فى زمان الجاهليه،الذى كان بادئ أمره و نتيجه لاطلاعه على الكتب السماويه ينتظر نبى آخر الزمان،ثمّ حصل له هاجس أن النّبى قد يكون هو نفسه،و لذلك بعد أن بعث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصابه الحسد له و عاداه.

و بعيد كذلك ما احتمله بعضهم من أنّه كان(أبا عامر)الراهب المعروف فى الجاهليه،الذى كان يبشر الناس بظهور رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكنّه بعد ظهوره صار من أعدائه.لأنّ جمله(و اتل)و كلمه(نبأ)و جمله(فاقصص القصص)تدل على أنّ تلك الأمور لا تتعلق بأشخاص عاصروا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.بل بأقوام سابقين،مضافا إلى تلك فإنّ سوره الأعراف من السور المكيه و قضيتا[أبى عامر الراهب]

و[أميه بن الصلت]

تتعلقان بحوادث المدينه.

و لكن بما أن أشخاصا على غرار«بلعم»كانوا موجودين فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ك(أبى عامر)و(أميه بن الصلت)فإنّ الآيات محل البحث تنطبق على هذه الموارد فى كل عصر و زمان،و إلّا فإنّ مورد القصّه هو«بلعم بن باعوراء» لا غير.

و قد نقل تفسير(المنار)عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن مثل بلعم بن باعوراء فى بنى إسرائيل كأميه بن أبى الصلت فى هذه الأمّه.

و

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الأصل من ذلك بلعم،ثمّ ضربه اللّه مثلا لكل مؤثر هواه على هوى اللّه من أهل القبله».

و من هذا يتبيّن أن الخطر الأكيد الذى يهدد المجتمعات الإنسانيه هو خطر المثقفين و العلماء الذين يسخّرون معارفهم للفراعنه و الجبارين لأجل أهوائهم

۱- ۱) فى التوراه الحاليه نجد ورود قضيه«بلعم بن باعوراء»أيضا،إلّا أنّ التوراه تبرئه فى النهايه من الانحراف،يراجع بذلك سفر الأعداد الباب ۲۲.

و میولهم الـدنیویه(و الإخلاد إلی الأرض)و یضـعون کل طاقاتهم الفکریه فی سبیل الطاغوت الذی یعمل ما فی وسـعه لاسـتغلال مثل هذه الشخصیات لإغفال و إضلال عامّه الناس.

و لا یختص الأمر بزمن النّبی موسـی علیه السـلام أو غیره من الأنبیاء،بل حتی بعد عصـر النّبی الکریم صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی یومنا هذا نجد أمثال بلعم بن باعوراء و أبی عامر الراهب و أمیه بن الصـلت،یضعون علومهم و معارفهم و نفوذهم الاجتماعی من أجل الدرهم و الدینار،أو المقام،أو لأجل الحسد،تحت إختیار المنافقین و أعداء الحق و الفراعنه أمثال بنی أمیه و بنی العباس و سائر الطواغیت.

و یمکن معرفه أولئک العلمـاء من خلال أوصاف أشارت إلیها الآیات محل البحث،فإنّهم ممن نسـی ربّه و اتبع هواه،و هم ذوو نزوات سـخروها للرذیله بدل التوجه نحو اللّه و خدمه خلقه،و بسـبب هذا التسافل فقدوا کل شـیء و وقعوا تحت سلطه الشیطان و وساوسه،فسـهل بیعهم و شـراؤهم،و هم کالکلاب المسـعوره التی لا ترتوی أبدا،و لهذه الأمور ترک هؤلاء سبیل الحقیقه و ضلوا عن الطریق حتی غدوا أئمّه الضلال.

و یجب علی المؤمنین معرفه مثل هؤلاء الأشخاص و الحذر منهم و اجتنابهم.

و الآیتـان التالیتـان-کنتیجه عـامّه و شـامله لقضـیه-(بلعم)و العلماء الـدنیویین فتقول أولاهما سٰاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیٰاتِنٰا وَ أَنْفُسَهُمْ کٰانُوا یَظْلِمُونَ .

فمـا أفحش ظلم الإنسـان لنفسه و هو یسـخّر ملکـاته المعنویه و علومه النافعه التی بإمکانها أن تعود علیه و علی مجتمعه بالخیر-و یضـعها تحت إختیار المسـتکبرین و أصـحاب القدره الدنیویه و یبیعها بثمن بخس فیؤدی ذلک إلی سـقوطه و سقوط المجتمع و الآیه الاخیره تحذّر الإنسان و تؤکّد له أن الخلاص من مثل هذا الانحراف و ما یکیده الشـیاطین لا یمکن إلّا بتوفیق و تسدید من اللّه

ص :۲۹۷

عز و جل مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِی وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولٰئِکَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ .

و تقدم كرّات بأنّ(الهدايه)و(الإضلال)الإلهيين لا يعدان إجبارا و لا بدون حساب أو دليل،و يقصد بهما إعداد الأرضيه للهدايه و فتح سبلها أو إيصادها، و ذلک بسبب الأعمال الصالحه أو الطالحه التی صدرت من الإنسان من قبل، و علی أيه حال فالتصميم النهائی بيد الإنسان نفسه...

فبناء علی هذا فإنّ الآيه محل البحث تنسجم مع الآيات المتقدمه التی تذهب إلی أصل حريه الإراده...و لا منافاه بين هذه الآيه و تلكم الآيات بتاتا...

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٩ الى ١٨١]

اشاره

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ اَلْجِنِّ وَ اَلْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ يَفْقَهُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لاٰ يُبْصِرُونَ بِهٰا وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ يَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِكَ كَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْغٰافِلُونَ (١٧٩) وَ لِلّٰهِ اَلْأَسْمٰاءُ اَلْحُسْنىٰ فَادْعُوهُ بِهٰا وَ ذَرُوا اَلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمٰائِهِ سَيُجْزَوْنَ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَ مِمَّنْ خَلَقْنٰا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)

التّفسير

اشاره

علائم أهل النّار:

هـذه الآيات تكمل الموضوع الـذى تناولته الآيات المتقـدمه حول العلماء الـذين ركنوا إلى الـدنيا،و عوامل الهـدايه و الضـلال.و الآيات-محل البحث-تقسم الناس إلى مجموعتين...و تحكى عن صفاتهما و هما أهل النّار،و أهل الجنّه.

فتتحدث عن المجموعه الأولى-أهل النّار أوّلا،فتأتى بالقسم و التوكيد فتقول وَ لَقَدْ ذَرَأْنٰا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ .

و كلمه«ذرأنا»مشتقّه من«ذرأ»،و تعنى هنا الإيجاد و الخلق،غير أنّها فى

أصل اللغه تعنی نشر الشیء و تفریقه،و قد وردت بهذا المعنی«الثّانی»فی القرآن أیضا،کما فی عباره تَذْرُوهُ الرِّیاحُ (۱) .

و لأنّ خلق الکائنات یستلزم تفریقها و توزیعها و انتشارها علی وجه الأرض،فقد جاءت هذه الکلمه بمعنی خلق«المخلوق»أیضا:

و علی کل حال،فإنّ الإشکال المهم فی هذا التعبیر هو کیف قال اللّه سبحانه وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ کَثِیراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ ؟فی حین قال فی مکان آخر وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاّ لِیَعْبُدُونِ (۲) و طبقا لمعنی هذه الآیه فإنّ الجن و الإنس لم یخلقوا لغیر عباده اللّه و الرقی و التکامل و السعاده،أضف إلی ذلک أنّ هذا التعبیر تشمّ منه رائحه الجبر فی الخلق،و من هنا فقد استدل بعض مؤیدی مدرسه الجبر من أمثال الفخر الرازی بهذه الآیه لإثبات مذهبه.

لکنّنا لو ضممنا آیات القرآن بعضها إلی بعض و بحثناها موضوعیّا دون أن نبتلی بالسطحیّه،لوجدنا الجواب علی هذا السؤال کامنا فی الآیه محل البحث ذاتها،کما هو بیّن فی آیات أخری من القرآن الکریم أیضا...بحیث لا یدع مجالا لأنّ تستغل الآیه لیسا فهمها لدی بعض الأفراد.مثل هذا التعبیر کمثل قول النجار إذ یقول مثلا:إنّ قسما کبیرا من هذا الخشب و قد هیأته لکی أصنع منه أبوابا جمیله،و القسم الآخر هو للإحراق و الإضرام...فالخشب الرائق الجیّد المناسب سأستعمله للقسم الأوّل،و أمّا الخشب الردیء غیر المناسب فسأدعه للقسم الثّانی.

ففی الحقیقه أنّ للنجار هدفین:هدفا«أصیلا»و هدفا(تبعیّا).

فالهدف الأصیل هو صنع الأبواب و الأطر الخشبیّه الجیّده و ما إلی ذلک،و هو یبذل قصاری جهده و سعیه فی هذا المضمار...

ص:۳۰۰

۱- ۱) الکهف،۴۵.

۲- ۲) سوره الذاریات:۵۶.

إلاّ أنّه حین یجد أنّ بعض الخشب لا ینفعه شیئا،فسیکون مضطرا إلی نبذه لیکون حطبا للحرق و الإشعال،فهذا الهدف«تبعیّ»لا أصلی.

و الفرق الوحید بین هذا المثال و ما نحن فیه،أنّ الاختلاف بین أجزاء الخشب لیس اختیارا،و اختلاف الناس له صله وثیقه بأعمالهم أنفسهم،و هم مختارون و إرادتهم حرّه بإزاء أعمالهم.

و خیر شاهد علی هذا الکلام ما جاء من صفات لأهل النّار و صفات لأهل الجنّه فی الآیات محل البحث،التی تدل علی أنّ الأعمال هی نفسها أساس هذا التقسیم،إذ کان فریق منهم فی الجنّه،و فریق فی السعیر.

و تعبیر آخر فإنّ اللّه سبحانه-و وفقا لصریح آیات القرآن المختلفه-خلق الناس جمیعهم علی نسق واحد طاهرین،و وفّر لهم أسباب السعاده و التکامل،إلاّ أنّ قسما منهم اختاروا بأعمالهم جهنم فکانوا من أهلها فکان عاقبه أمرهم خسرا ...و أن قسما منهم اختاروا بأعمالهم الجنّه و کان عاقبه أمرهم السعاده...

ثمّ یلخّص القرآن صفات أهل النّار فی ثلاث جمل،إذ تقول الآیه: لَهُمْ قُلُوبٌ لاٰ یَفْقَهُونَ بِهٰا ...

و قد قلنا مرارا:إنّ التعبیر ب«القلب»فی مصطلح القرآن یعنی الفکر و الروح و قوّه العقل،أی أنّهم بالرّغم ممّا لدیهم من استعداد للتفکیر،و أنّهم لیسوا کالبهائم فاقدی الشعور و الإدراک،إلاّ أنّهم فی الوقت ذاته لا یفکرون فی عاقبتهم و لا یستغلون تفکیرهم لیبلغوا السعاده.

و الصفه الثّانیه التی ذکرتها الآیه لأهل النّار وَ لَهُمْ أَعْیُنٌ لاٰ یُبْصِرُونَ بِهٰا و الصفه الثّالثه الوارده فی حقهم وَ لَهُمْ آذٰانٌ لاٰ یَسْمَعُونَ بِهٰا أُولٰئِکَ کَالْأَنْعٰامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ .

لأنّ البهائم و الأنعام لا تملک هذه الاستعدادات و الإمکانات،إلاّ أنّهم بما لدیهم من عقل سالم و عین باصره و أذن سامعه،بإمکانهم أن یبلغوا کل مراتب

الرقی و التکامل،إلاّ أنّهم نتیجه لاتباعهم هواهم و رغبتهم-بکل هذه التوافه من الأمور ترکوا هذه الاستعدادات جانبا...و کان شقاؤهم کبیرا لهذا السبب:

أُولٰئِکَ هُمُ الْغٰافِلُونَ

.

فالمعین الذی یحییهم و یروی ظمأهم موجود إلی جانبهم و هم علی مقربه منه،إلاّ أنّهم یتصارخون من الظمأ.و أبواب السعاده مفتحه أمامهم لکنّهم لا یلتفتون إلیها.

و یتّضح ممّا ذکرناه أنفا أنّهم اختاروا بأنفسهم سبل شقائهم و هدروا النعم الکبری«العقل و العین و الأذن...»لا أنّ اللّه أجبرهم علی أن یکونوا من أهل النّار.

لماذا هم کالأنعام؟

لقد شبّه القرآن الکریم الجاهلین الغافلین عدیمی الشعور بالأنعام و البهائم مرارا،إلاّ أن تشبیه القرآن هؤلاء بالأنعام لعلّه بسبب انهماکهم باللذائذ و الشهوات الجنسیه و النوم فحسب،فهم کالأمم التی تحلم فی الوصول إلی حیاه مادیه مرفهه تحت شعارات برّاقه تخدع الإنسان بأنّ آخر هدف للعداله الاجتماعیه و القوانین البشریه هو الحصول علی الخبز و الماء...

و کما یشبهها

الإمام علی علیه السلام فی نهج البلاغه قائلا: «کالبهیمه المربوطه همّها علفها،أو المرسله شغلها تقممها» (۱) .

و بتعبیر آخر:إنّ جماعه منهم تنعم بالرفاه کالأغنام المربوطه التی تدجن لتسمن،و جماعه آخرین کالغنم السائمه الباحثه عن العلف و الماء فی الصحراء، إلاّ أن هدف کل منهما هو ما یشبع البطن لیس إلاّ!.

و هذا الذی ذکرناه أنفا قد یصدق علی شخص معین کما قد یصدق أمّه کامله

۱- ۱) نهج البلاغه،من کتاب له و ۲۴ رقم ۴۵.

برمّتها،فالأمم التی لا تفکر بنفسها و تتلهی بالأمور التافهه غیر الصائبه،و لا تعالج جذور شقائها و لا تطمح لأسباب الرقّی، لیس لها آذان سامعه و لا أعین باصره، فهی من أهل النّار أیضا،لا نار القیامه فحسب،بل هی مبتلاه بنار الدنیا و شقائها کذلک.

و فی الآیه التّالیه إشاره إلی حال أهل الجنّه و بیان لصفاتهم،فتبدأ الآیه بدعوه الناس إلی التدبّر و التوجّه إلی أسماء اللّه الحسنی کمقدمه للخروج من صف أهل النّار،فتقول: وَ لِلّٰهِ الْأَسْمٰاءُ الْحُسْنیٰ فَادْعُوهُ بِهٰا .

و المرد من«أسماء اللّه الحسنی»هی صفات اللّه المختلفه التی هی حسنی جمیعا،فنحن نعرف أنّ اللّه عالم قادر رازق عادل جواد کریم رحیم،کما أنّ له صفات أخری حسنی من هذا القبیل أیضا.

فالمراد من دعاء اللّه بأسمائه الحسنی،لیس هو ذکر هذه الألفاظ و جریانها علی اللسان فحسب،کأن نقول مثلا:یا عالم یا قادر یا أرحم الراحمین.بل ینبغی أن نتمثّل هذه الصفات فی وجودنا ما استطعنا إلی ذلک سبیلا،و أن یشع إشراق من علمه و شعاع من قدرته و جانب من رحمته الواسعه فینا و فی مجتمعنا.

و بتعبیر آخر:ینبغی أن نتّصف بصفاته و نتخلّق بأخلاقه،لنستطیع بهذا الشعاع،شعاع العلم و القدره و الرحمه و العدل أن نخرج أنفسنا و مجتمعنا الذی نعیش فیه من سلک أهل النّار...

ثمّ تحذر الآیه من هذا الأمر،و هو أن لا تحرّف أسماؤه فتقول: وَ ذَرُوا الَّذِینَ یُلْحِدُونَ فِی أَسْمٰائِهِ سَیُجْزَوْنَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ .

و الإلحاد-فی الأصل-مأخوذ من ماده«اللّحد»علی زنه«المهد»التی تعنی الحفره التی تقع فی طرف واحد،و علی هذا الأساس فقد سمّیت الحفره التی تکون فی جانب القبر«لحدا».

ثمّ أطلق هذا الاستعمال«الإلحاد»علی کل عمل ینحرف عن الحدّ الوسط

نحو الإفراط أو التفريط،و لذلك فقد سمّی الشرک و عباده الأوثان إلحادا أیضا.

و المقصود من الإلحاد فی أسماء اللّه هو أن نحرف ألفاظها أو مفاهیمها.

بحیث نصفه بصفات لا تلیق بساحته المقدسه،کما یصفه المسیحیون بالتثلیث «اللّه و الابن و روح القدس»أو أن نطبّق صفاته علی المخلوقین کما فعل ذلک المشرکون و عبده الأوثان إذ اشتقوا لأصنامهم أسماء من أسماء اللّه فسمّوها...

اللات و العزّی و مناه...(و غیرها)فهذه الأسماء مشتقّه من اللّه و العزیز و المنان «علی التوالی».

أو أنّهم حرفوا صفاته حتی شبّهوه بالمخلوقات،أو عطلوا صفاته،و ما إلی ذلک.

أو أنّهم اکتفوا بذکر الاسم فحسب دون أن یتمثلوه و یعرفوا آثاره فی أنفسهم و فی مجتمعاتهم.

و فی آخر آیه من الآیات محل البحث إشاره إلی صفتین من أبرز صفات أهل الجنّه،إذ تقول الآیه: وَ مِمَّنْ خَلَقْنٰا أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ .

و فی الواقع،إنّ لأهل الجنّه منهجین ممتازین فأفکارهم و أهدافهم و دعواتهم و ثقافاتهم حقّه،و هی فی اتجاه الحق أیضا،کما أنّ أعمالهم و خططهم و حکوماتهم قائمه علی أساس الحق و الحقیقه.

بحوث

اشاره

۱-ما هی الأسماء الحسنی؟

فی کتب الأحادیث«لأهل السنه و الشیعه»أبحاث کثیره عن أسماء اللّه الحسنی،نورد خلاصتها فی هذا المجال مضافا إلیها ما نعتقده نحن فی هذا الصدد.

ص :۳۰۴

لا ـ شك أنّ الأسماء الحسنى تعنى الأسماء الكريمه،و نحن نعرف أن أسماء اللّه كلّها تحمل مفاهيم حسنى،و لذلك فجميع أسمائه أسماء حسنى،سواء كانت صفات لذاته المقدّسه الثبوتيه كالعلم و القادر،أم كانت صفات سلبيه كالقدّوس مثلا،أو صفات تحكى فعلا من أفعاله كالخالق أو الغفور أو الرحمان أو الرحيم إلخ...

و من ناحيه أخرى،لا شك أنّ صفات اللّه لا يمكن إحصاؤها،لأنّ كمالاته غير متناهيه،و يمكن أن يذكر لكل صفه من صفاته أو كمال من كمالاته اسم...

إلّا أن ما نستفيده من الأحاديث أنّ لبعض صفاته أهميه أكثر من سواها، و لعل«الأسماء الحسنى»الوارده من الآيه فى الآيه محل البحث إشاره إلى هذه الطائفه من الأسماء المتميّزه،إذ ورد عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّه عليهم السّلام من أهل بيته روايات كثيره بهذا المعنى كالروايه الوارده فى كتاب التوحيد«للصّدوق»

عن أبى عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق،عن آبائه عليهم السّلام،عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال:«قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ للّه تبارك و تعالى تسعه و تسعين اسما-مائه إلّا واحده-من أحصاها دخل الجنّه» (۱) .

كما

ورد فى كتاب التوحيد عن الإمام على بن موسى الرّضا عليه السّلام عن آبائه عن على عليه السّلام أنّه قال: «إنّ للّه عز و جل تسعه و تسعين اسما من دعا اللّه بها استجاب له و من أحصاها دخل الجنّه» (۲) .

و قد جاء فى كتب أحاديث(أهل السنّه)

«كما فى كتاب صحيح البخارى و صحيح مسلم...و الترمذى و كتب أخرى»هذا المضمون ذاته: إنّ للّه تسعه و تسعين اسما فمن دعاء بها استجاب دعاءه،و من أحصاها فهو من أهل الجنّه (۳) .

۱- ۱) تفسير الميزان،و مجمع البيان،و نور الثقلين،ذيل الآيه.

۲- ۲) تفسير الميزان،و مجمع البيان،و نور الثقلين.

۳- ۳) المصدر السابق.

و یستفاد من بعض الأحادیث أن هذه الأسماء التسعه و التسعین کلها فی القرآن،کالرّوایه الوارده

عن ابن عباس أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «للّه تسعه و تسعون اسما من أحصاها دخل الجنّه،و هی فی القرآن» (۱) .

و لـذلک فقد سعی جماعه من العلماء إلی أن یستخرجوا أسماء اللّه الحسنی من القرآن،إلاّ أن ما جاء فی القرآن من أسماء و صفات للّه سبحانه تزید علی تسعه و تسعین اسما،فبناء علی ذلک لعل الأسماء الحسنی من بین تلک الأسماء، لا أنّه لا یوجد فی القرآن غیر تسعه و تسعین اسما للّه المشار إلیها آنفا(فی بعض الأحادیث)...

و قد صرّحت بعض هذه الرّوایات بالأسماء الحسنی«التسعه و التسعین»...

و نحن نوردها هنا،إلاّ أنّه ینبغی الالتفات إلی أن بعض هذه الأسماء الوارده فی هذه الروایه لم ترد فی القرآن بالصیغه الوارده فی الروایه ذاتها و إنّما ورد مضمونها أو مفهومها فی القرآن.

فقد جاء فی الرّوایه المنقوله فی کتاب«التوحید»للصّدوق

عن الإمام الصادق عن آبائه عن علی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فبعد أن أشار علیه السّلام إلی أنّ للّه تسعه و تسعین اسما قال و هی:«اللّه،الإله،الواحد،الأحد،الصمد،الأول،الآخر،السمیع،
البصیر،القدیر،القادر،العلی،الأعلی،الباقی،البدیع،الباری،الأکرم،الباطن،
الحی،الحکیم،العلیم،الحلیم،الحفیظ،الحق،الحسیب،الحمید،الحفی،الرب،
الرحمن،الرحیم،الذارئ،الرازق،الرقیب،الرؤوف،الرائی،السّلام،المؤمن،
المهیمن،العزیز،الجبار،المتکبر،السید،السبّوح،الشهید،الصادق،الصانع،
الظاهر،العدل،العفو،الغفور،الغنی،الغیاث،الفاطر،الفرد،الفتاح،الفالق،القدیم،
الملک،القدوس،القوی،القریب،القیّوم،القابض،الباسط،قاضی الحاجات،

ص: ۳۰۶

۱- ۱) المصدر السابق.

المجیــــد،المــــولی،المنــــان،المحیــــط،المــــبین،المغیــــث،المصــــوّر،الکریــــم،الکــــبیر، الکــــافی،کاشــــف الضـر،الوتر،النور،الوهّـاب،الناصـر،الواسع،الودود،الهادی، الوفی،الوکیل،الوارث،البرّ،الباعث،التواب،الجلیل،الجواد،الخبیر،الخالق، خیر الناصرین،الدیان،الشکور،العظیم،اللطیف،الشافی» (۱) .

لکن الأهم-هنا-و ینبغی ملاحظته و الالتفات إلیه،هو أنّ المراد من دعاء اللّه بأسمائه الحسنی هل یعنی أن نعدّ هذه الأسماء أو أن نجریها علی الألسنه فحسب،بحیث أن من ذکر هذه التسـعه و التسعین اسما دون أن یتمثل محتواها و یفهمها کان من السعداء،أو أنّه سـتجاب دعوته.بل الهدف هو أن یؤمن الإنسان بهذه الأسـماء و الصـفات،ثمّ یسـعی-ما استطاع إلی ذلک سبیلا-لأنّ یعکس فی وجوده إشـراقا من مفـاهیم تلـک الأسـماء،أی للعـالم،القـادر،الرحمـان،الرحیم، الغفور،القوی،الغنی،الرازق،و أمثالها.فإنّ کان کذلک کان من أهل الجنّه،و کان دعاؤه مستجابا و نال کل خیر قطعا.

و یسـتفاد ضـمنا ممّا ذکرناه آنفا أنّه لو وردت فی بعض الرّوایات الأخری و الأدعیه أسـماء غیر هذه الأسـماء للّه سـبحانه،حتی لو وصـلت إلی الألف-مثلا- فلا منافاه بینها و بین ما نقلناه هنا أبدا،لأنّ أسـماء اللّه لا حد لها و لا حصر،و هی- کذاته و کمالاته-لا نهایه لها.و إن کان لبعض هذه الأسماء أو الصفات میزات خاصّه.

من ذلک الروایه الوارده

فی أصول الکافی عن الإمام الصادق علیه السّـلام فی تفسـیر هذه الآیه،إذ یقول: «نحن و اللّه الأسماء الحسنی» (۲) فهی إشار إلی أن إشعاعا من صفاته قد انعکس فینا،فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسه...

أو أنّه لو ورد مثلا فی بعض الأحادیث أنّ جمیع الأسماء الحسنی تتلخص فی

۱- ۱) المیزان،ج ۸،ص ۳۷۶،نقلا عن التوحید للصدوق.

۲- ۲) نور الثقلین،ج ۲،ص ۱۰۳.

التوحيد الخالص،فإنّما هو لأن جميع صفاته ترجع إلى ذاته المقدسه.

و يشير الفخر الرازى فى تفسيره إلى أمر قابل للملاحظه،و هو أنّ جميع صفات اللّه تعالى يعود إلى إحدى حقيقتين«استغناء ذاته عن كل شيء»أو «احتياج الآخرين إلى ذاته المقدسه...» (۱) .

۲-الأمّه الهداه!

قرأنا فى الآيات محل البحث أنّ طائفه من عباد اللّه يـدعون نحو الحق و يحكمون به وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ .

هناک تعبيرات مختلفه فى الرّوايات الوارده فى كتب الأحاديث الإسلاميه، فى المراد من هذه الأمّه.و من جمله هذه الرّوايات ما

ورد عن أمير المؤمنين أنّه قال عليه السّلام. المراد من الآيه هو«أمّه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» (۲) .

و يعنى الإمام بهم أتباع النّبى الصادقين المنزّهين عن كل بدعه و انحراف و تغيير أو حياد من تعاليمه الكريمه...

و لهذا

فقد ورد فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «و الذى نفسى بيده لتفرقن هذه الأمه على ثلاث و سبعين فرقه كلّها فى النّار إلاّ فرقه وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ ،و هذه التى تنجو من هذه الأمّه».

و لعل العدد-۷۳-للكثره،و هو إشاره إلى الطوائف المختلفه التى ظهرت فى طول تاريخ الإسـلام فى عقائد عجيبه غريبه،و لحسن الحظ قد انقرض أغلبها فلم يبق منها إلاّ أسماؤها فى كتب«تاريخ العقائد».

و

فى حـديث آخر ورد فى كتب أهـل السـنه عن الإمام على عليه السّلام ضـمن إشارته لاختلاف الأمم التى تظهر بعدئـذ فى الأمّه الإسلاميه،أن قال عليه السّلام«الفرقه الناجيه

۱- ۱) تفسير الفخر الرازى،ج ۱۵،ص ۶۶.

۲- ۲) نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۰۵.

أنا و شیعتی و أتباع مذهبی» (۱) و جاء فی بعض الرّوایات الأخری أنّ المراد من قول تعالی: وَ مِمَّنْ خَلَقْنٰا أُمَّهٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ ،هم الأئمّه من أهل البیت علیهم السّلام» (۲) .

و واضح أنّ الرّوایات المذکوره أنفا کلّها تعالج حقیقه واحده،و هی بیان للمصادیق المختلفه لهذه الحقیقه،و هی أن الآیه تشیر إلی أمّه تدعو إلی الحق و تعمل بالحق و تحکم به،و تسیر فی مسیر الإسلام الصحیح.غایه ما فی الأمر أنّ بعضهم فی قمه هذه الأمّه و رأسها و بعضهم فی مراحل أخر...

و ممّا یسترعی النظر أنّ هؤلاء الذین عبّرت عنهم الآیه بقولها وَ مِمَّنْ خَلَقْنٰا أُمَّهٌ یَهْدُونَ علی اختلاف لغاتهم و قومیّاتهم و مراحلهم العلمیه و أمثالها،هم أمّه واحده لا غیر،و لذلک فإنّ القرآن قال عنهم: أُمَّهٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ و لم یعبر عنهم ب«أمم یهدون إلخ...».

۳-اسم اللّه الأعظم

جاء فی بعض الرّوایات عن قصه بلعم بن باعورا الذی ورد ذکره-آنفا-أنّه کان یعرف الاسم الأعظم،و لا بأس أن نشیر إلی هذا الموضوع لمناسبه ورود الأسماء الحسنی فی الآیات محل البحث...

فقد وردت روایات مختلفه فی شأن الاسم الأعظم،و یستفاد منها أن من یعرف الاسم الأعظم لا یکون مستجاب الدعاء فحسب،بل تکون له القدره علی أن یتصرف فی عالم الطبیعه و أن یقوم بأعمال مهمّه...

و الاسم الأعظم،أیّ اسم هو من أسماء اللّه؟! بحث علماء الإسلام کثیرا فی هذا الشأن،و أغلب أبحاثهم تدور فی أن

۱- ۱) تفسیر البرهان،ج ۲،ص ۵۳.

۲- ۲) نور الثقلین،ج ۲،ص ۱۰۴-۱۰۵.

يعثروا على اسم من بين أسماء اللّه له هذه الخصوصيّه العجيبه و الأثر الكبير.

إلاّ أن الأهم فى البحث أن نعثر على اسم أو صفه من صفاته تعالى بتطبيقها على وجودنا نحصل على تكامل روحى تترتب عليه تلك الآثار.

و بتعبير آخر:إنّ المسأله المهمّه هى التخلق بصفات اللّه و الاتصاف بها و وجودها فى الإنسان،و إلاّ كيف يمكن أن يكون الشخص الردىء الوضيع مستجاب الدعوه بمجرّد معرفته الاسم الأعظم؟! و إذا ما سمعنا أنّ بلعم بن باعوراء كان لديه هذا الاسم الأعظم إلاّ أنّه فقده، فمفهوم هذا الكلام أنّه كان قد بلغ-بسبب بناء شخصيته و إيمانه و علمه و تقواه- إلى مثل هذه المرحله من التكامل المعنوى،بحيث كان مستجاب الدعوه عند اللّه، إلاّ أنّه سقط أخيرا فى الوحل،فقد تلك الروحيه بسبب اتباعه لهوى النفس و انقياده لفراعنه زمانه،و لعل المراد من نسيان الاسم الأعظم هو هذه الحاله أو هذا المعنى.

كما أنّنا لو قرأنا-أيضا-أن الأنبياء و الأئمّه الكرام كانوا يعرفون الاسم الأعظم،فمفهوم هذا الكلام هو أنّهم جسّدوا اسم اللّه الأعظم فى وجودهم، و استضاءوا بشعاعه،فأولاهم اللّه-بهذه الحال-مثل هذه المقام العظيم.

الآيتان [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٢ الى ١٨٣]

اشاره

وَ اَلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيٰاتِنٰا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)

التّفسير

اشاره

الاستدراج!...

تعقيبا على البحث السابق الذى عالجته الآيات المتقدمه-و الذى يبيّن حال أهل النّار،تبيّن هاتان الآيتان واحده من سنن اللّه فى شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين،و هى ما عبّر عنها القرآن«بعذاب الاستدراج».

و الاستدراج جاء فى موطنين من القرآن:أحدهما فى الآيتين محل البحث، و الآخر فى الآيه(۴۴)من سوره القلم،و كلا الموطنين يتعلقان بمكذّبى آيات اللّه و منكر بها.

و كما يقول أهل اللغه،فإنّ للاستدراج معنيين:

أحدهما:أخذ الشىء تدريجا،لأنّ أصل الاستدراج مشتق من(الدرجه) فكما أنّ الإنسان ينزل من أعلى العماره إلى أسفلها بالسلالم درجه درجه،أو يصعد من الأسفل إلى الأعلى درجه درجه و مرحله مرحله،فقد سمى هذا الأمر

استدراجا.

و المعنى الثّانى للاستدراج هو«اللّف و الطّى،كطّى السّجل أو«الطومار» و لفّه.و هذان المعنيان أوردهما الراغب فى مفرداته،إلاّ أنّ التأمل بدقّه فى المعنيين يكشف أنّهما يرجعان إلى مفهوم كلى جامع واحد:و هو العمل التدريجى.

و بعد أن عرفنا معنى الاستدراج نعود إلى تفسير الآيه محل البحث.

يقول سبحانه فى الآيه الأولى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ .

أى سنعذبهم بالاستدراج شيئا فشيئا،و نطوى حياتهم.

و الآيه الثّانيه تؤكّد الموضوع ذاته،و تشير بأنّ اللّه لا يتعجل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون و يتعظون،فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب اللّه، فتقول الآيه وَ أُمْلِي لَهُمْ .

لأنّ الاستعجال يتذرع به من يخاف الفوت،و اللّه قوى و لا يفلت من قبضته أحد إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .

و«المتين»معناه القوى المحكم الشديد،و أصله مأخوذ من المتن،و هو العضله المحكمه التى تقع فى جانب الكتف(فى الظهر).

و«الكيد»و المكر متساويان فى المعنى،و كما ذكرنا فى ذيل الآيه(۵۴)من سوره آل عمران،أنّ المكر يعنى فى أصل اللغه الاحتيال و منع الآخر من الوصول إلى قصده.

و يستفاد من الآيه-آنفه الذكر و آيات أخرى و بعض الأحاديث الشريفه الوارده-فى شأن الاستدراج،أو العذاب الاستدراجى،أنّ اللّه لا يتعجل بالعذاب على الطغاه و العاصين المتجرئين وفقا لسنته فى عباده،بل يفتح عليهم أبواب النعم.فكلّما ازدادوا طغيانا زادهم نعما.

و هـذا الأـمر لاـ يخلو من إحـدى حالتين،فإمّا أن تكون هـذه النعم مـدعاه للتنبيه و الإيقاظ فتكون الهـدايه الإلهيه فی هـذه الحال عمليه.

أو أنّ هـذه النعم تزيـدهم غرورا و جهلاـفعندئـذ يكـون عقـاب اللّه لهم فی آخر مرحله أوجع،لأـنّهم حين يغرقون فی نعم اللّه و ملـذاتهم و يبطرون، فإنّ اللّه سـبحانه يسـلب عندئـذ هـذه النعم منهم،و يطوی سـجل حياتهم،فيكون هـذا العقاب صارما و شديدا جدّا...

و هذا المعنی بجميع خصوصياته لا يحمله لفظ الاستدراج وحده،بل يستفاد هذا المعنی يفيد مِنْ حَيْثُ لاٰ يَعْلَمُونَ أيضا.

و علی كل حال،فهـذه الآيه تنـذر جميع المجرمين و المذنبين بأنّ تأخير الجزاء من قبل اللّه لا يعنی صـحه أعمالهم أو طهارتهم،و لا عجزا و ضـعفا من اللّه، و أن لا يحسبوا أنّ النعم التی غرقوا فيها هی دليل علی قربهم من اللّه،فما أقرب من أن تكون هذه النعم و الانتصارات مقدمه لعقاب الاسـتدراج.فاللّه سـبحانه يغشّـيهم بالنعم و يمهلهم و يرفعهم عاليا،إلاّ أنّه يكبسـهم علی الأرض فجأه حتی لا يبقی منهم أثر،و يطوی بذلک وجودهم و تأريخ حياتهم كله.

يقول الإمام علی عليه السّلام فی نهج البلاغه أنّه«من وسّع عليه فی ذات يده فلم ير ذلک استدراجا فقد أمن مخوفا» (۱) .

كما

جـاء عنه عليه السّـلام فی روضه الكـافی أنّه قـال: «ثمّ إنّه سـيأتی عليكم من بعـدی زمـان ليس فی ذلک الزمان شـیء أخفی من الحق،و لا أظهر من الباطل،و لا أكثر من الكـذب علی اللّه و رسوله صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم-إلی أن قال-يـدخل الداخل لما يسـمع من حكم القرآن فلاـ يطمئن جالسـا حتی يخرج من الـدين،ينتقـل من دين ملـک إلی دين ملـک، و من ولاـيه إلی ولاـيه ملک،و من طاعه ملک إلی طاعه ملک،و من عهود ملک إلی

۱- ۱) تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۰۶.

عهود ملک،فاستدرجهم اللّه تعالی من حیث لا یعلمون» (۱) .

و

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «کم من مغرور بما قد أنعم اللّه علیه،و کم من مستدرج یستر اللّه علیه،و کم من مفتون بثناء الناس علیه» (۲) .

و

جاء عنه علیه السّلام فی تفسیر الآیه المشار إلیها آنفا أنّه قال:«هو العبد یذنب الذنب فتجدد له النعمه معه،تلهیه تلک النعمه عن الاستغفار عن ذلک الذنب» (۳) .

و

ورد عنه علیه السّلام فی کتاب الکافی أیضا: «إنّ اللّه إذا أراد بعبد خیرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمه و یذکره الاستغفار،و إذا أراد بعبد شرّا فأذنب ذنبا أتبعه بنعمه لینسیه الاستغفار،و یتمادی بها،و هو قوله عزّ و جل: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَیْثُ لاٰ یَعْلَمُونَ بالنعم عند المعاصی» (۴) .

۱- ۱) المصدر السابق.

۲- ۲) تفسیر نور الثقلین،ج ۲،ص ۱۰۶.

۳- ۳) المصدر السابق.

۴- ۴) تفسیر البرهان،ج ۲،ص ۵۳.

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٤ الى ١٨٦]

اشاره

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِی مَلَكُوتِ اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ وَ مٰا خَلَقَ اَللّٰهُ مِنْ شَیْءٍ وَ أَنْ عَسیٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اِقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَیِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اَللّٰهُ فَلاٰ هٰادِیَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِی طُغْيٰانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

سبب النّزول

روی المفسّرون أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین کان بمکّه،صعد ذات لیله علی جبل الصفا و دعا الناس إلی توحید اللّه،و خاصّه قبائل قریش،و حذرهم من عذاب اللّه، و

قال: «إنّی نذیر لکم بین یدی عذاب شدید،قولوا،لا إله إلاّ اللّه تفلحوا» فقال المشرکون:إنّ صاحبهم قد جنّ،بات لیلا یصوت حتی الصباح،فنزلت الآیات و ألجمتهم وردت قولهم.

و رغم أنّ الآیه لها شأن خاص،إلاّ أنّها فی الوقت ذاته لمّا کانت تدعو إلی معرفه النّبی و هدف الخلق و التهیؤ للعالم الآخر،ففیها ارتباط وثیق بالمواضیع التی سبق بیانها فی شأن أهل الجنّه و أهل النّار.

التّفسير

اشاره

التهم و الأباطيل:

فی الآیه الأولی من الآیات-محل البحث-یردّ اللّه سبحانه علی کلام المشرکین الذی لا أساس له بزعمهم أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد جنّ،فیقول سبحانه: أَ وَ لَمْ یَتَفَکَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّهٍ (۱) .

و هذا التعبیر یشیر إلی أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن شخصا مجهولا بینهم،و تعبیرهم ب«الصاحب»یعنی المحب و المسامر و الصدیق و ما إلی ذلک.و کان النّبی معهم أکثر من أربعین عاما یرون ذهابه و إیابه و تفکیره و تدبیره دائما و آثار النبوغ کانت بادیه علیه،فمثل هذا الإنسان الذی کان یعدّ من أبرز الوجوه و العقلاء قبل الدعوه إلی اللّه،کیف تلصق به مثل هذه التهمه بهذه السرعه؟!أمّا کان الأفضل أن یتفکروا-بدلا من إلصاق التهم به-أن یکون صادقا فی دعواه و هو مرسل من قبل اللّه سبحانه؟!کما عقب القرآن الکریم و بیّن ذلک بعد قوله أو لم یتفکروا؟ فقال: إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِیرٌ مُبِینٌ...

و فی الآیه التّالیه-استکمالا للموضوع آنف الذکر-دعاهم القرآن إلی النظر فی عالم الملکوت،عالم السموات و الأرض،إذ تقول الآیه: أَ وَ لَمْ یَنْظُرُوا فِی مَلَکُوتِ السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مٰا خَلَقَ اللّٰهُ مِنْ شَیْءٍ .

لیعلموا أنّ هذا العالم الواسع،عالم الخلق،عالم السموات و الأرض،بنظامه الدقیق المحیّر المذهل لم یخلق عبثا،و إنّما هناک هدف وراء خلقه.و دعوه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی الحقیقه،هی من أجل ذلک الهدف،و هو تکامل الإنسان و تربیته و ارتقاؤه.

و«الملکوت»فی الأصل مأخوذ من«الملک»و یعنی الحکومه و المالکیه،

۱- ۱) «الجنّه»کما یذهب إلیه أصحاب اللغه معناها الجنون،و معناها فی الأصل:الحائل و المانع فکأنما یلقی علی العقل حائل عند الجنون.

و الواو و التاء المزيدتان المردفتان به هما للتأكيد و المبالغه.و يطلق هذا الاستعمال على حكومه اللّه المطلقه التى لا حدّ لها و لا نهايه...

فالنظر إلى عالم الملكوت و نظامه الكبير الواسع المملوك للّه سبحانه يقوّى الإيمان باللّه و الإيمان بالحق،كما أنّه يكشف عن وجود هدف مهم فى هذا العالم الكبير المنتظم أيضا.و فى الحالين يدعو الإنسان إلى البحث عن ممثل اللّه و رسول رحمته الذى يستطيع أن يطبق الهدف من الخلق فى الأرض.

ثمّ تقول الآيه معقبه...لتنبّههم من نومه الغافلين وَ أَنْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ .

أى:أوّلا-ليس الأمر كما يتصورون،فأعمارهم لا تخلد و الفرص تمر مرّ السحاب،و لا يدرى أحد أهو باق إلى غد أم لا؟! فمع هذه الحال ليس من العقل التسويف و تأجيل عمل اليوم إلى غد.

ثانيا:إذ لم يكونوا ليؤمنوا بهذا القرآن العظيم الذى فيه ما فيه من الدلائل الواضحه و البراهين اللائحه الهاديه إلى الإيمان باللّه،فأى كتاب ينتظرونه خير من القرآن ليؤمنوا به؟و هل يمكن أن يؤمنوا بكلام آخر و دعوه أخرى غير هذه؟! و كما نلاحظ فإنّ الآيات محل البحث توصد جميع سبل الفرار بوجه المشركين،فمن ناحيه تدعوهم إلى أن يتفكروا فى شخصيّه النّبى و عقله و سابق أعماله فيهم لئلا يتملّصوا من دعوته باتهامهم إيّاه بالجنون.

و من ناحيه أخرى تدعوهم إلى أن ينظروا فى ملكوت السماوات و الأرض، و الهدف من خلقهما،و أنّهما لم يخلقا عبثا.

و من ناحيه ثالثه تقول: وَ أَنْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ لئلا يسوّفوا قائلين اليوم و غدا و بعد غد إلخ...

و من ناحيه رابعه تقول:إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنّهم لن يؤمنوا بأى حديث آخر و أى كتاب آخر،إذ ليس فوق القرآن كتاب أبدا...

و أخيرا فإنّ الآيه التاليه،و هی آخر آیه من الآیات محل البحث،تختتم الکلام بالقول مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ فَلاٰ هٰادِیَ لَهُ وَ یَذَرُهُمْ فِی طُغْیٰانِهِمْ یَعْمَهُونَ .

و کما ذکرنا مرارا فإن مثل هذه التعابیر لا تشمل جمیع الکفار و المجرمین، بل تختص بأولئک الذین یقفون بوجه الحقائق معاندین ألدّاء،حتی کأنّما علی أبصارهم غشاوه و فی سمعهم صمم و علی قلوبهم طبع،فلا یجدون إلاّ أسدالا من الظلمات تحجب طریقهم.و کل ذلک هو نتیجه أعمالهم أنفسهم،و هو المقصود بالإضلال الإلهی مَنْ یُضْلِلِ اللّٰهُ .

ص :318

الآيه [سوره الأعراف (٧): آيه ١٨٧]

اشاره

يَسْئَلُونَکَ عَنِ اَلسّٰاعَهِ أَیّٰانَ مُرْسٰاهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی لاٰ یُجَلِّیهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ ثَقُلَتْ فِی اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ اَلْأَرْضِ لاٰ تَأْتِیکُمْ إِلاّٰ بَغْتَهً یَسْئَلُونَکَ کَأَنَّکَ حَفِیٌّ عَنْهٰا قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اَللّٰهِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ اَلنّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ (١٨٧)

سبب النّزول

اشاره

أيّان يوم القيامه؟!

وفقا لمّا ورد فی بعض الرّوایات (١) فإنّ قریشا أرسلت عدّه أنفار إلی نجران لیسألوا الیهود الساکنین فیها-إضافه إلی المسیحیین هناک-مسائل ملتویه ثمّ یلقوها علی النّبی عند رجوعهم إلیه،ظنّا منهم أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سیعجز عن إجابتهم، و من جمله هذه الأسئله کان هذا السؤال:متی تقوم الساعه؟!فلما سألوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذلک السؤال نزلت الآیه محل البحث و أفحمتهم! (٢)

١- ١) تفسیر البرهان،ج ٢،ص ۵۴.

٢- ٢) یری بعض المفسّرین کالمرحوم الطبرسی أن سبب النّزول هو فی جماعه من الیهود الذین جاءوا النّبی و سألوه عن یوم القیامه،إلاّ أنّه لمّا کانت السوره نازله فی مکّه،و لم یکن بین النّبی و الیهود فیها خصام و جدال،فهذا الموضوع مستبعد جدّا.

مع أنّ هـذه الآيه ذات سـبب خاص فی النّزول-کما ذکروا-إلاّ أنّها فی الوقت ذاته لها علاقه وثیقه بالآیات المتقدمه أیضا،لأنّه قد وردت الإشاره إلی یوم القیامه و لزوم الاستعداد لمثل ذلک الیوم فی الآیات السابقه.و بالطبع فإنّ موضوعا کهذا یستدعی السؤال عن موعده و قیامه،و یسـتثیر کثیرا من الناس أن یسألوه:أیّان یوم القیامه؟لهذا فإنّ القرآن یقول: یَسْئَلُونَکَ عَنِ السّٰاعَهِ أَیّٰانَ مُرْسٰاهٰا ؟! و بـالرغم من أنّ«السـاعه»تعنی زمان نهایه الـدنیا،إلاّ أنّها فی الغالب-أو دائما کما ذهب البعض-تأتی بمعنی القیامه فی القرآن الکریم،و خـاصّه من بعض القرائن التی تکتنف الآیه-محل البحث-إذ تؤکّـد هـذا الموضوع کجمله:متی تقوم الساعه؟الوارده فی شأن نزول الآیه:

و کلمه«أیّان»تساوی«متی»و هما للسّؤال عن الزمان،و المرسـی مصدر میمی من الإرساء،و هما بمعنی واحد،و هو ثبات الشـیء أو وقوعه،لـذلک یطلق علی الجبـل وصف«الراسـی»فیقـال:جبـال راسـیات،فبنـاء علی ذلک فإنّ«أیّان مرساها»تعنی:فی أی وقت تقع القیامه و تکون ثابته؟! ثمّ تضیف الآیه مخاطبه النّبی أن یردهم بصراحه قائله: قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ رَبِّی لاٰ یُجَلِّیهٰا لِوَقْتِهٰا إِلاّٰ هُوَ .

إلاّ أنّ الآیه تذکر علامتین مجملتین،فتقول أوّلا: ثَقُلَتْ فِی السَّمٰاوٰاتِ وَ الْأَرْضِ .

أیه حادثه یمکن أن تکون أثقل من هذه،إذ تضـطرب لهولها جمیع الأجرام السـماویه«قبیل القیامه»فتخمد الشمس و یظلم القمر و تندثر النجوم،و یتکون

من بقایاها عالم جدید بثوب آخر! (۱) ثمّ إنّ قیام الساعه یکون علی حین غرّه،و بدون مقدمات تدریجیه،بل علی شکل مفاجئ و انقلاب سریع.

ثمّ تقول الآیه مرّه أخری: یَسْئَلُونَکَ کَأَنَّکَ حَفِیٌّ عَنْهٰا (۲) .

و تضیف الآیه مخاطبه النّبی الکریم: قُلْ إِنَّمٰا عِلْمُهٰا عِنْدَ اللّٰهِ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّٰاسِ لاٰ یَعْلَمُونَ .

و ربّما یسأل-أو یتساءل-بعض الناس:لم کان علم الساعه خاصّا باللّه و ذاته المقدسه،و لا یعلم بها حتی الأنبیاء؟! و الجواب علی ذلک:إن عدم معرفه الناس بوقوع یوم القیامه و زمانها «بضمیمه کون القیامه لا تأتی إلاّ بغته»و مع الالتفات إلی هول یوم القیامه و عظمتها،هذا الأمر یبعث علی أن یتوقّع الناس وقوع یوم القیامه فی أی وقت و یترقبوها باستمرار،و یکونوا علی أهبه الاستعداد و التهیؤ،لکی ینجوا من أهوالها.فعدم المعرفه هذا له أثر مثبت جلی فی تربیه النفوس و الالتفات إلی المسؤولیه و اتقاء الذنوب.

۱- ۱) قال بعض المفسّرین أنّ المراد من هذه الجمله هو أن معرفه القیامه أو علمها ثقیل علی أهل الأرض و السماوات،إلاّ أنّ الحقّ هو التّفسیر المذکور آنفا«فی المتن»لأنّ القول بحذف کلمتی العلم و الأهل خلاف ظاهر الآیه.

۲- ۲) الحفی فی الأصل هو من یسأل عن الشیء بتتابع و إصرار،و لما کان الإصرار فی السؤال باعثا علی زیاده العلم،فقد تستعمل هذه اللفظه علی العالم کما هی هنا أیضا.

الآیه [سوره الأعراف (٧): آیه ١٨٨]

اشاره

قُلْ لاٰ أَمْلِکُ لِنَفْسِی نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اَللّٰهُ وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ اَلْغَیْبَ لاَسْتَکْثَرْتُ مِنَ اَلْخَیْرِ وَ مٰا مَسَّنِیَ اَلسُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاّٰ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (١٨٨)

سبب النّزول

روی بعض المفسّرین«کالعلاّمه الطبرسی فی مجمع البیان»أن أهل مکّه قالوا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:إذا کان لک ارتباط باللّه،أ فلا یطلعک اللّه علی غلاء السلع أو زهادتها فی المستقبل،لتهییء عن هذا الطریق ما فیه النفع و الخیر و تدفع عنک ما فیه الضرر و السوء،أو یطلعک اللّه علی السّنه الممحله«القحط»أو العام المخصب العشب،فینتقل إلی الأرض الخصیبه؟فنزلت عندئذ الآیه-محل البحث-و کانت جواب سؤالهم.

التّفسیر

اشاره

لا یعلم الغیب إلاّ اللّه:

بالرّغم من أنّ هذه الآیه لها شأن خاص فی نزولها،إلاّ أنّ ارتباطها بالآیه

السابقه واضح،لأنّ الكلام كان فى الآيه السابقه على عدم علم أحد بقيام الساعه إلاّ اللّه،و الكلام فى هذه الآيه على نفى علم الغيب عن العباد بصوره كليه.

ففى الجمله الأولى من هذه الآيه خطاب للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: قُلْ لاٰ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَ لاٰ ضَرًّا إِلاّٰ مٰا شٰاءَ اللّٰهُ .

و لا شك أنّ كل إنسان يستطيع أن ينفع نفسه،أو يدفع عنها الشر،و لكن على الرغم من هذه الحال فإنّ الآيه-محل البحث،كما نلاحظ-تنفى هذه القدره عن البشر نفيا مطلقا.و ذلك لأنّ الإنسان فى أعماله ليس له قوّه من نفسه،بل القوّه و القدره و الاستطاعه كلّها من اللّه،و هو سبحانه الذى أودع فيه كل تلك القوّه و القدره و ما شاكلهما.

و بتعبير آخر:إنّ مالك جميع القوى و القدرات و ذو الإختيار المستقل-و بالذات-فى عالم الوجود هو اللّه عزّ و جلّ فحسب،و الآخرون حتى الأنبياء و الملائكه يكتسبون منه القدره و يستمدون منه القوّه،و ملكهم و قدرتهم هى بالغير لا بالذات...

و جمله«إلاّ ما يشاء اللّه»شاهد على هذا الموضوع أيضا.

و فى كثير من آيات القرآن الأخرى نرى نفى المالكيه و النفع و الضرر عن غير اللّه،و لذلك فقد نهت الآيات عن عباده الأصنام و ما سوى اللّه سبحانه...

و نقرأ فى الآيتين(٣)و(۴)من سوره الفرقان وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لاٰ نَفْعاً فكيف يملكون لغيرهم؟! و هذه هى عقيده المسلم،إذ لا يرى أحدا«بالذات»رازقا و مالكا و خالقا و ذا نفع أو ضرر إلاّ اللّه،و لذا فحين يتوجه المسلم إلى أحد طالبا منه شيئا فهو يطلبه مع التفاته إلى هذه الحقيقه،و هى أنّ ما عند ذلك الشخص فهو من اللّه(فتأمل بدقّه).

و یتّضح من هذا إنّ الذین یتذرعون بمثل هذه الآیات لنفی کل توسل بالأنبیاء و الأئمّه،و یعدون ذلک شرکا،فی خطأ فاضح،حیث تصوروا بأنّ التوسل بالنّبی أو الإمام مفهومه أن نعدّ النّبی أو الإمام مستقلا بنفسه فی قبال اللّه-و العیاذ باللّه-و أنّه یملک النفع و الضرر أیضا.

و لکن من یتوسل بالنّبی أو الإمام مع الإعتقاد بأنّه لا یملک شیئا من نفسه، بل یطلبه من اللّه،أو أنّه یستشفع به إلی اللّه،فهذا الإعتقاد هو التوحید عینه و الإخلاص ذاته.و هو ما أشار إلیه القرآن فی الآیه محل البحث بقوله: إِلاّ ما شاءَ اللّهُ أو بقوله: إِلاّ بِإِذْنِهِ فی الآیه مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ .

فبناء علی ذلک فإنّ فریقین من الناس علی خطأ فی مسأله التوسل بالنّبی و الأئمّه الطاهرین...

الفریق الأوّل:من یزعم أنّ النّبی أو الإمام له قدره و قوه مستقله بالذات فی قبال اللّه،فهذا الإعتقاد شرک باللّه.

و الفریق الآخر:من ینفی القدره-بالغیر-عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّه الطاهرین علیهم السّلام،فهذا الإعتقاد انحراف عن مفاد آیات القرآن الصریحه.

إذن:الحق هو أنّ النّبی و الأئمّه یشفعون للمتوسل بهم بإذن اللّه و أمره، و یطلبون حل معضلته من اللّه.

و بعد بیان هذا الموضوع تشیر الآیه إلی مسأله مهمّه أخری ردّا علی سؤال جماعه منهم فتقول: وَ لَوْ کُنْتُ أَعْلَمُ الْغَیْبَ لَاسْتَکْثَرْتُ مِنَ الْخَیْرِ وَ ما مَسَّنِیَ السُّوءُ (۱) .

لأنّ الذی یعرف أسرار الغیب یستطیع أن یختار ما هو فی صالحه،و أن یجتنب عمّا یضرّه.

۱- ۱) فی الحقیقه أن هناک حذفا فی الآیه تقدیره«لا أعلم الغیب»و الجمله التی بعدها شاهده علی ذلک.

ثمّ تحكى الآيه عن مقام النّبى الواقعى و رسالته،فى جمله موجزه صريحه، فتقول على لسانه: إِنْ أَنَا إِلاّ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ملاحظه

اشاره

ألم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعلم الغيب؟!

يحكم بعض السطحيين لدى قراءتهم لهذه الآيه-و بدون الأخذ بنظر الإعتبار الآيات القرآنيه الأخرى،بل حتى القرائن الموجوده فى هذه الآيه أيضا -أنّ الآيه آنفه الذكر دليل على نفى علم الغيب عن الأنبياء نفيا مطلقا...

مع أنّ الآيه-محل البحث-تنفى علم الغيب المستقل و بالذات عن النّبى، كما أنّها تنفى القدره على كل نفع و ضرّ بصوره مستقله.و نعرف أنّ كل إنسان يملك لنفسه و للآخرين النفع أو الضر.

فبناء على ذلك فإنّ هذه الجمله المتقدمه شاهد واضح على أنّ الهدف ليس هو نفى مالكيه النفع و الضر أو نفى علم الغيب بصوره مطلقه،بل الهدف نفى الاستقلال،و بتعبير آخر: إنّ النّبى لا يعرف شيئا من نفسه،بل يعرف ما أطلعه اللّه عليه من أسرار غيبه،كما تقول الآيتان(۲۶)و(۲۷)من سوره الجن عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً .

و أساسا،فإنّ كمال مقام القياده لا سيما إذا كان الهدف قياده العالم بأسره، و فى جميع المجالات الماديّه و المعنويه،هو الاحاطه الواسعه بالكثير من المسائل الخفيه عن سائر الناس،لا المعرفه بأحكام اللّه و قوانينه فحسب،بل المعرفه بأسرار عالم الوجود،و البناء البشرى،و قسم من حوادث المستقبل و الماضى،فهذا القسم من العلم يطلعه اللّه على رسله،و إذا لم يطلعهم عليه لم

تكمل قيادتهم!...

و بتعبير آخر:إنّ أحاديث الأنبياء و الرسل و سيرتهم ستكون محدوده بظروف عصرهم و محيطهم،لكن عند ما يكونون عارفين بهذا القسم من أسرار الغيب فسيقومون ببناء حضاره على مستوى الأجيال القادمه،فتكون مناهجهم صالحه لمختلف الظروف و المتغيّرات...

الآيات [سوره الأعراف (۷): الآيات ۱۸۹ الی ۱۹۳]

اشاره

هُوَ اَلَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا لِیَسْکُنَ إِلَیْهٰا فَلَمّٰا تَغَشّٰاهٰا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِیفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمّٰا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اَللّٰهَ رَبَّهُمٰا لَئِنْ آتَیْتَنٰا صٰالِحاً لَنَکُونَنَّ مِنَ اَلشّٰاکِرِینَ (۱۸۹) فَلَمّٰا آتٰاهُمٰا صٰالِحاً جَعَلاٰ لَهُ شُرَکٰاءَ فِیمٰا آتٰاهُمٰا فَتَعٰالَی اَللّٰهُ عَمّٰا یُشْرِکُونَ (۱۹۰) أَ یُشْرِکُونَ مٰا لاٰ یَخْلُقُ شَیْئاً وَ هُمْ یُخْلَقُونَ (۱۹۱) وَ لاٰ یَسْتَطِیعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ (۱۹۲) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَی اَلْهُدیٰ لاٰ یَتَّبِعُوکُمْ سَوٰاءٌ عَلَیْکُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰامِتُونَ (۱۹۳)

التّفسیر

اشاره

جحد نعمه عظمی:

فی هذه الآیات إشاره إلی جانب آخر من حالات المشرکین و أسلوب تفکیرهم،و الردّ علی تصوّراتهم الخاطئه.لما کانت الآیه السابقه تجعل جمیع ألوان النفع و الضرّ و علم الغیب منحصرا باللّه،و کانت فی الحقیقه إشاره إلی توحید

أفعال اللّه.فالآيات محل البحث تعدّ مكمله لها لأنّ هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال اللّه أيضا.

تقول الآيه الأولى من هذه الآيات هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ وَ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا لِيَسْكُنَ إِلَيْهٰا فجعل الحياه و السكن جنبا إلى جنب فَلَمّٰا تَغَشّٰاهٰا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ (١) .

و بمرور الأيّام و الليالى ثقل الحمل فَلَمّٰا أَثْقَلَتْ كان كل من الزوجين ينتظر الطفل،و يتمنّى أن يهبه اللّه ولدا صالحا،فلذلك دَعَوَا اللّٰهَ رَبَّهُمٰا لَئِنْ آتَيْتَنٰا صٰالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّٰاكِرِينَ و عند ما استجاب اللّه دعاءهما،و رزقهما الولد الصالح أشركا باللّه فَلَمّٰا آتٰاهُمٰا صٰالِحاً جَعَلاٰ لَهُ شُرَكٰاءَ فِيمٰا آتٰاهُمٰا فَتَعٰالَى اللّٰهُ عَمّٰا يُشْرِكُونَ .

الجواب على سؤال مهم!

هناك بين المفسّرين كلام فى المراد من الزوجين الذين تكلمت عنهما الآيتان الأوليان من الآيات محل البحث...

هل أنّ المراد من«النفس الواحده»و زوجها آدم و حواء؟مع أنّ آدم من الأنبياء و حواء امرأه مؤمنه كريمه،فكيف ينحرفان عن مسير التوحيد و يسلكان مسير الشرك؟! و إذا كان المراد من النفس الواحده غير آدم و تشمل الآيه جميع أفراد البشر، فكيف ينسجم التعبير إذا و قوله تعالى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَهٍ ؟! ثمّ بعد هذا ما المراد من الشرك،و أى عمل أو تفكير قام به الزوجان فجعلا للّه شركاء؟!

١- ١) تغشاها فعل يليه ضمير التأنيث و هو غشى،و معناه غطّى،و هذه الجمله كنايه لطيفه عن المقاربه الجنسيه و المضاجعه.

و فی الجواب علی مثل هذه الأسئله نقول:

یوجد طریقان لتفسیر الآیتین هاتین«و ما بعدهما»،و لعل جمیع ما قاله المفسّرون علی اختلاف آرائهم یرجع إلی هذین الطریقین...

الأوّل:إنّ المراد من نفس«واحده».هو الواحد الشخصی کما ورد هذا المعنی فی آیات أخری من القرآن أیضا،و منها أوّل آیه من سوره النساء.

و التعبیر بالنفس الواحده-أساسا-جاء فی خمسه مواطن فی القرآن المجید،واحده منها فی الآیه-محل البحث-و الأربعه الأخری هی فی سوره النساء(الآیه الأولی)و سوره الأنعام،الآیه(۹۸)،و سوره لقمان،الآیه(۲۸)، و سوره الزمر،الآیه(۶)،و بعض هذه الآیات لا علاقه لها ببحثنا هذا،و بعضها یشبه الآیه محل البحث.فبناء علی ذلک فالآیات-محل البحث-تشیر إلی آدم و زوجه حوّاء فحسب! و علی هذا فالمراد بالشرک لیس هو عباده غیر اللّه أو الإعتقاد بألوهیه غیره، بل لعل المراد شی آخر من قبیل میل الإنسان لطفله،المیل الذی ربّما یجعله غافلا عن اللّه أحیانا.

و التّفسیر الثانی:هو أنّ المراد من النفس الواحده هو الواحد النوعی،أی أن اللّه خلقکم جمیعا من نوع واحد کما خلق أزواجکم من جنسکم أیضا.

و بذلک فإنّ الآیتین و ما بعدهما من الآیات-محل البحث-تشیر إلی نوع الناس،فهم یدعون اللّه و ینتظرون الوالد الصالح فی کمال الإخلاص للّه و الانقطاع إلیه،کمن یحدق بهم الخطر فیلتجئوا إلی اللّه،و یعاهدون اللّه علی شکره بعد حلّ معضلاتهم.و لکن عند ما یرزقهم اللّه الولد الصالح،أو یحلّ مشاکلهم ینسون جمیع عهودهم فإنّ کان الولد جمیلا قالوا:إنّه اکتسب جماله من أبیه أو أمّه،و هذا هو قانون الوارثه.و تاره یقولون:إنّ غذاؤه و الظروف الصحیه تسببت فی نموّه و سلامته.و تاره یعتقدون بتأثیر الأصنام و یقولون:إنّ ولدنا کان من برکه الأصنام

و عطائها!و أمثال هذا الكلام...

و هكذا يهملون التأثير الرّبانی بشكل عام، و يرون العلّه الأصليه هی العوامل الطبيعيه أو المعبودات الخرافيه (۱) .

و القرائن فی الآيات-محل البحث-تدل علی أن التّفسير الثّانی أكثر انسجاما و أكثر تفهما لغرض الآيه،لأنّه:

أوّلا:إن تعبيرات الآی تحكی عن حال زوجين كانا يعيشان فی مجتمع ما من قبل،و رأيا الأبناء الصالحين و غير الصالحين فيه،و لهذا طلبا من اللّه و سألاه أن يرزقهما الولد الصالح.و لو كانت الآيات تتكلم علی آدم و حواء فهو خلاف الواقع،لأنّه لم يكن يؤمئذ ولد صالح و غير صالح حتی يسألا اللّه الولد الصالح.

ثانيا:الضمائر الوارده فی آخر الآيه الثّانيه و الآيات التی تليها،كلها ضمائر «جمع»و يستفاد من هذا أنّ المراد من ضمير التثنيه هو إشاره إلی الفريقين لا إلی الشخصين.

ثالثا:أنّ الآيات التی تلت الآيتين الأوّليين تكشف عن أنّ المقصود بالشرك هو عباده الأصنام،لا محبّه الأولاد و الغفله عن اللّه،و هذا الأمر لا ينسجم و النّبی آدم و زوجه! فبملاحظه هذه القرائن يتّضح أنّ الآيات-محل البحث-تتكلم عن نوع الإنسان و زوجه ليس إلاّ.

و كما ذكرنا فی الجزء الثّانی من التّفسير الأمثل أن خلق زوج الإنسان من الإنسان ليس معناه أن جزءا من بدنه انفصل عنه و تبدل إلی زوج له يسكن إليه «كما ورد فی روايه إسرائيليه أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر!».

بل المراد أن زوج الإنسان من نوعه و جنسه، كما نقرأ فی الآيه(۲۱)من

۱- ۱) يری بعض المفسّرين أن بدايه الآيه يتعلق بآدم و حواء،و ذيل الآيه تتعلق بأبناء آدم و حواء،و هذا تكلّف،لأنّه يحتاج إلی حذف و تقدير،و هو لا ينسجم و ظاهر الآيه.

سوره مریم! قوله تعالی: أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْوٰاجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْهٰا .

روایه مجعوله:

جاء فی بعض المصادر الحدیثیه لأهل السنّه،و بعض کتب الحدیث الشیعیه غیر المعتبره،فی تفسیر الآیات محل البحث،حدیث لا ینسجم مع العقائد الإسلامیه،و لا یلیق بشأن الأنبیاء أبدا.و هذا الحدیث کما جاء فی مسند أحمد هو:

أنّ سمره بن جندب روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: لمّا ولدت حواء طاف بها إبلیس و کان لا یعیش لها ولد فقال:سمیّه:عبد الحارث،فعاش و کان ذلک من وحی الشّیطان و أمره (۱) «الحارث اسم من أسماء الشیطان».

و جاء فی بعض الرّوایات الوارد فیها هذا المضمون ذاته أن آدم رضی بهذا الأمر!! و سواء أ کان راوی هذه الروایه سمره بن جندب-الکذاب المشهور-أم غیره أمثال کعب الأحبار أو وهب بن منبه اللذین کانا من علماء الیهود ثمّ أسلما، و یعتقد بعضهم أنّهما أدخلا فی الثقافه الإسلامیه خرافات التوراه و بنی إسرائیل.

و مهما یکن الأمر فالروایه بنفسها خیر دلیل علی فسادها و بطلانها،لأنّ آدم الذی هو خلیفه اللّه«فی أرضه»و نبیّه الکبیر،و کان یعلم الأسماء،بالرغم من کونه بترک الأولی هبط إلی الأرض،إلاّ أنّه لم یکن إنسانا یختار سبیل الشرک و یسمّی ولده عبد الشیطان، فهذا الأمر یصدق فی مشرک جاهل فحسب لا فی آدم...

و الأعجب من ذلک أنّ الحدی أنف الذکر یتضمن معجزه للشیطان أو کرامه له،إذ بتسمیته الولد باسمه عاش الولد خلافا للأبناء الآخرین.و إنّه لمدعاه

۱- ۱) مسند بن حنبل،وفقا لما وراه تفسیر المنار،ج ۹،ص ۵۲۲.

للأسف الشديد أن ينساق كثير من المفسّرين تحت وطأه هذا الحديث المختلق و أضرابه،فيجعلون مثل هذه الأباطيل تفسيرا للآى.و على كل حال،فإنّ مثل هذا الكلام لما كان مخالفا للقرآن،و مخالفا للعقل أيضا،فينبغى أن ينبذ فى سله المهملات.

و تعقيبا على هذا الأمر يردّ القرآن-بأسلوب بيّن متين-عقيده المشركين و أفكارهم مره أخرى،فيقول: أَ يُشْرِكُونَ مٰا لاٰ يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ .

و ليس هذا فحسب،فهم ضعاف وَ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ .

و الأوثان و الأصنام فى حاله لو ناديتموها لما استجابت لكم وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدىٰ لاٰ يَتَّبِعُوكُمْ .

فمن كان بهذه المنزله و بهذا المستوى أنّى له بهدايه الآخرين! و يحتمل بعض المفسّرين احتمالا آخر فى تفسير الآيه،و هو أنّ الضمير «هم»يرجع إلى المشركين لا إلى الأصنام،أى أنّهم إلى درجه من الإصرار و العناد بحيث لا يسمعونكم و لا يذعنون لكم و لا يسلمون.

كما و يحتمل أنّ المراد هو أنّكم لو طلبتم منهم الهدايه،فلن يتحقق دعاؤكم و طلبكم على كل حال سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰامِتُونَ .

و طبقا للاحتمال الثّانى يكون معنى الجمله على النحو التالى:سواء عليكم أ طلبتم من الأصنام شيئا،أو لم تطلبوا ففى الحالين لا أثر لها،لأنّ لا تقدر على أداء أى شىء أو التأثير فى شىء.

يقول الفخر الرازى فى تفسيره:إذا المشركين إذا ابتلوا بمشكله تضرعوا إلى الأصنام و دعوها،و إذا لم يصبهم أذى أو سوء كانوا يسكتون عنها،فالقرآن يخاطبهم بالقول سَوٰاءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰامِتُونَ .

الآيتان [سوره الأعراف (۷): الآيات ۱۹۴ الی ۱۹۵]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ عِبٰادٌ أَمْثٰالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ (۱۹۴) أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ آذٰانٌ يَسْمَعُونَ بِهٰا قُلِ اُدْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاٰ تُنْظِرُونِ (۱۹۵)

التّفسير

هاتـان الآيتـان-محل البحث-تواصـلان الكلام على التوحيـد و مكافحه الشـرك،و تكملان ما عالجته الآيات السابقه،فتعـدّان كل شرك فی العبـاده عملاـ سـفيها و بعيـدا عن المنطق و العقـل! و التـدقيق فی مضـمون هـاتين الآـيتين يكشف أنّهمـا تبطلان منطق المشـركين بـأربعه أدله،و السرّ فی كون القرآن يعالـج إبطـال الشـرك باسـتدلالات مختلفه،و كـل حين يـأتی ببرهـان مبين،لأـن الشرك ألدّ أعداء الإيمان،و أكبر عدوّ لسعاده الفرد و المجتمع.

و لما كانت للشرك جذور مختلفه و أفانين متعدده فی أفكار البشر،فإنّ

القرآن يستغل كل فرصه لقطع جذوره الخبيثه...و أفانينه التى تهدد المجتمع الإنسانى.

فتقول الآيه الأولى من هاتين الآيتين: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ عِبٰادٌ أَمْثٰالُكُمْ .

فبناء على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشىء مثله،و أن يمدّ يد الضراعه و الحاجه إليه،و أن يجعل مقدّراته و مصيره تحت يده! و بتعبير آخر:إنّ مفهوم هذه الآيه هو أنّكم-أيّها المشركون-لو أمعنتم النظر لرأيتم معبوداتكم ذات أجسام و أسيره المكان و الزمان،و تحكمها قوانين الطبيعه،و هى محدوده من حيث الحياه و العمر و الإمكانات الأخرى.و خلاصه الأمر:ليس لها امتياز عليكم،و إنّما جعلتم لها امتيازا عليكم بتصوراتكم و تخيلاتكم! ثمّ إنّ كلمه«عباد»جمع«عبد»و يطلق هذا اللفظ على الموجود الحى،مع أن الآيه استعملته فى الأصنام،فكانت لذلك تفاسير متعدده...

التّفسير الأوّل:أنّه من المحتمل أن تشير الآيه إلى المعبودين من جنس الإنسان أو المخلوقات الأخرى،كالمسيح إذ عبده النصارى،و الملائكه إذ عبدتها جماعه من المشركين العرب.

و التّفسير الثانى:أنّ الآيه تنزلت و حكت ما توهمه المشركين فى الأصنام بأنّ لها القدره،فكانوا يكلمونها و يتضرعون إليها،فالآيه-محل البحث- تخاطبهم بأنّه على فرض أنّ للأصنام عقلا و شعورا،فهى لا تعدو أن تكون عبادا أمثالكم.

التّفسير الثّالث:أنّ العبد فى اللغه يطلق أحيانا على الموجود الذى يرزح تحت نير الآخر و يخضع له،حتى لو لم يكن له عقل و شعور،و من هذا القبيل أنّ العرب يطلقون على الطريق المطرّق بالذهاب و الإياب أنّه«معبّد».

ثمّ تضيف الآيه:أنّكم لو تزعمون بأنّ لهم عقلا و شعورا فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكَمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ .

و هذا هو الدليل الثّانى على إبطال منطق المشركين،و هو كون الأصنام لا تستطيع أن تعمل شيئا،و هى ساكته عاجزه عن الإجابه و الردّ...

و فى البيان الثّالث تبرهن الآيه على أنّ الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين،فتساءل مستنكره: أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ (۱) بِهٰا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهٰا أَمْ لَهُمْ آذٰانٌ يَسْمَعُونَ بِهٰا .

و هكذا فإنّ الأصنام من الضعه بمكان حتى أنّها بحاجه إلى من يدافع عنها و يحامى عنها،فليس لها أعين تبصر بها،و لا آذان تسمع بها،و لا أرجل تمشى بها، و لا أى إحساس آخر.و أخيرا فإنّ الآيه تبيّن ضمن تعبير هو فى حكم الدليل الرّابع مخاطبه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائله: قُلِ ادْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاٰ تُنْظِرُونِ .

أى إذا كنت كاذبا،و أنّ الأصنام مقربات عند اللّه،و قد تجرأت عليها فلم لا تعضب علىّ؟و ليس لها و لا لكم و لمكائدكم أى تأثير على.فبناء على ذلك فاعلموا أنّ هذه الأصنام موجودات غير مؤثره،و إنّما تصوراتكم هى التى أضفت عليها ذلك التوهّم!.

۱- ۱) يبطشون فعل مشتق من«البطش»على زنه«العرش»و معناه الاستيلاء بالشدّه و الصوله و القدره!...

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩٦ الى ١٩٨]

اشاره

إِنَّ وَلِيِّيَ اَللّٰهُ اَلَّذِي نَزَّلَ اَلْكِتٰابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى اَلصّٰالِحِينَ (١٩۶) وَ اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى اَلْهُدىٰ لاٰ يَسْمَعُوا وَ تَرٰاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ (١٩٨)

التّفسير

اشاره

المعبودات التى لا قيمه لها:

تعقيبا على الآيه المتقدمه التى كانت تخاطب المشركين بالقول(على لسان النّبى): اُدْعُوا شُرَكٰاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاٰ تُنْظِرُونِ منبهه إياهم أنّهم لا يستطيعون أن يصيبوا النّبى بأدنى ضرر،فإنّ الآيه الأولى-من الآيات-محل البحث-تذكر الدليل على ذلك فتقول: إِنَّ وَلِيِّيَ اللّٰهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتٰابَ .

و ليس وليى وحدى فحسب،بل هو ولى جميع الصالحين وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصّٰالِحِينَ .

ثمّ يؤكّد القرآن بالآيه التّاليه على بطلان عباده الأوثان مرّه أخرى فيقول:

وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لاٰ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

بـل أبعـد من ذلـك وَ إِنْ تَـدْعُوهُمْ إِلَى الْهُـدىٰ لاٰ يَسْـمَعُوا و بالغرم من العيون المصـنوعه لهم التى يخيل إلى الرائى أنّها تنظر: وَ تَرٰاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ .

و كمـا أشـرنا سابقـا أيضـا،فالآيه-محل البحث-يحتمل أن تشير إلى الأصـنام كما يحتمل أن تشير إلى المشـركين.ففى الصوره الأولى مفهومهـا-كما قـدمنا بيانه -أمّا فى الصوره الثّانيه فيكون مفهومها:أنّه لو دعا المسـلمون هؤلاء المشـركين المعانـدين إلى طريق التوحيد الصحيح ما قبلوا ذلك منهم،و هم ينظرون إليك و يرون دلائل الصدق و الحق فيك،إلاّ أنّهم لا يبصرون الحقائق! و مضمون الآيتين الأخيرتين ورد فى الآيات السابقه أيضا،و هذا التكرار إنّما هو لمزيد التأكيد على مكافحه الشرك و قلع جذوره التى نفذت فى أفكار المشركين و أرواحهم عن طريق التلقين و التقرير المتكرر.

ص :٣٣٧

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٣]

اشاره

خُذِ اَلْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ اَلْجاهِلِينَ (١٩٩) وَ إِمّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ اَلشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ اَلَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ اَلشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي اَلغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَهٍ قالُوا لَوْ لا اِجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)

التّفسير

اشاره

وساوس الشّيطان:

فی هذه الآیات یبیّن القرآن شروط التبلیغ و قیاده الناس و إمامتهم بأسلوب أخّاذ رائق وجیز، و هی فی الوقت ذاته تتناسب و الآیات المتقدمه التی کانت تشیر إلی مسأله تبلیغ المشرکین أیضا.

ففی الآیه الأولی-من الآیات محل البحث-إشاره إلی ثلاث من وظائف القاده و المبلغین،فتوجه الخطاب للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتقول فی البدایه خُذِ الْعَفْوَ .

العفو:قد يأتى بمعنى الزياده فى الشىء أحيانا،كما قد يأتى بمعنى الحدّ الوسط،كما يأتى بمعنى قبول العذر و الصفح عن المخطئين و المسيئين،و تأتى أحيانا بمعنى استسهال الأمور.

و القرائن الموجوده فى الآيه تدلّ على أنّ الآيه محل البحث لا علاقه لها بالمسائل الماليه و أخذ المقدار الإضافى من أموال الناس،كما ذهب إليه بعض المفسّرين،بل مفهومها المناسب هو استسهال الأمور،و الصفح،و اختيار الحدّ الوسط (۱) .

و من البديهى أنّه لو كان القائد أو المبلغ شخصا فظا صعبا،فإنّه سيفقد نفوذه فى قلوب الناس و يتفرقون عنه،كما قال القرآن الكريم: وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (۲) .

ثمّ تعقيب الآيه بذكر الوظيفه الثّانيه للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التى يرتضيها العقل و يدعو إليها اللّه عزّ و جل قائله: وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .

و هى تشير إلى أنّ ترك الشدّه لا يعنى المجامله،بل هو أن يقول القائد أو المبلغ الحق،و يدعو الناس إلى الحق و لا يخفى شيئا.

أمّا الوظيفه الثّالثه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهى أن يتحمل الجاهلين،فتقول: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجٰاهِلِينَ .

فالقاده و المبلغون يواجهون فى مسيرهم أفرادا متعصّبين جهله يعانون من انحطاط فكرى و ثقافى و غير متخلقين بالأخلاق الكريمه،فيرشقونهم بالتهم، و يسيئون الظن بهم و يحاربونهم.

فطريق معالجه هذه المعضله لا يكون بمواجهه المشركين بالمثل،بل

۱- ۱) لمزيد من التوضيح يراجع الجزء الثّانى من التّفسير الأمثل فى هذا الصدد.

۲- ۲) آل عمران،۱۵۹.

الطريق السليم هو التحمل و الجلد و عدم الاكترات بمثل هذه الأمور.و التجربه خير دليل على أنّ هذا الأسلوب هو الأمثل لمعالجه الجهله،و إطفاء النائره،و القضاء على الحسد و التعصب،و ما إلى ذلك.

و فى الآيه التّاليه دستور آخر،و هو فى الحقيقه يمثل الوظيفه الرّابعه التى ينبغى على القاده و المبلغين أن يتحملوها،و هى أن لا يدعوا سبيلاً للشيطان إليهم، سواء كان متمثلا بالمال أم الجاه أم المقام و ما إلى ذلك،و أن يردعوا الشياطين أو المتشيطنين و وساوسهم،لئلا ينحرفوا عن أهدافهم.

فالقرآن يقول: وَ إِمّا يَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) .

أجمع آيه أخلاقيه...:

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا آيه فى القرآن أجمع فى«المسائل» الأخلاقيه من هذه الآيه» (٢) «أى الآيه الأولى من الآيات محل البحث».

قال بعض الحكماء فى تفسير هذا الحديث:إنّ أصول الفضائل الأخلاقيه وفقا لأصول القوى الإنسانيه«العقل»و«الغضب»و«الشّهوه»تتلخص فى ثلاثه أقسام:

١-الفضائل العقليه:و تدعى بالحكمه،و تتلخص بقوله تعالى: وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ .

٢-و الفضائل النّفسيه فى مواجهه الطغيان و الشهوه،و تدعى بالعفه، و تتلخص ب«خذ العفو».

٣-و التسلط على القوه الغضبيه،و تدعى بالشجاعه،و تتلخص فى قوله

١- ١) ينزغ مأخوذ من ماده«النزغ»على زنه«النزع»و معناه الدخول فى الأمر لإفساده أو الإثاره ضده!...

٢- ٢) مجمع البيان،ذيل الآيه.

تعالی وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِینَ .

و سواء کان الحدیث الشریف یدلّ علی ما فسّره المفسّرون و أشرنا إلیه آنفا، أو کما عبرنا عنه بشروط القائد أو المبلغ،فهو یبیّن هذه الحقیقه،و هی أنّ هذه الآیه القصیره الوجیزه تتضمّن منهجا جامعا واسعا کلیّا فی المجالات الأخلاقیه و الاجتماعیه،بحیث یمکننا أن نجد فیها جمیع المناهج الإیجابیه البناءه و الفضائل الإنسانیه.و کما یقول بعض المفسّرین:إنّ إعجاز القرآن بالنسبه إلی الإیجاز فی المبنی،و السعه فی المعنی،یتجلی فی الآیه محل البحث تماما.

و ینبغی الالتفات إلی أنّ الآیه و إن کانت تخاطب النّبی نفسه إلاّ أنّها تشمل جمیع الأمّه و المبلغین و القاده.

کما ینبغی الالتفات إلی أنّ الآیات محل البحث لیس فیها ما یخالف مقام العصمه أیضا،لأنّ الأنبیاء و المعصومین ینبغی أن یستعیذوا باللّه من وساوس الشیطان،کما أنّ أیّ أحد لا یستغنی عن لطف اللّه و رعایته و الاستعاذه به من وساوس الشیاطین،حتی المعصومین.

و

جاء فی بعض الرّوایات أنّه لما نزلت الآیه خُذِ الْعَفْوَ... سأل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جبرئیل عن ذلک فقال جبرئیل:لا أدری،حتی أسأل العالم ثم أتاه فقال:

«یا محمّد،إنّ اللّه یأمرک أن تعفو عمن ظلمک،و تعطی من حرمک،و تصل من قطعک» (1) .

و

جاء فی حدیث آخر أنّه لما نزلت آیه خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِینَ قال النّبی:کیف یا ربّ و الغضب؟فنزل قوله وَ إِمّٰا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطٰانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ إِنَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (2) .

و ینبغی الإشاره إلی أنّ الآیه الثّانیه هنا جاءت فی سوره فصلت الآیه(۳۶)

۱- ۱) مجمع البیان،ذیل الآیه محل البحث.

۲- ۲) روی ذلک صاحب المنار قائلا:روی عن جدنا الإمام الصادق رضی اللّه عنه فی ج ۹،ص ۵۳۸.

بتفاوت يسير بين الآيتين،إذ ورد التعبير مكان قوله تعالى: إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ و فى الآيه التّاليه بيان للانتصار على وساوس الشيطان بهذا النحو إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ .أى يتذكرون ما أنعم اللّه عليهم،و يفكرون فى سوء عاقبه الذنب و عذاب الآخره فيتّضح لهم بذلك طريق الحق.

و الطّائف:هو الذى يطوف و يدور حول الشىء،فكأن وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان و روحه كالطائف حول الشىء ليجد منفذا إليه،فإذا تذكر الإنسان فى مثل هذه الحاله ربّه،و استعاذ من وساوس الشيطان و عاقبه أمره، أبعدها عنه.و إلاّ أذعن لها و انقاد وراء الشيطان.

و أساسا فإنّ كل إنسان فى آيه مرحله من الإيمان،أو أى عمر كان،يبتلى بوساوس الشياطين.و ربّما أحس أحيانا أن فى داخله قوه مهيمنه تدفعه نحو الذنب و تدعوه إليه،و لا شك أن مثل هذه الحاله من الوساوس فى مرحله الشباب أكثر منها فى أيه مرحله أخرى،و لا سيما إذا كانت البيئه أو المحيط كما هو فى العصر الحاضر من التحلّل و الحريّه،لا الحريه بمعناها الحقيقى،بل بما يذهب إليه الحمقى«من الانسلاخ من كل قيد و التزام أخلاقى أو اجتماعى أو دينى»فتزداد الوساوس الشيطانيه عند الشباب.

و طريق النجاه الوحيد من هذا التلوّث و التحلل فى مثل هذه الظروف،هو تقويه رصيد التقوى أولا،كما أشارت إليه الآيه إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا... ثمّ المراقبه و التوجه نحو النفس،و الالتجاء إلى اللّه و تذكر ألطافه و نعمه و عقابه الصارم للمذنب...

و هناك إشارات كثيره فى الرّوايات الإسلاميّه إلى أثر ذكر اللّه العميق فى معالجه الوساوس الشيطانيه.حتى أن الكثير من المؤمنين و العلماء و ذوى المنزله

كانوا يحسون بالخطر عند مواجهه وساوس الشيطان،و كانوا يحاربونها «بالمراقبه»المذكوره فى كتب علم الأخلاق بالتفصيل.

و الوساوس الشيطانيه مثلها مثل الجراثيم الضاره التى تبحث عن البنيه الضعيفه لتنفذ فيها.إلاّ أنّ الأجسام القويه تطرد هذه الجرائم فلا تؤثر فيها.

و جمله فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ إشاره إلى حقيقه أن الوساوس الشيطانيه تلقى حجابا على البصيره«الباطنيه»للإنسان،حتى أنّه لا يعرف العدوّ من الصديق، و لا الخير من الشر.إلاّ أن ذكر اللّه يكشف الحجب و يزيد الإنسان بصيره و هدى، و يمنحه القدره على معرفه الحقائق و الواقعيات،المعرفه التى تخلّصه من مخالب الوساوس الشيطانيه.

و ملخص القول:أننا لاحظنا فى الآيه السابقه كيف ينجو المتقون من نزغ الشيطان و وسوسته بذكر اللّه،إلاّ أن الآثمين إخوه الشياطين يبتلون بمزيد الوساوس فلا ينسلخون عنها، كما تعبّر الآيه التاليه عن ذلك قائله: وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ .

«الإخوان»كنايه عن الشياطين،و الضمير«هم»يعود على المشركين و الآثمين،كما نقرأ هذا المصطلح فى الآيه(٢٧)من سوره الإسراء إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ .

و«يمدونهم»فعل مأخوذ من الإمداد و معناه الإعانه و الإدامه، أى أنّهم يسوقونهم فى هذا الطريق دائما.

و جمله ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ تعنى أنّ الشياطين لا يألون جهدا فى إضلال المشركين و الآثمين.

ثمّ تذكر الآيه التّاليه حال جماعه من المشركين و المذنبين البعيدين عن المنطق،فتقول:إنّهم يكذبونك-يا رسول اللّه-عند ما تتلوا عليهم آيات القرآن، و لكن عند ما لا تأتيهم بآيه،أو يتأخر الوحى يتساءلون عن سبب ذلك: وَ إِذا لَمْ

تَأْتِهِمْ بِآيَهٍ قٰالُوا لَوْ لاٰ اجْتَبَيْتَهٰا

(۱)

و لکن قل لهم اننی لا اعمل و لا أقول إلّا بما یوحی اللّه الیّ قُلْ إِنَّمٰا أَتَّبِعُ مٰا یُوحیٰ إِلَیَّ مِنْ رَبِّی هٰذٰا بَصٰائِرُ مِنْ رَبِّکُمْ وَ هُدیً وَ رَحْمَهٌ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ .

و یتّضح من هذه الآیه-ضمنا-أنّ جمیع أقوال النّبی و أفعالیه مصدرها وحی السماء،و من قال بغیر ذلک فهو بعید عن القرآن.

۱- ۱) الاجتباء مأخوذ من الجبایه،و أصلها جمع الماء فی الحوض و نحوه،و لذلک یسمّی حوض الماء ب«الجابیه،و جمع الخراج یسمّی جبایه أیضا.ثمّ توسعوا فی الاستعمال فأطلقوا علی جمع الأشیاء و انتخابها و اختیار ما یراد منها اجتباء.فجمله«لولا اجتبیتها»تعنی لو لا اخترتها.

الآيات [سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٠۴ الی ٢٠۶]

اشاره

وَ إِذٰا قُرِئَ اَلْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠۴) وَ اُذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ اَلْجَهْرِ مِنَ اَلْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ اَلْآصٰالِ وَ لاٰ تَكُنْ مِنَ اَلْغٰافِلِينَ (٢٠۵) إِنَّ اَلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠۶)

التّفسير

وَ إِذٰا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا

:

لقد بدأت هذه السوره(سوره الأعراف)ببيان عظمه القرآن،و تنتهى بالآيات-محل البحث-التى تتكلم عن القرآن أيضا.

و بالرغم من أنّ المفسّرين ذكروا أسبابا لنزول الآيه الأولى-من هذه الآيات محل البحث-منها مثلا ما روى عن ابن عباس و جماعه آخرين،أنّ المسلمين فى بادئ أمرهم كانوا يتكلمون فى الصلاه،و ربّما ورد شخص(جديد)أثناء الصلاه فيسأل المصلين و هم مشغولون بصلاتهم:كم ركعه صليتم؟فيجيبونه:كذا ركعه.فنزلت الآيه و منعتهم أو نهتهم عن ذلك.

ص:٣۴۵

كما نقل الزّهرى سببا آخر لنزول الآيه،و هو أنّه لما كان النّبى يقرأ القرآن، كان شاب من الأنصار يقرأ معه القرآن بصورت مرتفع،فالآيه نزلت و نهت عن ذلك.

و أيّا كان شأن نزول هذه الآيه،فهى تقول: وَ إِذٰا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ و الفعل«انصتوا»مأخوذ من ماده«الإنصات»و معناه:السكوت المشفوع بالإصغاء و الاستماع.

و قد اختلف المفسّرون فى أن الإنصات و السكوت هنا فى الآيه،هل هو عند قراءه القرآن فى جميع الموارد؟أم هو منحصر وقت الصلاه و عند قراءه إمام الجماعه؟أم هو عند ما يقرأ إمام الجمعه-فى خطبه الصلاه-القرآن؟ كما أنّ هناك أحاديث شتى فى هذا الصدد فى كتب الفريقين فى تفسير هذه الآيه.و الذى يستفاد من ظاهر الآيه أن هذا الحكم عام غير مختص بحال ما و لا وقت معيّن.إلاّ أنّ الرّوايات المتعدده الوارده عن الأئمّه الطاهرين،بالإضافه إلى إجماع العلماء و اتفاقهم على عدم وجوب الاستماع عند قراءه القرآن فى أيه حال،يستدل من ذلك على أن هذا الحكم بصوره كليّه حكم استحبابى،أى ينبغى إن قرئ القرآن-حيثما كان،و كيف كان-أن يستمع الآخرون و ينصتوا احتراما للقرآن،لأنّ القرآن ليس كتاب قراءه فحسب،بل هو كتاب فهم و إدراك،ثمّ هو كتاب عمل أيضا.

و هذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجه أنّ بعض الرّوايات عبّرت عنه بالوجوب.

إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «يجب الإنصات للقرآن فى الصّلاه و فى

غيرها و إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات و الاستماع» (۱) .

حتی أنّه یستفاد من بعض الرّوایات أنّ لو کان إمام الجماعه مشغولا بالقراءه فی الصلاه،و قرأ شخص آخر آیه من القرآن فیستحب للإمام السکوت حتی ینهی قراءه الآیه،ثمّ یکمل الإمام قراءته.حیث

ورد عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّ أمیر المؤمنین علیّا علیه السلام کان مشغولا بصلاه الصبح،و کان ابن الکوّا-ذلک المنافق الفظّ القلب-خلف الإمام مشغولا بالصلاه،فقرأ فجأه وَ لَقَدْ أُوحِیَ إِلَیْکَ وَ إِلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکَ لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ وَ لَتَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ و کان هدفه من قراءه الآیه أن یعترض علی الإمام علیّ مکنّیا عن قبول الحکم فی صفین-کما احتملوا ذلک-لکن الإمام سکت احتراما للقرآن حتی ینتهی ابن الکوّا من قراءه الآیه،ثمّ رجع الإمام إلی قراءته فأعاد ابن الکوا عمله مرّه ثانیه، فسکت الإمام أیضا،فکرر ابن الکوّا القراءه ثالثه فسکت علی علیه السلام أیضا،ثمّ تلا قوله تعالی: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَ لا یَسْتَخِفَّنَّکَ الَّذِینَ لا یُوقِنُونَ و هو یشیر إلی أن عذاب اللّه و عقابه الألیم فی انتظار المنافقین و غیر المؤمنین،و ینبغی أن یتحمل الإنسان أذاهم،ثمّ أن الإمام أکمل السوره و هوی إلی الرکوع (۲) .

و یستفاد من مجمع ما تقدّم،و لا سیما من البحث آنف الذکر،أن الاستماع و السکوت عند قراءه آیات القرآن أمر حسن جدّا إلاّ أنّه بشکل عام غیر واجب...و لعلّ جمله لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ إضافه إلی الرّوایات و الإجماع،تشیر إلی استحباب هذا الحکم أیضا.

و المورد الوحید الذی یجب فیه السکوت أو یکون حکم السکوت فیه واجبا،هو فی صلاه الجماعه،إذ علی المأموم أن یسکت و یستمع لقراءه الإمام، حتی أنّ جمعا من الفقهاء قالوا:إنّ هذه الآیه تدل علی سقوط الحمد و السوره من

۱- ۱) تفسیر البرهان،ج ۲،ص ۵۷.

۲- ۲) تفسیر البرهان.

قبل المأموم«عند صلاه الجماعه».

و من جمله الرّوايات الداله على هذا الحكم ما

روى من حديث عن الإمام الباقر عليه السلام «و إذا قرئ القرآن فى الفريضه خلف الإمام فاستمعوا له و انصتوا لعلّكم ترحمون» . (1)

و أمّا استعمال«لعل»فى هذه الجمله،فهو-كما أشرنا سابقا-لغرض أن تشملكم رحمه اللّه،فمجرّد السكوت غير كاف،بل توجد أمور أخرى منها العمل بالآى أيضا.

و لا بأس أن نذكر الملاحظه التى بيّنها الفقيه المعروف الفاضل المقداد السيورى فى كتابه«كنز العرفان»إذ فسّر الآيه تفسيرا آخر فقال:إنّ المراد من الآيه هو الإصغاء للآيات و إدراك مفاهيمها و الإذعان لإعجازها.

و لعل هذا التّفسير كان بسبب أنّ الآيه السابقه كانت تتكلم عن المشركين،إذ كانوا يتذرعون بحجج واهيه فى شأن نزول القرآن،فالقرآن يقول لهم:فاستمعوا و انصتوا لعلكم تعرفون الحق (2) .

و ليس هناك مانع من أن نعتبر مفهوم الآيه واسعا بحيث يشمل جميع الكفار و المسلمين،فغير المسلمين عليه أن يستمع و ينصت للقرآن و يكفر فيه حتى يؤمن فينال رحمه ربّه،و المسلم عليه أن يستمع و يدرك مفهوم الآى و يعمل به لينال رحمه ربّه،لأنّ القرآن كتاب إيمان و علم و عمل لجميع،لا لطائفه خاصّه أو فريق معين.

و فى الآيه التّاليه إكمالا للأمر السابق يخاطب القرآن النّبى الكريم-و هذا الحكم كلى و عام أيضا و إن كان الخطاب موجها للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما هو الحال فى سائر آيات القرآن الأخرى و أحكامها-إذ يقول سبحانه فى كتابه:

۱- ۱) تفسير البرهان،ج ۲،ص ۵۷.

۲- ۲) كنز العرفان،ج ۱،ص ۱۹۵.

وَ اذْکُرْ رَبَّکَ فِی نَفْسِکَ تَضَرُّعاً وَ خِیفَهً

(۱)

.

ثمّ یضیف قائلا: وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصٰالِ .

[و الآصال:جمع الأصیل،و معناه قبیل المغرب أو عند الغروب.]

وَ لاٰ تَکُنْ مِنَ الْغٰافِلِینَ .

فذکر اللّه فی کل حال و فی کل وقت،صباحا و مساء،مدعاه لإیقاظ القلوب و جلائها من الدرن،و إبعاد الغفله عن الإنسان.و مثله مثل مزنه الربیع،إذا نزلت أمرعت القلوب بأزهار التوجه و الإحساس بالمسؤولیه و البصیره،و کل عمل إیجابی بنّاء!...

ثمّ تختتم هـذه الآیه سوره الأعراف بهذه العباره،و هی أنّکم لسـتم المکلّفون بذکر اللّه من یذکر اللّه لیس هو أنتم فحسب،بل إِنَّ الَّذِینَ عِنْدَ رَبِّکَ لاٰ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبٰادَتِهِ وَ یُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ یَسْجُدُونَ .

و التعبیر ب عِنْدَ رَبِّکَ لا یعنی القرب المکانی،لأنّ اللّه لیس له مکان خاص،بل هو إشاره إلی القرب المقامی،أی أنّ الملائکه و غیرهم من المقربین علی رغم مقامهم و منزلتهم عند اللّه،فهم لا یقصرون فی التسبیح و الذکر للّه و السجود له.

و السجده عند تلاوه هذه الآیه مستحبه،إلاّ أنّ بعض أهل السنه کأصحاب أبی حنیفه و أتباعه یقولون بوجوبها.

ربّنـا نور قلوبنـا بنور ذکرک،ذلک النور الـذی یفتـح لنا طریقنا نحو الحقیقه، و نسـتمد منه المـدد فی نصـره رایه الحق و مکافحه الظالمین و أن تدرک مسئولینا و نؤدی رسالتنا-آمین.

۱- ۱) التضـرّع مأخوذ من الضـرع و هو الثـدی،و الفعل تضـرع یطلق علی من یتحلب اللبن بأصابعه،ثمّ توسع فی هـذا الاسـتعمال فأطلق علی إظهار الخضوع و التواضع.

سوره الأنفال

اشاره

و هی مدینه و عدد آیاتها خمس و سبعون آیه

ص :۳۵۱

نظره خاطفه إلى محتويات هذه السوره

فی الآیات الخمس و السبعین التی تتکون منها سوره الأنفال أثیرت مباحث مهمّه جدّا.

ففی مستهلها إشاره إلى قسم مهم من المسائل المالیه من جملتها الأنفال و الغنائم التی یعدّ کلّ منهما دعامه لبیت المال.کما تضمّنت هذه السوره مباحث أخرى منها:

صفات المؤمنین الصادقین و ما یمتازون به،قصّه معرکه بدر،و هی أوّل مواجهه مسلحه بین المسلمین و أعدائهم،و ما تضمّنت من أحداث عجیبه تلهم العبر.

بعض أحکام الجهاد و وظائف المسلمین إزاء هجوم العدوّ المتواصل.

ما جرى للنّبی صلّى اللّه علیه و آله و سلّم فی لیلته التاریخیه«لیله المبیت».

حال المشرکین قبل الإسلام و خرافاتهم.

ضعف المسلمین و عجزهم بادئ الأمر ثمّ تقویتهم ببرکه الإسلام.

حکم الخمس و کیفیه تقسیمه.

وجوب الاستعداد«العسکری و السیاسی و الاجتماعی»للجهاد فی کل زمان و مکان.

رجحان قوى المسلمین و المعنویه على عدوهم بالرغم من قلّه عددهم

ظاهرا.

حكم أسرى الحرب و كيفيه معاملتهم.

المهاجرون و الذين لم يهاجروا.

مواجهه المنافقين و طريقه التعرّف عليهم.و أخيرا نجد فى هذه السوره سلسله مسائل أخرى أخلاقيه و اجتماعيه بنّاءه.

فلا غرابه أن نقرأ بعض الرّوايات الوارده فى شأن هذه السوره و فضيلتها، كالرّوايه الوارده

عن الإمام الصادق إذ تقول مثلا:

«من قرأ سوره الأنفال و براءه فى كل شهر لم يدخله نفاق أبدا،و كان من شيعه أمير المؤمنين حقّا،و يأكل يوم القيامه من موائد الجنّه معهم حتى يفرغ الناس من الحساب» (۱) .

و كما أشرنا من قبل فإنّ فضائل سور القرآن و الثواب العظيم الذى وعد به من يتلو هذه السور،كل ذلك لا يتأتى بمجرّد قراءه الألفاظ،بل القراءه مقدمه للتفكّر، و التفكّر وسيله للفهم،و الفهم مقدّمه للعمل.و بما أنّ سوره الأنفال شرحت كيفيه البراءه من صفات المنافقين،و كذلك ذكرت صفات المؤمنين الصادقين حقّا،فمن قرأها و تمثلها فى حياته لم يدخله نفاق أبدا.

و كذلك من قرأ صفات المجاهدين فى هاتين السورتين،و جوانب من التّضحيات الوارده عن أمير المجاهدين على عليه السلام و تمثلها،كان من شيعه أمير المؤمنين عليه السلام حقا.

۱- ۱) تفسير مجمع البيان،ذيل الآيه.

الآیه [سوره الأنفال (٨): آیه ١]

اشاره

بِسْمِ اَللّٰهِ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِیمِ یَسْئَلُونَکَ عَنِ اَلْأَنْفٰالِ قُلِ اَلْأَنْفٰالُ لِلّٰهِ وَ اَلرَّسُولِ فَاتَّقُوا اَللّٰهَ وَ أَصْلِحُوا ذٰاتَ بَیْنِکُمْ وَ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ (١)

سبب النّزول

ورد عن ابن عباس أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عیّن فی یوم معرکه بدر جوائز للمقاتلین المسلمین ترغیبا،کأنّ یقول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مثلا:من جاءنی بفلان من الأعداء أسیرا فله عندی کذا«جائزه».

و کان هذا الترغیب-إضافه إلی ایقاده روح الإیمان و الجهاد فی وجودهم-مدعاه أن یثب المقاتلون الفتیه فی تسابق«افتخاری»نحو الهدف.

إلاّ أنّ الکهول و الشیوخ ظلّوا ثابتین تحت ظلال الرایات،فلمّا انتهت معرکه بدر أسرع المقاتلون الفتیان لأخذ الجوائز من النّبی،إلاّ أنّ الشیوخ و کبار السنّ قالوا:إنّ لنا نصیبا أیضا،لأنّنا کنّا سندا و ظهیرا لکم،و لو اشتدّ بکم الأمر لرجعتم إلینا حتما.و احتدم النقاش حینئذ بین رجلین من الأنصار فی شأن غنائم المعرکه.

فنزلت الآیه-محل البحث-و قالت بصراحه:إنّ الغنائم هی للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فله

أن يتصرّف فيها ما يشاء.فقسّمها النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین المسلمین بالتساوی،و أمر أن یصطلح الإخوه المسلمون فیما بینهم.

التّفسیر

اشاره

إنّ الآیه-محل البحث-کما قرأنا فی سبب النّزول،نزلت بعد معرکه بدر و تتکلم علی غنائم الحرب و تبیّن حکما إسلامیا واسعا بشکل عام،فتخاطب النّبی بالقول: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَ الرَّسُولِ! .

فبناء علی ذلک فَاتَّقُوا اللّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَیْنِکُمْ وَ أَطِیعُوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ أی أنّ الإیمان لیس بالکلام فحسب،بل هو الطاعه للّه و الرّسول دون قید أو شرط و فی جمیع مسائل الحیاه لا فی غنائم الحرب وحدها.

ما هی الأنفال؟

الأنفال فی الأصل مأخوذه من ماده«نفل»علی زنه«نفع»و معناها الزیاده، و إنما سمّیت الصلوات المستحبه نافله لأنّها زیاده علی الصلوات الواجبه، و کذلک یطلق علی الحفید نافله لأنّه زیاده فی الأبناء.

و یطلق لفظ«نوفل»علی من یهب المزید من العطاء.

و إنّما سمّیت غنائم الحرب أنفالا أیضا لأنّها کمیه من الأموال الإضافیه التی تبقی دون صاحب،و تقع فی أیدی المقاتلین دون أن یکون لها مالک خاص.أو لأنّ المقاتلین إنّما یحاربون للانتصار علی العدو لا للغنائم،فالغنیمه أو الغنائم موضوع إضافی یقع فی أیدیهم.

ص:۳۵۶

ملاحظات

١-بالرّغم من أنّ الآيه محل البحث نازله فى شأن غنائم الحرب،إلّا أنّ لمفهومها حكما كلّيا و عامّا،و هى تشمل جميع الأموال الإضافيه التى ليس لها مالك خاص.لهذا ورد فى الرّوايات عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأنفال لها مفهوم واسع،إذ نقرأ فى بعض الرّوايات المعتبره

عن الإمامين«الباقر و الصادق عليهما السّلام» ما يلى:

«إنّها ما أخذ من دار الحرب من غير قتال،كالذى انجلى عنها أهلها و هو المسمّى فيئا،و ميراث من لا وارث له،و قطائع الملوك إذا لم تكن مغصوبه و الآجام و بطون الأوديه و الموات،فإنّها للّه و لرسوله،و بعده لمن قام مقامه يصرفه حيث يشاء من مصالحه و مصالح عياله» (۱) و بالرّغم من أنّ الحديث-أنف الذكر-لم يتحدّث عن جميع غنائم الحرب، إلّا أنّنا نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «إنّ غنائم بدر كانت للنّبى خاصّه فقسمها بينهم تفضلا منه» (۲) .

و نستنتج ممّا ذكر آنفا أنّ مفهوم الأنفال أساسا لا يقتصر على غنائم الحرب فحسب،بل يشمل جميع الأموال التى ليس لها مالك خاص،و هذه الأموال جميعها للّه و للرسول و لمن يلى أمره و يخلفه،و بتعبير آخر:إنّ هذه الأموال للحكومه الإسلاميّه،و تصرف فى منافع المسلمين العامّه.

غايه ما فى الأمر أنّ قانون الإسلام فى غنائم الحرب و الأموال المنقوله التى تقع فى أيدى المقاتلين المسلمين عند القتال-كما سنفصل ذلك فى هذه السوره-مبنىّ على أن يعطى أربعه أخماسها-ترغيبا-للمقاتلين المسلمين و تعويضا عن أتعابهم،و يصرف خمسها فى المصارف التى أشارت إليها الآيه

ص: ۳۵۷

۱- ۱) كنز العرفان،ج ۱،ص ۲۵۴.

۲- ۲) المصدر السابق.

(۴۱)من هذه السوره.

و على هذا الأساس فإنّ الغنائم داخله فى مفهوم الأنفال العام،و هى فى الأصل ملك الحكومه الإسلاميه،و إعطاء أربعه أخماسها للمقاتلين عطيه و تفضل منها.

۲-قد يتصور أنّ الآيه محل البحث«بناء على شمولها غنائم الحرب أيضا» تتنافى و الآيه ۴۱ من هذه السوره التى تقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ و سائر المصارف.لأنّ مفهومها أنّ أربعه الأخماس الباقيه هى للمقاتلين المسلمين.

إلاّ أنّه مع ملاحظه ما ذكرناه آنفا يتّضح أنّ غنائم الحرب فى الأصل كلها للّه و للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إعطاء أربعه أخماسها للمقاتلين نوع من التفضل و الهديّه، و بتعبير آخر:إنّ الحكومه الإسلاميه تهب أربعه الأخماس من حقها إلى المجاهدين،فلا يبقى عندئذ أى تناف بين الآيتين.

و يتّضح أيضا أن آيه الخمس لا تنسخ أيه الأنفال،-كما تصوّر ذلك بعض المفسّرين-بل كلّ منهما باق على قوّته! ۳-كما قرأنا فى شأن النّزول آنفا،أنّ مشاجره وقعت بين بعض الأنصار فى شأن غنائم الحرب،و قطعا لهذه المشاجره فقد نفت الآيه أن تكون الغنائم لغير اللّه و الرّسول ثمّ أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

و أساسا فإنّ إصلاح ذات البين و إيجاد التفاهم و قلع الكدر و البغضاء من صدور المسلمين،و تبديل كل ذلك بالمحبّه،يعدّ من أهم الأغراض الإسلاميه.

و كلمه«ذات»تعنى الخلقه و البنيه و أساس الشىء،و البين يعنى حاله الارتباط و العلاقه بين شخصين أو شيئين.فبناء على هذا فإنّ إصلاح ذات البين يعنى إصلاح أساس الارتباطات،و تقويه العلاقات و تحكيمها،و إزاله عوامل التفرقه و النفاق.

و قد أولت التعاليم الإسلاميه عنايه فائقه لهذا الموضوع حتى عدته من أفضل العبادات.

يقول أمير المؤمنين على عليه السلام فى آخر وصاياه-عند ما عممه ابن ملجم بالسيف-لولديه«إنّى سمعت جدّكما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:إصلاح ذات البين أفضل من عامّه الصلاه و الصيام» (۱) .

و

جاء عن الإمام الصادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كتاب الكافى أنّه قال: «صدقه يحبّها اللّه إصلاح بين النّاس إذا تفاسدوا،و تقارب بينهم إذا تباعدوا» (۲) .

كما

ورد عنه عليه السلام فى الكتاب آنف الذكر ذاته أنّه قال للمفصل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعه فافتدها من مالى» (۳) .

و لهذا نقرأ فى بعض الرّوايات عن أبى حنيفه سابق الحاجّ قال:مرّ بنا المفضّل و أنا و ختنى نتشاجر فى ميراث،فوقف علينا ساعه ثمّ قال لنا:تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائه درهم فدفعها إلينا من عنده حتّى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه،قال أمّا إنّها ليست من مالى و لكن أبو عبد اللّه عليه السلام أمرنى إذا تنازع رجلان من أصحابنا فى شيء أن أصلح بينهما و أفتديها من ماله،فهذا من مال أبى عبد اللّه عليه السلام (۴) .

و السبب فى كل هذا التأكيد فى المسائل الاجتماعيه يتجلى بقليل من التأمل،لأنّ عظمه الأمّه و قدرتها و عزّتها لا يمكن تحقيقه إلاّ فى ظل التفاهم و التعاون.فإذا لم يتمّ إصلاح ذات البين،و لم تطو الخلافات الصغيره و المشاجرات،تنفذ جذور العداوه و البغضاء فى القلوب تدريجا،و تتحول الأمّه

۱- ۱) نهج البلاغه.

۲- ۲) الحديثان ۱ و ۲ من أصول الكافى باب إصلاح بين الناس.

۳- ۳) المصدر السابق.

۴- ۴) المصدر السابق.

القویه المتحده إلی جماعات متفرقه متناحره،و تضعف أمام الأعداء و الحوادث، کما یحدق الخطر بالمسائل العبادیه فی مثل هذه الأمّه من صلاه و صیام،و حتی بحیثیه القرآن و(موجودیته).

و لذلک فقد أوجبت الشریعه الإسلامیه إصلاح ذات البین فی بعض مراحله، و جازت الإنفاق من بیت المال لتحقق هذا الأمر،و ندبت إلی ذلک فی مراحله الأخری التی لا تتعلق بمصیر المسلمین مباشره،و عدت ذلک مستحبا مؤکّدا...

ص:۳۶۰

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٢ الی ۴]

اشاره

إِنَّمَا اَلْمُؤْمِنُونَ اَلَّذِينَ إِذٰا ذُكِرَ اَللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) اَلَّذِينَ يُقِيمُونَ اَلصَّلاٰةَ وَ مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولٰئِكَ هُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجٰاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴)

التّفسیر

اشاره

خمس صفات خاصّه بالمؤمنین:

کان الکلام فی الآیه السابقه عن تقوی اللّه و طاعته و طاعه رسوله بعد المشاجره اللفظیه بین بعض المسلمین فی شأن الغنائم.

و إکمالا لهذا الموضوع فالآیات-محل البحث-تذکر صفات المؤمنین بحق فی عبارات موجزه غزیره المعنی.

فیشیر الذکر الحکیم فی هذه الآیات إلی خمس صفات بارزه فی المؤمنین:

ثلاث منها ذات جانب معنوی و روحانی و باطنی،و اثنتین منها لها جانب عملی

و خارجی...

فالثلاث الأولی عباره عن«الإحساس بالمسؤولیه»و«الإیمان» و«التوکل».

و الاثنتان الأخریان هما الارتباط باللّه،و الارتباط بخلق اللّه سبحانه.

فتقول الآیات أوّلا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذَا ذُکِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .

و«الوجل»حاله الخوف التی تنتاب الإنسان،و هو ناشئ عن أحد أمرین:

فقد ینشأ عند إدراک المسؤولیه و احتمال عدم القیام بالوظائف اللازمه التی ینبغی علی الإنسان أداؤها بأکمل وجه امتثالا لأمر اللّه تعالی.

و قد ینشأ عند إدراک عظمه مقام اللّه،و التوجه إلی وجوده المطلق الذی لا نهایه له،و مهابته التی لا حدّ لها.

و توضیح ذلک:قد یتفق للإنسان أن یمضی لرؤیه شخص عظیم هو-بحق- جدیر بالعظمه من جمیع الجوانب،فالإنسان الذی یمضی لرؤیته قد یقع تحت تأثیر ذلک المقام و تلک العظمه،بحیث یحس بنوع من الرهبه فی داخله و یضطرب قلبه حتی أنّه لو أراد الکلام لتعلثم، و قد ینسی ما أراد أن یقوله،حتی لو کان ذلک الشخص یحب هذا الإنسان و یحب الآخرین جمیعا و لم یصدر عنه ما یدعو إلی القلق.

فهذا الخوف و الاضطراب أو المهابه مصدرها عظمه ذلک الشخص،یقول القرآن الکریم فی هذا الصدد: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلی جَبَلٍ لَرَأَیْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْیَهِ اللّهِ (1) .

کما نقرأ فی آیه أخری من قوله تعالی: إِنَّما یَخْشَی اللّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ (2) .

و هکذا فإن العلاقه قائمه بین العلم و الخوف أیضا،و بناء علی ذلک فمن

1- 1) الحشر،21.

2- 2) فاطر،28.

الخطأ أن نعدّ أساس الخوف و الخشيه عدم أداء الوظائف المطلوبه فحسب.

ثمّ تبيّن الآيه الصفه الثّانيه للمؤمنين فتقول: وَ إِذٰا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيٰاتُهُ زٰادَتْهُمْ إِيمٰاناً .

إنّ النمو و التكامل من خصائص جميع الموجودات الحيه،فالموجودات الفاقد للنمو و التكامل إمّا أن يكون ميتا أو فى طريقه إلى الموت.و المؤمنون حقّا لهم إيمان حيّ ينمو غرسه يوما بعد يوم بسقيه من آيات اللّه،و تفتح أزهاره و براعمه،و يؤتى ثماره أكثر فأكثر،فهم ليسوا كالموتى من الجمود و عدم التحرک، ففى كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد و تكون صفاتهم مشرقه جديده...

و هذه الدّرجات مبهمه لم يعين مقدارها و ميزانها،و هذا الإبهام يشير إلى أنّها درجات كريمه عاليه.

و للمؤمنين إضافه لدرجاتهم رحمه من اللّه و مغفره و رزق كريم.

و الحق أنّنا-نحن المسلمين-الذين ندّعى الإسلام و قد نرى أنفسنا أولى فضل على الإسلام و القرآن،نتهم القرآن و الإسلام جهلا بأنّهما سبب التأخر و الانحطاط،و ترى لو أنّنا طبقنا فقط مضامين هذه الآيات محل البحث على أنفسنا و التى تمثل صفات المؤمنين بحق،و لم نتكل على هذا و ذاک،و أن نطوى كل يوم مرحله جديده من الإيمان و المعرفه،و أن نحس دائما بالمسؤوليه لتقويه علاقتنا باللّه و بعباده فننفق ما رزقنا اللّه فى سبيل تقدم المجتمع،أ نكون بمثل ما نحن عليه اليوم؟! و ينبغى ذكر هذا الموضوع أيضا،و هو أنّ الإيمان ذو مراحل و درجات، فقد يكون ضعيفا فى بعض مراحله حتى أنّه لا يبدو منه أى شيء عملى مؤثر،أو يكون ملوّثا بكثير من السيّئات.إلاّ أنّ الإيمان المتين الراسخ من المحال أن يكون غير بناء أو غير مؤثر و ما يراه البعض من أن العمل ليس جزءا من الإيمان، فلاقتصارهم على أدنى مراحل الإيمان.

الآيتان [سوره الأنفال (٨): الآيات ۵ الی ۶]

اشاره

كَمٰا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ لَكٰارِهُونَ (۵) يُجٰادِلُونَكَ فِي اَلْحَقِّ بَعْدَ مٰا تَبَيَّنَ كَأَنَّمٰا يُسٰاقُونَ إِلَى اَلْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۶)

التّفسير

قرأنا فی الآیه الأولی من هـذه السوره أنّ بعض المسـلمین من جدیدی العهد بالإسـلام،کانوا غیر راضـین عن کیفیه تقسـیم غنائم معرکه بدر(إلی حد ما).

ففی الآـیتین محل البحث یقول اللّه سبحانه لأولئک:هـذه لیست أوّل مرّه تکرهون شیئا مع أنّه فیه صـلاحکم کما کان الأمر فی أساس غزوه بدر و کانوا غیر راضین بادئ الأمر،إلّا أنّهم رأوا کیف تمت هذه المعرکه لصالح الإسلام و المسلمین.

فإذن لا ینبغی أن تقوّم أحکام اللّه بالنظرات الضیقه المحدوده،بل ینبغی الانصیاع و التسلیم لها لیستفاد من نتائجها النهائیه.

تقول الآیه الأولی من الآیتین محل البحث:إنّ عدم رضا بعض المسـلمین فی شأن تقسـیم الغنائم یشبه عملیه إخراجک من مکّه و عدم رضی بعض المؤمنین

بذلك: كَمٰا أَخْرَجَکَ رَبُّکَ مِنْ بَيْتِکَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكٰارِهُونَ .

و التعبير بالحق إشاره إلى أنّ أمر الخروج كان طبقا لوحى الإلهى و دستور سماوى،و كانت نتيجته الوصول إلى الحق و استقرار المجتمع الإسلامى،إلاّ أنّ هؤلاء الأفراد لا يرون إلاّ ظواهر الأمور، و لهذا: يُجٰادِلُونَکَ فِی الْحَقِّ بَعْدَ مٰا تَبَيَّنَ كَأَنَّمٰا يُسٰاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ .

إلاّ أنّ الحوادث التاليه كشفت لهم عن خطئهم فى حساباتهم،و أنّ خوفهم و قلقهم دونما أساس،و أنّ هذه المعركه(معركه بدر)حققت للمسلمين انتصارات مشرقه،فمع رؤيه مثل هذه النتائج علام يجادلون فى الحق و تمتد ألسنتهم بالاعتراض؟! و التعبير ب فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يكشف ضمنا-أوّلا-أن هذا التشاجر أو المحاوره لم تكن عن نفاق أو عدم إيمان،بل عن ضعف الإيمان و عدم امتلاك النظره الثاقبه فى المسائل الإسلاميه.

و ثانيا:إنّ الذين جادلوا فى شأن الغنائم كانوا قلّه و فريقا من المؤمنين،غير أنّ بقيتهم و غالبيتهم أذعنوا لأمر رسول اللّه و استجابوا له.

ص:۳۶۵

الآیتان [سوره الأنفال (۸): الآیات ۷ الی ۸]

اشاره

وَ إِذْ یَعِدُکُمُ اَللّٰهُ إِحْدَی اَلطّٰائِفَتَیْنِ أَنَّهٰا لَکُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَیْرَ ذٰاتِ اَلشَّوْکَهِ تَکُونُ لَکُمْ وَ یُرِیدُ اَللّٰهُ أَنْ یُحِقَّ اَلْحَقَّ بِکَلِمٰاتِهِ وَ یَقْطَعَ دٰابِرَ اَلْکٰافِرِینَ (۷) لِیُحِقَّ اَلْحَقَّ وَ یُبْطِلَ اَلْبٰاطِلَ وَ لَوْ کَرِهَ اَلْمُجْرِمُونَ (۸)

غزوه بدر أوّل مواجهه مسلحه بین الإسلام و الکفر...

لما کانت الآیات السابقه قد أشارت إلی معرکه بدر،فإنّ الآیتین أعلاه و ما بعدهما من الآیات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمّه و حساسه فی تلک المعرکه لیستلهم المسلمون من هذه الآیات الحقائق التی مرّت بهم فی الماضی القریب، و یجعلوها أمام أعینهم للعبره و الاتعاظ.

و لإیضاح الآیتین محل البحث و الآیات التالیه،من المناسب أن نلقی الضوء علی ما جری فی هذه المعرکه الحاسمه،و کیف کانت هذه المواجهه المسلحه الأولی و هذا الجهاد الإسلامی بوجه العدوّ اللدود؟ لتتجلی لنا دقائق الأمور و لطائف ما أشارت إلیه الآیات الکریمه فی شأن معرکه بدر الکبری.

بدأت معرکه بدر-طبقا لما یقول المؤرخون و المحدّثون و المفسّرون-حین

کان أبو سفیان کبیر مکّه عائدا بقافله تجاریه مهمّه مؤلفه من أربعین شخصا، و تحوی علی ثروه تجاریه تقدّر بخمسین ألف دینار من الشام نحو المدینه.

فأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أصحابه أن یتعبأوا و یتهیئوا لمواجهه هذه القافله الکبیره التی تحمل جل رأس مال العدوّ معها،و بمصادره أموال القافله لتوجیه ضربه اقتصادیه نحو العدوّ و تعقبها ضربه عسکریه قاصمه.

و کان للنّبی و أصحابه الحق فی مثل هذه الحمله أو الهجوم،لأنّه-أوّلا- عند ما هاجر المسلمون من مکّه نحو المدینه استولی أهل مکّه علی کثیر من أموالهم،و نزلت بهم خساره کبیره.فکان لهم الحق أن یجبروا مثل هذه الخساره.

ثمّ بعد هذا کلّه برهن أهل مکّه طیله الثلاثه عشر عاما التی أقام النّبی و أصحابه بمکّه خلالها أنّهم لا یألون جهدا فی إیذاء النّبی و أصحابه،بل أرادوا به الوقیعه و المکیده،فإنّ عدوّا کهذا لن یسکت عن النّبی و دعوته بمجرّد هجرته إلی المدینه،و من المسلم به أنّه سیعبئ قواه فی المستقبل لمواجهه النّبی و الإیقاع به.

إذن فالعقل و المنطق یوجبان أن یسارع المسلمون بمبادره عاجله لمصادره أموال أهل مکّه لتدمیر دعامتهم الاقتصادیه،و لیوفروا علی أنفسهم إمکانیه التهیؤ العسکری و الاقتصادی لمواجهه العدو مستقبلا.

و هذه المبادره کانت و لا تزال فی جمیع الخطط العسکریه قدیمها و حدیثها و أمّا من یری أن توجّه النّبی نحو قافله أبی سفیان- و دون الأخذ بنظر الإعتبار هذه الجهات المشار إلیها آنفا-نوعا من الإغاره،فإمّا أن یکون جاهلا-لا یعرف جذور المسائل التأریخیه فی الإسلام أو أنّه مغرض یرید تحویر الواقعیات و الثوابت التاریخیه.

و علی کل حال،فإنّ أبا سفیان عرف عن طریق أتباعه و أصدقائه تصمیم النّبی علی مواجهه قافلته،هذا من جهه،کما أنّ القافله حینما کانت متجهه نحو الشام للإتیان بمال التجاره تعرضت لتحرکات من هذا القبیل.لهذا فإنّ أبا سفیان

أرسل من يمضى إلى مكّه بسرعه ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافله.

فمضى رسول أبى سفيان بحاله مثيره كما أوصاه أبو سفيان،إذ خرم أنف بعيره و بتر أذنيه و الدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه،و قد شقّ ثوبه-أو طمريه -و ركب بعيره على خلاف ما يركب الناس«إذ ظهره كان إلى رقبه البعير و وجهه إلى عجزه»ليلفت الناس إليه من كل مكان.فلما دخل مكّه أخذ يصرخ قائلا:أيّها الناس الأعزه،أدركوا قافلتكم،أدركوا قافلتكم و أسرعوا و تعجلوا إليها،و إن كنت لا أعتقد أنّكم ستدركونها فى الوقت المناسب،فإنّ محمّدا و رجالا مارقين من دينكم قد خرجوا من المدينه ليتعرضوا لقافلتكم.

و كانت عاتكه بنت عبد المطلب عمّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آنئذ قد رأت رؤيا موحشه عجيبه،و قد تناقلت الأفواه رؤياها فيزداد الناس هيجانا.

و كانت عاتكه قد رأت قبل ثلاثه أيّام من مجىء رسول أبى سفيان إلى مكّه، أنّ شخصا يصرخ:أيّها الناس تعجّلوا إلى قتلاكم،ثمّ صعد هذا المنادى إلى أعلى جبل أبى قيس و أخذ حجرا كبيرا فرماه فتلاشى الحجر فى الهواء،و لم يبق بيت فى مكّه لقريش إلاّ نزل فيه منه شىء،كما أن وادى مكّه يجرى دما عبيطا.

فلمّا استيقظت فزعه مرعوبه من نومها و قصّت رؤياها على أخيها العباس، ذهل الناس لهول هذه الرؤيا.

لكن أبا جهل لما بلغه ذلك قال:ما رأت عاتكه رؤيا،هذه نبيّه ثانيه فى بنى عبد المطلب،و باللات و العزّى لننظرن ثلاثه أيّام،فإن كان ما رأت حقّا فهو كما رأت،و إن كان غير ذلك لنكتبنّ بيننا كتابا:أنّه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالا و نساء من بنى هاشم.

و لكن لم يكد يمضى اليوم الثّالث حتى كان ما من أمر ذلك الرجل الذى هزّ مكّه و أهلها.

و لما كان أكثر أهل مكّه شركاء فى هذه القافله فقد تعبئوا بسرعه و تحركوا

نحو القـافله بحوالی ۹۵۰ مقاتلاـ و ۷۰۰ بعیر و مـائه فرس،و کـان أبو جهـل یقود هـذا الجیش.و من جهه أخری و لکی یسـلم أبو سفیان من تعرض النّبی و أصحابه لقافلته،فقد غیر مسیره و اتجه نحو مکّه بسرعه.

و کـان النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قـد قـارب بـدرا فی نحو من ثلاثمـائه و ثلاث عشـر رجلا کانوا یمثلون رجال الإسـلام آنئذ«و بدر منطقه ما بین مکّه و المدینه»و قد بلغه خبر تهیؤ أبی جهل و من معه لمواجهته.

فتشـاور النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم مع أصـحابه:هـل یلحقون القـافله و یصـادرون أموالها،أو أن علیهم أن یتهیئوا لمواجهه جیش العدوّ؟فقالت طائفه من أصحابه:نقاتل عدوّنا،و کرهت طائفه أخری ذلک و قالت:إنما خرجنا لمصادره أموال القافله.

و دلیلها معها،إذ أنّها لم تخرج إلاّ لهذا السـبب(من المدینه)و لم یکن النّبی و أصحابه عازمین علی مواجهه جیش أبی جهل و لم یتعبأوا لذلک،فی حین أن أبا جهل قد تعبأ لهم و یرید قتالهم.

و قـد ازداد هـذا التردد بین الطـائفتین،خاصّه بعـد أن عرف أصـحاب النّبی أنّ جیش العـدوّ ثلاثه أضـعافهم و تجهیزاته أضـعاف تجهیزاتهم،إلاّ أنّ النّبی بالرغم من کل ذلک قبل بالقول الأوّل«أی قتال العـدوّ»فلما التقی الجیشان لم یصدق العدوّ أن المسـلمین قـد وردوا المیـدان بهـذه القلّه،بل ظن العدوّ أنّهم مختبئون و أنّهم سـیحدقون به عند المواجهه،لذلک فقد أرسل شـخصا لیرصـد الأمور فرجع و أخبرهم بأنّ المسلمین لیسوا أکثر ممّا رأوهم.

و من جهه أخری-کما أشرنا آنفا-فإنّ طائفه من المسلمین کانت فی قلق و اضطراب و کانت تصرّ علی عدم مواجهه هذا الجیش اللجب،إذ لا موازنه بین أصحاب النّبی و أصحاب أبی جهل!لکن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم طمأنهم بوعد اللّه و

قال: «إنّ اللّه وعـدنی إحـدی الطائفتین و لن یخلف اللّه المیعاد» قافله قریش أو جیش قریش،و لن یخلف اللّه وعده،فواللّه لکأنّی أری مصرع أبی جهل و جماعه من

أصحابه بعينيّ.

ثمّ أمر النّبى أن ينزل أصحابه إلى بئر بدر«و بدر فى الأصل اسم رجل من قبيله جهينه حفر بئرا فى ذلك الموضوع فسمّيت باسمه،و سمّيت الأرض بأرض بدر أيضا».

و فى هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، و اتّجه نحو مكّه عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق،و أرسل رسولاـ إلى قريش:إنّ اللّه نجىّ قافلتكم،و لاـ أظن أنّ مواجهه محمّد فى هذا الظرف مناسبه،لأنّ له أعداء يكفونكم أمره.إلاّـ أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبى سفيان و أقسم باللات و العزّى أنّه سيواجه محمّدا،بل سيدخل المدينه لتعقيب أصحابه أو؟؟؟سيأسرهم جميعا و يمضى بهم لمكّه،حتى يبلغ خبر هذا الإنتصار آذان العرب.

و أخيرا ورد جيش قريش أرض بدر و أرسلوا غلمانهم للاستقاء من ماء بدر،

فأسرهم أصحاب النّبى و أخذوهم للتحقيق إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسألهم النّبى:من أنتم؟فقالوا:يا محمّد نحن عبيد قريش،قال:كم القوم؟!فقالوا:لا علم لنا بعددهم،قال:كم ينحرون فى كل يوم جزورا؟فقالوا:تسعه إلى عشره.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:القوم تسعمائه الى ألف (كل مائه يأكلون بعيرا واحدا).

كان الجوّ مكفهرا بالرعب و الوحشه،إذ كان جيش قريش معبّأ مدججا بالسلاح،ولديه المؤونه و العدّد،حتى النساء اللائى ينشدن الأشعار و المغنيات اللائى يثرن الحماسه.و كان جيش أبى جهل يرى نفسه أمام طائفه صغيره أو قليله من الناس،و لا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

فلمّا رأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن أصحابه قلقون و ربّما لا ينامون الليل من الخوف فيواجهون العدو غدا بمعنويات مهزوره قال لهم كما وعده اللّه:لا تحزنوا فإنّ كان عددكم قليلا فإنّ اللّه سيمدكم بالملائكه،و سرّى عن قلوبهم حتى ناموا ليلتهم مطمئنين راجين النصر على عدوّهم.

المشکله الأخری التی کان أصحاب النّبی یواجهونها،هی أن أرض بدر کانت غیر صالحه للنزال لما فیها من الرمال،فنزل المطر تلک اللیله،فأفاد منه أصحاب النّبی فاغتسلوا منه و توضأوا و أصبحت الأرض صلبه صالحه للنزال، العجیب فی ذلک أنّ المطر کان فی جهه العدوّ شدیدا بحیث أربکهم و أزعجهم.

و الخبر الجدید الذی حصل علیه أصحاب النّبی من جواسیسهم الذین تحسسوا لیلا حاله العدو أنّ جیش قریش مع کل تلک الإمکانات العسکریه فی حاله من الرعب بمکانه لا توصف،فکأنّ اللّه أنزل علیها جیشا من الرعب و الوحشه.

و عند الصباح اصطفّ جیش المسلمین الصغیر بمعنویات عالیه لیواجهوا عدوّهم،و لکن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم-إتماما للحجّه و لئلا یبقی مجال للتذرع بالذرائع الواهیه-أرسل إلی قریش ممثلا عنه لیقول لهم:إنّ النّبی لا یرغب فی قتالکم لا یحبّ أن تکونوا أوّل جماعه تحاربه.فوافق بعض قاده قریش علی هذا الاقتراح و رغبوا فی الصلح،إلاّ أنّ أبا جهل امتنع و أبی بشدّه.

و أخیرا اشتعلت نار الحرب،فالتقی أبطال الإسلام بجیش الشرک و الکفر، و وقف حمزه عمّ النّبی و علی ابن عمّ النّبی الذی کان أصغر المقاتلین سنّا وجها لوجه مع صنادید قریش و قتلوا من بارزهم فانهار ما تبقی من معنویات العدوّ، فأصدر أبو جهل أمرا عاما بالحمله،و کان قد أمر بقتل أصحاب النّبی من أهل المدینه«الأنصار»و أن یؤسر المهاجرون من أهل مکّه.فقال النّبی لأصحابه:

«غضّوا أبصارکم و عضو علی نواجذ و لا تستلوا سیفا حتی آذان لکم».

ثمّ

مدّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یدیه إلی الدعاء،و رفع بهما نحو السماء فقال:«یا ربّ إن تهلک هذه العصابه لم تعبد و إن شئت أن لا تعبد لا تعبد...» فهبت ریح عاصف الی العدوّ،و کان المسلمون یحملون علی عدوّهم و الریاح تهب من خلفهم بوجه العدوّ،و أثبت المسلمون جداره فائقه و صمدوا

للقتال حتی قتلوا منهم سبعين«و أبو جهل من القتلی»و أسروا سبعين،و انهزم الجمع و ولّوا الدبر،و لم يقتل من المسلمين إلاّ نفر قليل،و كانت هذه المعركه أوّل مواجهه مسلحه بين المسلمين و عدوّهم من قريش،و انتهت بالنصر الساحق للمسلمين علی عدوّهم (۱) .

التّفسير

و الآن و بعد أن عرفنا باختصار كيف كانت غزوه بدر،نعود ثانيه إلی تفسير الآيتين.

في الآيه الأولی-من الآی محل البحث-إشاره إلی وعد اللّه بالنصر فی معركه بدر إجمالا،إذ تقول الآيه: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللّٰهُ إِحْدَى الطّٰائِفَتَيْنِ أَنَّهٰا لَكُمْ .

لكنكم لخوفكم من الخسائر و اخطار و بلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذٰاتِ الشَّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ .

و قد جاء فی بعض الرّوايات الإسلاميه

أن النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم قال لهم: «إحدی الطائفتين لكم،إمّا العير و إمّا النفير».

و كلمه العير تعنی القافله،و النفير يعنی الجيش.

إلاّ أنّه-كما يلاحظ فی الآيه الكريمه،أنّ التعبير جاء بذات الشكوكه مكان الجيش و النفير،و بغير ذات الشوكه مكان القافله أو العير.

و هذا التعبير يحمل فی نفسه معنی لطيفا،لأنّ الشوكه ترمز إلی القدره و تعنی الشدّه،و أصلها مأخوذ من الشوك،ثمّ استعملت هذه الكلمه«الشوكه»فی نصول الرماح،ثمّ أطلق هذا الاستعمال توسعا علی كل نوح من الأسلحه،و لما كان السلاح يمثل القوّه و القدره،و الشدّه فقد عبر عنه بالشوكه.

---

۱ – ۱) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۲۱ إلی ۱۳۶ و مجمع البيان ج ۴،ص ۵۲۱،۵۲۳،و ما ذكرناه بتصرف و اختصار.

فبناء على هـذا فإنّ ذات الشوكه تعنى الجماعه المسـلحه،و غير ذات الشوكه تعنى الجماعه غير المسـلحه،و لو اتفق أن يوجد فيها رجـال مسـلحون فهم معـدودون لاـ يكترث بهم.أى أن فيكم من يرغب فى مواجهه العـدو غير مسـلحه، و ذلـك بمصادره أموال تجارته،و ذلك ابتغاء الراحه أو حبّا منه للمنافع الماديه، فى حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أن الصـلاح يكمن فى تحطيم قوى العـدو العسـكريه،لتكون الطريق لاـ حبه لانتصارات كبيره فى المسـتقبل،و لهـذا فإنّ الآيه تعقب بالقول وَ يُرِيـدُ اللّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (۱) .

فعلى هذا،كانت واقعه بدر درسا كبير للمسلمين للإفاده منه فى الحوادث الآتيه،و يؤكّد لهم أن يتدبروا عواقب الأمور،و لا يكونوا سطحيين يأخـذون بالمصالـح الآنيه،و بالرغم من أنّ بعـد النظر يقترن بالمصاعب عاده،و قصـر النظر على العكس من ذلك يقترن بالمنـافع المـاديه و الراحه المؤقته،إلاّ أنّ النصـر فى الحاله الأولى يكون شاملا و متجـذّرا،أمّا فى الحاله الثّانيه فهو انتصار سـطحى موقت.

و لم يكن هـذا درسـا لمسـلمى ذلـك اليوم فحسب،بـل ينبغى لمسـلمى اليوم أن يسـتلهموا من ذلك التعليم السـماوى،فعليهم ألاّ يغضوا أبصارهم عن المناهج الأصوليه بسبب المشاكل و الأتعاب و يستبدلوها بمناهج غير الأصوليه قليله الأتعاب.

و فى آخر آيه يماط اللثام عن الأمر بصوره أجلى،إذ تقول الآيه الكريمه لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

ترى هل الآيه هذه تأكيد لما ورد فى الآيه السابقه،كما يبدو لأوّل وهله،أم هو موضوع جديد تتضمنه الآيه؟!

۱- ۱) الدابر بمعنى ذيل الشيء و عقبه،فبناء على هذا يكون معنى«و يقطع دابر الكافرين»هو استئصال جذورهم.

قال بعض المفسّرين،كالفخر الرّازى فى تفسيره الكبير،و صاحب المنار:إنّ الحقّ فى الآيه المتقدمه إشاره لانتصار المسلمين فى معركه بدر،إن الحقّ فى الآيه محل البحث،«الثّانيه»إشاره لانتصار الإسلام و القرآن الذى كان نتيجه الإنتصار العسكرى فى معركه بدر،و هكذا فإنّ الإنتصار العسكرى-فى تلك الظروف الخاصّه-مقدمه لانتصار الإسلام و المسلمين.

كما يرد هذا الاحتمال،و هو أن الآيه السابقه تشير إلى إراده اللّه«الإراده التشريعيه»التى كانت جليه فى أوامر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و الآيه الثّانيه تشير إلى نتيجه هذا الحكم و الأمر(فلاحظوا بدقه!)...

ص:٣٧۴

الآیات [سوره الأنفال (۸): الآیات ۹ الی ۱۴]

اشاره

إِذْ تَسْتَغِیثُونَ رَبَّکُمْ فَاسْتَجابَ لَکُمْ أَنِّی مُمِدُّکُمْ بِأَلْفٍ مِنَ اَلْمَلائِکَهِ مُرْدِفِینَ (۹) وَ ما جَعَلَهُ اَللّهُ إِلاّ بُشْری وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُکُمْ وَ مَا اَلنَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اَللّهِ إِنَّ اَللّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۱۰) إِذْ یُغَشِّیکُمُ اَلنُّعاسَ أَمَنَهً مِنْهُ وَ یُنَزِّلُ عَلَیْکُمْ مِنَ اَلسَّماءِ ماءً لِیُطَهِّرَکُمْ بِهِ وَ یُذْهِبَ عَنْکُمْ رِجْزَ اَلشَّیْطانِ وَ لِیَرْبِطَ عَلی قُلُوبِکُمْ وَ یُثَبِّتَ بِهِ اَلْأَقْدامَ (۱۱) إِذْ یُوحِی رَبُّکَ إِلَی اَلْمَلائِکَهِ أَنِّی مَعَکُمْ فَثَبِّتُوا اَلَّذِینَ آمَنُوا سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ اَلَّذِینَ کَفَرُوا اَلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ اَلْأَعْناقِ وَ اِضْرِبُوا مِنْهُمْ کُلَّ بَنانٍ (۱۲) ذلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اَللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ یُشاقِقِ اَللّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اَللّهَ شَدِیدُ اَلْعِقابِ (۱۳) ذلِکُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْکافِرِینَ عَذابَ اَلنّارِ (۱۴)

ص: ۳۷۵

التّفسير

اشاره

دروس مفيده من ساحه المعركه:

إنّ هـذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسه من واقعه بدر،و الألطاف الإلهيه الكثيره التى شـملت المسـلمين لتثير فى نفوسـهم الإحساس بالطاعه و الشكر،و لتعبيد الدرب نحو انتصارات المستقبل.

و تشير ابتداء لإمداد الملائكه فتقول: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ .

جاء فى بعض الرّوايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يستغيث و يـدعو ربّه مع بقيه المسلمين،و قد رفع يـديه نحو السماء قائلا:

«اللّهم أنجز لى ما وعدتنى،اللّهم إنّ تهلك هذه العصابه لا تعبد فى الأرض) (۱) .

و عند ذلك فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّی مُمِدُّکُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِکَهِ مُرْدِفِینَ .

و كلمه(مردفين)من(الإرداف)بمعنى اتّخاذ محل خلف الشىء فيكون مفهومها أنّ الملائكه كانت تتابع بعضـها بعضا فى النّزول لنصره المسلمين.

و احتمـل معنى آخر فى الآيه،و هـو أنّ مجموعه الألـف مـن الملائكه كـانت تتبعهـا مجموعـات أخرى،ليتطابق هـذا المعنى و الآيه(۱۲۴)من سوره آل عمران، و التى تقول عن لسـان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِینَ أَ لَنْ یَکْفِیَکُمْ أَنْ یُمِدَّکُمْ رَبُّکُمْ بِثَلاثَهِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِکَهِ مُنْزَلِینَ .

إلّا أنّ الظاهر أنّ عدد الملائكه فى بدر هو الألف،و كلمه مردفين صفه هذا الألف.و آيه سوره آل عمران كانت وعدا للمسلمين فى أنزال ملائكه أكثر لنصره المسلمين إذا ما اقتضى الأمر.

و لئلا يعتقد بعض بأنّ النصر كان بيد الملائكه فحسب،فإنّ الآيه تقول: وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْری وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُکُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ

۱- ۱) مجمع البيان،ذيل الآيه.

.لأنّ اللّه عزيز و مقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته،و حكيم لا ينزل نصرته إلّا للأفراد الصالحين و المستحقين لذلك.

هل قاتلت الملائكه؟

لقد جرى البحث فى هذه المسأله كثيرا بين المفسّرين،فبعضهم يرى أنّ الملائكه دخلت ساحه القتال و هاجمت الأعداء بأسلحتها الخاصّه،و قتلت بعضهم.و نقلت بعض الرّوايات فى تأييد ذلك.

إلاّـ أنّ القرائن تؤيـد الرأى الـذى يقول:إنّ الملاـئكه نزلت لتطمئن قلوب المؤمنين،و يزداد عزمهم،و هـذا الرأى أقرب إلى الواقع لعدّه أدله:

أوّلاـ:لقـد قرأنـا فى الآـيه قوله تعـالى: وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ فـإذا مـا علم المسـلمون بهـذا المـدد فـإنّهم يقـاتلون بصوره أفضل،لا أن الملائكه شاركت فى الحرب.

ثانيا:إذا كانت الملائكه هى التى قتلت جنود الأعـداء،فأيّه فضـيله للمجاهـدين فى معركه بـدر و ما ورد عن مقامهم و منزلتهم من روايات كثيره؟ ثالثا:كان عـدد المقتولين فى بـدر هو(٧٠ نفرا)و قد كان الكثير منهم قد سـقط بسـيف على عليه السّـلام،و القسـم الآخر بيـد المقاتلين الآخرين،و هؤلاء معروفون بأسـمائهم فى التاريـخ،فبناء على ذلك-من الذى-بقى لتقتله الملائكه؟! ثمّ تذكر الآيه النعمه الثّانيه التى اكتنفت المؤمنين فتقول: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعٰاسَ أَمَنَةً مِنْهُ .

و(يغشى)من ماده(الغشيان)بمعنى تغطيه الشيء و إحاطته.فكأنّ النوم كالغطاء الذى وضع عليهم فغطّاهم.

و(النعاس)يطلق على بـدايه النوم،أو النوم القليل أو الخفيف الناعم و لعلها إشاره إلى أنّه بالرغم من هدوئكم النفس لم يأتكم نوم عميق يمكّن الأعداء من

استغلاله و الهجوم عليكم.و هكذا استفاد المسلمون من هذه النعمه العظيمه من تلك الليله.

و الرحمه الثّالثه التی وصلتکم هی: وَ یُنَزِّلُ عَلَیْکُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِیُطَهِّرَکُمْ بِهِ وَ یُذْهِبَ عَنْکُمْ رِجْزَ الشَّیْطانِ .

و هذا الرّجز قد یکون وساوس الشیطان،أو رجزا بدنیا کجنابه بعضهم،أو الأمرین معا.و علی أیه حال،فإنّ الماء ملأ الودیان من أطراف بدر بعد أن استولی الأعداء علی آبار بدر و کان المسلمون بحاجه ماسه للغسل و رفع العطش،فإذا هذا الماء قد ذهب بکل تلک الأرجاس.

ثمّ أنّ اللّه تعالی أراد بذلک تقویه معنویات المسلمین و کذلک تثبیت الرمال المتحرکه تحت أقدامهم بواسط المطر: وَ لِیَرْبِطَ عَلی قُلُوبِکُمْ وَ یُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ ...و یمکن أن یکون المراد من تثبیت الأقدام هو رفع المعنویات و زیاده الثبات و الاستقامه ببرکه تلک النعمه،أو إشاره إلی هذین الأمرین.

و النعمه الأخری التی أنعمها اللّه علی المجاهدین فی بدر،هی الرعب الذی أصاب به اللّه قلوب أعدائهم،فزلزل معنویاتهم بشده،فیقول تعالی إِذْ یُوحِی رَبُّکَ إِلَی الْمَلائِکَهِ أَنِّی مَعَکُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِینَ آمَنُوا .

سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِینَ کَفَرُوا الرُّعْبَ

.

و إنّه لمن العجب و الغرابه أن ینهار جیش قریش القوی أمام جیش المسلمین القلیل،و أن تذهب معنویاتهم-کما ینقل التاریخ-بصوره یخاف معها الکثیر منهم من منازله المسلمین،و حتی أنّهم کانوا یفکرون بأنّ المسلمین لیسوا أشخاصا مألوفین،و کانوا یقولون بأنّ المسلمین قد جاؤوکم من قرب یثرب (المدینه)بهدایا یحملونها علی إبلهم هی الموت.

و لا شک أنّ هذا الرعب الذی أصاب قلوب المشرکین،و الذی کان من عوامل النصر،لم یکن جزافا،فلقد أثبت المسلمون شجاعتهم و أقاموا صلاه

الجماعه،و كانت شعارتهم قويه.فإظهار المؤمنون الصادقين وفاءهم و خطبه بعضهم مثل

سعد بن معاذ نيابه عن الأنصار أمام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قائلا:

«بأبی أنت و أمّی،یا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنّنا قد آمنا بک و صدقناک و شهدنا أنّ ما جئت به حق من عند اللّه فمرنا بما شئت و خذ من أموالنا ما شئت،و اترک منه ما شئت و الذی أخذت منه أحبّ إلیّ من الذی ترکت منه،و اللّه لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضنا معک...إنّنا لنرجوا أن یقرّ اللّه عزّ و جلّ عینیک بنا....».

مثل هذا الحدیث سرعان ما انتشر بین الأعداء و الأصدقاء،أضف إلی ذلک ما رآه المشرکون من ثبات راسخ عند المسلمین یوم کانوا فی مکّه رجالا و نساء.

اجتمعت کل هذه الأمور لترسم صوره الخوف عند المشرکین.

ثمّ الریح العاتیه التی کانت تهب علی المشرکین و المطر الشدید علیهم و الخواطر المخفیه لرؤیا(عاتکه)فی مکّه،و غیرها من العوامل التی کانت تبعث فیهم الخوف و الهلع الشدید.

ثمّ آن القرآن یذکّر المسلمین بالأمر الذی أصدره النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للمسلمین بأنّ علیهم اجتناب الضرب غیر المؤثر فی المشرکین، حال القتال لئلا تضیع قوتهم فیه،بل علیهم توجیه ضربات مؤثره و قاطعه فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنٰاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ کُلَّ بَنٰانٍ .

و(البنان)جمع(البنانه)بمعنی رؤوس أصابع الأیدی أو الأرجل،أو الأصابع نفسها،و فی هذه الآیه یمکن أن تکون کنایه عن الأیدی و الأرجل أو بالمعنی الأصلی نفسه،فإنّ قطع الأصابع من الأیدی یمنع من حمل السلاح، و قطعها من الأرجل یمنع الحرکه،و یحتمل أن یکون المعنی هو إذا کان العدو مترجلا،فیجب أن تکون الأهداف رؤوسهم،و إذ کان راکبا فالأهداف أیدیهم و أرجلهم.

کما أنّ بعضا یری أنّ هذه الجمله هی خطاب للملائکه،إلاّ أنّ القرائن تدل

على أنّ المخاطبين هم المسلمون،و إذا كان الملائكه هم المخاطبين فيها فيمكن أن يكون الهدف من الضرب على الرؤوس و الأيدى و الأرجل،هو إيجاد الرعب فيهم لترتبک أيديهم و أرجلهم فتسقط و تنحنى رؤوسهم.(و بالطبع فإنّ هذا التّفسير يخالف الظاهر من العباره،و يجب إثباته بالقرائن تحدثنا عنها سابقا من مسأله عدم قتال الملائكه).

و بعد كل تلك الأحاديث،و لكيلا يقول شخص بأنّ هذه الأوامر الصادقه تخالف الرحمه و الشفقه و أخلاق الرجوله،فإنّ الآيه تقول: ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ .

و(شاقوا)من ماده(الشقاق)و هي فى الأصل بمعنى الإنفطار و الانفصال، و بما أنّ المخالف أو العدوّ و يبتعد عن الآخرين فقد سمى عمله شقاقا: وَ مَنْ يُشٰاقِقِ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ .

ثمّ يؤكّد هذا الموضوع:و يقول:ذوقوا العذاب الدنيوى من القتل فى ميدان الحرب و الأسر و الهزيمه السافره،و مع ذلک انتظروا عذاب الآخره أيضا: ذٰلِکُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْکٰافِرِينَ عَذٰابَ النّٰارِ .

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ١٨]

اشاره

يا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ اَلْأَدْبارَ (١٥) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَهٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اَللّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمَصِيرُ (١۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اَللّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اَللّهَ رَمى وَ لِيُبْلِيَ اَلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اَللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اَللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ اَلْكافِرِينَ (١٨)

التّفسير

اشاره

الفرار من الجهاد ممنوع!

كما ذكرنا فى تفسير الآيات السابقه،فإنّ الحديث عن قصّه معركه بدر و ألطاف اللّه الكثيره على المسلمين الأوائل من أجل أن يتّخذ منه المسلمين العبره و الدرس فى المستقبل،لذلك فإنّ هذه الآيات توجه خطابها للمؤمنين و تأمرهم أمرا عاما بالقتال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ .

ص: ٣٨١

و(لقیتم)من ماده(اللقاء)بمعنی الاجتماع و المواجهه،و تأتی فی أکثر أحیان بمعنی المواجهه فی میدان الحرب.

و(الزّحف)فی الأصل بمعنی الحرکه إلی أمر ما بحیث تسحب الأقدام علی الأرض کحرکه الطفل قبل قدرته علی المشی،أو الإبل المرهقه التی تخط أقدامها علی الأرض أثناء سیرها،و یطلق علی الجیش الجرار الذی یشاهد من بعید و کأنّه یحفر الأرض أثناء مسیره.

و استخدام کلمه(زحف)-فی الآیه آنفا-تشیر إلی أنّه بالرغم من أنّ عدوکم قوی و کثیر،و أنتم قلیلون،فلا ینبغی لکم الفرار من ساحه الحرب،و کما کان عدوکم کثیرا فی میدان بدر فثبتّم و انتصرتم.

فالفرار من الحرب یعدّ فی الإسلام من کبائر الذنوب، إلاّ أنّ ذلک مرتبط- کما نبیّن بعض الآیات-بکون الأعداء ضعفی عدد المسلمین،و سنبحث هذا الأمر بعون اللّه فی الآیتین(۶۵)و(۶۶)من هذه السوره. و لذلک تذکر الآیه بعدها جزاء من یفر من میدان الحرب مع الإشاره لمن یستثنون منهم فتقول: وَ مَنْ یُوَلِّهِمْ یَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَیِّزاً إِلی فِئَهٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ .

و کما نری فقد استثنت الآیه صورتین من مسأله الفرار،ظاهرهما أنّهما من صوره الفرار،غیر أنّهما فی الحقیقه و الواقع صورتان للقتال و الجهاد.

الصوره الأولی:عبّر عنها ب «مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ» و«متحرف»من ماده(التحرّف) أی الابتعاد جانبا من الوسط نحو الأطراف و الجوانب،و المقصود بهذه الجمله هو أنّ المقاتلین یقومون بتکتیک قتالی إزاء الأعداء،فیفرون من أمامهم نحو الأطراف لیلحقهم الأعداء:ثمّ یغافلوهم فی توجیه ضربه قویه إلیهم و استخدام فن الهجوم و الانسحاب المتتابع و کما یقول العرب:(الحرب کرّ و فرّ).

الصوره الثّانیه:أن یری المقاتل نفسه وحیدا فی ساحه القتال،فینسحب للالتحاق بإخوانه المقاتلین و لیهجم معهم من جدید علی الأعداء.

و على كل حال،فلا ينبغى تفسير هذا التحريم بشكل جاف يتنافى و أساليب الحروب و خدعها،و التى هى أساس كثير من الانتصارات.

و تختتم الآيه محل البحث بالقول:إنّ جزاء من يفرّ مضافا إلى استحقاقه لغضب اللّه فانّ مصيره إلى النّار: وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ .

و الفعل«باء»مشتق من«البواء»و معناه الرجوع و اتّخاذ المنزل،جذره فى الأصل يعنى تصفيه محل ما و تسطيحه،و حيث إنّ الإنسان إذا نزل فى محل عدله و سطحه،فقد جاءت هذه الكلمه هنا بهذا المعنى.و فى الآيه إشاره إلى أنّ غضب اللّه مستمر و دائم عليهم،فكأنّهم قد اتّخذوا منزلا عند غضب اللّه.

و كلمه«المأوى»فى الأصل معناها«الملجأ»و ما نقرؤه فى الآيه،محل البحث وَ مَأْوٰاهُ جَهَنَّمُ فهو إشاره إلى أنّ الفارين يطلبون ملجأ و مأوى من فرارهم لينقذوا أنفسهم من الهلكه،إلاّ أنّ ما يحصل هو خلاف ما يطلبون،إذ ستكون جهنم مأواهم،و ليس ذلك فى العالم الآخر فحسب،بل هو فى هذا العالم إذ سيحترقون فى جهنم الذله و الانكسار و الضياع.

و لذا

فقد جاء فى«عيون الأخبار»عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى جواب أحد أصحابه حين سأله عن فلسفه تحريم الفرار من الجهاد فقال:«و حرم اللّه الفرار من الزحف لما فيه من الوهن فى الدين،و الاستخفاف بالرسل و الأئمّه العادله عليهم السّلام،و ترك نصرتهم على الأعداء،و العقوبه على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالرّبوبيه و إظهار العدل و ترك الجور و إماته الفساد،لما فى ذلك من جرأه العدوّ على المسلمين،و ما يكون من السبى و القتل و إبطال دين اللّه عزّ و جلّ و غيره من الفساد» (1) و من ضمن الامتيازات الكثيره التى كانت عند الإمام على عليه السّلام،و ربّما يشير

١- ١) نور الثقلين،ج ٢،ص ١٣٨.

إلی نفسه أحیانا لیکون نبراسا للآخرین

قوله «إنّی لم أفر من الزحف قطّ،و لم یبارزنی أحد إلاّ سقیت الأرض من دمه» (۱) و العجیب أنّ بعض المفسّرین من أهل السنه یصرّ علی أنّ حکم الآیه السابقه یختص بمعرکه بدر،و أنّ التهدید و الوعید من الفرار من الجهاد یتعلق بالمقاتلین فی بدر فحسب،مع أنّه لا یوجد دلیل فی الآیه علی هذا التخصیص،بل لها مفهوم عام یشمل کل المقاتلین و المجاهدین.

و فی الرّوایات و الآیات کثیر من القرائن الذی یؤید هذا المعنی«و لهذا الحکم شروط طبعا سنتناولها نعالجها فی الآیات المقبله من هذه السوره إن شاء اللّه».

و لئلا یصاب المسلمون بالغرور فی انتصارهم،و لئلا یعتمدوا علی قواهم الجسمیه فحسب،و لیذکروا اللّه فی قلوبهم دائما،و لیتعلقوا به طلبا لألطافه،فإنّ الآیه التّالیه تقول: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ رَمیٰ .

لقد ورد فی الرّوایات و التفاسیر أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی یوم بدر: أعطنی حفنه من تراب الأرض و حصاها،فناوله علی ذلک،فرمی النّبی جهه المشرکین بذلک التراب و قال: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ قَتَلَهُمْ وَ مٰا رَمَیْتَ إِذْ رَمَیْتَ وَ لٰکِنَّ اللّٰهَ رَمیٰ (۲) قالوا:کان لهذا الفعل أثر معجز إذ وقع ذلک التراب علی وجوه المشرکین و عیونهم فملأهم رعبا.

لا شک أنّ الظاهر یشیر إلی أنّ النّبی و أصحابه هم الذین أدّوا هذا الدور فی معرکه بدر،لکن القرآن یقول:إنکم لم تفعلوا ذلک أوّلا،لأنّ القدرات الروحیه و الجسمیه و الإیمانیه التی هی أصل تلک النتائج کلها من عطاء اللّه و قد تحرکتم

۱- ۱) نور الثقلین،ج ۲،ص ۱۳۹.

۲- ۲) راجع نور الثقلین،ج ۲،ص ۱۴۰.

بقوه اللّه و فی سبیل اللّه.و ثانیا قد حصلت فی ساحه بدر معاجز کثیره أشرنا إلیها سابقا،و قد بعثت فی نفوس المجاهدین القوّه،و انهارت بها قوی المشرکین و معنویاتهم،و کان کل ذلک بألطاف اللّه سبحانه.

و فی الحقیقه فإنّ الآیه محل البحث تشیر إلی لطیفه فی مذهب

«لا جبر و لا تفویض بل أمر بین أمرین» لأنّها فی الوقت الذی تخبر عن قتل المسلمین للکافرین،و تقول إنّ النّبی رمی التراب بوجوه المشرکین تسلب منهم کل هذه الأمور(فتأمل بدقّه).

و لا شک فی عدم وجود تناقض فی مثل هذه العباره،بل الهدف هو القول بأنّ هذا الفعل کان منکم و من اللّه أیضا،لأنّه کان بإرادتکم و اللّه منحکم القوه و المدد.

و بناء علی ذلک فإنّ الذین اعتقدوا بمذهب الجبر مستدلین بهذه الآیه فإنّ الردّ علیهم موجود فی الآیه ذاتها.

و الذین قالوا بوحده الوجود مستدلین بهذه الآیه فإنّ الردّ علیهم موجود فی الآیه بأسلوب لطیف،لأنّه إذا کان المراد بأنّ الخالق و المخلوق واحد،فلا ینبغی أن ینسب الفعل إلیهم تاره و ینفی عنهم تاره أخری،لأنّ النسبه و نفیها دلیل علی التعدد،و إذا تجردت الأفکار عن الحکم المسبق و التعصب المقیت لرأینا أن الآیه لا ترتبط بأیّ من المذاهب الضّاله،بل هی تشیر إلی المذهب الوسط«أمر بین أمرین»فحسب.

و هذه الإشاره لأجل هدف تربوی،و هو إزاله الغرور و آثاره،إذ یقع ذلک عاده فی الأفراد بعد الانتصارات.

و تشیر الآیه فی ختامها إلی لطیفه مهمّه أخری،و هی أنّ ساحه بدر کانت ساحه امتحان و اختبار،إذ تقول: وَ لِیُبْلِیَ الْمُؤْمِنِینَ مِنْهُ بَلاٰءً حَسَناً .

و البلاء معناه الاختبار فی الأصل،غایه ما فی الأمر تاره یکون بالنعم فیسمی بلاء حسنا،و تاره بالمصائب و العقاب فیسمّی بلاء سیئا،کما تشیر إلی

ص:۳۸۵

ذلك الآيه(۱۶۸)من سوره الأعراف فی شأن بنی إسرائیل وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّیِّئاتِ .

لقد شاء اللّه أن یذیق المؤمنین فی أوّل مواجهه مسلحه بینهم و بین أعدائهم طعم النصر،و أن یجعلهم متفائلین للمستقبل،و هذه الموهبه الإلهیه کانت اختبارا لهم جمیعا،و إلاّ أنّه لا ینبغی لهم أن یغتروا بهذا الإنتصار أبدا،فتکون النتیجه سلبیه،و ذلک بأن یروا عدوهم حقیرا و ینسوا بناء ذواتهم و یغفلوا عن الاعتماد علی اللّه.

لهذا فإنّ الآیه تختتم بهذه الجمله إِنَّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ .

أی أنّ اللّه سمع صوت استغاثه النّبی و المؤمنین،و اطلع علی صدق نیاتهم، فأنزل ألطافه علیهم جمیعا و نصرهم علی عدوّهم،و أنّ اللّه یعامل عباده بهده المعامله حتی فی المستقبل،فیطلع علی میزان صدق نیاتهم و إخلاصهم و استقامتهم،فالمؤمنون المخلصون ینتصرون أخیرا،و المراؤن المدعون ینهزمون و یفشلون.

و فی الآیه التالیه یقول سبحانه تعمیما لهذا الموضوع و أنّ مصیر المؤمنین و الکفار هو ما سمعتم،فیقول: ذٰلِکُمْ (۱) ثمّ یعقب القرآن مبینا العلّه وَ أَنَّ اللّهَ مُوهِنُ کَیْدِ الْکافِرِینَ .

۱- ۱) فی الحقیقه أن هذا الکلمه إشاره إلی جمله مقدره هی«ذلکم الذی سمعتم هو حال المؤمنین و الکافرین...».

الآيه [سوره الأنفال (٨): آيه ١٩]

اشاره

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَكُمُ اَلْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلْمُؤْمِنِينَ (١٩)

التّفسير

لقد جرى بحث كثير بين المفسّرين حول الذين توجهت إليهم الآيه بالحديث،فبعضهم يعتقد بأنّهم المشركين،لأنّهم قبل خروجهم من مكّه إلى بدر اجتمعوا حول الكعبه و ضربوا على ستائرها(لغرورهم و اعتقادهم بأنّهم على الحق).و قالوا:«اللّهم أنصر أعلى الجندين و أهدى الفئتين و أكرم الحزبين» (١) .

و روى أنّ أبا جهل دعا فقال:(اللهم ربّنا ديننا القديم و دين محمّد الحديث، فأى الدينين كان أحب إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم) (٢) ...و لذلك فقد نزلت هذه الآيه لتقول لهم: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جٰاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللّٰهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ .

ص: ٣٨٧

١- ١) هذه الجمله فى الحقيقه«ذلكم الذى سمعتم هو حال المؤمنين و الكافرين».

٢- ٢) مجمع البيان و تفاسير أخرى.

و الذى يبعد هذا التّفسير أن الحديث فى الآيات السابقه و اللاحقه لهذه الآيه موجه للمؤمنين،فيستبعد أن تكون بينها آيه واحده تتحدث مع المشركين، و يضاف لذلك الارتباط المعنوى الموجود بين مضامين كل هذه الآيات-و لذلك اعتبر بعض المفسّرين أنّ المخاطبين فى الآيه هم المؤمنون،و أحسن صوره لتفسير الآيه على هذا الوجه هى:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعه بدر-كما رأينا-و نزلت آيات توبخهم و تضع الغنائم تحت تصرف شخص الرّسول كاملا- صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقام بتقسيمها بينهم بالتساوى،بغيه تربيتهم و تعليمهم،ثمّ ذكّرهم بحوادث بدر و كيف نصرهم اللّه على عدوّهم القوى.

و هذه الآيه تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين و تقول لهم:إنّكم إذا سألتم اللّه الفتح و النصر فسوف يستجيب لكم و ينصركم،و إذ تركتم الاعتراض و الجدال عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبذلك مصلحتكم،و إذا عدتم لنفس الأسلوب من الاعتراض فسنعود نحن أيضا،و نترككم وحيدين فى قبضه الأعداء و حتى إذا كان عددكم كثيرا فبدون نصره اللّه لن تقدروا أن تعملوا أى شىء، و إنّ اللّه مع المؤمنين المخلصين و الطائعين لأوامره و أوامر نبيّه.

و هكذا يستفاد من الآيات و خاصّه من إلقاء اللوم على المسلمين لبعض مخالفتهم،و كذلك سياق الآيات السابقه و ما فيها من أواصر و روابط معنويه واضحه،فإن التّفسير الثّانى يكون أقرب إلى النظر...

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٢٠ الى ٢٣]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قٰالُوا سَمِعْنٰا وَ هُمْ لاٰ يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ اَلدَّوَابِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلصُّمُّ اَلْبُكْمُ اَلَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اَللّٰهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

التّفسير

اشاره

الذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون!

تتابع هذه الآيات البحوث السابقه،فتدعو المسلمين إلى الطاعه التامه لأوامر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى السلم أو الحرب أو فى أى أمر آخر،و أسلوب الآيات فيه دلاله على تقصير بعض المؤمنين فى التنفيذ و الطاعه،فتبدأ بالقول: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ .

و تضيف لتؤكّد الأمر من جديد: وَ لاٰ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ .

لا شك فى أنّ إطاعه أوامر اللّه تعالى واجبه على الجميع،المؤمنين و غير المؤمنين،و لكن بما أنّ المخاطبين و المعنيين بهذا الحديث التربوى هم المؤمنون

فلهذا كان الكلام فی هذه الآیه الشریفه موجها إلیهم.

الآیه الثّانیه:تؤکّد هذا المعنی أیضا فتقول: وَ لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا یَسْمَعُونَ .

إنّ هذا التعبیر الطریف یشیر للذین یعلمون و لا یعملون،و یسمعون و لا یتأثرون،و فی ظاهرهم أنّهم من المؤمنین،و لکنّهم لا یطیعون أوامر الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،فهؤلاء لهم آذان سامعه لکل الأحادیث و یعون مفاهیمها،و بما أنّهم لا یعملون بها و لا یطبقونها فکأنّهم صمّ لا یسمعون،لأنّ الکلام مقدمه للعمل فلو عدم العمل فلا فائده من أیه مقدمه.

و أمّا المراد من هؤلاء الأشخاص الذین یحذّر القرآن المسلمین لکیلا یصیروا مثلهم،فیری بعض أنّهم المنافقون الذین اتخذوا لأنفسهم مواقع فی صفوف المسلمین، و قال آخرون:إنّما تشیر إلی طائفه من الیهود،و ذهب بعض بأنّهم المشرکون من العرب.و لا مانع من انطباق الآیه علی هذه الطوائف الثلاث، و کل ذی قول بلا عمل.

و لما کان القول بلا عمل،و الاستماع بلا تأثر،أحد الأمراض التی تصّاب بها المجتمعات،و أساس الکثیر من التخلفات،فقد جاءت الآیه الأخری لتؤکّد علی هذه المسأله بأسلوب آخر،فقالت: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُکْمُ الَّذِینَ لا یَعْقِلُونَ (۱) .

و لمّا کان القرآن کتاب عمل فإنّه ینظر إلی النتائج دائما،فیعتبر کل موجود لا فائده فیه کالمعدوم،و کل حی عدیم الحرکه و التأثیر کالمیت،و کل حاسّه من حواس الإنسان مفقود إذا لم تؤثر فیه تأثیرا ایجابیا فی مسیره الهدایه و السعاده، و هذه الآیه اعتبرت الذین لهم آذن سالمه لکنّهم لا یستمعون لآیات اللّه و دعوه

۱- ۱) «...صم»جمع«الأصم»و هو الذی لا یسمع و«البکم»جمع«الأبکم»و هو فاقد النطق.

الحق و نداء السعاده،کمن لا أذن له و لا سمع لدیه،و الذین لهم ألسنه سالمه لکنّها ساکته عن الدعوه إلی الحق و مکافحه الظلم و الفساد،فلا یأمرون بمعروف و لا ینهون عن منکر،بل یضیعون هذه النعمه فی التملق و التذلل أمام الطواغیت أو تحریف الحق و تقویه الباطل،فهؤلاء کمن هو أبکم لا یقدر علی الکلام،و کذلک الذین یتمتعون بنعمه الفکر و العقل و لکنّهم لا یصححون تفکیرهم،فهؤلاء فی عداد المجانین.

و تقول الآیه بعدها إن اللّه لا یمتنع من دعوه هؤلاء إن کانوا صادقین فی طلبهم و علی استعداد لتقبل الحق: وَ لَوْ عَلِمَ اللّٰهُ فِیهِمْ خَیْراً لَأَسْمَعَهُمْ .

و قد ورد فی الرّوایات أنّ بعض عبده الأصنام جاءوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا:إذا أخرجت لنا جدنا الأکبر(قصی بن کلاب)حیّا من قبره،و شهد لک بالنبوه،فسوف نسلّم جمیعا!فنزلت الآیه لتقول:إنّه لو کان حدیثهم صادقا لفعل اللّه ذلک لهم بواسطه المعجزه،لکنّهم یکذبون و یأتون بأعذار واهیه،بهدف التخلص من الإذعان لدعوه الحق...

و یقول تعالی: وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ .

فالذین سمعوا دعوه الحق کثیرا،و بلغت آذانهم آیات القرآن،و فهموا مضامینها العالیه،لکنّهم أنکروها بسبب عتوهم و عصبیّتهم،فهم غیر مؤهلین للهدایه لما اقترفت أیدیهم،و لا شأن بعدئذ للّه و رسوله بهم،فهم فی ظلام دامس و ضلال بهیم.

کما أنّ هذه الآیه تعد جوابا قاطعا للقائلین بمدرسه الجبر،لأنّها تقرر بأن یکمن فی الإنسان نفسه و أنّ اللّه یعامل الناس بما یبدونه من أنفسهم من استعداد و قابلیه فی طریق الهدایه.

ملاحظتان

اشاره

۱-«و لو علم اللّه فيهم خيرا لأسمعهم»

لقد حاول بعض الناشئه عمل قياس منطقى من هذه الآيه و الخروج منه بنتيجه لصالحهم،فقالوا،إنّ القرآن يقول فى الآيه: وَ لَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ .و قال أيضا: وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ .فيمكن الاستنتاج من هاتين الجملتين الجمله التّاليه و هى:لو علم اللّه فيهم خيرا فهم سيعرضون.

و هذا الاستنتاج خطأ محض.

و قد أخطأ هؤلاء لأنّ معنى جمله: وَ لَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ .فى قسمها الأوّل هو:لو كان لهؤلاء قابليه فسيوصل الحق لأسماعهم،و لكن القسم الثّانى معناه أن هؤلاء إذا لم تتهيأ لهم القابليه للهدايه فسوف لن يستجيبوا و سوف يعرضون...

و النتيجه أن الجمله المذكوره آنفا وردت فى الآيه بمعنيين مختلفين،و على هذا لا يمكن تأليف قياس منطقى منهما... (۱) (فتأمل).

و هذه المسأله تشبه من يقول:إنّنى لو كنت أعتقد بأنّ فلانا يستجيب لدعوتى لدعوته،لكنّه فى الحال الحاضر إذا دعوته فسوف لن يستجيب،و لذلك فسوف لن أدعوه...

۲-لاستماع الحق مراحل

إنّ الإنسان قد يسمع أحيانا ألفاظا و عبارات دون التفكير فى مضامينها،إلاّ أنّ بعضا لفرط لجاجتهم،كانوا يرفضون حتى هذا القدر من السمع،كما يقول

۱- ۱) و بحسب اصطلاح المنطق أنّ الحدّ الوسط غير موجود فى القياس آنفا،لأنّ الجمله الأولى هى(لأسمعهم حال كونهم يعلم فيهم خيرا).و الجمله الثّانيه(لأسمعهم حال كونه لا يعلم فيهم فهما)و النتيجه أنّ الحدّ الوسط المشترك غير موجود بين الجملتين لتمكين تأليف القياس منهما،لأنّ الجملتين مختلفتان و منفصلتان(فتأمل).

عنهم القرآن وَ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاٰ تَسْمَعُوا لِهٰذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۱) .

و تاره يقبل الإنسان باستماع الأحاديث،لكنّه لا يقرر أبدا العمل بها، كالمنافقين الذين ورد ذكرهم فى الآيه(۱۶)من سوره محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتّٰى إِذٰا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قٰالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مٰا ذٰا قٰالَ آنِفاً .

و قد يصل وضع هؤلاء أعلى مراحل الخطر،إذ يسلبون القدره على معرفه الخبيث و الطيب،و حتى إذا استمعوا الحديث الحق لا يكون بإمكانهم استيعابه و هضمه.

و القرآن يقول عن هذه الطوائف الثلاث،إنّ هؤلاء فى واقعهم صم بكم،لإنّ الذى يسمع فى الحقيقه يجب عليه الإدراك و التفكير و العزم على العمل بإخلاص.

و كم من أناس فى عصرنا و زمننا الحاضر عند ما يسمعون آيات القرآن يتفاعلون معها بشكل ملفت للنظر،لكنّهم فى العمل لا يتطابقون بأى شكل مع مضمون القرآن الكريم.

۱- ۱) سوره فصلت،الآيه ۲۶.

الآیات [سوره الأنفال (8): الآیات 24 الی 26]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا اِسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ یَحُولُ بَیْنَ اَلْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَ اِتَّقُوا فِتْنَهً لاٰ تُصِیبَنَّ اَلَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْکُمْ خَاصَّهً وَ اِعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ شَدِیدُ اَلْعِقٰابِ (25) وَ اُذْکُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِیلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِی اَلْأَرْضِ تَخٰافُونَ أَنْ یَتَخَطَّفَکُمُ اَلنّٰاسُ فَآوٰاکُمْ وَ أَیَّدَکُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَکُمْ مِنَ اَلطَّیِّبٰاتِ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (26)

التّفسیر

اشاره

دعوه للحیاه:

تتابع هذه الآیات دعوه المسلمین المتقدمه للعلم و العمل و الطاعه و التسلیم لکنّها تتابع الهدف ذاته عن طریق آخر، فتقول ابتداء: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اسْتَجِیبُوا لِلّٰهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذٰا دَعٰاکُمْ لِمٰا یُحْیِیکُمْ .

فهذه الآیه تقول بصراحه:إنّ دعوه الإسلام هی دعوه للعیش و الحیاه،الحیاه المعنویه،الحیاه المادیه،الحیاه الثقافیه،الحیاه الاقتصادیه،الحیاه السیاسیه،

الحیاه الأخلاقیه و الاجتماعیه،و أخیرا الحیاه و العیش بالمعنی الصحیح علی جمیع الأصعده،و هذه أقصر و أجمع عباره عن الإسلام و رسالته الخالده،إذا سأل أحد عن أهداف الإسلام،و ما یمکن أن یقدمه،فنقول جمله قصیره:إنّ هدفه هو الحیاه علی جمیع الأصعده،هذا ما یقدمه لنا الإسلام.

تری هل کان الناس موتی قبل بزوغ الإسلام و نزول القرآن لیدعوهم القرآن إلی الحیاه...؟ و جواب هذا التساؤل:نعم،فقد کانوا موتی و فاقدی الحیاه بمعناها القرآنی، لأنّ الحیاه ذات مراحل مختلفه أشار إلی جمیعها القرآن الکریم.

فتاره تأتی بمعنی(الحیاه النباتیه)کما یقول القرآن: اِعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها (۱) .

و تاره تأتی بمعنی(الحیاه الحیوانیه)مثل: إِنَّ الَّذِی أَحْیاها لَمُحْیِ الْمَوْتی (۲) .

و تاره بمعنی(الحیاه الفکریه و العقلیه)مثل: أَ وَ مَنْ کانَ مَیْتاً فَأَحْیَیْناهُ (۳) و تاره بمعنی«الحیاه الخالده فی العالم الآخر)مثل: یا لَیْتَنِی قَدَّمْتُ لِحَیاتِی (۴) .

و تاره بمعنی(العالم و القادر بلا حد و لا نهایه)کما نقول عن اللّه: اَلْحَیِّ الَّذِی لا یَمُوتُ .

و بالنظر إلی هذه الأقسام التی ذکرناها نعرف أنّ الناس فی الجاهلیه کانوا یعیشون الحیاه الحیوانیه و المادیه،و کانوا بعیدین عن الحیاه الإنسانیه و المعنویه و العقلیه،فجاء القرآن لیدعوهم إلی الحیاه.

۱- ۱) الحدید،۱۷.

۲- ۲) فصلت،۳۹.

۳- ۳) الأنعام،۲۲.

۴- ۴) الفجر،۲۴.

و من هنا نعلم أنّ من يضع الـدين فی قوالب جامـده لا روح فيها بعيـدا عن مجالات الحياه،و يختزله فی مسائل فكريه و اجتماعيه صرفه فقـد جـانب الصواب كثيرا،لأنّ الـدين الصـحيح هو الـذی يبعث الحركه فی كـل جوانب الحياه، و يحيی الفكر و الثقافه و الإحساس بالمسؤوليه،و يوجد التكامل و الرّقی و الوحده و التألف،فهو إذا يبعث الحياه فی البشريه بكل معنی الكلمه.

و بـذلك تتّضـح هـذه الحقيقه أيضا و هی أن الـذين فسّروا الآيه بمعنی واحد هو الجهاد أو الإيمان أو القرآن أو الجنّه،و اعتبروا كل واحد من هذه الأمور هو العامل الوحيد للحياه فی الآيه المباركه،هؤلاء فی الحقيقه حددوا مفهوم الآيه، لأنّه يشتمل على كل ذلك و أكثر حيث يندرج،-ضمن مفهوم الآيه-كل شیء، و كل فكر،و كل قانون يبعث الروح فی جانب من جوانب الحياه.

ثمّ يقول تعالی: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

إنّ المقصود بـالقلب هنـا-كمـا ذكرنـا سابقـا-الروح و العقل،أمّا كيف يحول اللّه بين المرء و قلبه؟فقـد ذكروا لـذلك احتمالات مختلفه...

فتاره قيل:إنّه إشاره لشـدّه قرب اللّه من عباده،فكأنّ اللّه فی داخل روح العبـد و جسـمه،و كما يقول القرآن الكريم: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .

و قيل:إشاره إلی أنّ تقلب القلوب و الأفكار هو بيد اللّه،كما نقرأ فی الدعاء:

(يا مقلب القلوب و الأبصار).

و قيل:إنّ المقصود هو أنّ الإنسان لولا اللطف الإلهی غير قادر علی معرفه الحق من الباطل.

و قيـل أيضا:إنّ المقصود هو أنّه ما دام للناس فرصه فينبغی عليهم أداء الطاعات و أعمال الخير،لأنّ اللّه قـد يحول بواسـطه الموت بين المرء و قلبه.

و يمكن بنظره شـامله جمع كل التفاسـير فی تفسـير واحـد،هو أنّ اللّه عزّ و جلّ حاضـر و ناظر و مهيمن علی كل المخلوقات.فإنّ الموت و الحياه و العلم و القدره

و الأمن و السكينه و التوفيق و السعاده،كلّها بيديه و تحت قدرته،فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه،أو أن يعمل أمرا بدون توفيقه،و ليس من اللائق التوجه لغيره و سؤال من سواه.لأنّه مالك كل شيء و المحيط بجميع وجود الإنسان.و ارتباط هذه الجمل مع سابقتها من جهه أنّه لو دعا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الناس إلى الحياه،فذلك لأنّ الذى أرسله هو مالك الحياه و الموت و العقل و الهدايه و مالك كل شى.

و للتأكيد على هذا الموضوع فإنّ الآيه تريد أن تقول:إنّكم لستم اليوم فى دائره قدرته فحسب،بل ستذهبون إليه فى العالم الآخر،فأنتم فى محضره و تحت قدرته هنا و هناك.

ثمّ تشير إلى عاقبه السوء لمن يرفض دعوه اللّه و رسوله إلى الحياه فتقول:

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لاٰ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً

.

و كلمه(فتنه)استعملت فى القرآن المجيد بمعان مختلفه،فقد جاءت تاره بمعنى الإختيار و الامتحان،و تاره بمعنى البلاء و العذاب و المصيبه،و هى فى الأصل بمعنى إدخال الذهب فى بوتقه النّار ليتميز جيده من رديئه،ثمّ استعملت بمعنى الإختيارات التى تكشف الصفات الباطنيه للإنسان،و استحدثت فى الابتلاء و الجزاء الذى يبعث الصفاء فى روح الإنسان و يطهّره من شوائب الذنوب،و أمّا فى هذه الآيه فإنّ كلمه(فتنه)بمعنى البلاء و المصائب الاجتماعيه التى يصاب بها الجميع فيحترق فيها الأخضر مع اليابس.

و فى الحقيقه فشأن الحوادث الاجتماعيه هو هكذا،فإذا ما توانى مجتمع ما عن أداء رسالته،و انهارت القوانين على أثر ذلك،و انعدم الأمن،فإنّ نار الفتنه ستحرق الأبرار مع الأشرار،و هذا هو الخطر الذى يحذر اللّه تبارك و تعالى منه و يحذر فى هذه الآيه المجتمعات البشريه كلّها.

و مفهوم الآيه هنا هو أنّ أفراد المجتمع مسئولين عن أداء وظائفهم،و كذلك

فهم مسئولون عن حقّ الآخرين لأداء وظائفهم أيضا،لأنّ الاختلاف و التشتت فى قضايا المجتمع يؤدى إلى انهياره،و يتضرر بذلك الجميع،فلا يصحّ أن يقول أحد بأنّنى أؤدى رسالتى الاجتماعيه و لا علاقه لى بالآثار السلبيه الناجمه عن عدم أداء الآخرين لواجباتهم،لأنّ آثار القضايا الاجتماعيه ليست فرديه و لا شخصيه.

و هذا الموضوع يشبه تماما ما لو احتجنا لصد هجوم الأعداء إلى مائه ألف مقاتل،فإذا قام خمسون ألف مقاتل بأداء وظائفهم فمن اليقين أنّهم سيخسرون عند منازلتهم العدو،و هذا الانكسار سيشمل الذين أدوا وظائفهم و الذين تقاعسوا عن أدائها و هذه هى خصوصيه المسائل الاجتماعيه.

و يمكن إيضاح هذه الحقيقه بصوره أجلى و هى:أنّ الأخيار من أبناء المجتمع مسئولون فى التصدّى للأشرار لأنّهم لو اختاروا السكوت فسيشاركون أولئك مصيرهم عند اللّه كما

ورد ذلك فى حديث مشهور عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: (إنّ اللّه عزّ و جلّ لا يعذب العامّه بعمل الخاصّه حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم و هم قادرون على أن ينكرون،فإذا فعلوا ذلك عذب اللّه الخاصّه و العامّه) (۱) .

و يتّضح ممّا قلناه أنّ هذا الحكم يصدق فى مجال الجزاء الإلهى فى الدنيا و الآخره،و كذلك فى مجال النتائج و آثار الأعمال الجماعيه (۲) .

و تختتم الآيه بلغه التهديد فتقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ شَدِيدُ الْعِقٰابِ لئلا يصاب هؤلاء بالغفله بسبب الألطاف و الرحمه الإلهيه و ينسوا شدّه الجزاء الإلهى، فتأكلهم الفتن و تحيط بهم من كل جانب،كما أحاطت المجتمع الإسلامى،

۱- ۱) تفسير المنار،الجزء ۹،ص ۶۳۸.

۲- ۲) فقد جرى الحديث بين المفسّرين حول كلمه«لا تصيبنّ»فى أنّها هل هى صيغه نفى أو نهى،فالذين قالوا بالنهى و فسّروها بمعنى اتّقوا الفتن لأنّها لا تصيب الظالمين وحدهم،و قال بعض:إنّها صيغه نفى و لكن لما يعتقده علماء العربيه بأنّ نون التوكيد لا تظهر فى النهى و جواب القسم،فقد اعتبروا الجمله جوابا لقسم مقدر.

و أرجعته القهقرى بسبب نسيانه السنن و القوانين الإلهيه.

فنظره قصيره إلى مجتمعنا الإسلامى فى زماننا الحاضر و الانكسارات التى أصابته أمام أعدائه،و الفتن الكثيره،كالاستعمار و الصهيونيه،و الإلحاد و الماديه، و الفساد الخلقى و تشتت العوائل و سقوط شبابه فى وديان الفساد،و التخلف العلمى،كل ذلك يجسد مضمون الآيه،و كيف أنّ تلك الفتن أصابت كل صغير و كبير،و كل عالم و جاهل،و سيستمر كل ذلك حتى اليوم الذى تتحرك فيه الروح الاجتماعيه للمسلمين،و يهتم الجميع بصلاح المجتمع و لا يتخلفوا عن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و يأخذ القرآن الكريم مرّه أخرى بأيدى المسلمين ليعيدهم نحو تاريخهم، فكم كانوا فى بدايه الأمر ضعفاء و كيف صاروا لعلهم يدركون الدرس البليغ الذى علّمهم إيّاه فى الآيات السابقه فيقول: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاسُ .

و هذه عباره لطيفه تشير إلى الضعف و قلّه العدد التى كان عليها المسلمون فى ذلك الزمن،و كأنّهم كانوا شيئا صغيرا معلقا فى الهواء بحيث يمكن للأعداء أخذه متى أردوا،و هى إشاره لحال المسلمين فى مكّه قبل الهجره قبال المشركين الأقوياء.أو إشاره لحال المسلمين فى المدينه بعد الهجره فى مقابل القوى الكبرى كالفرس و الروم: فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

الآیتان [سوره الأنفال (٨): الآیات ٢٧ الی ٢٨]

اشاره

یَا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اَللّٰهَ وَ اَلرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِکُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَ اِعْلَمُوا أَنَّمٰا أَمْوٰالُکُمْ وَ أَوْلاٰدُکُمْ فِتْنَهٌ وَ أَنَّ اَللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ (٢٨)

سبب النّزول

لقد وردت عدّه روایات فی سبب نزول هاتین الآیتین،منها ما ورد عن الإمامین الباقر و الصّادق علیهما السلام من أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر بمحاصره یهود(بنی قریضه) و استمرت هذه المحاصره واحدا و عشرین یوما،حتی أجبروا علی المطالبه بالصلح،کما جری ذلک مع الیهود من(بنی النضیر)و ذلک بأن یرحلوا عن أرض المدینه إلی أرض الشام،لکن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رفض ذلک العرض(لعلّه کان یشک فی صدق نیّاتهم)و قال:یجب القبول بحکم(سعد بن معاذ)لکنّهم طلبوا من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یرسل إلیهم(أبا لبابه)و هو من أصحاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المدینه، و کانت له معهم صداقه قدیمه،و کانت عائلته و أبناؤه و أمواله عندهم.

فقبل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذلک الطلب و أرسل(أبا لبابه)إلیهم فاستشاروه:هل من مصلحتهم القبول بتحکیم(سعد بن معاذ)؟فأشار أبو لبابه إلی حلقه،بمعنی أنّکم

لو قبلتم فسوف تقتلون فلا ترضوا بهذا العرض،فهبط أمين الوحی جبرائيل عليه السلام إلى النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخبره بذلک.

يقول أبو لبابه:فو اللّه ما زالت قدمای حتی عرفت إنّی خنت اللّه و رسوله، و عند ذاک نزلت هذه الآيات فی أبی لبابه.و قد عاد أبو لبابه معلنا ندمه الشديد و أتی بحبل و ربط نفسه به إلى أحد أعمده مسجد النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.و قال:و اللّه لا أذوق طعاما و لا شرابا حتی يموت أو يقبل اللّه توبته. و استمر على هذه الحال دون أكل و شرب إلى سبعه أيّام،حتى فقد وعيه و سقط على الأرض مغشيا عليه،فقبل اللّه توبته،و قام المؤمنون بإبلاغه الخبر،لكنّه أقسم أن لا يفکّ نفسه من العمد حتى يأتيه النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يفک عنه الحبل،فجاءه النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فکّ حبله،و قال(أبو لبابه):

إنّ من تمام توبتی أن أهجر دار قومی التی أصبت فيها بالذنب و أن انخلع من مالی،

فقال النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له: «يجزيک الثلث أن تصدّق به» (۱) .

و قد جاء هذا المضمون نفسه فی كتب أهل السنه حول سبب النّزول،إلّا أنّ بعضهم استبعد النّزول فی شأن(بنی قريضه)،لأنّ سابقاتها من الآيات تتعلق بحادثه بدر،و لأنّ هذه القضيه لم تقع إلّا بعد مدّه طويله من واقعه بدر،لهذا قالوا:

إنّ المقصود فی الرّوايات هو أنّ حادثه بنی قريضه من مصاديق الآيه،لا أنّها نزلت فيها،و إنّ هذه العباره يوردها الكثيرون فی أسباب النّزول.فعلى سبيل المثال فقد جاء فی بعض الكتب نقلا عن بعض الصحابه أنّ الآيه الفلانيه قد نزلت فی قتل عثمان،غير أنّ من المعلوم أنّ قتل عثمان حدث بعد سنين طويله من وفاه النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يحتمل أيضا أن الآيه قد نزلت فی بنی قريضه،و لكن بما أنّها كانت تتناسب و الآيات النازله فی قضيه بدر،فقد أمر النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإلحاقها بتلک الآيات.

۱- ۱) نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۴۳.

التّفسير

اشاره

الخيانه و أساسها:

يوجه اللّه سبحانه فى الآيه الأولى من الآى محل البحث الخطاب إلى المؤمنين فيقول: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَخُونُوا اللّٰهَ وَ الرَّسُولَ
.

إنّ الخيانه للّه و رسوله،هى وضع الأسرار العسكريه للمسلمين فى تصرف أعدائهم،أو تقويه الأعداء أثناء محاربتهم،أو بصوره عامّه ترك الواجبات و المحرمات و الأوامر الإلهيه،و لذلك فقد ورد عن(ابن عباس):إنّ من ترك شيئا من الأوامر الإسلاميه فقد ارتكب خيانه بحق اللّه و رسوله.

ثمّ تقول الآيه: وَ تَخُونُوا أَمٰانٰاتِكُمْ (1) .

و(الخيانه)فى الأصل معناها:الامتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به،و هى ضد(الأمانه)و الأمانه و إن كانت تطلق على الأمانه الماليه غالبا،لكنّها فى منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياه الاجتماعيه و السياسيه و الأخلاقيه كافه،و لذلك

جاء فى الأحاديث: «المجالس بالأمانه».

و نقرأ

فى حديث آخر: «إذا حدث الرجل بحديث ثمّ التفت فهو أمانه. و من ذلك تكون أرض الإسلام أمانه إلهيه بأيدى المسلمين و أبنائهم أيضا.و فوق كل ذلك فإنّ القرآن المجيد و تعاليمه كل ذلك يعد أمانه إلهيه كبرى،و قد قال بعضهم:

إنّ أمانه اللّه هى أوامره،و أمانه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سنته،و أمانه المؤمنين أموالهم و أسرارهم،و لكن الأمانه فى الآيه-آنفا-تشتمل على كل ذلك.

على كل حال،فإنّ الخيانه فى الأمانه من أقبح الأعمال و شرّ الذنوب.فإنّ من يخون الأمانه منافق فى الحقيقه،كما

ورد فى الحديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.حيث قال: «آيه المنافق ثلاث:إذا حدث كذب،و إذا وعد أخلف،و إذا

1- 1) «تخونوا»فى الأصل(لا تخونوا)و قد حذفت(لا)بقرينه الجمله السابقه.

ائتمن خان،و إن صام و صلی و زعم أنّه مسلم».

کما أن ترک الخیانه فی الأمانه یعدّ من الحقوق و الواجبات الإنسانیه،حتی إذا کان صاحب الأمانه غیر مسلم فلا تجوز خیانه أمانته.

و یقول القرآن فی آخر الآیه: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أی أنّه قد یصدر منکم علی نحو الخطأ ما هو خیانه،و لکن تقدموا علی الخیانه و أنتم تعلمون،فإنّ عملا-کعمل (أبی لبابه)لم یکن لجهل أو خطأ،بل بسبب الحب المفرط للمال و البنین و حفظ المصالح الشخصیه الذی قد یسد فی لحظه حساسه کل شیء بوجه الإنسان، فکأنّه لا یری بعینه و لا یسمع بأذنیه...فیخون اللّه و رسوله،و هذه فی الحقیقه خیانه مع العلم،و المهم أن یستیقظ الإنسان بسرعه کما فعل(أبو لبابه)لیصلح ما قام بتخریبه.

و الآیه بعدها تحذر المسلمین لیجتنبوا المادیات و المنافع العابره،لئلا تلقی علی عیونهم و آذانهم غشاء فیرتکبون خیانه تعرّض المجتمع إلی الخطر فتقول:

وَ اعْلَمُوا أَنَّمٰا أَمْوٰالُکُمْ وَ أَوْلاٰدُکُمْ فِتْنَهٌ

.

و کلمه«فتنه»-کما ذکرنا-تأتی فی مثل هذه الموارد بمعنی وسیله الامتحان،و الحقیقه أنّ أهم وسیله لامتحان الإیمان و الکفر و الشخصیه و فقدانها، و میزان القیم الإنسانیه للأفراد هو هذان الموضوعان(المال و الأولاد).

فکیفیه جمع المال و کیفیه إنفاقه،و المحافظه علیه و میزان التعلق به،کل تلک میادین لامتحان البشر،فکم من أناس یلتزمون بظاهر العباده و شعائر الدین، حتی المستحبات یلتزمون بشدّه فی أدائها،لکنّهم إذا ما ابتلوا بقضیه مالیه،تراهم ینسون کل شیء و یدعون الأوامر الإلهیه و مسائل الحق و العدل و الإنسانیه جانبا.

أمّا عن الأبناء فهم ثمار قلب الإنسان و براعم حیاته المتفتحه،و لهذا نجد الکثیر من الناس المتمسکین بالدین و المسائل الأخلاقیه و الإنسانیه،لا یراعوا الحق و الدین بالنسبه للمسائل المتعلقه بمصلحه أبنائهم،فکأنّ ستارا یلقی علی

أفكـارهم فينسون كـل الأـمور،و يصـير حبّهم لأبنـائهم سـببا ليحلّوا الحرام و يحرموا الحلاـل،و من أجـل توفير المسـتقيل لأبنائهم يستحقون كـل حق و يقـدمون على كـل منكر،فيجب علينـا الاعتصام باللّه العظيم فى هـذين الميـدانين العظيمين للامتحان، و أن نحذر بشدّه،فكم من الناس زلت أقدامهم و سـقطوا فيهما،و ظلت لعنه التأريخ تلاحقهم أبدا بذلك. فإذا زلت لنا قدم يوما،فيجب علينا الإسراع فى تصحيح المسير ك(أبى لبابه)و إذا كان المال هو السبب فى الانحراف،فعلينا بذله و إنفاقه فى سبيل اللّه.

و فى نهايه الآيه بشاره كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانين منتصرا، فتقول: وَ أَنَّ اللّٰهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

فمهما كان حبّ الأبناء كبيرا،و مهما كانت الأموال محبوبه و كثيره،فإنّ جزاء اللّه و ثوابه أعلى و أعظم من كل ذلك.

و هنـا تثـار أسـئله كثيره،منهـا:لمـاذا يمتحن اللّه النـاس مع إحاطته العلميه بكل شـىء؟و لماذا يكون الامتحان شاملا للجميع حتى الأنبيـاء؟و مـا هى مواد الامتحـان الإلـهى و ما هى السـبل للتغلب عليها؟و قـد أجبنا على كل تلك الأسـئله فى المجلـد الأولى من التّفسير الأمثل.

الآیه [سوره الأنفال (۸): آیه ۲۹]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اَللّٰهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقٰاناً وَ یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ وَ اَللّٰهُ ذُو اَلْفَضْلِ اَلْعَظِیمِ (۲۹)

التّفسیر

اشاره

الإیمان و وضوح الرّؤیه:

تناولت الآیات السابقه أوامر حیاتیه تتضمّن السعاده المادیه و المعنویه للإنسان،لکن العمل بها غیر ممکن إلاّ فی ظلال التقوی،لذلک جاءت هذه الآیه المبارکه لتؤکّد أهمیه التقوی و آثارها فی مصیر الإنسان،و قد بیّنت الآیه أربعه ثمار و نتائج للتقوی.

فقالت ابتداء:یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللّٰهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقٰاناً... .

و کلمه«فرقان»صیغه مبالغه من ماده(فرق)و هی هنا بمعنی الشیء الذی یفصل بین الحق و الباطل تماما.

إنّ هذه الجمله الموجزه و الکبیره فی معناها قد بیّنت إحدی أهم المسائل المؤثره فی مصیر الإنسان،و هی أنّ درب الإنسان نحو النصر محفوف دائما بالمصاعب و الحفر فإذا لم یبصرها جیدا و یحسن معرفتها و اتقاءها فسیسقط فیها

لا ـ محاله،فأهم مسأله فی هـذا الطریق هی معرفه الحق و الباطل،معرفه الحسن و القبیـح،معرفه الصـدیق و العـدو،معرفه الفوائـد و الأضرار،معرفه عوامل السعاده و الضیاع،فإذا استطاع الإنسان معرفه هذه الحقائق جیدا فسیسهل علیه الوصول إلی الهدف.

إنّ المشـکله التی تعترض الإنسان غالبا هی خطأه فی تشخیص الباطل و اختیاره علی الحق،و انتخاب العدوّ بدل الصدیق، و طریق الضـلال بـدل طریق الهـدایه،و هنـا یحتـاج الإنسان إلی بصـر و بصـیره قویّه،و وضوح رؤیه.إنّ هـذه الآیه المبارکه تقول:إنّ هـذه البصیره ثمره لشجره التقوی.أمّا کیف تعطی هذه التقوی البصیره للإنسان؟فقد یکون الأمر مبهما لدی البعض،لکن قلیلا من الدقّه و التأمل کافیه لتوضیح العلاقه الوثیقه بین هذین الإثنین،و لإیضاح ذلک نقول:

أوّلا ـ:إنّ قـوّه عقـل الإنسـان تسـتطیع إدراک الحقـائق بقـدر کـاف،و لکن سـتائر من الحرص و الطمع و الشـهوه و حبّ النفس و الحسـد،و الحبّ المفرط للمـال و الأـزواج و الأولاـد و الجاه و المنصب کل ذلک یغـدوّ کالـدخان الأسود أمام بصـیره العقل،أو کالغبـار الغلیـظ الـذی یملأـ الآفاق،و هنا لا یمکن للإنسان معرفه الحق و الباطل فی أجواء مظلمه،أمّا إذا غسل تلک الغشاوه بماء التقوی و انقشع ذلک الدخان الأسود،عند ذاک تسهل علیه رؤیه نور الحق.

ثانیـا:أنّنـا نعلم أنّ کـل کمـال فی أی مکـان إنّمـا هو قبس من کمال الحق،و کلّما اقترب الإنسان من اللّه فإنّ نور الکمال المطلق سینعکس فی وجوده أکثر،و علی ذلـک فـإنّ أی علم و معرفه فهو نبع من علمه و معرفته تعـالی،و کلّمـا تقـدّم الإنسـان فی ظلال التقوی و ترک المعاصی من اللّه،ذابت قطره وجوده فی بحر وجود العظیم أکثر،و سیحصل علی مقدار أکثر من العلم و المعرفه.

و بعبـاره أخری فـإنّ قلب الإنسـان کـالمرآه،و وجود اللّه کالشـمس السـاطعه علی الوجود،فـإذا تلوثت مرآه قلبه من الأهواء حتی اسودت،فسوف لا تعکس

ص :۴۰۶

النور،فإذا تمّ جلاؤها بالتقوى و زال الدرن عنها،فإنّ تلك الشمس الوضاءه الساطعه ستنعكس فيها و تنير كل مكان.

و لـذلك فإنّنـا نرى على مـدى التأريـخ بعض النساء و الرجال المتّقين يملكون وضوحا من الرؤيه لا يمكن بلوغه بوسائل العلم و المعرفه أبـدا،فهم يرون أسباب الكـثير من الحوادث التى تعصف بـالمجتمع غير المرئيه،و يرون وجود أعـداء الحق و إن حجبتها آلاف الستائر الخادعه.

و هـذا الأـثر العجيب للتقوى فى معرفه الواقع،جـاء ذكره فى الكثير من الرّوايـات و الآيـات الأـخرى،ففى سوره البقره تقول الآـيه ٢٨٢: اِتَّقُوا اللّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ،و جاء فى الحديث المعروف:«المؤمن ينظر بنور اللّه».

و فى نهج البلاغه فى قصار الكلم:«أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

ثالثا:بالتحليل العقلى يمكن فهم العلاقه الوثيقه بين التقوى و إدراك الحقائق أيضا،لأنّ المجتمعات التى تسير فى دروب الفساد و الرذيله و أجهزه الإعلام فيهـا تطبـل لـذلك الميسر،و الصحافه و الراديـو و التلفزيون كلهـا تـدعو للتلوث و الاـنحراف و خـدمه الفساد،فمن البـديهى أن يصعب على الناس تمييز الحق من الباطل،الجيد من الردىء،و نتيجه الأمر،فإنّ انعدام التقوى يكون سببا لفقدان القدره على هذه المعرفه أو سوء المعرفه.

و مثال آخر:فإنّ عائله غير متقيّه،و صغارها يشبون فى محيط ملوث بالفساد و الرّذيله،فمن العسير على هؤلاء فى المستقبل تمييز الجيد من الردىء، و إهدار القوى و الطاقات فى الذنوب يتسبب بقاء الناس على مستوى دان من البصيره و المعرفه و انحطاط فى التفكير حتى و إن كانوا متقدمين فى الصناعه و الحياه الماديه.

و بناء على ما تقدم فإنّنا نرى أنّ ادنى انحراف عن التقوى يسبب نوعا من

العمى و سوء المعرفه،لذلک نری فی العالم الصناعی الیوم مجتمعات متقدمه جدّا فی العلم و الصناعه،و لکنّها فی حیاتها الیومیه مصابه بأمراض و مشاکل شدیده تبعث علی الاستغراب و التعجب،و هنا تتجلی عظمه ما قاله القرآن الکریم.

و نظرا إلی أنّ التقوی لا ـ تنحصر بالتقوی فی العمل،بل تشمل التقوی فی الفکر و العقل،فإنّ هذه الحقیقه تتّضح بصوره أجلی.فالتقوی فی الفکر تعنی مواجهه التسیّب و عدم الانضباط فی التفکیر،بمعنی أن نبحث فی دراساتنا و تحقیقاتنا عن أصح الأدله و أوثق البراهین،و أن لا نلتزم بعقیده دون التحقیق الکافی و الدقه اللازمه.

و الذین یراعون التقوی و یلتزمونها فی تفکیرهم سیبلغون النتائج الصحیحه أسرع بکثیر ممن لا یلتزم بها،کما أنّ الخلط و الخطأ یکثر عند من لا یتقی اللّه فی استدلالاته و أسلوب تفکیره.

و هناک أمر آخر یجب الانتباه إلیه،لأنّ الکثیر من مفاهیمنا الإسلامیه قد تعرضت للتشویه بین المسلمین،و هو أنّ الکثیر من الناس یتصور أنّ الإنسان المتقی هو الذی یکثر من غسل بدنه و لباسه و یعتبر کل فرد و کل شیء نجسا و مشکوکا فیه،و ینزوی جانبا متجنبا الخوض فی الأمور الاجتماعیه،و یسکت أمام کل واقعه،فهذه النظرات المغلوطه عن التقوی و المتقین فی الحقیقه إحدی عوامل انحطاط المجتمعات الإسلامیه،لأنّ هذه التقوی لا تنتج معرفه و لا وضوح رؤیه و لا تکون فرقانا بین الحق و الباطل.

و علی کل حال،و بعد أن اتّضح أوّل ثواب للمتقین نعود لتفسیر بقیه الآیه و سائر الثمار الأربعه لها.

یقول القرآن الکریم:إنّه إضافه إلی معرفه الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوی أن یغطی علی ذنوبکم و یمحوا آثارها من وجودکم وَ یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئٰاتِکُمْ .

ص :۴۰۸

مضافا إلى ذلك،فإنّه تعالى سيشملكم بمغفرته وَ يَغْفِرْ لَكَمْ .

و ثمار كثيره أخرى تنتظركم لا يعلمها إلاّ اللّه: وَ اللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

فهـذه الآثـار الأربعه هى ثمرات فى شـجره التقوى،و وجود روابط طبيعيه بين التقوى و قسم من هـذه الآثار لا يمنع من نسـبه كل ذلـك إلى اللّـه تبـارك و تعـالى،لأنّنـا و كمـا قلنـا مرارا فى هـذا التّفسـير فـإنّ أى موجـود ذى آثـار إنّمـا تحصـل بمشـيئه اللّه و قدرته،فيمكن نسبه تلك الآثار إلى اللّه عزّ و جلّ،و إلى ذلك الموجود أيضا.

و أمّا الفرق بين(تكفير السيئات)و(الغفران).فقد قال بعض المفسّرين بأنّ الأولى إشاره إلى الحجب من الدنيا،و الثّانيه إلى النجاه من الجزاء الأخروى، و يرد احتمال آخر هنا و هو أن(تكفير السيئات)تشير للآثار النفسيه و الاجتماعيه للذنوب و التى تزول بفعل التقوى، و لكن(الغفران)إشاره إلى مسأله العفو الإلهى و الخلاص من الجزاء...

ص:۴۰۹

الآیه [سوره الأنفال (۸): آیه ۳۰]

اشاره

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اَللّٰهُ وَ اَللّٰهُ خَيْرُ اَلْمٰاكِرِينَ (۳۰)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون و المحدثون أن الآیه-محل البحث-تشیر إلی الحوادث التی أدت إلی هجره الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مکّه إلی المدینه.

هذه الحوادث و إن رویت بعبارات مختلفه إلاّ أنّها تتفق جمیعا علی حقیقه أنّ اللّه عزّ و جلّ قد أنقذ نبیّه الکریم عن طریق الإعجاز من خطر محدق به، و نروی هذه الحادثه وفقا لمّا ورت فی الدّر المنثور و مجمع البیان ذیل الآیه آنفا ...

قال المفسّرون:إنّها نزلت فی شأن«دار النّدوه»و ذلک أنّ نفرا من قریش اجتمعوا فیها و هی دار قصیّ بن کلاب،و تآمروا فی أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال عروه بن هشام:نتربص به ریب المنون،و قال أبو البختری:أخرجوه عنکم تستریحوا من أذاه،و قال أبو جهل:ما هذا برأی،و لکن اقتلوه بأن یجتمع علیه من کل بطن رجل فیضربوه بأسیافهم ضربه رجل واحد... فیرضی بنو هاشم حینئذ بالدیّه،فصوّب

إبليس هذا الرأی،و کان قد جاءهم فی صوره شیخ کبیر من أهل نجد،و خطّأ الأولّین.

فاتفقوا علی هـذا الرأی و أعدّو الرجال و السـلاح و جاء جبرئیل علیه السـلام فأخبر النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فخرج إلی الغـار و أمر علیّا فبـات علی فراشه،فلمّـا أصـبحوا و فتشوا عن الفراش،و جـدوا علیّا علیه السـلام و قـد ردّ اللّه مکرهم فقـالوا:أین محمّـد؟فقـال:لا أدری،فاقتصّوا أثره و أرسـلوا فی طلبه،فلمّا بلغوا الجبل و مرّوا بالغار رأوا علی بابه نسـج العنکبوت،فقالوا:لو کان هاهنا لم یکن نسج العنکبوت علی بابه فمکث فیه ثلاثا ثمّ قدم المدینه» (۱) .

التّفسیر

اشاره

سرّ بدایه الهجره:

یعتقد بعض المفسّـرین أنّ هذه الآیه،و خمس آیات تلیها،نزلت فی مکّه لأنّها تشیر إلی هجره النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،و لکن سیاقها یدل علی نزولها بعد الهجره،إذ تتکلم علی حادثه سابقه.

فبناء علی ذلک تکون هذه الآیه قد نزلت فی المدینه بالرغم من حدیثها عن هجره النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتحدث عن الذکری الکبری و النعمه العظمی التی منّ اللّه بها علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین،فتقول فی بدایتها وَ إِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخْرِجُوکَ .

کلمه«المکر»کما ذکرنا سلفا تعنی فی اللغه التدبیر و التخطیط و الحیله.

ثمّ تضیف الآیه قائله: وَ یَمْکُرُونَ وَ یَمْکُرُ اللّهُ وَ اللّهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ .

فـإذا أمعنّا النظر فی موضوع هجره النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فإنّنـا سـنجد أنّ المشـرکین قـد بـذلوا کل ما فی وسـعهم و جهدهم من طاقات فکریه و جسدیه للقضاء علی نبیّ

۱- ۱) الدر المنثور وفقا لما نقل عنه صاحب المنار،و مجمع البیان ذیل الآیه.

الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم،حتى أنّهم أعـدّوا جائزه لهـذا الغرض و هى مائه ناقه،و هـذا العـدد من الإبل كان يعدّ ثروه كبرى يومئذ«هذه الجائزه لكلّ من يقبض على النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى بعد أن خرج عن قبضتهم»و قد طفق الكثير يجوبون الفيافى و الجبال ليبحثوا عنه طلبا لتلك الجائزه الكبرى حتى بلغوا الغار،و لكن اللّه سـبحانه أذهب بأتعابهم أدراج الرياح بواسـطه نسـيج العنكبوت! و نظرا إلى أنّ هجره النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم تمثل مرحله جديده فى التّأريخ الإسـلامى، بل التّأريخ الإنسانى،فإنّنا نستنتج أنّ اللّه قد غير مسيره التّأريخ البشرى بما نسجته العنكبوت من خيوط!...

و هذا الأمر لا ينحصر بهجره النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،بل فى جميع تأريخ الأنبياء،فإنّ اللّه سبحانه أذل أعداءهم و دمرهم و أبـاد قوى الضـلال بأسـباب هيّنه كالريـح-مثلاـ- أو كثره البعوض،أو الطير الصـغيره التى تسـمّى بالأبابيـل،ليبيّن حـاله الضـعف البشرى و العجز إزاء قدرته اللامتناهيه و ليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان و العناد.

و ممّا يسترعى النظر أنّ الالتجاء إلى هذه الأساليب الثّلاثه:السـجن و النفى و القتل،لم يكن منحصـرا بالمشركين فى مواجهه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فحسب،فـإنّ الطغـاه يلجأون إلى هـذه الأساليب الثّلاثه دائما للقضاء على المصـلحين و إسـكاتهم، و الحيلوله دون بسـط نفوذهم بين المستضـعفين،إلاـ أنّه كمـا كـانت النتيجه خلاف ما أراده مشـركو مكّه فى شأن النّبى و أضـحت مقـدمه لتحرك إسـلامى جديـد،فكذلك مثل هذه الموجهات الشديده قد باءت نتائجها فى مواطن أخرى بعكس ما كان متوقعا (١)

١- ١) الملاحظه اللطيفه هنا هو أنّ كتابه هذا التّفسـير كانت فى الاجزاء السابقه تسـير مسيرا بطيئا،و لكن بما أن راقم هذه السّطور حين كتابه هـذا الجزء من التّفسير كان قـد نفى من قبل حكومه الطاغوت إلى مـدينه«مهاباد»و«أنارك»فإنّ كتابه هذا التّفسـير قد سارعت الخطى بحيث إنّنى أكملت تمام هذا الجزء فى ذلك المنفى.

الآیات [سوره الأنفال (٨): الآیات ٣١ الی ٣۵]

اشاره

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلاّ أَساطِيرُ اَلْأَوَّلِينَ (٣١) وَ إِذْ قالُوا اَللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ اَلْحَقَّ
مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ اَلسَّماءِ أَوِ اِئْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَ ما كانَ اَللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اَللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَ ما لَهُمْ أَلاّ يُعَذِّبَهُمُ اَللّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلاَّ اَلْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣۴) وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ اَلْبَيْتِ إِلاّ مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا اَلْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣۵)

التّفسير

اشاره

القائلون شططا:

ذكر فی الآيه السابقه مثل خرافی من منطق المشركين العملی،و فی هذه الآيات مثل آخر من منطقهم الفكری،ليتّضح أنّ هؤلاء لم يمتلكوا سلامه فی

ص: ۴۱٣

الفکر و لا صحه فی العمل،فجمیع أسالیبهم خاویه بغیر أساس.

تقول الآیه الأولی من الآیات محل البحث: وَ إِذٰا تُتْلیٰ عَلَیْهِمْ آیٰاتُنٰا قٰالُوا قَدْ سَمِعْنٰا لَوْ نَشٰاءُ لَقُلْنٰا مِثْلَ هٰذٰا إِنْ هٰذٰا إِلاّٰ أَسٰاطِیرُ الْأَوَّلِینَ
.

کانوا یقولون مثل هذا الکلام عند ما یعجزون عن مواجهه القرآن و معارضته، و کانوا یعرفون جیدا أنّهم غیر قادرین علی معارضه القرآن،إلاّ أنّهم و لحقدهم و عصبیتهم،أو لأنّهم یریدون إضلال الناس،کانوا یقولون:إنّ الإتیان بمثل هذه الآیات غیر عسیر و لو نشاء لقلنا مثلها،و لکنّهم لم یستطیعوا أن یأتوا بمثلها أبدا، و ما هذا القول منهم سوی ادعاء فارغ یهدفون بذلک إلی إبقاء کیانهم الاجتماعی-کسائر الجبابره فی التأریخ-إلی أمر معدود.

و الآیه التّالیه تتحدث عن منطق عجیب آخر فتقول: وَ إِذْ قٰالُوا اللّٰهُمَّ إِنْ کٰانَ هٰذٰا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِکَ فَأَمْطِرْ عَلَیْنٰا حِجٰارَهً مِنَ السَّمٰاءِ أَوِ ائْتِنٰا بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ .

لقد کانوا یقولون ذلک لشدّه تعصبهم و عنادهم،و کانوا یتصورون أنّ الدین الإسلامی لا أساس له أبدا،و إلاّ فإنّ أحدا یحتمل حقانیه الإسلام کیف یمکنه أن یدعو علی نفسه بمثل هذا الدعاء؟ کما و یحتمل أیضا أنّ شیوخ المشرکین و سادتهم یقولون ذلک الکلام لتضلیل الناس و لیثبتوا لبسطائهم أنّ رساله النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باطله تماما،فی حین أنّهم لا یعتقدون بما یقولون.و کأنّهم-أی المشرکین-یریدون أن یقولوا للنبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:إنّک تتکلم عن الأنبیاء السابقین،و إنّ اللّه قد أهلک أعداءهم بحجاره أمطرها علیهم«کما هی الحال فی شأن قوم لوط»فإن کنت صادقا فیما تقول فأمطر علینا حجاره من السماء! و

قد ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام(فی مجمع البیان) أنّه لما نصب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علیا علیه السّلام یوم غدیر خم فقال:من کنت مولاه فعلی مولاه،طار ذلک فی البلاد،فقدم علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم النعمان بن الحارث الفهری،فقال:أمرتنا من اللّه

أن نشهد أن لا إله إلاّ اللّه و أنّك رسول اللّه،و أمرتنا بالجهاد و الحج و الصوم و الصلاه و الزكاه فقبلناها،ثمّ لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت:من كنت مولاه فعلى مولاه،فهذا شيء منك أو أمر من عند اللّه؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:«و اللّه الذى لا إله إلاّ هو،إن هذا من اللّه».فولّى النعمان بن الحارث و هو يقول:اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء،فرماه اللّه بحجر على رأسه فقتله (1) .

و هذا الحديث لا ينافى نزول الآيه فى قصّه الغدير،لأنّ سبب النّزول لم يكن موضوع النعمان،بل إن النعمان قد اقتبس من الآيه فى الدعاء على نفسه،و هذا يشبه قولنا فى الدعاء مقتبسين ذلك من القرآن رَبَّنا آتِنا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً «و سيأتى تفصيل هذا الموضوع و ما ذكرته كتب أهل السنه من أساتيد كثيره له فى ذيل الآيه الأولى من سوره المعارج سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ بإذن اللّه».

و فى ما تقدم من الآيات نلاحظ أنّ المشركين وجّهوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إشكالين.

الأوّل منهما:واضح البطلان،و هو قولهم:لو نشاء لقلنا مثل هذا.فلم يردّ عليه القرآن.بديهى أن هذا الادعاء أجوف كاذب،لأنّهم لو استطاعوا لما توانوا عنه أبدا و لجاءوا به،فلا حاجه إذن للردّ عليه.

و الإشكال الثّانى:لو كانت هذه الآيات نازله من قبل اللّه فأنزل علينا العقاب و البلاء، فيرد عليهم القرآن فى الآيه الثّالثه،من الآيات محل البحث،بقوله: وَ ما كانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ .

و فى الحقيقه أنّ وجودك-يا رسول اللّه-الذى هو رحمه للعالمين،يمنع من

۱- ۱) راجع مجمع البيان،ج ۵،ص ۳۵۲ و تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۵۱.

نزول البلاء بسبب هذه الذنوب،فيهلك قومک کما هلکت الأمم السابقه جماعات أو متفرقين.

ثمّ تعقيب الآيه بالقول: وَ مٰا کٰانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

و للمفسّرين احتمالات متعدده فی تفسير الجمله آنفه الذکر،منها أنّ بعض المشرکين ندموا علی قولهم الذی ذکرته الآيه فقالوا:غفرانک ربّنا،و کان ذلک سببا لأن لا ينزل عليهم العذاب حتی بعد خروج النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم من مکّه.

و قال بعضهم:إنّ الآيه تشير إلی من بقی من المؤمنين فی مکّه،لأنّ بعضا ممن لم يستطع الهجره بقی فيها بعد خروج النّبی،فوجودهم الذی هو شعاع من وجود النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم منع من نزول العذاب.

کما يحتمل أن تکون هذه الجمله التی ذکرتها الآيه تتضمّن مفهوم جمله شرطيه،أی أنّهم لو ندموا علی فعلهم توجهوا إلی اللّه و استغفروه فسيرتفع عنهم عقاب اللّه.

کما لا يبعد-فی الوقت ذاته-الجمع بين هذه الاحتمالات کلّها فی تفسير الآيه،أی يمکن أن تکون الآيه إشاره إلی جميع هذه الاحتمالات.

و علی أيه حال،فإنّ مفهوم الآيه لا يختصّ بمعاصری النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بل هو قانون عام کلیّ يشمل جميع الناس.لهذا فقد روی فی مصادرنا عن الإمام علی، و

فی مصادر أهل السنه عن تلميذ الإمام علی«ابن عباس»أنّه قال عليه السّلام: «کان فی الأرض أمانان من عذاب اللّه،و قد رفع أحدهما فدونکم الآخر فتمسکوا به.و قرأ هذه الآيه» (۱) .

و يتّضح من الآيه-محل البحث،و الحديث آنف الذکر-أنّ وجود الأنبياء عليهم السّلام مدعاه لأمن الناس من عذاب اللّه و بلائه الشديد،ثمّ الاستغفار و التوبه

۱- ۱) نهج البلاغه،الکلمات القصار.

و التوجه و الضراعه نحو اللّه،إذ يعدّ الاستغفار و التوبه ممّا يدفع به العذاب.

فإذا انعدم الاستغفار فإنّ المجتمعات البشريه ستفقد الأمن من عذاب اللّه لما اقترفته من الذنوب و المعاصى.

و هذا العذاب أو العقاب قد يأتى فى صوره الحوادث الطبيعيه المؤلمه، كالسيل مثلا،أو الحروب المدمّره،أو فى صور أخرى،و

قد جاء فى دعاء كميل بن زياد عن الإمام على عليه السّلام قوله «اللهم اغفر لى الذنوب التى تنزل البلاء».

فهذا التّعبير يدل على أنّه لو لا الاستغفار فإنّ كثيرا من الذنوب قد تكون سببا فى البلاء و الكوارث.

و ينبغى التذكير بهذه اللطيفه،و هى أنّ الاستغفار لا يعنى تكرار ألفاظ معينه، كأن يقول المرء «اللهم اغفر لى»بل المراد منه روح الاستغفار الذى هو حاله العوده نحو الحق و التهيؤ لتلافى ما مضى من العبد قبال ربّه.

و الآيه التّاليه:تقول:إنّ هؤلاء حقيقون بعذاب اللّه وَ مٰا لَهُمْ أَلاّٰ يُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ .

و هذا التعبير فى الآيه يشير إلى يوم كان المسلمون فى مكّه،و لم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاه الجماعه بتمام الحريه،و الاطمئنان عند المسجد الحرام،إذ كانوا يتعرضون للإيذاء و التعذيب.

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى منع المشركين المسلمين و صدهم إياهم بعد أدائهم مناسك الحج و العمره،فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

و العجيب أنّ هؤلاء المشركين كانوا يتصورون أنّ لهم حق التصرف كيفما شاءوا فى المسجد الحرام،و أنّهم أولياؤه.إلاّ أنّ القرآن يضيف فى هذه الآيه قائلا:

وَ مٰا كٰانُوا أَوْلِيٰاءَهُ

و بالرغم من زعمهم أنّهم أولياؤه ف إِنْ أَوْلِيٰاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ .

و مع أنّ هذا الحكم ورد فى شأن المسجد الحرام،إلاّ أنّه يشمل جميع المراكز

الـدينيه و المساجـد فـإنّ سـدنتها ينبغى أن يكونوا من أطهر النـاس و أتقـاهم و أورعهم و أكثرهم اهتمامـا بالمحافظه على مراكز العباده،ليجعلوها منطلقا للتعليم و بثّ الوعى و الإيقاظ.إذ لا يصلح لإداره هذه المراكز حفنه من الحمقى أو باعه الضمائر الملوّثين و المرتبطين بالأجانب،الـذين يسعون إلى تحويل المساجـد و مراكز العباده إلى محال تجاربه،أو جعلها مكانا لتخـدير الأفكار، و الابتعـاد عن الحقّ.و فى اعتقادنـا أنّ المسـلمين لو كـانوا ملتزمين بتعـاليم القرآن فى شأن المساجـد،لكانت المجتمعات الإسـلاميه اليوم لها وجه آخر و صوره مشـرقه! و الأعجب فى هـذا الشأن أنّ المشـركين كانوا يـدّعون أنّهم يصـلّون و يعبدون اللّه بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحه كالصـفير و التصـديه عنـد البيت،و لهذا فقد قالت الآيه التاليه عنهم: وَ مٰا كٰانَ صَلاٰتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاّٰ مُكٰاءً وَ تَصْدِيَةً .

و نقرأ فى التأريخ أنّ طائفه من الأعراب فى زمان الجاهليه عند ما كانوا يطوفون بالبيت العتيق،كانوا يخلعون ثيابهم و يصـفرون و يصـفقون و يسـمّون أعمالهم هذه عباده،و ورد أيضا أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما كان يقف بجانب الحجر الأسود و يتجه بـوجهه نحـو الشـمال ليكون فى مقابـل الكعبه و بيت المقـدس، و يشـرع بالصـلاه،كـان يقف إلى يمينه و يسـاره رجلان من بنى سهم فيأخذ أحدهم بالصياح و الآخر بالتصفيق ليؤذياه فى صلاته.

تعقب الآيه على ما تقـدم لتقول:إنّ أعمالكم-بل حتى صـلاتكم-مـدعاه للخجل و السـفاهه و لـذلك فَذُوقُوا الْعَذٰابَ بِمٰا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

إنّ الإنسـان حين يقلّب صـفحات التأريـخ و يتوغّـل فيه باحثـا عن جوانب من تاريـخ عرب الجـاهليه التى وردت الإشاره إليها فى القرآن،يرى-و يا للعجب العجاب!-فى عصـرنا الحاضـر الذى عرف بعصـر الفضاء و الذره من يعيد تلك الأعمال التى كانت فى زمان الجاهليه،و يتصوّر نفسه فى عباده،فيقرءون الآيات

القرآنیه أو الأشعار فی مدح النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الامام علی علیه السّلام بالألحان الموسیقیه ذات الإیقاع المثیر،و تهتزّ أیدیهم و رؤوسهم بما یشبه حاله الرقص،و یسمّون ذلک ذکرا و مدائح،و یقیمونها فی التکایا و غیرها.مع إنّ الإسلام یبرأ من جمیع هذه الأعمال،و هی مثل آخر من أمثله أعمال«الجاهلیه».

و یبقی هنا سؤال واحد،و هو أنّ الآیه الثّالثه من الآیات محل البحث قد نفت نزول العذاب بتوفر شرطین طبعا،و الآیه الرّابعه أثبتت تری ألا یقع التضاد بین الآیتین؟ و الجواب:إنّ الآیه السابقه إلی العقاب الدنیوی،و الآیه اللاحقه لعلها إشاره إلی العقاب الأخروی،أو أنّها إشاره إلی أنّ هؤلاء یستحقون العقاب فی الدنیا و هو محدق بهم،فإذا مضی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یتوبوا و یستغفروا ربّهم فإنّه سینزل بهم لا محاله

ص:۴۱۹

الآيتان [سوره الأنفال (٨): الآيات ٣۶ الی ٣٧]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اَللّٰهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِلىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣۶) لِيَمِيزَ اَللّٰهُ اَلْخَبِيثَ مِنَ اَلطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ اَلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولٰئِكَ هُمُ اَلْخاسِرُونَ (٣٧)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم و کثیر من التفاسیر الأخری،أنّ الآیه-محل البحث-نزلت فی معرکه بدر،و ما بذله أهل مکّه للصدّ عن سبیل اللّه،لأنّهم لما عرفوا ما حصل-إذ جاءهم مبعوث أبی سفیان-قاموا بجمع الأموال الکثیره لیعینوا بها مقاتلیهم،إلاّ أنّهم خابوا و قتلوا و آبوا إلی جهنم و ساءت مصیرا،و کان ما أنفقوه فی هذا الصدد وبالا و حسره علیهم.و الآیه الأولی تشیر إلی سائر معوناتهم التی قدموها فی سبیل مواجهه الإسلام و محاربته،و قد طرحت الموضوع فی صیاغه کلّیه.

و قال بعضهم:إنّ الآیه نزلت فی ما بذله أبو سفیان لألفی مقاتل«مرتزق»فی

ص: ۴٢٠

معركه أحد.

إلاّ أنّه لما كانت الآيه محل البحث واقعه فى سياق الآيات النازله فى معركه بدر،فإنّ الرأى الأوّل فى شأن نزولها يبدو أقرب للصحه.

التّفسير

مهما يكن شأن نزول الآيه،فمفهومها مفهوم جامع يحمل فى معناه كلّ ما يبذله أعداء الحق و العدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومه،إذ تقول فى مستهلها: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ .

إلاّ أنّ هذا الإنفاق و البذل لن يحقق لهم نصرا فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَهً ثُمَّ يُغْلَبُونَ .

و لا يبتلون بالحسره و الهزيمه فى الدنيا فحسب،بل هم كذلك فى الآخره أيضا وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .

ملاحظات

١-يستفاد من الآيه محل البحث أنّ«هؤلاء»يحسّون بعدم جدوى أعمالهم حتى قبل غلبهم و انهزامهم،و حيث إنّهم لا يرون نتيجه مثمره لما أنفقوه من الأموال،فسيبتلون بالألم و الحسره،و هذا الأمر هو نوع من جزائهم الدنيوى و أحد عقوباتهم فيها.

أمّا الجزاء الآخر الذى ينالونه،فهو فشل خططهم و مناهجهم،لأنّ الذين يقاتلون و هم متعلقون بالأموال و الثروه لا يستطيعون مواجهه المقاتلين من أجل المبدأ و الأهداف المقدسه.

و قد برهنت الحوادث فى عصرنا هذا على أن الدول القويه التى تغرى

مقاتليها بالمال و الرغبات الماديه،كثيرا ما تصاب بالخزى و الافتضاح و الهزيمه بوجه الأمم المستضعفه التى تقاتل عن إيمان و عقيده راسخه!...

و بالإضافه إلى هذين الجزاءين فهناك جزاء ثالث ينتظرهم يوم القيامه،و هو «الغضب الإلهى».

۲-ما ذكرته الآيه محل البحث،نجد له أمثله فى عصرنا الحاضر،كقوى الاستكبار،و اتباع الظلم و الفساد،و دعاه المذاهب الخرافيه الباطله،و باذلى الأموال الطائله لتحقيق أهدافهم و تضليل الناس و صدهم عن سبيل الحق،و هم يظهرون بأزياء متعدده،فتاره فى صوره المساعدات الماليه-ظاهرا-كبناء المستشفيات،و أخرى فى صوره التعاون الثقافى،و مرّه فى ثوب المقاتلين المرتزقه.

لكن الهدف النهائى واحد و الماهيه واحده،فكل همّهم التوسعه الاستعماريه و الظلم و الجور،و لو وقف المؤمنون حقّا صفا بوجه هذه المحاولات كما وقف أصحاب بدر لأحبطوا جميع هذه المحاولات و لباءت بالفشل،و لجعلوا هذا الإنفاق وبالا و حسره على المستكبرين،و لساقوهم إلى جهنم و ساءت مصيرا.

۳-قال بعض المفسّرين:إنّ هذه الآيه واحده من دلائل صدق دعوه النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،لأنّها تخبر عن حوادث لم تكن وقعت بعد،و قد غلب بها أعداء الإسلام،و مع أن أولئك بذلوا أموالا طائله لانتصارهم!! و إذا لم نعتبر الآيه من الأخبار بالمغيبات التى تتعلق بالحوادث المقبله،فإنّها على الأقل تكشف عن محتوى القرآن الدقيق فى شأن المواجهه بين الحق و الباطل،كما أنّها تكشف عن عظمه القرآن و التعاليم الإسلاميه.

و بعد أن تكلمت الآيه السابقه على ثلاث نتائج مشؤومه لإنفاق أعداء الإسلام،فإنّ الآيه التى تليها تقول: لِيَمِيزَ اللّٰهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ .

هذه سنه إلّهيه دائمه أن يعرف المخلص من غير المخلص،و الطاهر من غير

الطاهر،و المجاهد الصادق من الكاذب،و الأعمال الطيبه من الأعمال الخبيثه،فلا يبقى أى من ذلك مجهولا أبدا،بل لا بدّ فى النهايه من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض و يسفر الحق عن وجهه.و هذا الأمر يتحقق-طبعا-عند ما يكون أتباع الحق-كأولئك المسلمين الأوائل يوم بدر-فى مستوى كاف من التضحيه و الوعى.

ثمّ تضيف الآيه وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ .

فالخبيث من أيه طائفه و فى أى شكل كان سيؤول فى النهايه إلى الخسران، كما تقول الآيه فى نهايه المطاف أُولٰئِكَ هُمُ الْخٰاسِرُونَ .

ص :۴۲۳

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ٣٨ الى ٤٠]

اشاره

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مٰا قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ اَلْأَوَّلِينَ (٣٨) وَ قٰاتِلُوهُمْ حَتّٰى لاٰ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ اَلدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ فَإِنِ اِنْتَهَوْا فَإِنَّ اَللّٰهَ بِمٰا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اَللّٰهَ مَوْلاٰكُمْ نِعْمَ اَلْمَوْلىٰ وَ نِعْمَ اَلنَّصِيرُ (٤٠)

التّفسير

اشاره

من المعلوم فى أسلوب القرآن هو الجمع بين البشاره و النذاره،أى أنّه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب و العذاب،فإنّه يفتح لهم فى الوقت نفسه طريق العوده أمامهم.

و الآيه الأولى:من الآيات محل البحث تتبع هذا الأسلوب ذاته،فتأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائله: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مٰا قَدْ سَلَفَ .

و يستفاد من الآيه المباركه أنّ قبول الإسلام يوجب محو كل سابقه و هو ما ورد فى الرّوايات على أنّه أصل عام،كما فى عباره«الإسلام يجبّ ما قبله»أو ما جاء عن أهل السنه فى تعبير آخر

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن«الإسلام يهدم ما كان قبله»

و إن الهجره تهـدم ما كان قبلها،و إن الحـج يهدم ما كان قبله» (۱) و المقصود من الحـديث آنفـا هو أنّ كل ما عمله الإنسان من سيئات و حتى تركه للفرائض و الواجبات قبل إسـلامه فسوف يمحى عنه بقبوله الإسـلام،و لا يكون قبوله للإسـلام أثر رجعى لما سبق،لهذا ورد فى كتب الفقه عدم وجوب قضاء ما فات من العبادات على من أسلّم.

و تضيف الآيه قائله:إنّهم إن لم يصححوا أسلوبهم وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ .

و المقصود من هـذه السـنه هو ما آل إليه أعـداء الحق بعـد ما واجهوا الأنبياء، و ما أصاب المشـركين عند ما واجهوا النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى معركه بدر.

فنحن نقرأ فى سوره غافر،الآيه:(۵۱): إِنّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِی الْحَیاهِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ .

و نقرأ فى سوره الاسراء،الآيه(۷۷):بعد بيان سـحق أعداء الإسـلام قوله تعالى: سُـنَّهَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِیلاً .

و لمّا كانت الآيه السابقه قـد دعت الأعـداء للعوده إلى الحق،و إن هـذه الدعوه قد تولد هذه الفكره لدى المسـلمين و هى أنّه قد انتهت فتره الجهـاد و لا بـدّ بعـد الآن من اللين و التساهـل،ترفع هـذه الشـبهه الآيه التاليه و تقول: وَ قاتِلُوهُمْ حَتّی لا تَکُونَ فِتْنَهٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ کُلُّهُ لِلّهِ .

و كلمه«الفتنه»-كما بيناها فى تفسير الآيه(۱۹۳)من سوره البقره-ذات معنى واسع تشمل كل أنواع الضغوط،فتاره يستعملها القرآن بمعنى عباده الأصنام و الشرك الذى يشمل كل أنواع التحجر و الجمود و اضطهاد أفراد المجتمع.

۱- ۱) صحيح مسلم وفقا لما نقله صاحب المنار فى تفسيره،ج ۹،ص ۶۶۵.

و تطلق الفتنه أيضا على الضغوط التى يفرضها الأعداء،للوقوف بوجه اتساع دعوه الإسلام،و لإسكات صوت أهل الحق،بل حتى إرجاع المؤمنين نحو الكفر.

و فى الآيه محل البحث فسر الفتنه بعضهم بمعنى الشرك،و فسّرها آخرون بأنّها تعنى سعى الأعداء لسلب الحريات الفكريه و الاجتماعيه من المسلمين.

و لكن الحقّ أنّ مفهومها واسع يشمل الشرك،بقرينه قوله: وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلّٰهِ و سائر ضغوط الأعداء على المسلمين.

الهدف من الجهاد و بشرى كريمه:

تشير الآيه آنفه الذكر إلى قسمين من أهداف الجهاد المقدسه و هما:

١-القضاء على عباده الأصنام و تطهير الأرض من معابدها و نحو ذلك و كما ذكرنا فى بحثنا عن أهداف الجهاد فإنّ الحريّه الدينيه تتعلق بمن يتّبع أحد الأديان السماويه فلا يجوز إكراه هؤلاء من أجل تغيير عقيدتهم،و لكن عباده الأصنام ليست دينا و لا فكرا،بل هى خرافه و جهل و انحراف،و على الحكومه الإسلاميه إزالتها و تطهير البلاد منها عن طريق الإعلام و التبليغ الإسلامى-أوّلا-و إذا لم يؤدّ ذلك إلى نتيجه فيجب اللجوء إلى القوه لتدمير معابد الأوثان.

٢-نيل الحريه فى نشر الإسلام و التبليغ له،و فى هذا القسم أجاز الإسلام استخدام القوّه فى مواجهه من يمنع المسلمين من نشر عقيدتهم لفتح الطريق بوجه الحوار المنطقى السليم.

و قد ورد فى تفاسير أهل السنه كتفسير«روح البيان»للآلوسى،و تفاسير شيعيه أخرى،

عن الإمام الصادق عليه السّلام «لم يجىء تأويل هذه الآيه،و لو قام قائمنا بعد،سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآيه،و ليبلغن دين محمّد ما بلغ

الليل حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض كما قال تعالى» (۱) .

و لقد أنكر صاحب تفسير المنار-لتعصبه-هذا الحديث الوارد فى شأن مسأله قيام المهدى عليه السّلام،و ذلك لحكمه المسبق المخطئ فى هذه القضيه، و العجيب أن له ميلا خاصا فى تفسيره إلى الفكر الوهابى،مع أنّ الوهابيين بالرغم من تعصّبهم يصرحون بأنّ ظهور الإمام المهدى عليه السّلام من الأمور المسلّم بها، و يعتبرون الرّوايات فيه من المتواترات.

و سنورد الأدله و المصادر فى هذا الصدد فى ذيل الآيه(۳۳)من سوره التوبه،كما سنشير إلى النقطه الأساسيه فى خطأ هذا المفسّر و الرد عليها،و لقد فصلنا الأمر فى كتابنا«المصلح العالمى الكبير».

و إذا كانت بعض الرّوايات المتعلقه بظهور المهدى غير صحيحه و فيها بعض الخرافات،فلا ينبغى أن يؤدّى ذلك إلى الإعراض عن بقيه الرّوايات الصحيحه و المتواتره! و أخيرا فإنّ الآيه فى نهايتها،و تزامنا مع الشده فى العمل،تمدّ يد المحبّه و الرأفه إلى الأعداء مرّه أخرى فتقول:فإن انتهوا فإن الله بما يعملون خبير و لكن إذا تمادوا فى عنادهم و طغيانهم و لم يستسلموا للحقّ،فاعملوا أنّ النصر حليفكم و الهزيمه من نصيب أعدائكم،لانّ اللّه مولاكم و هو خير ناصر و معين:

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ مَوْلاٰكُمْ نِعْمَ الْمَوْلىٰ وَ نِعْمَ النَّصِيرُ

.

۱- ۱) راجع مجمع البيان،ذيل الآيه،و تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۵۵،تفاسير أخرى.

بدایه الجزء العاشر القرآن الکریم

ص :۴۲۹

الآيه [سوره الأنفال (٨): آيه ۴۱]

اشاره

وَ اِعْلَمُوا أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي اَلْقُرْبىٰ وَ اَلْيَتٰامىٰ وَ اَلْمَسٰاكِينِ وَ اِبْنِ اَلسَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا يَوْمَ اَلْفُرْقٰانِ يَوْمَ اِلْتَقَى اَلْجَمْعٰانِ وَ اَللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۱)

التّفسير

اشاره

الخمس فرض إسلامى مهم:

وجدنا فى بدايه هذه السوره كيف أنّ بعض المسلمين تشاجروا فى شأن تقسيم الغنائم بعد غزوه بدر،و قد أمر اللّه سبحانه-درءا لأصول الخلاف-أن توضع الغنائم تحت تصرف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لينفقها بما يراه صالحا،فقام بتقسمها بالتساوى بين المقاتلين المسلمين.

و فى هذه الآيه عود إلى مسأله الغنائم،لتناسب الآيات التى سبقتها،و التى كانت تتكلم على الجهاد،إذ وجدنا فى بعضها إشارات مختلفه لموضوع الجهاد، و لما كان الجهاد يرتبط بمسأله الغنائم غالبا،فكان فى المقام تناسب بين الجهاد و بين ذكر أحكام الغنائم«بل سنلاحظ أن القرآن تعدى فى حكمه إلى أبعد من

مسأله الغنائم،و نظر إلى جميع الموارد».

يقول الحق سبحانه: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبىٰ (الأئمه من أهل البيت عليهم السلام) وَ الْيَتٰامىٰ وَ الْمَسٰاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ - من ذريه الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا.و يضيف مؤكدا إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَ مٰا أَنْزَلْنٰا عَلىٰ عَبْدِنٰا يَوْمَ الْفُرْقٰانِ -أي يوم بدر- يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعٰانِ .

و ينبغي الالتفات إلى أنّه على الرغم من أنّ الخطاب في الآيه موجه إلى المؤمنين،لأنّها تبحث في غنائم الجهاد الإسلامي،و بديهي أنّ المجاهد مؤمن، لكنّها مع ذلك تقول: إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ و في ذلك إشاره إلى أنّ ادعاء الإيمان وحده لا يعدّ دليلا على الإيمان،بل حتى المشاركه في سوح الجهاد قد لا تكون دليلا على الإيمان،فقد تكون وراء ذلك أمور أخرى.فالمؤمن الكامل هو الذي يذعن لأوامر اللّه كافه و ينقاد لها،و خاصّه الأوامر و الأحكام الماليه،و لا يأخذ ببعض و يترك بعضا،و تشير الآيه في نهايتها إلى قدره اللّه غير المحدوده،فتقول:

وَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

.

أي بالرغم من قلتكم يوم بدر و كثيره عدوّكم في الظاهر،لكن اللّه القادر خذلهم و أيدكم فانتصرتم عليهم.

ملاحظات

اشاره

۱-يوم الفرقان بين الحق و الباطل

سمّي يوم معركه بدر بيوم الفرقان بين الحق و الباطل،و يوم الالتقاء بين جماعه الكفر و جماعه الإيمان،و في ذلك إشاره إلى ما يلي:

أوّلا:إنّ يوم بدر ظهرت فيه الأدله على صدق النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّه وعد المسلمين بالنصر قبل ذلك،مع أنّ القرائن في الظاهر لم تكن داله على ذلك،و لقد اتّحدت

تلک الأسباب بشکل غیر متوقع فکان النصر،و هو ما لا یمکن حمله علی المصادفه و الاتفاق فبناء علی ذلک فإن صدق الآیات التی نزلت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ذلک الیوم کان کامنا فی الآیات نفسها.

ثانیا:إنّ المعرکه فی بدر:«یوم التقی الجمعان»کانت فی الواقع إحدی النعم الإلهیه الکبری علی المسلمین،لإنّ بعضهم کان یخشاها فی البدایه،لکن تلک المواجهه و النصر دفعا بهم خطوات کبیره نحو الأمام،إذ بلغ صداهم و اشتهارهم بذلک أنحاء الجزیره العربیه،و دعا الجمیع للتفکّر فی هذا الدین الجدید و قدرته المذهله و کان ذلک الیوم یوما شدیدا علی الأمّه الإسلامیه القلیله آنئذ،حیث امتاز به المؤمنون الصادقون عن المدعین الکاذبین،فکان ذلک الیوم بکل جوانبه یوم الفرقان بین الحق و الباطل.

[۲-عدم وجود تضادّ بین آیه الأنفال و هذه الآیه]

۲-ذکرنا فی بدایه السوره عدم وجود تضادّ بین آیه الأنفال و هذه الآیه،و لا موجب الإعتبار إحداهما ناسخه للأخری،لأنّه بمقتضی آیه الأنفال فإنّ الغنائم الحربیه هی للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم،إلاّ أنّه وهب أربعه أخماسها للمقاتلین المسلمین،و ادخر الخمس المتبقی للموارد التی ذکرتها الآیه«و لمزید الإیضاح راجع بحثنا فی تفسیر الآیه الأولی من هذه السوره».

۳-ما هو المراد من ذی القربی؟

لیس المراد فی هذه الآیه الأقرباء کلّهم و لا أقرباء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جمیعا،بل هم الأئمّه من أهل البیت علیهم السّلام،و الدلیل علی هذا الأمر هو الرّوایات المتواتره التی وردت عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن طرق أهل البیت (۱) ،و توجد أدله أخری علی ذلک فی کتب أهل السنه.

۱- ۱) یراجع کتاب وسائل الشیعه،ج ۶،باب الخمس.

فبناء على ذلك فإنّ من یری أنّ سـهما من الخمس یتعلق بکل أقرباء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یواجه هذا السؤال و هو:ما هذا امتیاز الذی أولاه الإسلام لأقرباء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قومه،مع أنّ الإسلام بعید عن القبلیه و القومیه و العرقیه؟! لکنّنا إذا خصصنا«بذی القربی»الأئمّه من أهل البیت علیهم السّلام مع ملاحظه أنّهم خلفاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قاده الحکومه الإسلامیه،یتّضح السبب فی إعطائهم هذا السهم من الخمس.

و بعباره أخری:إنّ السـهام الثّلاثه«سـهم اللّه و سـهم النّبی و سهم ذی القربی» ترجع جمیعها إلی قائد الحکومه الإسلامیه،فیصرف منهـا فی شؤون حیـاته البسـیطه،و ینفق البـاقی منهـا فی مـا یوجبه مقـام القیـاده،أی أنّه یصـرفها فی الحقیقه فی حاجـات النـاس و المجتمع!.

و حیث أن بعض المفسّـرین من أهـل السـنه«کصـاحب المنـار»یری أنّ ذا القربی هو جمیع الأقـارب،فقـد تخبـط فی الإجـابه علی السؤال آنف الذکر و ظلّ فی حیره من أمره،حتی جعل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أشبه بالملوک و السلاطین،فأوجب علیه أن یجـذب قومه و قبیلته الیه بالأـموال التی عنـده! و من الواضـح بطلان هـذا المنطق،إذ یتنافی و منطق الحکومه العالمیه الإنسانیه التی لا تعترف بالامتیازات القبلیّه«و سیأتی إیضاح هذا الموضوع بصوره أکثر فی البحوث المقبله،إن شاء اللّه».

۴-ما هو المراد من الیتامی و المساکین و ابن السبیل

إنّ المقصود بالیتامی و المساکین و ابن السبیل-فی الآیه-هم هـذه الطوائف الثلاث من بنی هاشم بالرغم من أنّ ظاهر الآیه مطلق غیر مقیـد،و دلیلنا علی التقیید هو الرّوایات الکثیره الوارده عن أهل البیت علیهم السّـلام،و نعلم بأنّ کثیرا من الأحکام المطلقه فی النصوص القرآنیه قیدتها السنه النبویه و جعلت لها شروطا

و هذا الأمر غير منحصر بالآيه محل البحث حتى تكون مثارا للغرابه و التعجب.

أضف إلى ذلك أنّ الزكاه محرمه على المحتاجين من بنى هاشم،فيلزم توفير مصدر آخر لهم،و هذه قرينه على أنّ الآيه تخصّ المحتاجين من بنى هاشم.

لذا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «إنّ اللّه تعالى لما حرّم علينا الصدقه أنزل لنا الخمس،فالصدقه علينا حرام و الخمس لنا حلال» (۱)

۵-هل الغنائم منحصره فى غنائم الحرب

اشاره

الموضوع المهم الآخر الذى يجب أن يبحث فى الآيه،و هو فى الحقيقه بمثابه العمده فيها،هو:هل لفظ الغنيمه المذكور فيها يطلق على الغنائم الحربيه فحسب،أو الموضوع أوسع من ذلك فيشمل كل زياده فى المال؟! ففى الصوره الأولى فإنّ الآيه تبيّن الخمس فى غنائم الحرب فحسب،و أمّا الخمس فى سائر الموارد فينبغى معرفته من السنه و الأخبار المتواتره و صحيح الرّوايات،و لا مانع أن يشير القرآن إلى قسم من أحكام الخمس بما يناسب مسائل الجهاد،و أن تتناول السنه الشريفه بيان أقسامه الباقيه.

فمثلا قد وردت الصلوات الخمس اليوميه صريحه فى القرآن،كما أشير إلى صلاه الطواف التى هى من الصلوات الواجبه أيضا،و لم ترد أيّه إشاره فى القرآن إلى صلاه الآيات المتفق على وجوبها من قبل الفرق الإسلاميه من أهل السنه و الشيعه كافه،و لا نجد قائلا يقول بأنّه لا يجب الإتيان بصلاه الآيات لأنّها لم تذكر فى القرآن أو أن القرآن أشار إلى بعض الأغسال و لم يذكر غيرها،فيجب ترك ما لم يشر إليه القرآن!فهذا المنطق لا يقره أى مسلم أبدا.

فبناء على ذلك،لا إشكال فى أن يبيّن القرآن قسما واحدا من أقسام

۱- ۱) وسائل الشيعه،ج ۶،باب الخمس،و مجمع البيان ذيل الآيه...

الخمس فحسب،و يكلّ توضيح الباقى إلى السنّه،و فى الفقه الإسلامى نظائر كثيره لهذه المسأله.

إلاّـ أنّه مع هـذه الحـال ينبغى أن ننظر إلى معنى«الغنيمه»فى اللغه و العرف! فهـل هى منحصـره فى غنـائم الحرب؟!أم تشـمل كل أنواع الأرباح و الزياده فى المال؟! الذى يستفاد من كتب اللغه هو أنّ جذرها اللغوى لم يرد فى ما يؤخذ من العدوّ فى الحرب،بل تشمل كل أنواع الزياده الماليه و غيرها.

و نشـير هنـا إلى بعض كتب اللغه المشـهوره الـتى يعتمـد عليهـا علمـاء العربيه و أدباؤهـا على سبيـل المثـال و الشاهـد.إذ نقرأ فى كتاب«لسان العرب»الجزء الثّانى عشر قوله«الغنم الفوز بالشىء من غير مشقّه،و الغنم و الغنيمه،و المنغم:

الفىء، و

فى الحديث: الرهن لمن رهنه له غنمه و عليه غرمه،غنمه زيادته و نماؤه و فاضل قيمته...و غنم الشىء غنما فاز به...».

و نقرأ فى الجزء التاسع من«تاج العروس»:و الغنم:الفوز بالشىء بلا مشقّه».

و فى كتاب«القاموس»هذا المعنى نفسه للغنيمه أيضا.

و جاء فى كتاب«المفردات»للراغب أنّ أصل الغنيمه من الغنم،ثمّ يقول:ثمّ استعملوه فى كل مظفور به من العدى و غيره.

و حتى من ذكر أنّ معناهـا هو غنـائم الحرب،لم ينكر أنّ معناها فى الأصل واسع و شامل لكل خير يقع بيـد الإنسان بـدون عناء و مشقه.

و ترد الغنيمه فى العرف فى مقابـل الغرامه،فكمـا أن معنى الغرامه واسع شامـل لكل أنواع الغرامات،فإنّ معنى الغنيمه واسع شامل لكل أنواع الغنائم.

و قد وردت هذه الكلمه فى نهج البلاغه كثيرا بالمعنى المذكور نفسه،إذ نقرأ

فى الخطبه(۷۶)قوله عليه السّلام: «اغتنم المهل».

و

فى الخطبه(۱۲۰)يقول عليه السّلام: «من أخذها لحق و غنم».

و

يقول فى كتابه(۵۳)إلى مالك الأشتر: «و لا تكوننّ عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم».

و

يقول فى كتابه(۴۵)إلى عثمان بن حنيف: «فو اللّه ما كنزت من دنياكم تبرا و لا ادخرت من غنائمها و فرا».

و

يقول فى بعض كلماته القصار برقم(۳۳۱): «إنّ اللّه جعل الطاعه غنيمه الأكياس».

و

يقول فى كتابه(۴۱): «و اغتنم من استقرضك فى حال غناك».

و نظير هذه التعابير و الكلمات التى تدل على عدم انحصار معنى الغنيمه فى غنائم الحرب كثير.

و أمّا ما قاله المفسّرون:

إنّ أكثر المفسّرين الذين تناولوا هذه الآيه بالبحث صرّحوا بأنّ للغنيمه معنى واسعا فى اللغه يشمل غنائم الحرب و غيرها ممّا يحصل عليه الإنسان من دون مشقّه،و حتى الذين قالوا بأنّها تختص بغنائم الحرب«لفتوى فقهاء السنه» يعترفون بأنّ معناها فى اللغه غير مقيد،بل قيّدوه بدليل آخر.

«القرطبى»مفسّر أهل السنه المعروف،كتب فى ذيل الآيه:«إنّ الغنيمه فى اللغه هو الخير الذى يناله الفرد أو الجماعه بالسعى و الجد» (۱) .

و ينبغى أن يعلم أن علماء أهل السنه متفقون على أنّ المراد من الغنيمه المذكوره فى آيه وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ هى الأموال التى يحصل عليها الناس بالقوّه فى الحرب،و ينبغى ملاحظه أنّ هذا القيد غير وارد فى اللغه،لكنّه ورد فى العرف الشرعى.

۱- ۱) راجع تفسير القرطبى،ج ۴،ص ۲۸۰.

و یقول«الفخر الرازی»فی تفسیره:الغنم الفوز بالشیء یقول بعد هذا:إنّ المعنی الشرعی للغنیمه فی اعتقاد فقهاء أهل السنه هو غنائم الحرب (۱) .

کما أنّ«صاحب المنار»قد ذکرها بمعناها الواسع و لم یخصصها بغنائم الحرب،بالرغم من اعتقاده بلزوم تقیید المعنی الواسع بالقید الشرعی،و تخصیص الآیه بغنائم الحرب (۲) .

و قال«الآلوسی»فی تفسیره روح المعانی:«إن الغنم فی الأصل معناه کل ربح و منفعه» (۳) .

و قال صاحب«مجمع البیان»فی بدایه کلامه:إنّ الغنیمه بمعنی غنائم الحرب،إلاّ أنّه لما بین معنی الآیه قال:«قال أصحابنا:إنّ الخمس واجب فی کل فائده تحصل للإنسان من المکاسب و أرباح التجارات،و فی الکنوز و المعادن و الفوضی،و غیر ذلک ما هو مذکور فی الکتب،و یمکن أن یستدل علی ذلک بهذه الآیه،فإنّ فی عرف اللغه یطلق علی جمیع ذلک اسم الغنم و الغنیمه» (۴) .

و العجیب أنّ بعض المغرضین-و کأنّهم مأمورون ببث السّموم فی الأفکار-حرّفوا ما ذکره صاحب مجمع البیان فی کتاب ألفوه فی شأن الخمس، حیث ذکروا عبارته الأولی فی تفسیر الغنیمه بأنّ المراد منه غنائم الحرب، و لکنّهم لم یشیروا إلی إیضاحاته حول عمومیّه المعنی اللغوی و معنی الآیه الذی أورده أخیرا،و قد کذبوا بما لفقوا علی هذا المفسّر الإسلامی الکبیر،و کأنّهم یتصورون أن کتاب مجمع البیان فی أیدیهم و لن یقرأه غیرهم.و الأعجب من ذلک أنّهم لم یرتکبوا هذه الخیانه الفکریه فحسب،بل تصرفوا فی کتب أخری فأخذوا

۱- ۱) الفخر الرازی،ج ۱۵،ص ۱۶۴.

۲- ۲) تفسیر المنار،ج ۱۰،ص ۷۰۳.

۳- ۳) تفسیر روح المعانی:ج ۱۰،ص ۲.

۴- ۴) تفسیر مجمع البیان،ج ۴،ص ۵۴۳.

بما ينفعهم و تركوا ما يضرّهم.

و فى تفسير«الميزان»ورد بصراحه-استنادا إلى علماء اللغه-أنّ الغنيمه هى كل فائده تستحصل عن طريق التجاره و الكسب أو الحرب،و مع أن سبب نزول الآيه هو غنائم الحرب،إلاّ أنّ ذلک لا يخصص مفهوم الآيه و عموميتها (۱) .

و نستنتج ممّا ذكرناه آنفا ما يلى:

إنّ آيه الغنائم ذات معنى واسع يشمل كل فائده و ربح،لإنّ معنى الغنيمه اللغوى عام و لا دليل على تخصيص الآيه.

و الشيء الوحيد الذى استند إليه جماعه من مفسّرى أهل السنه،هو أنّ الآيات السابقه و الآيات اللاحقه لهذه الآيه تتعلق بالجهاد،و هذا الأمر يكون قرينه على أنّ آيه أَنَّمٰا غَنِمْتُمْ تتعلق بغنائم الحرب.

فى حين أنّ أسباب النّزول و سياق الآيات لا يخصص عموميه الآيه كما هو معلوم، و بعباره أجلى:لا مانع من كون مفهوم الآيه ذا معنى عام،و أن يكون سبب نزولها هو غنائم الحرب فى الوقت ذاته،فهى من مصاديق هذا المفهوم أو الحكم.

و نظير هذه الأحكام كثير فى القرآن الكريم و السنه المطهره،بأن يكون حكمها عاما و مصداقها جزئيا«خاصّا».

فمثلا فى الآيه(۷)من سوره الحشر نقرأ قوله تعالى: مٰا آتٰاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا فهذه الآيه ذات حكم كلى فى وجوب الالتزام بأوامر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أن سبب نزولها هو الأموال التى تقع بأيدى المسلمين من دون حرب،و يطلق على ذلک اصطلاحا«الفيء».

و كذلک نجد فى الآيه(۲۳۳)من سوره البقره حكما كليا فى قوله: لاٰ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاّٰ وُسْعَهٰا مع أنّه يتعلق بالنساء المرضعات و الأمر موجه لآباء

۱- ۱) الميزان،ج ۹،ص ۸۹.

الأطفال الرضّع أن يعطوا المرضعات أجورهن حسب وسعهم.و كون الآيه وارده فى هذا الأمر الخاص لا يمنع من عموميه القانون الذى جاءت به و هو عدم التكليف.

الخلاصه،أنّ الآيه محل البحث جاءت فى سياق آيات الجهاد،إلّا أنّها تقول:

«إنّ أيه فائده أو ربح تحصلون عليه-و منه غنائم الحرب-فعليكم أن تعطوا خمسه».

و خاصّه أنّ«ما»الموصوله«و من شيء»لفظان عامان ليس فيهما قيد و لا شرط و هما يؤكّدان هذا الموضوع.

۶-ألا يعد تخصيص نصف الخمس لبنى هاشم تبعيضا بين المسلمين؟!

اشاره

يتصوّر بعض أن هذه الضريبه الإسلاميه الشامله لخمس الكثير من الأموال، أى نسبه(عشرين المائه)حيث يعطى نصفها للساده من أبناء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، نوع من التمييز العنصرى أو ملاحظه العلاقات العائليه،و أنّ هذا الأمر لا ينسجم و روح العداله الاجتماعيه للإسلام و كونها شامله لجميع العالم.

الجواب:

إنّ هؤلاء لم يدر سوا ظروف هذا الحكم و خصوصياته بدقه كافيه،فالإجابه على هذا السؤال كامنه فى تلك الخصوصيات.

و توضيح ذلك:أوّلا:إن نصف الخمس المتعلق ببنى هاشم إنّما يعطى للمحتاجين و الفقراء منهم فحسب،و لما يكفيهم لسنه واحده لا أكثر،فبناء على ذلك تصرف هذه الأموال على المقعدين عن العمل و المرضى و اليتامى من الصغار،أو من يكون فى ضيق و حرج.لسبب من الأسباب و لهذا فإنّ القادرين على العمل«بالفعل أو بالقوّه»و الذين بإمكانهم أن يديروا حياتهم المعاشيه،ليس

لهم بأی وجه أن یأخذوا شیئا من الخمس.

أمّیا ما یقوله بعض السواد بأنّ السّاده یمکنهم أخـذ الخمس حتی و لو کان میزاب بیتهم من ذهب فهو کلام ساذج و لا أساس له أبدا.

ثانیا:إنّ المحتاجین و الضـعفاء من سادات بنی هاشم لا یحق لهم أخـذ شـیء من الزکاه،فلهذا جاز لهم أن یأخذوا من هذا القسـم من الخمس فحسب. (۱)

ثالثا:إذا زاد القسم المختص لبنی هاشم عن احتیاجاتهم فإنّه یرجع إلی بیت المال حتی ینفق فی مصارف أخری،کما أنّه إذ نقص هذا السهم عن حاجتهم یدفع الباقی من بیت المال إلیهم أو من سهم الزکاه.

و بملاحظه تلک النقاط الثلاث یتّضح لنا عدم وجود فرق-فی الواقع-من النّاحیه المادیّه بین الساده و غیرهم.

فالمحتـاجون من غیرهم یمکنهم سـدّ حـاجتهم من الزّکـاه و یحرمون من الخمس،و المحتـاجون من الساده یسـدّون حاجتهم من الخمس و یحرمون من الزّکاه.

فیوجد فی الحقیقه صندوقان،هما صندوق الخمس و صندوق الزکاه،فیحق لکل من القسمین الأخذ من أحد الصندوقین و بصوره التساوی فیما بینهما،أی ما یحتاجه کلّ لعام واحد(فتأمل).

فالذین لم یمعنوا النظر فی هذه الشروط و الخصوصیات تصوّروا من بیت المال أکثر من غیرهم أو أنّهم یتمتعون بامتیاز خاص.

و السؤال الوحیـد الـذی یطرح نفسه هنـا هو:إذا قلنا بعـدم الفرق بین الإثنین آخر الإمر،فما جـدوی هـذه الخطه إذا؟! و یمکن أن ندرک جواب هذا التساؤل بملاحظه شیء واحد،و هو أنّ بین

۱- ۱) إنّ حرمه أخذ بنی هاشم الزکاه مسلم بها و قد وردت فی أکثر کتب الحدیث و فتاوی العلماء و کتبهم الفقهیه،فهل یعقل بأنّ الإسلام قد فکّر فی شأن الفقراء و المحتاجین من غیر بنی هاشم و لم یعالج قضیه المحتاجین من بنی هاشم؟فترکهم لحالهم.

الزكاه و الخمس بونا شاسعا،إذ أنّ الزكاه من ضرائب الأموال العامّه للمجتمع الإسلامى فتصرف عموما فى هذه الجهه،و لكن الخمس من ضرائب الحكومه الإسلاميه فيصرف على القياده و الحكومه الإسلاميه و تؤمن حاجتها منه.

فالتحريم على الساده من مدّ أيديهم للأموال العامّه،«الزّكاه»كان فى الحقيقه ليجتنبوا عن هذا المال باعتبارهم أقارب النّبى،و لكيلا تكون ذريعه بيد الأعداء بأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سلط أقرباءه على الأموال العامّه.

إلاّ أنّه-من جانب آخر-ينبغى سدّ حاجه الضعفاء و الفقراء من الساده،لذلك جعلت هذه الخطه لسدّ حاجتهم من ميزانيه الحكومه الإسلاميه لا من الميزانيه العامّه ففى الحقيقه أنّ الخمس ليس امتيازا لبنى هاشم،بل هو لإبعادهم من أجل الصالح العام و لئلا ينبعث سوء الظن بهم (۱) .

و الذى يسترعى النظر أنّ هذا الإمر أشارت إليه أحاديث الشيعه و السنه،

ففى حديث عن الإمام الصادق نقرأ: «أنّ أناسا من بنى هاشم أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسألوه أن يستعملهم على صدقات المواشى،و قالوا:يكون لنا هذا السهم الذى جعل اللّه عزّ و جلّ للعاملين عليها فنحن أولى به،فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:يا بنى عبد المطلب(هاشم)إن الصدقه لا تحل لى و لا لكم،و لكنّى وعدت الشفاعه،إلى أن قال:«أ ترونى مؤثرا عليكم غيركم» (۲) .

و يدل هذا الحديث على أن بنى هاشم كانوا يرون فى ذلك الأمر حرمانا،و قد وعدهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يشفع لهم.

و نقرأ حديثا فى صحيح مسلم الذى يعد من أهم مصادر الحديث عند أهل السنه،خلاصته أنّ العباس و ربيعه بن الحارث جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبا منه أن

۱- ۱) و إذا لاحظنا أنّ فى بعض الرّوايات التعبير ب«كرامه لهم من أوساخ الناس»فهو ليقنع بنى هاشم من هذه الحرمه من جانب،و ليفهم الناس أن يؤدوا الزّكاه إلى المحتاجين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.
۲- ۲) وسائل الشيعه،ج ۶،ص ۱۸۶.

يأمر ابنيهما-و كانا فتيين و هما عبد المطلب بن ربيعه و الفضل بن العباس-بجمع الزكاه ليتمكنا أن يأخذا سهما منه شأنهما كشأن الآخرين،ليؤمّنا لنفسيهما المال الكافى لزواجهما،فامتنع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمر بسد حاجتهما عن طريق آخر و هو الخمس.

و يستفاد من هذا الحديث الذى يطول شرحه أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان مصرّا على أبعاد أقاربه عن الحصول على الزكاه التى هى من أموال عامّه الناس.

من مجموع ما قلناه يتّضح أنّ الخمس ليس امتيازا للسّاده،بل هو نوع من الحرمان لحفظ المصالح العامّه...

۷-ما هو المراد من سهم اللّه؟

إنّ ذكر سهم على أنّه سهم اللّه،للتأكيد على أهميه مسأله الخمس و إثباتها، و لتأكيد ولايه الرّسول و القياده الإسلاميه و حاكميه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا.

أى كما أنّ اللّه جعل سهما باسمه و هو أحق بالتصرف فيه،فقد أعطى النّبى و الإمام حق الولايه و التصرف فيه كذلك،إلاّ فإنّ سهم اللّه يجعل تحت تصرف النّبى أو الإمام يصرفه فى المكان المناسب،و ليس للّه حاجه فى سهم معين.

الآیات [سوره الأنفال (٨): الآیات ۴۲ الی ۴۴]

اشاره

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَهِ اَلدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَهِ اَلْقُصْوى وَ اَلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِی اَلْمِیعادِ وَ لٰكِنْ لِيَقْضِيَ اَللّٰهُ أَمْراً
كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَهٍ وَ يَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَهٍ وَ إِنَّ اَللّٰهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (۴۲) إِذْ يُرِيكَهُمُ اَللّٰهُ فِی مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ
أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي اَلْأَمْرِ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ اَلصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اِلْتَقَيْتُمْ فِی أَعْيُنِكُمْ
قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِی أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اَللّٰهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اَللّٰهِ تُرْجَعُ اَلْأُمُورُ (۴۴)

التّفسیر

اشاره

الأمر الذی لا بدّ منه:

یعود القرآن فی هذه الآیات الکریمه-و لمناسبه الکلام فی الآیات السابقه إلی یوم الفرقان یوم معرکه بدر و انتصار المسلمین لمؤزر فی ذلک الموقف الخطیر-یعود لیعرب عن أجزاء من فصول تلک المعرکه،لیطلع المسلمون علی

أهميه ذلک النصر العظيم.

فتقول الآيه الأولى من الآيات محل البحث: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَهِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَهِ الْقُصْوى .

«العدوه»مأخوذه من«العدو»على زنه«السِّرو»و معناها فی الأصل التجاوز،و لکنّها تطلق على أطراف کل شیء،و حواشیه،لأنّها تتجاوز الحدّ الوسط إلى إحدى الجوانب،و جاءت هذه الکلمه فی هذه الآیه بهذا المعنى أی «الطرف،و الجانب».

«و الدنیا»مأخوذه من الدنّو،على وزن العلوّ و تعنی الأقرب،و یقابل هذا اللفظ الأقصى و القصوى.

و کان المسلمون فی الجانب الشمالی من میدان الحرب الذی هو أقرب إلى جهه المدینه، و کان الأعداء فی الجانب الجنوبی و هو الأبعد.

و یحتمل أن یکون المعنى هو أنّ المسلمین لاضطرارهم کانوا فی القسم الأسفل فی المیدان،و کان الأعداء فی القسم الأعلى منه و هو یعدّ میزه لهم.

ثمّ تعقّب الآیه قائله: وَ الرَّکْبُ أَسْفَلَ مِنْکُمْ .

و کما رأینا من قبل فإنّ أبا سفیان حین علم بتحرّک المسلمین غیّر مسیر قافلته إلى جهه أخرى على جانب البحر الأحمر حتى صار قریبا من مکّه،و لو أنّ المسلمین لم یضلّوا أثر القافله فلعلهم کانوا یتبعونها،و لا یوفقون لمواجهه الأعداء و منازلتهم فی معرکه بدر التی تحقق فیها النصر العظیم و الفتح المبین.

و بغض النظر عن کل ذلک فإنّ عدد قوات المسلمین و إمکاناتهم کان أقلّ من قوات الأعداء من جمیع الوجوه،لهذا فإنّ الآیه الکریمه تقول: وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِی الْمِیعادِ .

لأنّ الکثیر منکم سیدرکون ضعفهم الظاهری قبال الأعداء فیتقاعسون عن قتالهم،و لکن اللّه جعلکم إزاء أمر مقدر،و کما تقول الآیه: لِیَقْضِیَ اللّهُ أَمْراً کانَ

مَفْعُولاً

.

و ليعرف الحق من الباطل فى ظلال ذلك النصر غير المتوقع و المعجزه الباهره و لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَهٍ وَ يَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَهٍ .

و المراد من«الحياه»و«الهلكه»هنا هو الهدايه و الضلال،لأنّ يوم بدر الذى سمّى يوم الفرقان تجلّى فيه الإمداد الإلهى لنصره المسلمين،و ثبت فيه أن لهؤلاء علاقه باللّه و أنّ الحق معهم.

و تعقبّ الآيه قائله: وَ إِنَّ اللّٰهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

فقد سمع نداء استغاثاتكم،و كان مطلعا على نيّاتكم،و لذلك أيّدكم بنصره على أعدائكم.

إنّ القرائن تدلّ عن أنّ بعض المسلمين لو كانوا يعرفون حجم قوّه أعدائهم لامتنعوا عن مواجهتهم،مع أنّ طائفه أخرى من المسلمين كانوا مطيعين للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مواجهه جميع الشدائد،لهذا فإنّ اللّه جعل الأمور تسير بشكل يلتقى فيه المسلمون-شاءوا أم أبوا-مع أعدائهم،فكانت المواجهه المصيريه.

و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد رأى فيه منامه من قبل أن قلّه المشركين تقاتل المسلمين،و كانت هذه الرؤيا إشاره إلى النصر و بشاره به،فقد رواه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للمسلمين فازدادت العزائم فى الزحف نحو معركه بدر.

و بالطبع فإنّ رؤيا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،فى منامه كانت صحيحه،لأنّ قوّه الأعداء و عددهم بالرغم من كثرتهم الظاهريه،إلاّ أنّهم كانوا قلّه فى الباطن ضعفاء غير قادرين على مواجهه المسلمين،و نحن نعرف أنّ الرؤيا ذات تعبير و إشاره،و أن الرؤيا الصحيحه هى التى تكشف الوجه الباطنى للأمور.

و الآيه الثّانيه:من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمه من هذا الأمر،و النعمه التى أولاها سبحانه و تعالى للمسلمين عن هذا الطريق،فتقول: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّٰهُ فِى مَنٰامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَرٰاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ و لهبطت معنوياتكم،و لم يقف الأمر

عنـد هذا الحدّ،بل لأدّى ذلک إلى التنازع و اختلاف الکلمه وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لٰكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ و أنقذ الأمر بواسطه الرؤيا التى أظهرت الوجه الباطنى لجيش الأعداء،و لأنّ اللّه يعرف باطنكم إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ .

و تـذكّر الآيه الأخرى بمرحله من مراحل معركه بـدر تختلف عن سابقتها،ففى هذه المرحله و فى ظل خطاب النّبى المؤثر فيهم و البشائر الرّبـانيه،و رؤيه حوادث حـال التهيؤ للقتـال-كنزول المطر لرفع العطش و لتكون الرمـال الرخوه صـالحه لسـاحه المعركه- تجددت بذلک المعنويات و كبر الأمل بالنصر و قويت عزائم القلوب،حتى صاروا يرون الجيش المعادى و كأنّه صغير ضعيف لا حول و لا قوه له،فتقول الآيه المباركه: وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً .

أمّا العـدوّ فـإنّه لمـا كـان يجهـل معنويات المسـلمين و ظروفهم،فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلا جـدّا،بل رآهم أقل ممّا هم عليه،إذ تقول الآيه فى الصدد وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ .

حتى روى عن أبى جهـل أنّه قـال:إنّمـا أصـحاب محمّـد أكله جزور،و فى ذلـک كنايه عن منتهى القلّه.أو أنّهم سيحسـمون الأمر معهم فى يوم واحـد من الغـداه حتى العشيه،و قد جاء فى الأخبار أنّهم كانوا ينحرون كل يوم عشـره من الإبل لطعامهم،لأنّ عدد جيش قريش كان حوالى ألف مقاتل.

و على كل حال:فقد كان تأثير هذين الأمرين كبيرا فى نصـر المسـلمين، لأنّهم من جهه رأوا جيش العدو قليلا فنزال كل خوف و رعب من نفوسـهم،و من جهه أخرى ظهر عـدد المسـلمين قليلاـ فى عين العـدو،كيلاـ يترددوا فى قتال المسـلمين و ينصـرفوا عن الحرب التى أدت فى النهايه إلى هزيمتهم.

لهذا فإنّ الآيه تعقب على ما سبق قائله: لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً .

فلم تنته هذه المعركه وحدها وفق سنه اللّه فحسب،بل إن إرادته نافذه فى كل شىء وَ إِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

و فی الآیه(۱۳)من سوره آل عمران إشاره إلی المرحله الثّالثه من قتال یوم بدر،إذ تشیر إلی أنّ الأعداء لمّا اشتعل أوار الحرب و رأوا الضربات الشدیده لجیش الإسلام تنزل علی رؤوسهم کالصواعق،أصابهم الذعر و الخوف الشدید، فأحسوا عندئذ و کأنّ جیش الإسلام قد ازداد عدده و تضاعف أضعاف ما کان علیه،فانهارت معنویاتهم و أدّی هذا الأمر إلی هزیمتهم و تمزقهم.

و ممّا ذکرناه آنفا یتّضح أنّه لا یوجد أی تناقض،لا بین الآیات محل البحث، و لا بینها و بین الآیه(۱۳)من سوره آل عمران،لإنّ کلاّ من هذه الآیات تبیّن مرحله من مراحل المعرکه.

فالمرحله الأولی:هی ما قبل القتال،و هی ما ورد فیها عن رؤیا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی منامه و رؤیته جیش المشرکین قلیلا.

و المرحله الثّانیه:هی نزولهم فی أرض بدر و معرفه بعض المسلمین بعدد الأعداء و عدده و خوف بعضهم و خشیته من قتالهم.

و المرحله الثّالثه:هی حصول المواجهه المسلحه و ما أنعمه اللّه علیهم،و ما رأوه من مشاهد قلّلت عدد أعدائهم فی أعینهم«فتأملوا بدقّه!».

الآیات [سوره الأنفال (٨): الآیات ۴۵ الی ۴۷]

اشاره

یٰا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا لَقِیتُمْ فِئَهً فَاثْبُتُوا وَ اُذْکُرُوا اَللّٰهَ کَثِیراً لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِیعُوا اَللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ لاٰ تَنٰازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِیحُکُمْ وَ اِصْبِرُوا إِنَّ اَللّٰهَ مَعَ اَلصّٰابِرِینَ (۴۶) وَ لاٰ تَکُونُوا کَالَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیٰارِهِمْ بَطَراً وَ رِئٰاءَ اَلنّٰاسِ وَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَللّٰهُ بِمٰا یَعْمَلُونَ مُحِیطٌ (۴۷)

التّفسیر

اشاره

سته أوامر أخری فی شأن الجهاد:

قال المفسّرون:إنّ أبا سفیان بعد ما استطاع النجاه بقافله قریش التجاریه من مواجهه المسلمین،أرسل مبعوثا إلی قریش الذاهبین إلی ساحه بدر و دعاهم إلی العوده،لأنّه رأی أن لا حاجه إلی القتال،لکن أبا جهل هذا المغرور و المتعصب و المتکبر أقسم أن لا یرجعوا حتی یبلغوا أرض بدر«و کانت بدر قبل هذه المعرکه من مراکز اجتماع العرب،و تقام فیها سوق تجاریه کل عام»و یمکثوا فیها ثلاثه أیّام،و ینحروا الإبل و یأکلون ما یشتهون و یشربون الخمر،و تغنی لهم المغنیّات،حتی یسمع جمیع العرب بهم و تثبت بذلک قوتهم و قدرتهم!...

لکن أمرهم آل إلی الهزیمه فشربوا کؤوس المنایا المترعه بدلا من کؤوس الخمر،و جلست المغنیات ینحن علی جنائزهم!! و الآیات محل البحث تشیر إلی هذا الموضوع،و تنهی المسلمین عن مثل هذه الأعمال،و تضع لهم تعالیم جدیده فی شأن الجهاد إضافه إلی ما سبق من هذه الأمور.

و بصوره عامله فإنّ فی الآیات محل البحث سته أوامر للمسلمین هی:

۱-أنّها تقول أوّلا: یٰا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذٰا لَقِیتُمْ فِئَهً فَاثْبُتُوا أی أن إحدی علائم الإیمان هی ثبات القدم فی جمیع الأحوال،و خاصّه فی مواجهه الأعداء.

۲- وَ اذْکُرُوا اللّٰهَ کَثِیراً لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ .

و لا ریب أنّ المراد من ذکر اللّه هنا لیس هو الذکر اللفظی فحسب،بل حضور القلب،و ذکر علمه تعالی و قدرته غیر المحدوده و رحمته الواسعه،فهذا التوجه إلی اللّه یقوّی من عزیمه الجنود المجاهدین، و یشعر الجندی بأنّ سندا قویّا لا تستطیع أیه قدره فی الوجود أن تتغلب علیه یدعمه فی ساحه القتال،و إذا قتل فسینال السعاده الکبری و یبلغ الشهاده العظمی،و جوار رحمه اللّه،فذکر اللّه یبعث علی الاطمئنان و القوّه و القدره و الثبات فی نفسه.

بالإضافه إلی ذلک،فذکر اللّه و حبّه یخرجان حبّ الزوجه و المال،و الأولاد من قلبه،فإنّ التوجه إلی اللّه یزیل من القلب کل ما یضعفه و یزلزله،کما

یقول الإمام علی بن الحسین زین العابدین علیه السّلام فی دعائه المعروف-فی الصحیفه السجادیه-بدعاء أهل الثغور: «و أنسهم عند لقائهم العدوّ ذکر دنیاهم الخدّاعه، و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون،و اجعل الجنّه نصب أعینهم».

۳-کما أنّ من أهم أسس المبارزه و المواجهه هو الالتفات للقیاده و إطاعه أوامر القائد و الآمر،الآمر الذی لولاه لما تحقق النصر فی معرکه بدر،لذلک فإنّ الآیه بعدها تقول: وَ أَطِیعُوا اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ .

۴- وَ لاٰ تَنٰازَعُوا فَتَفْشَلُوا لأنّ النزاع و الفرقه امام الأعداء یؤدی إلی

الضعف و خور العزيمه،و نتيجه هذا الضعف و الفتور هى ذهاب هيبه المسلمين و قوتهم و عظمتهم وَ تَذْهَبَ رِيحُكَمْ .

«و الريح»فى اللغه،هى الهواء.فالنزاع يولد الضعف و الوهن.

و أمّا ذهاب الريح،فهو إشاره لطيفه إلى زوال القوّه و العظمه،و عدم سير الأمور كما يرام،و عدم تحقق المقصود،لأنّ حركه الريح فيما يرام توصل السفن إلى مقاصدها،و لما كانت الريح فى ذلك العصر أهم قوّه لتحريك السفن فقد كانت ذات أهميه قصوى يؤمئذ.

و حركه الرّيح فى الرّوايات و البيارق تدل على ارتفاع الرّايه التى هى رمز القدره و الحكومه،و التعبير آنف الذكر كنايه لطيفه عن هذا المعنى.

۵-ثمّ تأمر الآيه بالاستقامه بوجه العدوّ،و فى قبال الحوادث الصعبه، فتقول: وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصّٰابِرِينَ .

و الفرق بين ثبات القدم فى الأمر الأوّل،و الاستقامه و الصبر فى الأمر الخامس،هو من جهه أن ثبات القدم يمثل الناحيه الظاهريه،«الجسميه»أمّا الاستقامه و الصبر فليسا ظاهريين،بل هما أمران نفسيان و معنويان.

۶-و تدعو الآيه الأخيره-من الآيات محل البحث-المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجه البلهاء،و رفع الأصوات الفارغه،و تشير إلى قضيه أبى سفيان و أسلوب تفكيره هو و أصحابه،فتقول: وَ لاٰ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيٰارِهِمْ بَطَراً وَ رِئٰاءَ النّٰاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ .

فأهدافهم غير مقدسه،و كذلك أساليبهم فى الوصول إليها،و لقد رأينا كيف أبيدوا و تلاشى كلّ ما جاءوا به من قوّه و عدّه،و سقط بعضهم مضرجا بدمائه فى التراب،و أسبل الآخرون عليهم الدّموع و العبرات فى مأتمهم،بدل أن يشربوا الخمر فى حفل ابتهاجهم،و تختتم الآيه بالقول: وَ اللّٰهُ بِمٰا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ .

ص :۴۵۱

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ۴٨ الى ۵١]

اشاره

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ اَلشَّيْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ وَ قٰالَ لاٰ غٰالِبَ لَكُمُ اَلْيَوْمَ مِنَ اَلنّٰاسِ وَ إِنِّي جٰارٌ لَكُمْ فَلَمّٰا تَرٰاءَتِ اَلْفِئَتٰانِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيْهِ وَ قٰالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرىٰ مٰا لاٰ تَرَوْنَ إِنِّي أَخٰافُ اَللّٰهَ وَ اَللّٰهُ شَدِيدُ اَلْعِقٰابِ (۴٨) إِذْ يَقُولُ اَلْمُنٰافِقُونَ وَ اَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ فَإِنَّ اَللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴٩) وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ يَتَوَفَّى اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَلْمَلاٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ اَلْحَرِيقِ (۵٠) ذٰلِكَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اَللّٰهَ لَيْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِيدِ (۵١)

التّفسير

اشاره

المشركون و المنافقون و وساوس الشّيطان:

مرّه أخرى نلاحظ فى هذه الآيات تجسيد جانب آخر من معركه بدر بما يتناسب و الآيات السابقه فى هذا الشأن،أو بما يتناسب و الآيه الأخيره التى

ص:۴۵٢

تکلمت عن أعمال المشرکین الشیطانیّه فی یوم بدر.

فکما أنّ دعاه الحق مؤیدون باللّه و ملائکه فی نهجهم الذی سلکوه،فإنّ أتباع الباطل و الضالین متأثرون بوساوس الشیاطین و إغواءاتهم.

و قد مرّ فی بعض الآیات السابقه کیف أن الملائکه دافعت عن المقاتلین المسلمین فی بدر(و مرّ تفسیر ذلک).فإنّ أوّل آیه من الآیات محل البحث تتکلم عن دفاع الشیاطین عن المشرکین،فتبدأ بالقول: وَ إِذْ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطٰانُ أَعْمٰالَهُمْ .

إنّ تزیین الشیطان للعمل یکون عن طریق تحریک الأهواء و الشهوات و الرّذائل،فیتزین للإنسان عمله حتی ینظر إلیه باعجاب و یعده عملا عقلائیا من جمیع الجهات،و یراه منطقیا نبیلا.

ثمّ تقول الآیه: وَ قٰالَ لاٰ غٰالِبَ لَکُمُ الْیَوْمَ مِنَ النّٰاسِ وَ إِنِّی جٰارٌ لَکُمْ .

و لن آلو جهدا فی الدفاع عنکم،کما یدافع الجار عن جاره و یظهر له وفاءه و إخلاصه،و ألازمکم ملازمه الظل للشاخص.

کما و یحتمل فی تفسیر الجار هنا أنّه لیس المراد من الجار جار الدّار،بل هو من یؤوی غیره و یؤمنه و یلجأ إلیه،لأنّ من عاده العرب و خاصّه القبائل أو الطوائف القویّه منها أن تضمّن من یلجأ إلیها من أصدقائها و أصحابها و تؤمنهم و تدافع عنهم بکل ما أوتیت من قوّه.

فالشیطان یمنح أصحابه المشرکین الأمان و ورقه اللجوء إلیه.

ثمّ تقول الآیه: فَلَمّٰا تَرٰاءَتِ الْفِئَتٰانِ نَکَصَ عَلیٰ عَقِبَیْهِ وَ قٰالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکُمْ .

و استدل علی نکوصه و تراجعه القهقری بدلیلین هما:

أوّلا قوله: إِنِّی أَریٰ مٰا لاٰ تَرَوْنَ .

فإنّه یری آثار النصر جیدا فی وجوه المسلمین الغاضبه و یشاهد علیها

سمات اللطف الإلهی و الإمداد الغیبی و تأیید الملائکه لهم،فمن الطبیعی أن یتراجع عند ما یری کل ذلک الدعم الرّبانی و القوی الغیبه.

و الثّانی قوله: إِنِّی أَخٰافُ اللّٰهَ .

فإنّ الجزاء الإلهی لیس أمرا یسیرا یمکنه أن یقف بوجهه، بل إنّه هو العذاب الألیم وَ اللّٰهُ شَدِیدُ الْعِقٰابِ .

هل جاء الشیطان عن طریق الوسوسه أو ظهر متجسدا لهم؟

جری الکلام بین المفسّرین حول مسأله نفوذ الشیطان إلی قلوب المشرکین،و قوله لهم فی ساحه معرکه بدر،و کیفیه حصول ذلک،و تتلخص جمیع الآراء القدیمه و الحدیثه فی عقیدتین:

۱-یعتقد بعضهم أنّ هذا الأمر حصل علی صوره وساوس باطنیه،فقد زین لهم بوساوس أعمالهم فی عیونهم و صوّر لهم أنّهم یملکون قوّه لا تقهر،و أغراهم و صوّر لهم أنّه هو ملجؤهم،إلاّ أنّهم بعد قتالهم الشدید للمسلمین،و الحوادث الإعجازیه التی حققت النصر للمسلمین و محت الوساوس عن قلوبهم،أحسوا بالانکسار و أنّه لا ملجأ لهم أبدا سوی ما ینتظرهم من الجزاء الإلهی و العذاب الشدید.

۲-و یری بعضهم الآخر أنّ الشیطان تجسد لهم فی صوره الإنسان،ففی روایه أوردتها کتب الحدیث کثیرا:إنّ قریشا عند ما قررت التحرک و المسیر نحو بدر،کانت تخشی الهجوم من طائفه بنی کنانه لتشاجر کان بینها و بینهم،و عند ذاک جاءهم إبلیس فی صوره«سراقه بن مالک»الذی کان من رؤوس بنی کنانه و طمأنهم بأنّهم یوافقونهم علی هذا الأمر،و أنّهم سینتصرون،لکنّه تراجع لما رأی نزول الملائکه،و لاذ بالفرار و انهزم الجیش عند ما رأی ضربات المسلمین الشدیده و انهزام إبلیس.

و قالت قريش بعد عودتها لمكّه:إنّ سراقه السبب فى انهزام الجيش،فوصل الخبر إلى سراقه فأقسم أنّه لا علم له بذلك،و عند ما قصّ عليه بعضهم ما كان منه فى يوم بدر أنكر كل ذلك و أقسم أنّه لم يخرج من مكّه و لم يحصل من تلك الأمور شىء أبدا،فعلم أنّ ذلك لم يكن سراقه بن مالك (۱) .

و دليل الطائفه الأولى أنّ إبليس لا يستطيع أن يتمثل فى سوره إنسان.

بينما ترى الطائفه الثّانيه عدم وجود دليل على استحاله هذا الأمر أبدا، و خاصّه أنّه نقل ما يشبه هذه القصّه فى هجره النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مجىء،رجل كبير على هيئه شيخ نجدى إلى دار الندوه،و إضافه إلى أن سياق الآيه و ظاهر المحادثه يتلاءم مع تجسيد الشيطان.

و على أيه حال،فإنّ الآيه تدل على أنّ الناس إذا ساروا فى نهج الحق أو الباطل فى الأمور و القضايا الجماعيه،فإنّ سلسله من الإمدادات و القوى الغيبيه أو القوى الشيطانيه ستتحرك معهم،و هى تظهر فى مختلف الصور،فعلى السائرين فى سبيل الحق و منهاج اللّه الحذر من هذا الأمر.

و تشير الآيه بعدها إلى روحيّه جماعه ممن يميلون إلى الشرك فى ساحه بدر، فتقول: إِذْ يَقُولُ الْمُنٰافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاٰءِ دِينُهُمْ .حين تصوروا أنّهم سينتصرون مع قلّه العدد و العدّه،أو أنّهم سينالون الشهاده و الحياه الابديه فى هذا المسار.

لكن هٰؤلاء لعدم إيمانهم و عدم معرفتهم بالإمداد الإلهى أنكروا تلك الحقائق البينه،لأنّه كما تقول الآيه المباركه: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَإِنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

و قد اختلف المفسّرون فى المراد من المنافقين و اَلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و لا يستبعد أن تكون العبارتان تشيران إلى المنافقين فى المدينه،لأنّ

۱- ۱) نقل باختصار عن مجمع البيان و نور الثقلين،و سائر التفاسير،ذيل الآيه.

القرآن الكريم عند ما يتعرض لموضوع المنافقين فى أوّل سوره البقره يقول: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزٰادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً (۱) فهؤلاء الذين ذكرتهم الآيه-محل البحث-إمّا أنّهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينه،و كانوا يظهرون الإسلام و الإيمان و لم يكونوا فى حقيقتهم كذلك،أو أنّهم من الذين تظاهروا بالإيمان فى مكّه لكنّهم لم يهاجروا إلى المدينه و انضموا فى معركه بدر إلى صفوف المشركين،فلمّا رأوا قلّه المسلمين فى معركه بدر قبال جيوش الكافرين قالوا:إنّ هؤلاء أصابهم الغرور فى دينهم الجديد و جاءوا إلى هذه الساحه.

و على أيه حال فإنّ اللّه سبحانه يخبر عن نيّات هؤلاء الباطنيه،و يوضح الخطأ فى تفكير هؤلاء و أمثالهم.

و تجسّد الآيه بعدها كيفيه موت الكفار و نهايه حياتهم،فتتوجه بالخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: وَ لَوْ تَرىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلاٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبٰارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذٰابَ الْحَرِيقِ .

و مع أنّ الفعل«ترى»فعل مضارع،لكنّه مع وجود«لو»يدل على الماضى، فتكون الآيه إشاره إلى حاله المشركين السابقه و موتهم الأليم،و لهذا السبب يعتقد بعض المفسّرين أن ذلك إشاره إلى قتل هؤلاء على أيدى الملائكه فى بدر، و أوردوا فى هذا الصدد بعض الرّوايات غير المؤكّده.إلاّ أنّ القرائن-كما أشرنا سابقا-تدل على عدم تدخل الملائكه مباشره فى الحرب أو المعركه،فبناء على هذا فإنّ الآيه محل البحث تتكلم عن ملائكه الموت و كيفيه قبض الأرواح و الجزاء الأليم الذى يمنى به أعداء الحق فى تلك اللحظه.

و عَذٰابَ الْحَرِيقِ إشاره إلى جزاء يوم القيامه و عقابه،و قد جاء هذا التعبير

ص:۴۵۶

۱- ۱) البقره،۱۰.

فی آیات أخری من القرآن کالآیه(۲۲)من سوره الحج،و الآیه(۱۰)من سوره المعارج بالمعنی ذاته...

ثمّ یقال لأولئک: ذٰلِکَ بِمٰا قَدَّمَتْ أَیْدِیکُمْ .

و التعبیر ب«أیدیکم»إنّما جاء لأنّ أکثر أعمال الإنسان یجریها بالاستعانه بالیّد،و إلاّ فإنّ الآیه تشمل جمیع الأعمال البدنیه و الروحیه.

و تضیف الآیه الأخیره معقبه بالقول: وَ أَنَّ اللّٰهَ لَیْسَ بِظَلاّٰمٍ لِلْعَبِیدِ .

و مصطلح«الظلاّم»صیغه مبالغه،و معناها شدید الظلم،و قد أوضحنا السبب فی اختیار هذه الکلمه و أمثالها فی بحوث حول الظلم فی المجلد الثّالث من التّفسیر الأمثل فلیراجع هناک.

ص :۴۵۷

الآيات:

اشاره

[سوره الأنفال (٨): الآيات ۵۲ الی ۵۴]

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اَللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اَللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اَللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ اَلْعِقَابِ (۵۲) ذٰلِكَ بِأَنَّ اَللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۵۳) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ اَلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كٰانُوا ظٰالِمِينَ (۵۴)

التّفسير

اشاره

سنّه اللّه تقبل التغيير و التبديل:

فی هذه الآيات إشاره إلی«سنه إلهيه دائمه»تتعلق بالشعوب و الأمم و المجتمعات،لئلا يتصور بعض أنّ ما أصاب المشركين يوم بدر من عاقبه سيئه كان أمرا استثنائيا،فإنّ من جاء بمثل تلك الأعمال فی السابق،أو سيقوم بها مستقبلا سينال العاقبه ذاتها.

فتقول الآيه الأولی من الآيات محل البحث: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّٰهِ فَأَخَذَهُمُ اللّٰهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

فبناء على هذه فإنّ قريشا و المشركين و عبده الأصنام فی مکّه،الذین أنکروا آیات اللّه و تعنتوا بوجه الحق و حاربوا قاده الإنسانیه،لیسوا وحدهم الذین نالوا جزاء ما اقترفوه،بل أنّ ذلک قانون دائم،و سنه إلهیه تشمل من هم أقوی منهم-کآل فرعون-کما تشمل الشعوب الضعیفه کذلک،ثمّ توضح الآیه التالیه أصل هذا الموضوع فتقول: ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ یَکُ مُغَیِّراً نِعْمَهً أَنْعَمَهٰا عَلیٰ قَوْمٍ حَتّٰی یُغَیِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ .

و بعباره أخری:إنّ الرحمه الرّبانیّه عامّه تسع جمیع الخلق،لکنّها تبلغ الناس و تصل إلیهم بما یناسب کفاءتهم و شأنهم،فإنّ اللّه سبحانه یغدق مبتدئا بنعمه المادیّه و المعنویّه علی جمیع الأمم،فإذا استفادوا من تلک النعم فی السیر نحو الکمال و الاستمداد منها فی سبیل الحق تعالی و الشکر علی نعمائه،بالإفاده منها إفاده صحیحه،فإنّ اللّه سبحانه سیثبّت نعماءه و یزیدها.أمّا إذا استغلت تلک المواهب فی سبیل الطغیان و الانحراف و العنصریه،و کفران النعمه و الغرور و الفساد،فإنّ اللّه سیسلبهم تلک النعم أو یبدلها إلی بلاء و مصیبه،بناء علی ذلک فإنّ التغییر یکون من قبلنا دائما،و إلاّ فإنّ النعماء الإلهیه لا تزول!...

و تعقیبا علی هذا الهدف یعود القرآن لیشیر إلی حال الطغاه-کفرعون و أقوام آخرین-فیقول: کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کَذَّبُوا بِآیٰاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَکْنٰاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنٰا آلَ فِرْعَوْنَ وَ کُلٌّ کٰانُوا ظٰالِمِینَ ظلموا أنفسهم و ظلموا سواهم أیضا.

الجواب علی سؤال:

قد یرد هنا سؤال و هو: لم تکررت عباره کَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ فی الآی بفاصله قلیله مرّتین،و مع اختلاف یسیر فی التعبیر؟! و للإجابه علی هذا التساؤل ینبغی الالتفات إلی لطیفه،و هی أنّه بالرغم من

أنّ التكرار أو التأكيد على المسائل الحساسه من أصول البلاغه،و يلاحظ فى أقوال البلغاء و الفصحاء،لكنّ فى الآيات-آنفه الذكر-فرقا مهما يخرج تلك العباره عن صوره التكرار.و هو أنّ الآيه الأولى تشير إلى الجزاء الإلهى فى مقابل إنكار آيات الحق و التكذيب بها،ثمّ تمثل حال هؤلاء بقوم فرعون و الأقوام السابقين.

إلّا أنّ الآيه الثّانيه تشير إلى تبدل النعم فى الدنيا و ذهاب المواهب الرّبانيه، مثل الانتصارات و الأمن و القدرات و ما يفتخر به.ثمّ مثّلت الآيه بحال فرعون و الأقوام السابقين.

ففى الحقيقه أنّ جانبا من الكلام كان عن سلب النعم و ما ينتج عن ذلك من الجزاء،و يقع الكلام فى جانب آخر منه على تبدل النعم و تحوّلها.

ملاحظتان

اشاره

١-أسباب حياه الشعوب و موتها

يعرض التأريخ لنا شعوبا و أممّا كثيره،فطائفه اجتازت سلّم الرقى بسرعه، و وصلت طائفه ثانيه إلى أسفل مراحل الانحطاط،و طائفه ثالثه عاشت يوما فى تشتت و ضياع و تناحر و تفرقه،ثمّ قويت فى يوم آخر،و طائفه رابعه على العكس منها إذ سقطت من أعلى مراتب الفخر إلى قعر و ديان الذله و الضياع.

و الكثير من الناس يمرّون مرور الكرام على حوادث التأريخ المختلفه دون أى تفكر فيها،و الكثير منهم بدلا من البحث فى العلل أو الأسباب الواقعيه لحياه الشعوب و موتها يرجعون ذلك إلى أسباب وهميه و خياليه.

و يرجعوها آخرون إلى حركه الأفلاك و دورانها إيجابا و سلبا.

و أخيرا فإنّ بعضهم لجأ إلى مسأله القضاء و القدر بمفهومها المحرّف،أو إلى

مسائل حسن الطالع و الحظ و عدمهما،و ما شابه ذلك،فيرجعون كل الحوادث الحسنه أو المرّه إلى هذه الأمور.و كل ذلك بسبب الخوف من الأسباب الحقيقه لتلك الأمور.

و القرآن الكريم فى الآيات المتقدمه يضع أصبع التحقيق على الأصل و المنبع،و يبيّن أنواع العلاج و أسباب النصر و الهزيمه فيقول:لأجل معرفه الأسباب الأصيله لا يلزم البحث عنها فى السماوات و لا فى الأرضين،و لا وراء الأوهام و الخيال،بل ينبغى البحث عنها فى وجودكم و فكركم و أرواحكم و أخلاقكم،و فى نظمكم و الاجتماعيه،فإنّ كل ذلك كامن فيها.

فالشعوب التى فكّرت مليّا و حركت عقولها و وحدّت جموعها و تآخت فيما بينها،و كانت قويه العزم و الإراده،و قامت بالتضحيه و الفداء عند لزوم ذلك،هذه الشعوب منتصره حتما.

أمّا إذا حلّ الضعف و التخاذل و الركود مكان العمل و السعى الحثيث،و حلّ التراجع مكان الجرأه و النفاق و التفرقه مكان الاتحاد،و حبّ النفس مكان الفداء، و حل التظاهر و الرياء محل الإخلاص و الإيمان،فيبدأ عند ذلك السقوط و البلاء.

و فى الحقيقه أنّ جمله: ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهٰا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مٰا بِأَنْفُسِهِمْ تبيّن أسمى قانون فى حياه الإنسانيه،و توضح أنّ مدرسه القرآن الكريم هى أكرم مدرسه فكريه لحياه المجتمعات الإنسانيه، و أوضحها حتى لأولئك الذين نسوا فى عصر الفضاء و الذرّه قيمه الإنسان، و جعلوا حركه التأريخ مرتبطه بالمصانع و المعامل و قضايا الإقتصاد.

فهى تقول لهؤلاء:إنّكم فى خطأ كبير إذا أخذتم بالمعلول و تركتم العله الأصليه أو نسيتموها،و تمسكتم بغصن واحد من شجره كبيره و تركتم أصولها.

و لئلا نمضى بعيدا،فإنّ تأريخ الإسلام،أو تأريخ حياه المسلمين-بتعبير أصح-قد شهد انتصارات باهره فى بداياته،و انكسارات و هزائم مرّه صعبه

بعدها.

ففی القرون الأولی کان الإسلام یتقدم فی العالم بسرعه،و یبث فی کل مکان منه أنوار العلم و الحریّه،و یبسط ظلاله علی أقوام جدد بالثقافه و العلوم،فکان ذا قدره متحرکه و محرکه و بنّاءه معا،و جاء بمدینه زاهره لم یشهد التاریخ مثلها،و لم تمر بضعه قرون حتی أخذ الخمول یعطل تلک الحرکه،و أخذت الفرقه و التشتت و الضعف و الخور و التخلف مکان ذلک الرقی،حتی بدأ المسلمون یمدون أیدیهم إلی الآخرین طلبا لوسائل الحیاه الابتدائیه،و یبعثون بأبنائهم إلی دیار الأجانب لأخذ الثقافه و العلم،بینما کانت جامعات المسلمین یومئذ من أرقی جامعات العالم العلمیه و المراکز التی تهوی إلیها أفئده الأصدقاء و الأعداء ابتغاء المعرفه.

لکن الأمور بلغت حدا بحیث أنّهم لم یصدروا علما و صناعه،بل استوردوا ما یحتاجونه من خارج بلدانهم.

و أرض فلسطین التی کانت یوما مرکز مجد المسلمین و عظمتهم و لم یتمکن الصلیبیون-لمدّه مائتی عام-برغم تقدیمهم ملایین القتلی و الجرحی من ابترازها من أیدی المقاتلین المسلمین.إلاّ أنّهم أسلموها«الیوم»خلال سته أیّام ببساطه، فی وقت کان علیهم أن یعقدوا المؤتمرات أشهرا و سنین لإرجاع شبر منها.و لا یعرف بعد هذا إلی أیه نتیجه سیصلون؟ ألم یعد اللّه عباده بالقول: وَ کٰانَ حَقًّا عَلَیْنٰا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ (۱) أو قوله: وَ لِلّٰهِ الْعِزَّهُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ (۲) .

أو قوله: وَ لَقَدْ کَتَبْنٰا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُهٰا عِبٰادِیَ الصّٰالِحُونَ (۳) .

۱- ۱) الروم،۴۷.

۲- ۲) المنافقون،۸.

۳- ۳) الأنبیاء،۱۰۵.

فهل اللّه عاجز-و العياذ باللّه-من تحقيق و عوده؟!أو قد نسيها!أو غيّرها؟ و إذا لم يكن كذلك،فلم ذهب كل ذلك المجد و العظمه و العزّه؟ إنّ القرآن الكريم يجيب-فى آيه قصيره-على كل تلك التساؤلات،و يدعو إلى العوده إلى أعماق الوجدان،و النظر فى ثنايا المجتمع،فسترون أن التغيير يبدأ من أنفسكم،و أنّ الألطاف و الرحمه الإلهيه تعم الجميع،فأنتم الذين أذهبتم قدراتكم و طاقاتكم هدرا فصرتم إلى هذا الحال.

و لا تتكلم الآيه عن الماضى فحسب ليقال:إنّ ما مضى قد مضى بما فيه من مراره و حلاوه،و انتهى و لن يعود،و الكلام عنه غير مجد و غير نافع.بل تتكلم الآيه عن الحاضر و المستقبل أيضا،فإنّكم إذا عدتم إلى اللّه و أحكمتم أسس إيمانكم،و وعت عقولكم،و ذكرتم عهودكم و مسئولياتكم،و تصافحت الأيدى بعضها مع بعض و تعالت الصرخات المدوّيه للنهضه،و بدأتم بالجهاد و الفداء و السعى و العمل على كل صعيد،فسوف تعود المياه إلى مجاريها،و ستنقضى الأيّام السود و ترون أفقا مشرقا و ضاء،و ستعود أمجادكم العظيمه،فى صوره أجلى و أكبر! تعالوا لتبديل أحوالكم،و ليكتب علماؤكم،و يجاهد مقاتلوكم،و يسعى التجار و العمال،و يقرأ شبابكم أكثر فأكثر و يطهروا أنفسهم و تزداد معارفهم، ليتحرك دم جديد فى عروق مجتمعكم فتتجلّى قدراتكم بشكل يعيد له أعداؤكم الأرض المحتله التى لم يعد منه شبر واحد بالرغم من كل أنواع التذلل و الرجاء و الاستعطاف!!...

و من الضرورى أن نذكر هذه اللطيفه،و هى أنّ القياده ذات تأثير مهم فى مصير الشعوب،و لا ننسى أن الشعوب الواعيه تختار لنفسها القياده الحكيمه اللائقه،أمّا القاده الضعاف أو المتكبرون أو الظالمون فيسحقهم غضب الشعوب و إرادتهم القويه،و لا ينبغى أن ننسى أنّ ما وراء الأسباب و العوامل الظاهريه

سلسله من الإمدادات الغيبيه تنتظر المؤمنين و المخلصين،لكنّها لا ينالها كل أحد جزافا،بل لا بدّ من الاستعداد و الجداره! و نختتم هذا الموضوع بذكر روايتين.

الأولى:ما

ورد عن الإمام الصّادق فى هذا الشأن إذ قال عليه السّلام «ما أنعم اللّه على عبد بنعمه فسلبها إياه حتى يذنب ذنبا يستحقق بذلك السلب» (۱) .

و الثّانيه:ما نقرؤه

فى حديث آخر له عليه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ بعث نبيا من أنبيائه إلى قومه و أوحى إليه أن قل لقومك:إنّه ليس من أهل قريه و لا ناس كانوا على طاعتى فأصابهم فيها سراء،فتحولوا عمّا أحبّ إلى ما أكره إلاّ تحولت لهم عمّا يحبّون إلى ما يكرهون.و ليس من أهل قريه و لا أهل بيت كانوا على معصيتى فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عمّا أكره إلى ما أحبّ إلاّ تحولت لهم عمّا يكرهون إلى ما يحبّون».

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجه.

۲-لا جبر فى العاقبه و لا جبر فى التأريخ،و لا فى سائر الأمور...

و الموضوع المهم الآخر الذى يستفاد من هذه الآيات بوضوح،هو أنّه ليس للإنسان مصير خاص قد تعين من قبل،و لا يقع تحت تأثير ما يسمى ب«جبر التأريخ»و«جبر الزمان»بل إنّ الذى يصنع التأريخ و حياه الإنسانيه،و يجعل التحوّلات فى الأسلوب و الأخلاق و الأفكار و غيرها،و هو إراده الإنسان نفسه! فبناء على ذلك فالذين يعتقدون بالقضاء و القدر الجبرى،و يقولون:إنّ الأمور و الحوادث جميعها تجرى بمشيئه اللّه الإجباريه،تردّهم هذه الآيه.

و كذلك الجبر المادى الذى يجعل من الإنسان ألعوبه بيد الغرائز التى لا تتغير

۱- ۱) تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۹۳.

و أصول الوارثه.

أو جبر المحيط بحيث يرون أنّه تتحكم فيه الأوضاع الاقتصاديه و المعامل و المصانع.

فكل ما تقدم من«الجبر»ترفضه المدرسه الإسلاميه،و يرفضه القرآن، فالإنسان حرّ و هو الذى يقرر مصيره بنفسه.

إنّ الإنسان-بملاحظه ما قرأناه فى الآيات من قانون-يمسك بزمام مصيره و تأريخه بنفسه،فيصنع لها الفخر و النصر،و هو الذى يسوق نفسه إلى الابتلاء و المذله،فداؤه منه و دواؤه بيده،فإذا لم يغير نفسه و لم يسع فى بناء شخصيته لن يكون له دور فى صياغه مصيره و شأنه.

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ۵۵ الی ۵۹]

اشاره

إِنَّ شَرَّ اَلدَّوَابِّ عِنْدَ اَللّٰهِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ (۵۵) اَلَّذِينَ عٰاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لاٰ يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي اَلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۵۷) وَ إِمّٰا تَخٰافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيٰانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلىٰ سَوٰاءٍ إِنَّ اَللّٰهَ لاٰ يُحِبُّ اَلْخٰائِنِينَ (۵۸) وَ لاٰ يَحْسَبَنَّ اَلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاٰ يُعْجِزُونَ (۵۹)

التّفسير

اشاره

مواجهه من ينقض العهد بشدّه!

فی هذه الآیات المبارکه إشاره إلی طائفه أخری من أعداء الإسلام الذین وجهوا ضربات مؤلمه للمسلمین فی حیاه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الملیئه بالأحداث،إلاّ أنّهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مرّا و کانت عاقبه أمرهم خسرا.و هؤلاء هم یهود المدینه الذین عاهدوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عدّه مرات.

و هذه الآیات تبیّن الأسلوب الشدید الذی ینبغی أن یتخذه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحقّهم،الأسلوب الذی فیه عبره للآخرین،کما فیه درء لخطر هذه الطائفه.

ص:۴۶۶

و تبـدأ الآيات فتعرف هـذه الطائفه بأنّها شـر الأحياء الموجوده فى هذه الدنيا فتقول: إِنَّ شَـرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ .

و لعل التعبير ب اَلَّذِينَ كَفَرُوا يشـير إلى أنّ كثيرا من يهود المـدينه كانوا يعلنون حبّهم للنبى و إيمانهم به قبل أن يظهر صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم وفقا لما وجدوه مكتوبا عنه فى كتبهم،حتى أنّهم كانوا يدعون الناس و يمهدون الأمور لظهوره.و لكنّهم و بعد أن ظهر وجـدوا أنّ مصـالحهم المـاديه مهـدده بـالخطر،فكفروا به و أظهروا عنـادا شديـدا فى هـذا الأـمر حـتى لم تبق بـارقه أمل بإيمانهم،و كما يقول القرآن الكريم: فَهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ .

و تقول الآـيه الأـخرى: اَلَّذِينَ عٰاهَـدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْـدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّهٍ (١) .و المغروض أن يراعوا الحيـاد على الأقـل فلا يكونوا بصدد الإضرار بالمسلمين و إعانه الأعداء عليهم.

فلا هم يخافون اللّه تعالى،و لا يحذرون من مخالفه أوامره،و لا يراعون القواعد و الأصول الانسانيه: وَ هُمْ لاٰ يَتَّقُونَ .

و التعبير ب«ينقضون»و«لا يتقون»و هما فعلان مضارعان،هـذا التعبير بهما يـدلّ على الاسـتمرار،كما أنّه يـدل على أنّهم قـد نقضوا عهودهم مرارا. (٢) .

و الآيه بعدها توضح كيفيه أسـلوب مواجهه هؤلاء فتقول: فَإِمّٰا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَـرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أى قاتلهم بشـكل مد مرّ بحيث أن الطوائف القابعه خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك و يتفرقوا عنهم.

و كلمه«تثقفنهم»مأخوذه من ماده«الثقف»على زنه«السقف»بمعنى بلوغ

١- ١) «من»فى جمله«عاهـدت منهم»إمّا للتبعيض فتعنى أنّك عاهدت سادتهم أو البارزين من يهود المدينه،أو أنّها للصـله فتكون معناها عاهدتهم... كما يرد هذا الاحتمال و هو أن معنى«عاهدت منهم»هو أخذت العهد منهم.

٢- ٢) بالإضافه إلى ما ذكرنا فى المتن فهناك قرينه لفظيه تدل على هذا المعنى أيضا و هى«فى كل مرّه»...

الشیء بدقه و سرعه،و هی إشاره إلی وجوب التنبه و الاطلاع السریع و الدقیق علی قراراتهم،و الاستعداد لإنزال ضربه قاصمه لها وقع الصاعقه علیهم قبل أن یفاجئوک بالهجوم.

و کلمه«شرّد»مأخوذه من ماده«التشرید»و هی بمعنی التفریق المقرون بالاضطراب فینبغی أن یکون الهجوم علیهم بشکل تتفرق معه المجموعات الأخری من الأعداء و ناقضی العهود،و لا یفکروا بالهجوم علیکم.

و هذا الأمر إنّما صدر لیعتبر به الأعداء الآخرون،بل حتی الأعداء فی المستقبل أیضا و یتجنبوا الحرب مع المسلمین،و لیتجنب نقض العهد-کذلک- الذین لهم عهود مع المسلمین،أو الذین سیعاهدونهم مستقبلا لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ .

وَ إِمّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِیانَهً فَانْبِذْ إِلَیْهِمْ عَلی سَواءٍ

و لا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد إِنَّ اللّهَ لا یُحِبُّ الْخائِنِینَ .

و بالرغم من أنّ الآیه قد منحت النّبی صلاحیه نقض العهد إذا أحس بخیانتهم أو نقضهم عهودهم،إلاّ أن من الواضح أن الخوف من نقضهم العهد لا یکون جزافا و دون سبب بل عند ما یرتکبون ما یدلّ علی تفکیرهم بالنقض و یتفقون مع العدوّ علی الهجوم،فهذا القدر من القرائن و الأمارات یجیز للنّبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یبلغهم إلغاء العهد.

و جمله«فانبذ إلیهم»من«الإنباذ»و هی بمعنی«الإلقاء»أو«الإعلام» و«الرّد»أی:ردّ علیهم عهودهم و أعلن عن إلغائها جهرا.

و التعبیر ب«علی سواء»إمّا بمعنی أنّه کما أنّهم نقضوا العهد بأعمالهم التی اقترفوها،فألغه أنت من جهتک أیضا،فهذا حکم عادل،یتساوی و ما فعلوه.أو بمعنی الإعلان عن ذلک بأسلوب واضح صریح لا لبس فیه و لا خدعه.

و علی کل حال،فإنّ الآیه-محل البحث-فی الوقت الذی تنذر فیه

المسلمين من نقض العهد،و تحذرهم أن يكونوا هدفا و غرضا لهجوم العدوّ،فهی تدعوهم إلی رعایه مبادئ الإنسانیه فی حفظ العهود أو إلغائها.

و فی آخر آیه-من الآیات محل البحث-یوجه تعالی الخطاب إلی ناقضی العهد،فیحذرهم من عاقبه ذلک فیقول: وَ لا یَحْسَبَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا یُعْجِزُونَ .

ص :۴۶۹

الآيات [سوره الأنفال (٨): الآيات ۶۰ الى ۶۴]

اشاره

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اِسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبٰاطِ اَلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اَللّٰهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ اَللّٰهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مٰا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اَللّٰهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لاٰ تُظْلَمُونَ (۶۰) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهٰا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اَللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ (۶۱) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اَللّٰهُ هُوَ اَلَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۶۲) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ جَمِيعاً مٰا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ اَللّٰهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۳) يٰا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ حَسْبُكَ اَللّٰهُ وَ مَنِ اِتَّبَعَكَ مِنَ اَلْمُؤْمِنِينَ (۶۴)

التّفسير

اشاره

المزيد من التعبئه العسكريه و الهدف منها:

تشير أوّل آيه هنا-لتناسب الكلام فى الآيات المتقدمه عن الجهاد-إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به فى كل عصر و مصر،و هو لزوم

الاستعداد العسكری لمواجهه الأعداء،فتقول: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّهٍ .

أی لاـ تنتظروا حتی یهجم العدوّ فتستعدوا عندئذ لمواجهته،بل یجب أن تکون لدیکم القدره و الاستعداد اللازم لمواجهه هجمات الأعداء المحتمله.

و تضیف الآیه قائله: وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَیْلِ .

«الرّباط»بمعنی شدّ الشیء،و یرد هذا الاستعمال کثیرا بمعنی ربط الحیوان فی مکان ما لرعایته و المحافظه علیه،و قد جاء هذا اللفظ هنا بما یناسب ذلک بمعنی الحفظ و المراقبه بصوره عامّه.

و«المرابطه»تعنی حفظ الحدود،و تأتی کذلک بمعنی الرقابه علی شیء آخر،و یطلق علی مکان شدّ وثاق الحیوان ب«الرباط»و لذلک سمّت العرب أماکن نزول المجاهدین رباطا أیضا.

ملاحظات

اشاره

۱-فی الجمله القصیره-آنفه الذکر-بیان لأصل مهم فی الجهاد و حفظ وجود المسلمین و ما لدیهم من مجد و عظمه و فخر،و التعبیر فی الآیه واسع إلی درجه أنّه ینطبق علی کل عصر مصر تماما.

و کلمه«قوّه»و إن قصرت لفظا،إلاّ أنّها ذات معنی وسیع و مغزی عمیق،فهی لا تختص بأجهزه الحرب و الأسلحه الحدیثه لکل عصر فحسب،بل تتسع لتشمل کلّ أنواع القوی و القدرات التی یکون لها أثرا ما فی الإنتصار علی الأعداء،سواء من الناحیه المادیه أو الناحیه المعنویه.

فالذین یرون أنّ السبیل الوحید للانتصار علی الأعداء هو کمیه السلاح،هم علی خطأ کبیر،لأنّنا شاهدنا فی عصرنا الحاضر شعوبا قلیله العدد و أسلحتها غیر

متطوره انتصرت على شعوب أقوى و ذات أسلحه حديثه متطوره،كما حصل للشعب الجزائرى المسلم فى مواجهه الدوله الفرنسيه القويه! فبناء على ذلك،و مضافا إلى ضروره تحصيل الاسلحه المتطوره فى كل زمان بعنوان وظيفه إسلاميه حتميه-تجب تقويه عزائم الجنود و معنوياتهم للحصول على قوّه أكبر و أهمّ.

و لا ينبغى الغفله عن بقيه القوى و القدرات الاقتصاديه و الثقافيه و السياسيه، و التى تندرج تحت عنوان«القوّه»و لها تأثير بالغ على الأعداء.

و ممّا يسترعى النظر أنّ الرّوايات الإسلاميه ذكرت لنا تفاسير مختلفه فى شأن«القوّه»و معناها،و ذلك يكشف عن مفهومها الواسع،ففى بعض الرّوايات نجد أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بيّن أنّ المراد من القوّه هو«النّبل» (۱) .

و نقرأ فى روايه أخرى-وردت فى تفسير على بن إبراهيم-أن المقصود من القوه هو كل أنواع السلاح (۲) .

كما نقرأ فى تفسير العياشى أن المراد منه السيف و الدرع (۳) .

و نجد روايه أخرى فى كتاب من لا يحضره الفقيه تقول:«منه الخضاب بالسواد» (۴) .

فترى أنّ الإسلام قد أولى لون شعر المقاتلين من كبار السن اهتماما ليستعملوا الخضاب،فيراهم العدوّ فى عمر الشباب فيصاب بالرعب منهم، و يكشف هذا الأمر عن مدى سعه مفهوم القوّه.

و بناء على ذلك،فمن فسّر القوّه بمصداق واحد محدود قد جانب الصواب

۱- ۱) تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۶۴-۱۶۵.

۲- ۲) المصدر السابق.

۳- ۳) المصدر السابق.

۴- ۴) المصدر السّابق.

جدّا.

و لكن مع الأسف،فإنّ المسلمين على الرغم ممّا لديهم من مثل هذا التعليم الصريح،لا نجد فيهم أثرا لتقويه العزائم و المعنويات بين صفوفهم،كأنّهم قد نسوا كل شيء.و لا هم يستغلّون قواهم الاقتصاديه و الثقافيه و العسكريه و السياسيه لمواجهه عدوّهم.

و الأعجب من ذلك أنّنا مع إهمالنا هذا الأمر العظيم و تركه وراء ظهورنا نزعم أنّنا ما زلنا مسلمين!!و نلقى تبعه تأخرنا و انحطاطنا على رقبه الإسلام،و نقول:إذا كان الإسلام داعيه ترقّ و تقدم،فلم نحن المسلمون فی تأخر و تخلف؟! و نحن نعتقد أنّ هذا الشعار الإسلامی الكبير: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّهٍ إذا أضحى شعارا شاملا فی كل مكان،ينادی،به الصغير و الكبير،و العالم و غير العالم،و المؤلف و الخطيب،و الجندی و الضابط،و الفلاح و التاجر،و التزموا به فی حياتهم و طبقوه،كان كافيا لجبران التخلفّ و التأخر.

إنّ سيره النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم العمليه و أئمّه الإسلام تدل على أنّهم لم يدخروا وسعا، و استغلوا كل فرصه لمواجهه العدوّ،كإعداد الجنود و تهيئه السلاح،و شد الأزر و رفع المعنويات،و بناء معسكرات التدريب،و إختيار الزمان المناسب للهجوم، و العمل على استعمال مختلف الأساليب الحربيه،و لم يتركوا أيه صغيره و لا كبيره فی ذلك.

و المعروف أنّ النّبی بلغه أن سلاحا جديدا مؤثرا صنع فی اليمن أيّام معركه حنين،فأرسل النّبی جماعه إلى اليمن لشرائه فورا.

و نقرأ فی أخبار معركه أحد أنّ النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم ردّ على شعار المشركين«أعل هبل،اعل هبل»بشعار أقوى منه و هو«اللّه أعلى و أجل»ورد على شعارهم:«إنّ لنا العزى و العزى لكم»،بقوله:«اللّه مولانا و لا مولى لكم»،و هذا الأمر يدلّ على أنّ النّبی صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين-كذلك-لم يغفلوا عن اختيار أقوى الشعارات فی

مواجهه الأعداء و الردّ على عقائدهم و شعاراتهم.

و من التعاليم الإسلاميه المهمّه فى هذا الصدد موضوع سباق الخيل و الرمايه،و ما جوّزه الفقه فيهما من الربح و الخساره،فهو مثل آخر على تفكير الإسلام العميق إلى جانب الاستعداد لمواجهه الأعداء و حثّ المسلمين على ذلك.

۲-و اللطيفه المهمّه الأخرى التى نستنتجها من الآيه آنفه الذكر هو عالميه و خلود هذا الدين الالهى.لأنّ مفاهيم هذا الدين و مضامينه ذات أبعاد واسعه لا تخلق على مرور الزمان و لا تغدو باليه أو منسوخه برغم القدم،فجمله وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ كان لها مفهوم حى قبل أكثر من ألف عام،كما هى الحال اليوم،و سيبقى مفهومها حيا إلى عشرات الآلاف من السنين الأخرى لأنّ أى سلاح يظهر فى المستقبل فهو كامن فى كلمه«القوّه»الجامعه،إذ أن جمله«ما استطعتم»عامّه،و كلمه«قوّه»نكره تؤيد عموميه تلك الجمله لتشمل كل قوّه.

۳-و يرد هنا سؤال و هو:لماذا وردت عباره«رباط الخيل»بعد كلمه«قوّه» بمالها من المفهوم الواسع.

و جواب هذا السؤال هو أنّ الآيه بالرغم من أنّها تتضمن قانونا شاملا لكل عصر و زمان،فهى فى الوقت ذاته تحمل تعليما مهما خاصا بعصر النّبى،الذى هو عصر نزول القرآن.و فى الحقيقه إن هذا المفهوم العام جاء بمثال واضح لذلك العصر،لأنّ الخيل كانت فى ذلك الزمن من أهم وسائل الحرب،فهى وسيله مهمّه عند المقاتلين الشجعان و الأبطال فى هجومهم و قتالهم السريع،و أهميتها تشبه أهميه الطائرات و الدبابات فى العصر الحاضر.

الهدف من تهيئه السلاح و زياده التعبئه العسكريه:

ثمّ ينتقل القرآن بعد ذلك التعليم المهم إلى الهدف المنطقى و الإنسانى من وراء هذا الموضوع،فيقول:إنّ الهدف منه ليس تزويد الناس فى العالم أو فى

مجتمعكم بأنواع الأسلحه المدمره التی تهدم المدن و تحرق الأخضر و اليابس و ليس الهدف منه استغلال أراضی الآخرين و ممتلكاتهم،و ليس الهدف هو توسعه الاستعباد و الاستعمار فی العالم،بل الهدف من ذلک هو تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَ عَدُوَّكُمْ ! لأنّ أكثر الأعداء لا يستمعون لكلمه الحق و لا يستجيبون لنداء المنطق و المبادی الإنسانيه،و لا يفهمون غير منطق القوّه! فإذا كان المسلمون ضعافا،فسوف يفرض عليهم الأعداء كل ما يريدون،أمّا إذا اكتسبوا القوّه الكافيه،فإنّ أعداء الحق و العدل و الاستقلال و الحريه سيشعرون بالخوف و لا يفكرون بالتجاوز و العدوان.

و اليوم-و نحن فی تفسير هذه الآيه-فإنّ قسما من الأراضی الإسلاميه فی فلسطين و غيرها من الدول المجاوره تسحقها أحذيه الجنود الصهاينه،و قد أغاروا بهجومهم الأخير على لبنان فشرّدوا الآلاف من العوائل،و قتلوا المئات من الأبرياء،و هدموا الكثير من الأحياء و الدور السكنيه،و أحالوها إلى انقاض، فأضافوا-بهذه المأساه المروعه جريمه أخرى إلى سجلهم الأسود...فی وقت استنكر الرأی العالمی هذا العمل الوحشی حتی أصدقاء إسرائيل،و أصدرت الأمم المتحده بيانا دعت فيه إلى إخلاء هذه الأرض،لكن هذا الشعب الذی لا يتجاوز بضعه ملايين لا يريد الاستماع لأيه كلمه حق و أی منطق إنسانی،و ذلک لما لديه من قوّه و أسلحه و استعداد كاف للحرب أعدّه منذ سنين طويله لمثل هذا العدوان.

فالمنطق الوحيد الذی يمكن به الردّ على هؤلاء هو منطق وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّهٍ فكأنّ هذه الآيه نزلت فی عصرنا الحاضر و من أجلنا،لتقول لنا:جهزوا أنفسكم و كونوا من القوه بحيث يصاب عدوّكم بالذعر و الخوف كيما يغادر أرضكم و ينسحب إلى مكانه الأوّل.

ص:۴۷۵

و ممّـا يثير النظر و يسترعيه أنّ الآـيه هنـا جمعت التعبير ب«عـدوّ اللّه» و«عـدوّكم»و ذلك إشاره إلى عـدم وجود منافع و أغراض شخصـيه فى الجهاد و الـدفاع عن الإسـلام،بل الهـدف هو حفظ رساله الإسـلام الإنسانيه،فالـذين يعادونكم إنّما هم أعـداء اللّه و أعداء الحق و العدل و الإيمان و التوحيد و الأخلاق الإنسانيه،فينبغى الردّ عليهم انطلاقا من هذا المجال.

و فى الحقيقه إنّ هـذا التعبير شبيه بالتعبير«فى سبيل اللّه»أو«الجهاد فى سبيل اللّه»الذى يدلّ على أنّ الجهاد أو الدفاع الإسـلامى لا يشبه فتـح البلـدان فى مـا مضـى من التأريـخ، و لاـ غزو الاسـتعمار التوسـعى اليوم،و لا فى صوره إغارات القبائل العربيه فى زمن الجاهليه،بل كل ذلك من أجل اللّه و فى سبيل اللّه،و فى مسير إحياء الحق و العدل.

ثمّ تضيف الآيه بأنّ المزيد من استعداداتكم العسكريه يخيف أعداء آخرين لا تعرفونهم فتقول: وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاٰ تَعْلَمُونَهُمُ .

ملاحظتان

اشاره

١-من هم المقصودون فى الآيه«الذين لا تعلمونهم»

بالرّغم من أنّ المفسّـرين احتملوا فى هذه الطائفه:الذين لا تعلمونهم احتمالات كثيره،فقال بعضهم:إنّهم يهود المدينه الذين كانوا يضـمرون عداءهم، و قال آخرون:إنّها إشاره إلى الأعداء مسـتقبلا،كدوله الروم و الفرس اللتين لم يحتمل المسـلمون يومئذ أنّهم سيكونون فى حرب معهما أو يقع القتال بينهما و بينهم.

إلّا أنّ الأصـح-كما نراه-هو أن المراد منها هم المنافقون الـذين دخلوا فى صـفوف المسـلمين دون أن يعلموهم،فإذا قوى جيش الإسلام فإنّ أولئك سيقعون

فی حیره و اضطراب و یرحلون،و الشاهد علی هذه الموضوع هو الآیه(۱۰۱)من سوره التّوبه إذ تقول: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِینَهِ مَرَدُوا عَلَی النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ .

و یحتمل أن مفهوم الآیه یشمل جمیع أعداء الإسلام غیر المعروفین أعم من المنافقین و غیرهم.

۲-الاستعداد فی کل مکان و زمان

و تتضمن الآیه تعلیما لمسلمی الیوم أیضا،و هو أنّه لا ینبغی الاکتفاء بالاستعداد لأعداء الإسلام الذین تعرفونهم،بل علیکم أن تنتبهوا للأعداء الاحتمالیین أو«بالقوّه»و أن تتهیأوا حتی تکونوا فی أعلی حدّ من القوّه و القدره، و فی الحقیقه فإنّ المسلمین لو تنبهوا لهذه القضیه المهمّه لما منوا بهجمات الأعداء المفاجئه.

و فی نهایه الآیه إشاره إلی موضوع مهم آخر،و هو أنّ الاستعداد العسکری و جمع الأسلحه و الأجهزه الحربیه و وسائل الدفاع المختلفه،کل ذلک یحتاج إلی بالدعم المالی اللازم له،لذلک تأمر المسلمین بالتعاون الجماعی لتهیئه ذلک المال،و أن ما یبذلونه فی هذا الأمر فهو عطاء فی سبیل اللّه،و لن ینقص منه شیء أبدا وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فِی سَبِیلِ اللّهِ یُوَفَّ إِلَیْکُمْ فیرجع إلیکم جمیعه،بل أکثر ممّا أنفقتم وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ ،و ستنالون ثواب ذلک فی هذه الدنیا فی انتصار الإسلام و قوته و عظمته،لأنّ الشعب الضعیف ستتعرض أمواله للخطر و سیفقد أمنه و حریته و استقلاله أیضا،فبناء علی ذلک فإنّ ما تنفقونه فی هذا السبیل سیعود إلیکم عن طریق آخر و فی مستوی أفضل و أسمی.

کما أنّ ثوابا أعظم ینتظرکم فی العالم الآخر فی جوار رحمه اللّه،فمع هذه الحال لا تظلمون،بل ستنالون خیرا کثیرا.

ص: ۴۷۷

و ممّـا يسترعى النظر أنّ الجمله آنفه الـذكر جـاء فيهـا لفـظ«شـىء»و هى ذات مفهوم واسع،أى لاـ يخفى على اللّه ما تبـذلونه من جميع الأشـياء،مالا كان أو نفسا أو فكرا أو منطقا أو قوه أو أى مال آخر ينفق فى تقويه بنيه المسـلمين الـدفاعيه و العسـكريه،فإنّ اللّه سيدخره و يعيده إليكم فى حينه.

و قـد احتمـل بعض المفسّـرين أن جمله«و أنتم لاـ تظلمـون»معطـوفه على جمله«ترهبـون»أى أنّكم إذا مـا أعـددتم القـوه اللاـزمه لمواجهه الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم،و لن يقدروا على ظلمكم و إيذائكم،و بناء على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبدا.

أهداف الجهاد فى الإسلام و أركانه:

و اللطيفه الأخرى التى تسـتفاد من هـذه الآيه،و تكون جوابا على كثير من أسـئله الجهلاء و إشـكالاتهم،هى بيان شـكل الجهاد و هـدفه و منهجه،فالآيه تقول بوضوح:إنّ الهـدف منه ليس قتل الناس أو الاعتـداء على حقوق الآخرين،بل الهدف-كما ذكرنا-هو إرهابكم الأعداء لكيلا يعتدوا عليكم و ليخافوكم،فينبغى أن تكون جميع جهودكم و سـعيكم منصـبّا فى سبيل قطع شر أعداء اللّه و الحق و العدل.

فهل يملك الجهله فى أذهانهم مثل هـذا التصوّر عن الجهاد فى القرآن الكريم،و ما صـرّح به فى هـذه الآيه-محل البحث-ليسوغ لهم أن يحملوا كل هذه الحملات المسـعوره المتتاليه على هذا القانون الإسلامى.فتاره يدّعون بأنّ الإسلام هو دين السيف،و تاره يقولون بأنّ الإسـلام يفرض على الناس أفكاره بالحديد،و يقيسون النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بسائر محتلى البلدان فى التاريخ.

و فى عقيـدتنا أنّ جواب كل هؤلاء هو أن يعود إلى القرآن،و يفكروا فى الهـدف الأصـيل لهـذا الموضوع،لتتّضح لهم كل تلك الأمور.

الاستعداد للصّلح:

مع أنّ الآيه السابقه أو ضحت هدف الجهاد فى الإسلام بقدر كاف،فإنّ الآيه التاليه التى تتحدّث على الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصوره أجلى فتقول وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها .

و يحتمل فى تفسير هذه الجمله المتقدمه أنّهم إذا بسطوا أجنحتهم للسلم فابسط جناحيك أنت للسلم أيضا،لأنّ«جنحوا»فعل مصدره«الجنوح»و هو الميل،و يطلق على كل طائر أنّه«جناح»أيضا،لأنّ كل جناح فى الطائر يميل إلى جهه،لذلك يمكن الاستناد فى تفسير هذه الآيه إلى جذر اللغه تاره،و إلى مفهومها الثّانوى تاره أخرى.

و لمّا كان الناس يتردّدون أغلب الأحيان عند ما يراد التوقيع على معاهده الصلح،فإنّ الآيه تأمر النّبى بعدم التردد فى الأمر إذا كانت الشروط عادله و منسجمه مع المنطق السليم و العقل،فتقول: وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

و مع ذلک فهى تحذر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين من احتمال الاحتيال و الخداع فى دعوه الأعداء،إلى الصلح،فقد تكون دعوه للتمويه و الرّغبه فى توجيه ضربه مفاجئه،أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر،إلاّ أنّ الآيه تطمئن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يخشى هذا الأمر أيضا،لأنّ اللّه عزّ و جلّ سيكفيه أمرهم و سينصره فى جميع الأحوال،إذ تقول: وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوکَ فَإِنَّ حَسْبَکَ اللّهُ .

و سيرتک أيّها النّبى-السابقه-شاهده على هذه الحقيقه،لأنّ اللّه هُوَ الَّذِى أَيَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ .

فكم أرادوا بک كيدا،و كم مهدوا و أعدّوا لک من خطط مدمّره بحيث لم تكن الغلبه عليها بالوسائل المألوفه ممكنه،لكنّه عزّ و جلّ حفظک و رعاک فى مواجهه

كل ذلك.

أضف إلى ذلك أنّ المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب و لم يدخروا وسعا فى الدفاع عنك،فقد كانوا قبل ذلك متشتتين متعادين،و لكنّ اللّه شرح صدورهم بأنوار الهدايه وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ .

و قد كانت الحرب لسنوات طويله قائمه على قدم و ساق بين طائفتى الأوس و الخزرج و كانت صدورهم تغلى غيظا و حقدا بعضهم على بعض بشكل لم يكن أى أحد يتصور أنّهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب و الصفاء فى يوم ما، و سيكونون صفا واحدا متراصا،و لكن اللّه القادر المتعادل فعل ذلك ببركه الإسلام و فى ظلال القرآن،و لم يكن هذا الإمر مقتصرا على الأوس و الخزرج الذين هم من الأنصار،بل كان ذلك بين المهاجرين أيضا الذين جاءوا من مكّه،إذ لم يكن بينهم-قبل الإسلام-حب و مودّه،بل كانت صدورهم مليئه بالبغضاء و الشحناء أيضا،لكن اللّه عزّ و جلّ غسل كل تلك الأحقاد و أزالها بحيث تمكن معها ثلاثمائه و ثلاثه عشر من أبطال بدر،منهم حوالى ثمانين نفرا من المهاجرين و الباقى من الأنصار،فكانوا جيشا صغيرا،لكنّه متحدّ قوى استطاع أن يكسر شوكه العدوّ و يحطم قوته.

ثمّ تضيف الآيه أن اتّحاد تلك القلوب،أو إيجاد تلك الألفه،لم يكن بوسائل مألوفه أو ماديه لَوْ أَنْفَقْتَ مٰا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مٰا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لٰكِنَّ اللّٰهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ .

إنّ الذين يعرفون حاله نفوس المتعصبين و الحاقدين،كأولئك الذين كانوا فى العصر الجاهلى،يعرفون كذلك أن تلك الأحقاد و الضغائن لم يكن بالإمكان إزالتها،لا بالمال و لا بالجاه و المقام،لأنّها كانت لا تزول عندهم إلاّ بالانتقام الذى يتكرر بصوره متسلسله فيما بينهم،و فى كل مرّه يكون فى صوره أبشع و أكثر

ص:۴۸۰

وحشيه و إجراما،و الأمر الوحيد الذى أمكن بسببه قلع تلك الجذور الفاسده من أصولها،هو إحداث ثوره عارمه و تغيير شامل فى الأفكار و الأرواح و العقائد، ثوره تصنع تحوّلا فى شخصياتهم و تبدل أساليب تفكيرهم،و ترفعهم عن الحضيض الذى كانوا فيه،لتتجلى لهم أعمالهم السابقه فى وجهها الكالح القبيح، فيطهروا بذلك أنفسهم،و يدرءوا عنها الأحقاد و الأوساخ و العصبيه القبليه العمياء و هذه أمور لا يمكن إيجادها بالثروه و لا بالمال،بل فى ظلال الإيمان و التوحيد الخالص فحسب.

و تضيف الآيه معقبه فى الختام إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

فعزته تقتضى عجز الآخرين من الوقوف فى مواجهته،و حكمته تقتضى أن تكون كل أموره جاريه وفق حساب دقيق و نظام صحيح،و لهذا فإنّ الخطه الدقيقه وحدت القلوب المتنافره المتفرقه و جعلتها تنصاع للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لينشروا أنوار الهدايه فى كل أرجاء العالم.

ملاحظتان

۱-قال بعض المفسّرين:إنّ الآيه محل البحث تشير إلى الخلافات بين الأوس و الخزرج،الذين هم من الأنصار فحسب،و لكن نظرا إلى أنّ المهاجرين و الأنصار نهضوا جميعا لنصره النّبىّ فيتّضح اتساع مفهوم الآيه.

و لعل أولئك كانوا يتصورون أنّ الخلافات كانت قائمه بين الأوس و الخزرج دون غيرهم، مع أنّه كانت اختلافات كثيره فى المستويات الطبقيه و الاجتماعيه بين الفقراء و الأغنياء،و الكبار و الصغار،بين هذه القبيله و تلك،تلك الخلافات و«الانشقاقات»أذهبها الإسلام و محا آثارها،كما يقول القرآن الكريم فى مكان

آخر: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً (۱) .

۲-إنّ هذا القانون لا يختص بالمسلمين الأوائل فحسب،فاليوم حيث يبسط الإسلام ظلاله على ثمانمائه مليون مسلم فى أنحاء العالم،و هم من مختلف العناصر و الأقوام المتباعده و المجتمعات المتنوعه.إذ لا يمكن إيجاد أيه حلقه اتصال بين كل هؤلاء سوى حلقه الإيمان و التوحيد،فإنّ الأموال و الثروات و المؤتمرات لا يمكنها أن تفعل شيئا مهما فى هذا المجال،بل ما يمكن أن يوحدهم هو إيقاد شعله الإيمان أكثر فى قلوب هؤلاء كما حصل عند المسلمين الأوائل،لأنّ النصر لا يتحقق إلّا عن هذا الطريق،و هو طريق الأخوه الإسلاميه بين جميع الناس.

و تخاطب الآيه الأخيره من الآيات محل البحث النّبى بالقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

و نقل بعض المفسّرين أنّ هذه الآيه الكريمه نزلت عند ما قال جماعه من يهود بنى قريظه و بنى النضير لما قالوا للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:نحن نسلم و نتبعك،يعنى إنّنا مستعدون لاتباعك و نصرتك،فنزلت هذه الآيه محذره النّبى لئلا يعتمد على هؤلاء،بل المعول عليه هو اللّه و المؤمنون (۲) .

و قد أورد الحافظ أبو نعيم-و هو من أكابر علماء السنه-فى كتابه فضائل الصحابه،بسنده،أنّ هذه الآيه نزلت فى حق على أمير المؤمنين،فالمقصود بالمؤمنين هو على عليه السّلام (۳) .

ص: ۴۸۲

۱- ۱) آل عمران،۱۰۳.

۲- ۲) تفسير التبيان،ج ۵،ص ۱۵۲.

۳- ۳) موسوعه الغدير،ج ۲،ص ۵۱.

و قد قلنا مرارا:إنّ مثل هذه التفاسير و أسباب النّزول لا تجعل الآيات محدوده و منحصره،بل المقصود فيها هو أنّ شخصا كعلى بن أبى طالب عليه السّلام الذى كان فى أوّل صفوف المؤمنين هو السند الأوّل للنبى بعد اللّه من بين المسلمين،مع أنّ بقيه المؤمنين هم أنصار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعوانه.

الآيتان [سوره الأنفال (٨): الآيات ۶۵ الی ۶۶]

اشاره

يَا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ حَرِّضِ اَلْمُؤْمِنِينَ عَلَى اَلْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۶۵) اَلْآنَ خَفَّفَ اَللّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اَللّهِ وَ اَللّهُ مَعَ اَلصّابِرِينَ (۶۶)

التّفسير

اشاره

لا ترتقبوا تساوی القوی:

فی هاتین الآیتین تتوالی التعالیم العسکریه و أحکام الجهاد أیضا.

فالآیه الأولی منهما تخاطب الرّسول فتقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ .

إنّ الجنود و المقاتلین مهما کانوا علیه من استعداد ینبغی قبل بدء الحرب أن ترفع معنویاتهم و تشحذ هممهم،و هذا الأمر معروف فی جمیع النظم العسکریه فی العالم،إذ یقوم قاده الجیوش و أمراؤهم قبل التحرک نحو سوح القتال أو عند

ساحه القتال،فيلقون خطبا تثيرهم و تقوّى من معنوياتهم و تحذرهم من الهزيمه و الجبن.

غايه ما فى الأمر أنّ مثل مسأله الترغيب و التشويق إلى القتال محدوده فى المدارس الماديّه،و لكنّها واسعه فى الأديان السماويه،نظرا للتعاليم الربانيه، و تأثير الإيمان باللّه،و التذكير بمنزله الشهداء عند ربّهم و مقامهم عنده،و ما ينتظرهم من الثواب الجزيل البعيد المدى،و ما سينالونه من العزه و الفخر عند انتصارهم،فكل ذلك يحرك روح البطوله و الثبات فى نفوس الجنود،فتلاوه بعض آيات القرآن فى الحروب الإسلاميّه تشحذ الجندى عزما و قوّه و إقداما لا حدود له،و يتقد فيه الشوق و العشق للتضحيه و الفداء.

و على كل حال،فإنّ الآيه توضح أهميه الإعلام و التبليغ و شحذ همم المقاتلين و الجنود و معنوياتهم باعتبار ذلك تعليما إسلاميا مهما.

و تعقب الآيه بالتعليم الثّانى فتقول: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صٰابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .

و بالرغم من أنّ الآيه فى صوره إخبار عن غلبه الرجل على عشره،لكن بقرينه الآيه بعدها اَلْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ يتّضح أنّ المراد من ذلك هو تعيين الحكم أو الوظيفه و الخطه و المنهج،لا أنّه مجرّد خبر و هكذا فينبغى للمسلمين أن لا ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقدارا يكافئ قوه العدو و أفراده،ليتحركوا إلى ساحه القتال و الجهاد،بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوّهم عشره أضعافهم.

ثمّ تشير الآيه إلى علّه هذا الحكم فتقول: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَفْقَهُونَ و هذا التعليل يبدو عجيبا لأوّل وهله،إذ ما هى العلاقه بين المعرفه و الفقاهه و بين النصر أو بين عدم المعرفه و الهزيمه؟!لكن الواقع هو أنّ العلاقه بينهما قريبه و متينه،لأنّ المؤمنين يعرفون نهجهم الذى سلكوه و يدركون الهدف من خلقهم و إيجادهم،

و یؤمنون بنتائجه الإیجابیه فی هذا العالم،و الثواب الجزیل الذی ینتظرهم فی العالم الآخر،فهم یعلمون،لم یقاتلون؟و من أجل من یجاهدون؟و فی سبیل أی هدف مقدس یضحون؟و علی من سیکون حسابهم إذا ما ضحوا و استشهدوا فی هذا المضمار؟ فهذا السیر الواضح المشفوع بالمعرفه یمنحهم الثبات و الصبر و الاستقامه.

أمّا الذین لا یؤمنون باللّه و الیوم الآخر،کعبده الأصنام،فلا یعرفون لأی أمر یقاتلون؟و لأجل من یجاهدون؟و إذا قتلوا فمن یؤدّی دیه دمهم؟فهم لتقلیدهم الأعمی و لعاداتهم الجاهلیه ساروا رواء هذه الأفکار،و هکذا تبعث ظلمات الطریق و عدم معرفتهم الهدف و نتائج أعمالهم علی انهیار أعصابهم و تفت فی عضدهم و ثباتهم،و تجعل منهم کائنات ضعیفه.

و بعد ذلک الحکم الثقیل بجهاد الأعداء و ان کانوا عشره اضعاف یخفف اللّه عن المؤمنین و یتنزل فی الحکم الذی یرهقهم فیقول: اَلْآنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْکُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِیکُمْ ضَعْفاً .

ثمّ یقول: فَإِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ مِائَهٌ صٰابِرَهٌ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ وَ إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ أَلْفٌ یَغْلِبُوا أَلْفَیْنِ بِإِذْنِ اللّٰهِ .

و لکن علی کل حال ینبغی أن لا تنسوا تسدید اللّه وَ اللّٰهُ مَعَ الصّٰابِرِینَ .

بحوث

اشاره

و هنا لا بدّ من الالتفات الی عدّه أمور:

۱-هل نسخت الآیه الأولی

کما لا حظنا فإنّ الآیه الأولی تأمر المسلمین أن لا یتقاعسوا عن مواجهه الأعداء حتی إذا کانوا عشره أضعافهم،غیر أنّ الآیه الثّانیه تخفض هذا العدد إلی

ضعفين فحسب.

و هذا الاختلاف الظاهر بين الآيتين جعل بعضهم يقول:إن الآيه الأولى-من الآيتين محل البحث-نسختها الآيه الثّانيه،أو أنّه حمل الآيه الأولى على الاستحباب و الثّانيه على الوجوب،أى إذا كان عدد الأعداء ضعف عدد المسلمين فيجب عليهم عدم التراجع عن ساحه الجهاد و القتال،أمّا إذا زاد عددهم عن الضعف حتى بلغ عشره أضعافهم فلهم عندئذ أن لا يقاتلوهم،و إن كان الأفضل لهم أن لا ينسحبوا عن جهادهم العدوّ.

إلّا أنّ بعض المفسّرين يرون أن الاختلاف الظاهرى الموجود بين الآيتين لا يدل على النسخ،و لا يدل على الاستحباب،بل إن لكل واحده من الآيتين حكما معينا،فعند ما يبتلى المسلمون بالضعف و الخور و يكثر فيهم المقاتلون غير المحنّكين أو غير المدرّبين و لا المتهيئين للقتال،فعندئذ يكون معيار العدد هو نسبه الضعف.أمّا إذا كان المقاتلون على استعداد تام،أشداء فى إيمانهم و عزائمهم كالكثير من أبطال بدر،فالنسبه عندئذ ترتقى إلى عشره أضعاف.

فبناء على ذلك فإنّ الحكمين فى الآيتين محل البحث يرتبطان بالطائفتين المختلفتين و فى ظرفين متفاوتين.

و بهذا لا يوجد نسخ فى الآى هنا،و إذا وجد فى الرّوايات التعبير بالنسخ فينبغى الالتفات إلى أن النسخ ذو معنى واسع و يشمل التخصيص فى بعض الموارد.

٢-أسطوره توازن القوى

إنّ الآيتين-محل البحث-تتضمنان هذا الحكم المسلّم به،و هو أنّ على المسلمين ألّا ينتظروا موازنه القوى الظاهريه بينهم و بين العدو،بل عليهم أن ينهضوا لمواجهته و إن كان ضعف عددهم،بل حتى لو كان عشره أضعاف عددهم

أحيانا،و أن لا يفروا من العدوّ بسبب قلّه العدد أبدا.

و ممّا يستجلب النظر أنّ أغلب المعارك التى كانت تجرى بين المسلمين و أعدائهم كان فيها ميزان القوى لصالح العدو،و كان المسلمون قلّه غالبا،و لم يكن هذا الأمر قد وقع فى حروب الإسلام فى عصر النّبى فحسب-كبدر و أحد و الأحزاب أو كمعركه مؤته التى رووا أن جيش المسلمين كان لا يتجاوز ثلاثه آلاف مقاتل،أمّا جيش العدو فأقل ما ذكروا عنه أنّه كان حوالى مائه و خمسين ألفا،بل حتى الحروب بعد عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد ذكروا أن فرقا مذهلا كان بين جيش الإسلام الذى حرر فارس و جيش الساسانيين،فقد قيل مثلا:إنّ الجيش الإسلامى كان لا يتجاوز خمسين ألف مقاتل،بينما كان جيش خسرو پرويز خمسمائه ألف مقاتل! و أمّا فى معركه اليرموك التى وقعت بين المسلمين و الروم،فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الذى جمعه هرقل كان حوالى مائتى ألف مقاتل،بينما كان جيش الإسلام لا يتجاوز أربعه و عشرين ألفا! و الأعجب من ذلك أن المؤرخين يذكرون أنّ قتلى جيش الروم فى معركه اليرموك كانوا يزيدون على سبعين ألفا!! و ما من شك أن الموازنه بين القوى أو التفوق العسكرى أحد أسباب النصر بحسب الظاهر،و لكن ما هو السبب الذى كان وراء انتصار المسلمين القله فى مثل هذه المعارك؟ و الإجابه على هذا السؤال المهم ذكرها القرآن فى الآيتين محل البحث فى ثلاثه تعابير:

التّعبير الأوّل:يقول فيه: عِشْرُونَ صٰابِرُونَ ثمّ قوله فى الآيه بعدها: مِائَةٌ صٰابِرَةٌ أى ذوو استقامه و ثبات.

و المراد هنا أنّ روح الاستقامه و الثبات،التى هى ثمره شجره الإيمان،كانت

سببا فی أن یغلب الرجل المسلم عشره أمثاله من الکفار.

التّعبیر الثّانی:و فی مکان آخر یقول: ذٰلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ یَفْقَهُونَ أی أنّ عدم معرفه العدو هدفه،و معرفتکم هدفکم المقدس،یستعاض عن موضوع قلتکم إزاء کثره العدو.

التّعبیر الثّالث:هو قوله سبحانه فی الآی محل البحث: بِإِذْنِ اللّٰهِ أی أن الإمدادات الغیبیه و لطف اللّه و رحمته تشمل مثل هؤلاء المجاهدین الصابرین فتنصرهم علی عدوّهم.

و فی عصرنا یواجه المسلمون أعداء ألدّاء أقویاء أیضا،لکن العجیب أن جیش المسلمین فی کثیر من المعارک أکثر من جیش العدوّ،و لکن مع ذلک لا أثر لانتصار المسلمین،و کأنّهم یسیرون باتجاه مخالف عمّا کان یسیر علیه المسلمون الأوائل.

و السّبب هو أنّ المسلمین الیوم لا یتمتعون بمعرفه کافیه و یا للأسف،و قد فقدوا روح الصبر و الاستقامه بسبب رکونهم إلی عوامل الفساد و زخرف الحیاه المادیه و زبرجها،کما أنّ الإمداد الغیبی و رعایه اللّه قد سلبا منهم بسبب تلوّثهم بالذنوب،فابتلوا بمثل هذه العاقبه! إلاّ أنّ طریق العدوه ما یزال مفتوحا،و تأمل أن یأتی الیوم الذی یعی المسلمون مرّه أخری مفهوم هاتین الآیتین و أمثالهما لیخلعوا عن أنفسهم حاله الذل و التقهقر.

۳-ما هو المراد من الآیتین؟

ممّا یستجلب النظر أنّ الکلام فی الآیه الأولی-من الآیتین محل البحث- کان علی نسبه الواحد إلی العشره،فمثلت الآیه ب إِنْ یَکُنْ مِنْکُمْ عِشْرُونَ صٰابِرُونَ یَغْلِبُوا مِائَتَیْنِ .

إلاّ أن الكلام فى الآيه الثّانيه كان عن نسبه الضعف مثل المائه فى قبال المائتين،و الألف فى قبال الألفين: فَإِنْ يَكَنْ مِنْكَمْ مِائَةٌ صٰابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ... إلخ.

و كأن هذا المثال البليغ يريد أن يبيّن هذا الحقيقه،و هى أنّ الرجال الأشداء من ذوى العزيمه و الإيمان يمكنهم أن يشكّلوا جيشا مقتدرا حتى لو كانوا عشرين رجلا،إلاّ أنّهم لو كانوا ضعفاء،فليس بإمكانهم أن يصنعوا جيشا من عشرين،بل لا بدّ أن يكونوا أضعاف هذا العدد لتشكيل جيش،«فلاحظوا بدقه».

ص:۴۹۰

الآیات [سوره الأنفال (٨): الآیات ۶٧ الی ٧١]

اشاره

مٰا كٰانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي اَلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ اَلدُّنْيٰا وَ اَللّٰهُ يُرِيدُ اَلْآخِرَةَ وَ اَللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶٧) لَوْ لاٰ
كِتٰابٌ مِنَ اَللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ (۶٨) فَكُلُوا مِمّٰا غَنِمْتُمْ حَلاٰلاً طَيِّباً وَ اِتَّقُوا اَللّٰهَ إِنَّ اَللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶٩) يٰا
أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ اَلْأَسْرىٰ إِنْ يَعْلَمِ اَللّٰهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمّٰا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (٧٠) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيٰانَتَكَ فَقَدْ خٰانُوا اَللّٰهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

التّفسیر

اشاره

أسری الحرب:

بیّنت الآیات السابقه بعض أحکام الجهاد المهمّه و مواجهه الأعداء،و فی هذه الآیات استکمال لما سبق فی عرض قسم من أحکام أسری الحرب،لأنّ أغلب الحروب تقترن بتأسیر جماعه من المتقاتلین من قبل الطرف الآخر،و قد

أولی الإسلام أهمیه قصوی لمسأله أسری الحرب،من حیث أسلوب التعامل معهم،و من حیث بعض النواحی الإنسانیه و أهداف الجهاد أیضا.

و أوّل موضوع مهم یثار فی هذا الشأن،هو ما قالته الآیه الکریمه من أن کل نبی لیس له الحق فی أسرار افراد العدو الاّ بعد أن یثبت اقدامه فی الأرض و یکیل الضربات القاضیه للأعداء: مٰا کٰانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ أَسْریٰ حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ .

و الفعل«یثخن»مأخوذ من«الثخن»علی زنه«المحن»و معناه فی الأصل الضخامه و الغلظه و الثقل،ثمّ استعمل هذا اللفظ بمعنی الفوز و القوّه و النصر و القدره،للسبب المذکور آنفا.

و قال بعض المفسّرین:إنّ معنی حَتّٰی یُثْخِنَ فِی الْأَرْضِ یدل علی المبالغه و الشدّه فی قتل الأعداء،و قالوا:إنّ معنی ذلک أن أخذ الأسری ینبغی أن یکون بعد مقتله عظیمه فی الأعداء و لکن مع ملاحظه کلمه«فی الأرض»و الالتفات إلی جذر هذه الکلمه الذی یعنی الشدّه و الغلظه،یتّضح أن معنی الآیه لیس هو ما ذکروه،بل القصد هو التفوق علی العدو تماما و إظهار القوّه و القدره و إحکام السیطره علی المنطقه.

إلاّ أنّه لمّا کان فی قتل الأعداء و إبادتهم دلیل علی السیطره و إحکام مواقع المسلمین أحیانا،فإنّ من مصادیق هذه الجمله فی بعض الشروط قتل الأعداء، و لیس هو مفهوم الجمله الأصیل.

علی أیه حال،فإنّ الآیه تنبه المسلمین إلی نقطه مهمّه فی الحرب،و هی أنّ علیهم عدم التفکیر و الانشغال بأخذ الأسری قبل انحدار العدوّ بالکامل،لأنّ بعض المسلمین المقاتلین-کما یستفاد من بعض الرّوایات-کان جلّ سعیهم هو الحصول علی أکبر عدد من الأسری فی ساحه بدر مهما أمکنهم،لأنّ العاده کانت أن یدفع عن الأسیر مبلغ من المال علی شکل فدیه لیتم الإفراج عنه بعد نهایه

الحرب.

و يعدّ هذا الأمر عملا حسنا فی بعض المواقع،إلاّ أنّه عمل خطیر قبل أن یطمأن من اندحار العدو کاملا،لأنّ الانشغال بأسر العدو و شدّ وثاقهم و نقلهم إلی مکان آمن،کل ذلک یبعد المقاتلین غالبا عن أصل الهدف الذی من أجله کانت الحرب،و ربّما یمنح العدو الجریح فرصه لجمع قواه و إعاده هجومه،کما حدث فی غزوه أحد،حیث شغل بعض المسلمین أنفسهم بجمع الغنائم،فاستغل العدوّ هذه الفرصه فأنزل ضربته الأخیره بالمسلمین.

و بناء علی ذلک فإنّ تأسیر الأعداء یجوز فی صوره ما لو حصل الیقین بالنصر الساحق علیه،أمّا فی غیر هذه الصوره فیجب توجیه الضربات الشدیده و المتتالیه لهدم قوات العدو و شلّها فإذا حصل الاطمئنان بذلک فإنّ الأهداف الإنسانیه توجب إیقاف القتل و الاکتفاء بأسرهم.

و قد أوضحت الآیه هاتین النقطتین المهمتین:العسکریه،و الإنسانیه،فی عباره موجزه:

ثمّ ألقت باللوم علی أولئک الذین خالفوا هذا الأمر فتقول: تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیا وَ اللّهُ یُرِیدُ الْآخِرَهَ .

«و العرض»یعنی الأمور غیر الثابته،و لما کانت الذخائر المادیه غیر ثابته فی هذه الدنیا فقد عبّر عنها بالعرض.

و کما قلنا آنفا فإن الاهتمام بالجانب المادی فیما یتعلق بالأسری و الغفله عن الهدف النهائی،أی الإنتصار علی العدو،لا أنّه یحبط الثواب الأخروی فحسب،بل یسیء إلی الإنسان فی حیاته الدنیا و إلی عزّته و رفعته و استقراره، ففی الحقیقه،هذه الأهداف المذکوره للفرد فی الحیاه الدنیا تعدّ من أمور الدنیا الثابته،فلا ینبغی أن نترک المنافع الطویله الأمد و المستقبلیه رهن الخطر من أجل أن نحصل علی منافع مادیه عابره!

و تختتم الآيه بالقول أن التعليم آنف الذكر-فى الواقع-مزيج من العزه و النصر و الحكمه و التدبير،لأنّه صادر من قبل اللّه تعالى وَ اللّٰهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

الآيه التاليه توجّه اللوم و التعنيف ثانيه لأولئك الذين يعرضون المنفعه العامّه و المصلحه الاجتماعيه للخطر من أجل الحصول على المنافع الماديه العابره، فتقول الآيه: لَوْ لاٰ كِتٰابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمٰا أَخَذْتُمْ عَذٰابٌ عَظِيمٌ .

و قد أورد المفسّرون فى شأن قوله تعالى: لَوْ لاٰ كِتٰابٌ مِنَ اللّٰهِ سَبَقَ احتمالات مختلفه كثيره، إلّا أنّ أقربها و أكثرها ملاءمه و مناسبه هو«إذا لم يكن اللّه قد قرر من قبل أن لا يعذب عباده ما لم يبيّن نبيّه حكمه لهم،لأخذكم أخذا شديدا بسبب تأسيركم عدوكم رغبه فى المنافع الماديه و إيقاعكم جيش الإسلام و انتصاره النهائى فى الخطر،إلّا أنّه-كما صرحت الآيات الكريمه فى القرآن- فإنّ سنه اللّه اقتضت أن تبين أحكامه ثمّ يجازى الذى يخالفون عن أمره»،إذ قال سبحانه: وَ مٰا كُنّٰا مُعَذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولاً (۱) .

ملاحظات

اشاره

۱-إنّ ظاهر الآيات-كما قلنا آنفا-يعالج موضوع أخذ الأسرى فى الحرب لا أخذ«الفديه»بعدها،و بذلك ينحل كثير من الإشكالات التى أثارها جماعه من المفسّرون بشأن مفهوم الآيه.

كما أنّ اللوم و التعنيف يختص بجماعه انشغلت-قبل أن يتمّ النصر النهائى- بأسر العدو لأهداف دنيويه،و لا علاقه لها بشخص النّبى و أصحابه المؤمنين الذين كان هدفهم الجهاد فى سبيل اللّه.

۱- ۱) الإسراء،۱۵.

و بـذلك تنتفى جميع البحوث التى أوردوها،كالقول بأنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قـد ارتكب ذنبا!و كيف ينسـجم هذا العمل و عصمته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟فهذا الأمر غير صحيح.

كما يثبت بطلان الأحاديث المختلفه التى نقلتها بعض مصادر أهل السـنه و كـذبها فى تفسـير هذه الآيه،و التى تزعم أن الآيه (۱) نزلت فى شأن أخـذ النّبى و بعض المسـلمين الفـديه مقابل أسـرى الحرب بعـد معركه بـدر،و قبل أن يأذن اللّه بذلك.و أنّ الذى خالف هذا الأمر و طالب بقتل الأسرى هو عمر فحسب-أو سعد بن معاذ-و

أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قـال فى حق عمر: لو نزل العـذاب علينـا لمـا نجـا منه إلاّ عمر-أو سـعد بن معاذ- فإنّ جميع ذلك عار من الصـحه و لا أساس له،و إنّ تلك الرّوايات بعيده كل البعد عن تفسـير الآيه،و خاصّه أن أمارات الوضع ظاهره على هذه الأحاديث تماما.

۲-إنّ الآيات محل البحث لا تخالف أخذ الفداء و إطلاق سـراح الأسـرى إذا اقتضت مصـلحه المجتمع الإسلامى ذلك،بل تقول هـذه الآيـات:إنّه لاـ ينبغى على المجاهـدين أن يكـون همهـم الأسـر مـن أجـل الفـداء،فبنـاء على ذلـك فهى تنسـجم و تتفـق و الآيه(۴)من سوره محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جميع الوجوه،إذ تقول تلك الآيه فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمّا فِداءً .

إلاـ أنّه يجب الالتفـات إلى مسأله مهمّه هنا،و هى:إذا كان بين الأسـرى من يثير إطلاق سـراحهم فتنه نشوب نار الحرب،و يعرض انتصـار المسـلمين للخطر، فيحق للمسـلمين أن يقتلوا مثـل هؤلاـء الأشـخاص،و دليـل هـذا الموضوع كـامن فى الآيه محل البحث ذاتها،بقرينه«يثخن»و التعبير فى الآيه(۴)من سوره

۱- ۱) تفسير المنار،ج ۱۰،ص ۹۰-تفسير روح المعانى،ج ۱۰،ص ۳۲-و تفسير الفخر الرازى،ج ۱۵،ص ۱۹۸.

محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ب«أثخنتموهم».

و لهذا فقد جاء فى بعض الرّوايات الإسلاميّه أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر بقتل اثنين من أسرى معركه بدر،و هما«عقبه بن أبى معيط»و«النضر بن الحارث»و لم يرض بأن يفتديا أنفسهما أبدا (۱) .

۳-و فى الآيات محل البحث تأكيد على موضوع حريه إراده الإنسان مرّه أخرى،و نفى مذهب الجبر،لأنّها تقول:إنّ اللّه يريد لكم الآخره،و لكن بعضكم أغرته المنافع الماديّه العابره و ركن إليها.

و فى الآيه التاليه إشاره إلى حكم آخر من أحكام أسرى الحرب،و هو حكم أخذ الفداء.

و قد جاء فى بعض الرّوايات (۲) الوارده فى شأن نزول هذه الآيات أنّه بعد انتهاء معركه بدر و أخذ الأسرى،و بعد ما أمر النّبى أن تضرب عنقا الأسيرين الخطرين«عقبه بن أبى معيط»و«النضر بن الحارث»خافت الأنصار أن ينفذ هذا الحكم فى بقيه الأسرى فيحرموا من أخذ الفداء،فقالوا:يا رسول اللّه إنّا قتلنا سبعين رجلا و أسرنا سبعين،و كلّهم من قبيلتك فهدب لنا هؤلاء الأسرى لنأخذ الفداء منهم.و كان النّبى يترقب نزول الوحى،فنزلت هذه الآيات فأجازت أخذ الفداء فى قبال إطلاق سراح الأسرى.

و روى أنّ أكثر ما عين فداء على الأسرى من المال هو أربعه آلاف درهم، و أقلّه ألف درهم،فلمّا سمعت قريش أرسلت فداء الواحد تلو الآخر حتى حررت أسراها.

و العجيب أن صهر النّبى على ابنته زينب«أبا العاص»كان من بين أسرى معركه بدر،فأرسلت زوجته زينب قلادتها التى أهدتها أمّها خديجه عليهما السّلام إليها فى

۱- ۱) راجع تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۳۵.

۲- ۲) راجع تفسير على بن إبراهيم وفقا لما جاء فى نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۳۶.

زفافهـا،لتفتـدى بهـا زوجها،فلمّا وقعت عينا النّبى على تلك القلاده و تـذكر تضـحيه خـديجه و جهادها،و تجسّـدت مواقفها أمام عينيه،

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «رحم اللّه خديجه، فهذه قلاده جعلتها خديجه فى جهاز بنتى زينب.

و وفقا لبعض الرّوايات فإنّه امتنع عن قبول القلاده احتراما لخـديجه و إكراما، و اسـتجاز المسـلمين فى إرجاع القلاده،فأذنوا له أن يرجع القلاده إلى زينب،ثمّ أطلق (۱) النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سراح أبى العاص،شريطه أن يرسل ابنته زينب-التى كانت قد تزوجت من أبى العاص قبل الإسلام-إلى المدينه،فوافق أبو العاص على هذا الشرط و وفى به بعدئذ (۲) .

و على أيـه حـال،فـإنّ الآيـه محـل البحث أجـازت للمسـلمين التصـرف فى غنـائم المعركـه،و المبلـغ الـذى يأخـذونه فـداء من الأسير،فقالت: فَكُلُوا مِمّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً .

و يمكن أن تكون هذه الجمله ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الأخرى غير الفداء.

ثمّ تأمرهم الآيه بالتقوى فتقول: وَ اتَّقُوا اللّهَ .و هذا إشاره إلى أنّ جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغى أن يجعل هدف المجاهدين فى المعركه هو جميع الغنـائم و أن يأسـروا العـدوّ حتى يأخـذوا فـداءه.و إذا كـان فى القلوب مثـل هـذه النّيات السـيئه فعليهم أن يطهروا قلوبهم منها، و يعدهم اللّه بالعفو عمّا مضى فتقول الآيه:

إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

ص: ۴۹۷

۱- ۱) ورد فى الكامـل لاـبن الأثير،ج ۲،ص ۱۳۴ أنّه«فلمّـا رآهـا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم رقّ لهـا رقه شديـده و قال:«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها؟و تردوا عليها الذى لها فافعلوا»،فأطلقوا لها أسيرها و ردوا القلاده.

۲- ۲) تفسير الميزان،ج ۹،ص ۱۴۱.

هل أن أخذ«الفداء»أمر منطقىّ عادل؟!

قد ينقدح هنا سؤال مهم و هو:كيف ينسجم الفداء قبال إطلاق سراح الأسير و أصول العداله؟أن ليس هذا نوعا من بيع الإنسان؟ و الجواب على هذا السؤال يتجلى واضحا حين نعرف أنّ الفداء هو نوع من الضرائب العسكريه،أو الغرامه الحربيه،إذ أن كل حرب سبب فى إهدار كثير من الطاقات الاقتصاديه و القوى الإنسانيه،فالجماعه التى تقاتل من أجل الحق يحق لها أنّ تعوض عن خسائرها بعد الحرب،و أحد طرق التعويض هو«الفداء».و مع ملاحظه أن الفداء كان يومئذ يتراوح بين أربعه آلاف درهم عن الأسير الغنى، و ألف درهم عن الأسير الفقير،يتّضح أنّ الأموال التى أخذت من قريش فى هذا الصدد لم تكن كثيره،بل لم تكن كافيه لسد خسائر المسلمين الماليه و الإنسانيه فى تلك المعركه! ثمّ بعد هذا كلّه،فقد ترك المسلمون أموالا كثيره-فى مكّه-عند هجرتهم اضطرارا إلى المدينه،فكانت هذه الأموال عند أعدائهم من قريش،و كان للمسلمين الحق أن يعوضوا عن خسائرهم و أموالهم فى يوم بدر بالفداء.

كما ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفه التى أشارت إليها الآيه ۴ من سوره محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و هى أنّ مسأله الفداء ليست إلزاميه،فللحكومه الإسلاميه أن تبادل الأسرى متى ما رأت فى ذلك مصلحه،أو أن تمن عليهم فتطلق سراحهم دون تعويض.

و المسأله المهمّه الأخرى فى شأن أسرى الحرب هى موضوع إصلاحهم و تربيتهم و هدايتهم،و لعل هذا الأمر غير موجود فى المذاهب المادّيه،لكنّه مثار عنايه و اهتمام أكيد فى الجهاد من أجل تحرير الإنسان و إصلاحه و تعميم الحق و العدل.

ص :۴۹۸

و لهذا فإنّ الآيه الرّابعه من الآيات محل البحث تخاطب النّبى أن يدعو الأسرى إلى الإيمان باللّه و إصلاح أنفسهم،و يرغبهم فى كل ذلك،فتقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمّا أُخِذَ مِنْكُمْ .

و المراد من كلمه«خيرا»فى الجمله آنفه الذكر إِنْ يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً هو الإيمان و قبول الإسلام أمّا المراد من كلمه«خير»فى الجمله الأخرى «يؤتكم خيرا»فهو الثواب أو الأجر المادى و المعنوى الذى ينالونه ببركه الإسلام،و هو أعظم عند اللّه من الفداء بمراتب كثيره! ثمّ إضافه إلى ذلك فسيشملكم لطف اللّه و يعفو عن سيئاتكم وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و حيث إنّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسىء إلى الإسلام و يخون النّبى و ينتقم من المسلمين،فإنّ الآيه التاليه تنذر النّبى و المسلمين و تنذر أولئك من الخيانه فتقول: وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللّهَ مِنْ قَبْلُ و أى خيانه أعظم من عدم الاستجابه لنداء الفطره و العزوف عن نداء الحق و العقل،و الشرك باللّه و عباده الأصنام بدلا من الإيمان باللّه و توحيده؟ثمّ إنّ عليهم أن لا ينسوا نصره اللّه لك فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ و إذا أرادوا الخيانه فى المستقبل فلن يفلحوا و سوف ينالون الخزى و الخسران و الهزيمه مرّه أخرى.لأنّ اللّه مطلع على نيّاتهم،و جميع تعاليم الإسلام فى شأن الأسرى وفق حكمته وَ اللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ و قد جاء فى كتب الفريقين-الشيعه و أهل السنه-فى ذيل الآيتين محل البحث أن العباس عم النّبى كان بين أسرى بدر،فطلبت جماعه من الأنصار أن لا

يؤخذ عنه فداء إكراما لرسول اللّه،

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و اللّه لا تذرون منه درهما»، (أى إذا كان الفداء قانونا إسلاميا عامّا،فلا ينبغى أن يفرق بين عمى و بين أى أسير آخر).

و

قال لعمّه العباس: «ادفع عنك و عن ابن أخيك-عقيل-الفداء».

فقال له العباس«و كان شغوفا بالمال».يا محمّد أ تريد أن تجعلنى فقيرا حتى أمد يدى إلى قريش؟! فقال له النّبى:أعط فداءك من المال الذى أودعته عند أم الفضل-زوجتك- و قلت لها:إذا قتلت فى ساحه المعركه فأنفقيه على نفسك و على أبنائك.

فتعجب العباس من هذا الإمر و قال:من أخبرك بهذا؟«و لم يطلع عليه أحد أبدا»فقال رسول اللّه: أخبرنى بذلك جبرائيل.

فقال العباس:أحلف بمن يحلف به محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يعلم بذلك إلاّ أنا و زوجتى،ثمّ قال:أشهد أنك رسول اللّه،و أعلن إسلامه.

و عاد جميع أسرى بدر إلى مكّه إلاّ العباس و عقيلا و نوفلا،إذ أسلموا و بقوا فى المدينه،و الآيات محل البحث تشير إلى حال أولئك (۱) .

و جاء فى شأن إسلام العباس فى بعض التواريخ أنّه عاد إلى مكّه بعد إسلامه،و كان يكتب إلى النّبى عن مؤامرات المشركين ثمّ هاجر إلى المدينه قبل السنه الثّامنه من الهجره«عام فتح مكّه».

و

فى كتاب قرب الإسناد عن الإمام الباقر عن أبيه الإمام زين العابدين، أنّه جىء إلى رسول اللّه ذات يوم بأموال كثيره،فالتفت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى العباس و قال له:ابسط عباءتك أو«رداءك»و خذ من هذا المال،ففعل العباس و أخذ من ذلك المال،فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:هذا ما قاله اللّه سبحانه و تلا قوله:

۱- ۱) -يراجع تفسير نور الثقلين،و روضه الكافى،و تفسير القرطبى،و تفسير المنار،ذيل الآيه محل البحث.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِى أَيْدِيكَمْ مِنَ الْأَسْرىٰ﴾

(۱)

.

و هو إشاره إلى أن وعد اللّه قد تحقق عمليا فى إتيان العباس خيرا ممّا أخذ منه.

و يعرف من هذا الحديث أنّ النّبى كان فى صدد أن يعوض الأسرى الذين أسلموا عمّا أخذ منهم،ترغيبا و تشويقا،و أن يعيد إليهم أموالهم المأخوذه منهم بصوره أحسن.

ص:۵۰۱

۱- ۱) -تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۱۶۸.

الآیات [سوره الأنفال (٨): الآیات ٧٢ الی ٧۵]

اشاره

إِنَّ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولٰئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یُهٰاجِرُوا مٰا لَکُمْ مِنْ وَلاٰیَتِهِمْ مِنْ شَیْءٍ حَتّٰی یُهٰاجِرُوا وَ إِنِ اِسْتَنْصَرُوکُمْ فِی اَلدِّینِ فَعَلَیْکُمُ اَلنَّصْرُ إِلاّٰ عَلیٰ قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثٰاقٌ وَ اَللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ (٧٢) وَ اَلَّذِینَ کَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ إِلاّٰ تَفْعَلُوهُ تَکُنْ فِتْنَةٌ فِی اَلْأَرْضِ وَ فَسٰادٌ کَبِیرٌ (٧٣) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِی سَبِیلِ اَللّٰهِ وَ اَلَّذِینَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (٧۴) وَ اَلَّذِینَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا مَعَکُمْ فَأُولٰئِکَ مِنْکُمْ وَ أُولُوا اَلْأَرْحٰامِ بَعْضُهُمْ أَوْلیٰ بِبَعْضٍ فِی کِتٰابِ اَللّٰهِ إِنَّ اَللّٰهَ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ (٧۵)

ص: ۵٠٢

التّفسير

اشاره

أربع طوائف مختلفه:

تبحث هـذه الآيـات التى تختتم بهـا سوره الأنفـال-و تعـدّ آخر فصـل من فصولهـا-عن طوائف المهـاجرين و الأنصار و الطوائف الأـخرى من المسـلمين و بيـان قيمه هؤلاـء جميعـا،فتعطى كـل طائفه قيمه،و تسـتكمل ما تناولته الآيات السابقه فى شأن الجهاد و المجاهدين.

و بتعبير آخر:إنّ هـذه الآيات عالجت نظام المجتمع الإسـلامى من حيث العلائق المختلفه،لأنّ خطه الحرب و خطه الصـلح كسائر الخطط و المناهج العامّه، لا يمكن أن يتمّ أىّ منها دون تكوين علاقه اجتماعيه صحيحه،و أخذها بنظر الإعتبار.

و قد تناولت هذه الآيات خمس طوائف،أربع منها من المسلمين،و واحده من غير المسلمين،و الطوائف الأربع هى:

۱-المهاجرون السابقون.

۲-الأنصار فى المدينه.

۳-المؤمنون الذين لم يهاجروا.

۴-الذين آمنوا من بعد و هاجروا.

فتقول الآيه الأولى من الآيات محل البحث إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَـدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِـهِمْ فِى سَبِيلِ اللّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِکَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ .

فقد أشير فى هذا القسم من الآيه إلى الطائفتين،الأولى و الثّانيه[المهاجرون، و الأنصار]

أى الـذين آمنوا فى مكّه ثمّ هـاجروا منها إلى المـدينه،و الـذين آمنوا فى المـدينه ثمّ آزروا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و نصروه و دافعوا عنه و عن المهاجرين،و قد وصفتهم الآيه بأنّهم بعضهم أولياء بعض،و بعضهم حماه بعض.

و الذی یسترعی النظر أنّ الآیه وصفت الطائفه الأولی بأربع صفات هی:

الإیمان،و الهجره و الجهاد المالی و الاقتصادی«و ذلک عن طریق الإعراض عن أموالهم فی مکّه،و ما بذلوه من أموال فی غزوه بدر»،و الصفه الرّابعه جهادهم بأنفسهم و دمائهم و أرواحهم.

أمّا الأنصار فقد وصفتهم الآیه بصفتین هما:الإیواء،و النصره.

و قد جعلت هذه الآیه الجمیع مسئولین بعضهم عن بعض،و یتعهد کلّ بصاحبه بقولها بَعْضُهُمْ أَوْلِیٰاءُ بَعْضٍ .

فهاتان الطائفتان-فی الحقیقه-کانتا تمثلان مجموعتین متلازمتین لا یمکن لأحدهما الاستغناء عن الأخری،إذ منهما یتکون نسیج المجتمع الإسلامی،فهما بمثابه«المغزل و الخیط».

ثمّ تشیر الآیه إلی الطائفه الثّالثه فتقول: وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَمْ یُهٰاجِرُوا مٰا لَکُمْ مِنْ وَلاٰیَتِهِمْ مِنْ شَیْءٍ حَتّٰی یُهٰاجِرُوا .

ثمّ استثنت فی الجمله التی بعدها مسئولیه واحده فحسب،و أثبتتها فی شأن هذه الطائفه،فقالت: وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوکُمْ فِی الدِّینِ فَعَلَیْکُمُ النَّصْرُ...إِلاّٰ عَلیٰ قَوْمٍ بَیْنَکُمْ وَ بَیْنَهُمْ مِیثٰاقٌ .

و بتعبیر آخر:یلزم الدفاع عن أولئک فی صوره ما لو أصبحوا قبال عدوّ مشترک،أمّا إذا واجهوا کفارا بینکم و بینهم عهد و میثاق،فإنّه یجب الوفاء بالعهد و المیثاق،و هی مقدمه علی الدفاع فی هذه الصوره.

و حضّت الآیه علی رعایه العهود و المواثیق و الدقه فی أداء هذه المسؤولیه، و منبهه إلی علم اللّه بکل الأمور،فقالت: وَ اللّٰهُ بِمٰا تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ .

فهو یری جمیع أعمالکم و یطلع علی ما تفعلون من جهاد،أو أداء للوظیفه الملقاه علی عاتقکم،أو إحساس بالمسؤولیه،کما یعلم بمن لم یعتن بالأمر، و کذلک بالوهن و الضعف و عدم الإحساس بالمسؤولیه إزاء هذه الوظائف

الكبيره.

أمّا الآيه الثّانيه فتشير إلى النقطه المقابله للمجتمع الإسلامى،أى مجتمع الكفر و أعداء الإسلام،فتقول: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ .

أى أنّ علاقاتهم منحصره فيما بينهم،و لا يحق لكم أن تتعاهدوا معهم،أو تحاموا عنهم،أو تطلبوا منهم النصره لأنفسكم، أو تلجؤوهم و تؤووهم إليكم،أو تأووا و تلتجئوا إليهم.

و بعباره موجزه:لا يحق للكفار أن يدخلوا فى نسيج المجتمع الإسلامى، و لا يحق للمسلمين أن يدخلوا فى نسيج الكفار.

ثمّ تنبه الآيه المسلمين و تحذرهم من مخالفه هذا التعليم،فتقول: إِلاّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ .

و أى فتنه و فساد أكبر من تهميش انتصاركم،و سريان دسائس الأعداء فى مجتمعكم،و تخطيطهم لهدم دينكم دين الحق و العدل.

أمّا فى الآيه التاليه فنجد تأكيدا على مقام المهاجرين و الأنصار مرّه أخرى، و ما لهما من موقع و أثر فى تحقق أهداف المجتمع الإسلامى،فتثنى عليهم الآيه بقولها: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا .

لأنّهم هبوا لنصره الإسلام فى الأيام الصعبه الشديده و فى الغربه و المحنه و قد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصره للّه و لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ .

فهم فائزون بثواب اللّه و النعمه الأخرويه،كما أنّهم يتمتعون فى هذه الدنيا بالعزه و رفعه الرأس و الكرامه.

أمّا الآيه الأخيره فتشير إلى الطائفه الرّابعه من المسلمين،أى أولئك الذين آمنوا و هاجروا من بعد،فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا

مَعَكُمْ فَأُولٰئِكَ مِنْكُمْ

.

أى أنّ المجتمع الإسلامى ليس مجتمعا منغلقا و محصورا على نفسه،بل أبوابه مفتوحه لجميع المؤمنين و المهاجرين و المجاهدين،و إن كان للمهاجرين الأوائل مقام خاص و منزله كريمه،إلّا أنّ ذلك لا يعنى أن المؤمنين الجدد و المهاجرين فى المستقبل لا يعدّون جزاء من المجتمع الإسلامى و لا يكونون من نسيجه.

و تشير الآيه فى ختامها إلى ولايه الأرحام بعضهم لبعض،و أوليتها فيما جعله اللّه فى عباده من أحكام،فتقول: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللّٰهِ .

و فى الحقيقه فإنّ الآيات السابقه تتكلم عن ولايه المؤمنين و المسلمين العامّه«بعضهم إلى بعض»أمّا هذه الآيه محل البحث فتؤكّد هذا الموضوع فى شأن الأرحام و الأقارب،فهم إضافه إلى ولايه الإيمان و الهجره يتمتعون بولايه الأرحام أيضا،و من هنا فهم يرثون و يورثون بعضهم بعضا،إلّا أنّه لا إرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقه قربى بينهم.

فبناء على ذلك فإنّ الآيه الأخيره لا تتكلم عن الإرث،بل تتكلم عن موضوع واسع من ضمنه موضوع الإرث.

و إذا وجدنا فى الرّوايات الإسلاميه،و فى الكتب الفقهيه،استدلالا بهذه الآيه و الآيه المشابهه لها فى سوره الأحزاب على الإرث،فلا يعنى ذلك أن الآى الذى استدل به على الإرث منحصر بهذا الشأن فحسب،بل توضح قانونا كليّا،و الإرث جزء منه.و لهذا نجد أنّه استدل بهذه الآيه محل البحث على موضوع خلافه النّبى مع أنّها غير داخله فى موضوع الإرث المالى.

و استدل بها على أولويه غسل الميت،كما صرّحت به الرّوايات الإسلاميه.

و بملاحظه ما ذكرناه آنفا يتّضح أنّه لا دليل على ما أصر عليه جماعه من

المفسّرين على انحصار هذه الآيه بمسأله الإرث،و إذا أردنا أن نختار مثل هذه التّفسير فإنّ السبيل الوحيد له أن نعده مستثنيا الإرث من الولايه المطلقه،التى بيّنتها الآيات السابقه لعامّه المهاجرين و الأنصار،فنقول:إنّ الآيه الأخيره تقول بأنّ ولايه المسلمين العامّه بعضهم لبعض لا تشمل الإرث.

و أمّا الاحتمال بأنّ الآيات السابقه تشمل الإرث أيضا ثمّ نسخت الآيه الأخيره هذا الحكم منها،فيبدو بعيدا جدّا،لأنّ الترابط فى المفهوم بين هذه الآيات جميعا من الناحيه المعنويه،بل حتى التشابه اللفظى،كل ذلك يدل على أنّ الآيات نزلت معا فى وقت واحد.و بهذا لا يمكن القول بالتناسخ بين هذه الآيات.

و على كل حال فإنّ التّفسير الأكثر تناسبا لهذه الآيات هو ما بيناه آنفا.

و فى آخر جمله من هذه الآيه-التى هى آخر جمله من سوره الأنفال أيضا- يقول اللّه سبحانه: إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فما نزل فى هذه السّوره من أحكام تتعلق بالأنفال و غنائم الحرب،و تعاليم الجهاد و الصلح،و أحكام الأسرى و الحرب،و ما يتعلق بالهجره و غيرها،كل ذلك كان وفق حساب دقيق يتلاءم و روح المجتمع الإنسانى،و العواطف و البشريه، و المصالح العامّه فى جميع جوانبها المختلفه.

ملاحظات

اشاره

۱-الهجره و الجهاد

إنّ دراسه التاريخ الإسلامى تدلّ على أن هذين الموضوعين كانا من عوامل انتصار المسلمين الرئيسيه قبال عدوّهم،فلولا الهجره لتمّ دفن الإسلام فى مكّه، و لولا الجهاد لما اتسعت رقعه الإسلام،فالهجره أخرجت الإسلام من منطقه

خاصّه إلى مداه الرحب و صيرته عالميّا،و الجهاد علّم المسلمين أنّهم إذا لم يعتمدوا على قدراتهم فإنّ عدوّهم الذى لا يلتزم بأيّه مقررات سوف لا يعترف لهم بأدنى حقّ.سوف لا يعطيهم حقوقهم المشروعه،و لا يصيخ لهم سمعا أبدا.

و اليوم إذا أردنا انقاذ الإسلام من الطرق المسدوده،و إزاحه الموانع التى جعلها الأعداء فى طريقه من كل جهه،فلا سبيل إلى ذلك إلاّ باحياء هذين الأصلين:الهجره و الجهاد.

فالهجره توصل صوت المسلمين إلى أسماع العالم كله،و تروى ظمأ القلوب المتعطشه للحق و العدل و من هو فى شوق إلى معرفه الحقيقه.

و الجهاد يهب المسلمين التحرك و الحياه،و يبعد أعداءهم الذين لا ينفعهم إلاّ منطق القوه عن قارعه الطريق و يبيدهم.

و قد حدثت الهجره فى الإسلام مرارا.فكانت هجره المسلمين من مكّه إلى الحبشه حيث غرسوا بها الإسلام خارج الجزيره العربيه و بنوا فيها حصنا للمسلمين الأوائل قبال ضغوط أعدائهم.

ثمّ هجره النّبى و المسلمين الأولى إلى المدينه،و لهؤلاء المهاجرين الذين يطلق عليهم(مهاجرو بدر)أهميه قصوى فى تأريخ الإسلام،لأنّهم اتّجهوا ظاهرا نحو مستقبل مجهول مظلم،و غضوا ابصارهم عن جميع ما ملكوه فى سبيل اللّه،و أعرضوا عن حطام الدنيا.

هؤلاء المهاجرين أى:«المهاجرون الأوّلون»مثلوا فى الحقيقه الحجر الأساس لصرح الإسلام العظيم،و القرآن يثنى عليهم بالتكريم و التعظيم،و لوليهم عناية خاصّه،لأنّهم كانوا من أشد المسلمين تضحيه.

«الهجره الثّانيه»أطلقت على هجره طائفه أخرى من المسلمين إلى المدينه،و ذلك بعد صلح الحديبيه و الحصول على محيط آمن نسبيا بعد هذا الصلح،و قد تطلق الهجره على كل مهاجر من مكّه إلى المدينه حتى بعد واقعه

بدر،و إلى زمان فتح مكّه.

أمّا بعد فتح مكّه فقد انتفت الهجره من مكّه إلى المدينه،لأنّ مكّه أصبحت مدينه إسلاميه أيضا،و الحديث النبوى المشهور«لا هجره بعد الفتح»يشير إلى هذا المعنى.

لكن هذا الكلام لا يعنى أن مفهوم الهجره زاك من قاموس مبادئ الإسلام كليّا كما يتصور بعضهم،بل الهجره من مكّه إلى المدينه انتفى موضوعها،و إلاّ فمتى ما حدثت ظروف كظروف المسلمين الأوائل فقانون الهجره باق على قوته، و سوف يبقى ما دام الإسلام يتسع حتى يستوعب العالم أجمع.

و مع الأسف الشديد فإنّ أغلب المسلمين لنسيانهم هذا الأصل الإسلامى المهم انغلقوا على أنفسهم،بينما نرى المبشرين المسيحيين و الفرق الضاله و الاستعمار يهاجرون إلى أنحاء المعموره كلها،و يذهبون حتى إلى القبائل أو الطوائف المتوحشه ممن يأكلون لحوم البشر فى مجاهيل أفريقيا،و يجوبون القطبين المتجمدين الشمالى و الجنوبى فى سبيل تحقيق أهدافهم،مع أن هذه مهمّه المسلمين فى الواقع،إلاّ أن العمل أضحى من الآخرين! و الأعجب من ذلك وجود الكثير من القرى فى جوار المدن الإسلاميه الكبرى،و بمسافه لا تبعد كثيرا عنها،إلاّ أن أهلها لا يعرفون عن الإسلام شيئا، و لا يعرفون أحكامه،و ربّما لم يروا وجه مبلغ إسلامى هناك أبدا.لهذا فإنّ محيطهم مستعد لنشوء جراثيم الفساد و المذاهب المختلقه و البدع التى يفتعلها «الاستعمار»و لا ندرى بماذا يجيب المسلمون ربّهم يوم القيامه-و هم ورثه المهاجرين الأوائل-إزاء هذه الحال المزريه؟! و بالرغم من مشاهده تحرك فى هذا الصدد أخيرا،إلاّ أنّه محدود و غير كاف ابدا.

و على أيه حال،فإن موضوع الهجره و أثرها فى تاريخ الإسلام و مصير

المسلمين أكبر من أن نأتی علی جمیع جوانبه بهذا الاختصار(و لنا كلام بهذا الشأن لدی تفسیر الآیات التی تتناول هذا الموضوع إن شاء اللّه...).

۲-المبالغه و الإغراق فی تنزیه الصحابه

حاول بعض إخواننا أهل السنه أن یستنتج من ما أولاه القرآن للمهاجرین السابقین«الأوائل»من اهتمام و احترام،أنّهم لن یرتكبوا ذنبا إلی آخر عمرهم و حیاتهم.و ذهبوا إلی إكرامهم و احترامهم جمیعا دون استثناء،و دون الاعتراض علی هذا و ذاك،و كیف ذلك؟!ثمّ عمموا هذا القول علی جمیع الصحابه-فضلا عن المهاجرین-و ذلك لثناء القرآن علیهم فی بیعه الرضوان و غیرها،و ذهبوا عملا إلی أنّ الصحابه-دون النظر إلی اعمالهم-أفراد متمیزون.فلا یحق لأیّ شخص توجیه النقد لهم و التحقیق فی سلوكهم.یجوز بأیّ وجه أن یوجه النقد إلیهم.

و من جمله هؤلاء المفسّر المعروف صاحب المنار،إذ حمل فی ذیل الآیات محل البحث حمله شعواء علی الشیعه،لأنّهم ینتقدون المهاجرین الأولین،و لم یلتفت إلی أن مثل هذا الإعتقاد لا یتضاد و روح الإسلام و تاریخه!! فلا ریب أنّ للصحابه-و علی الخصوص المهاجرین منهم-حرمه خاصّه، إلاّ أنّ هذه الحرمه كانت قائمه ما داموا فی طریق الحق و یضحّون من أجل الحق، لكن من المقطوع به أن نظره القرآن إلی بعضهم أو حكمه قد تغیر منذ انحرف عن النهج القویم و الصراط المستقیم.

فمثلا،كیف یمكننا أن نبرئ طلحه و الزبیر من نقضهما بیعه إمامهما الذی انتخبه المسلمون«بغض النظر عن تصریح النّبی بمقامه و شأنه»و كانا من ضمن المسلمین الذین بایعوه؟و كیف یمكن تبرأتهما من دماء سبعه عشر ألف مسلم قتلوا فی حرب الجمل،مع أنّه لا عذر لمن یسفك دم إنسان واحد أمام اللّه مهما

كان،فكيف بهذا العدد الهائل الذين سفكت دماؤهم؟ ترى هل يمكن أن نعدّ عليّا عليه السلام و أصحابه فى حرب الجمل على الحق كما نعدّ أعداءه فيها على الحق أيضا؟!و نعد طلحه و الزبير و من معهما من الصحابه على الحق كذلك؟!و هل يقبل العقل و المنطق هذا التضاد الفاضح؟ و هل يمكننا أن نغض النظر من أجل عنوان«تنزيه الصحابه»و لا نلتفت إلى التأريخ و ننسى كل ما حدث بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نضرب عرض الجدار قاعده إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقاكُمْ ؟ مالكم كيف تحكمون؟! و ما يمنع أن يكون الإنسان من أهل الجنّه و مؤيدا للحق يوما،و يكون من أهل النّار و مؤيدا للباطل و من أعداء الحق يوما آخر؟...فهل الجميع معصومون؟ ألسنا نرى التغييرات فى أحوال الأشخاص بأم أعيننا؟! قصه«اصحاب الردّه»و ارتداد جمع من المسلمين بعد رحله الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مذكوره فى كتب أهل السنّه و الشّيعه،و أن الخليفه الأوّل تصدى لهم و قاتلهم،فهل يعقل أنّ أحدا من«اصحاب الردّه»لم ير النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يكونوا فى عدّه الصحابه؟ و الأعجب من ذلك أنّ بعضا تشبث بالاجتهاد للتخلص من الطريق المسدود و التناقض فى ذلك، و قالوا:إن أمثال طلحه و الزبير و معاويه و من لفّ لفهم قد اجتهدوا فأخطأوا و ليسوا مذنبين،بل هم مثابون مأجورون بأعمالهم من قبل اللّه! فما أفضح هذا المنطق؟! فهل الثوره على خليفه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نقض البيعه و هدر دماء الآلاف من الأبرياء من أجل رئاسات دنيويه و حب المال،موضوع معقد و مبهم و لا يعرف أحد ما فيه من سوء؟! ترى هل فى سفك كل تلك الدماء البريئه أجر و ثواب عند اللّه؟!

فإذا أردنا تبرئه جماعه من الصحابه ممّا ارتكبوه من جرائم،فسوف لا نرى مجرما أو مذنبا فى الدنيا،و سنبرئ بهذا المنطق جميع القتله و المجرمين و الجبابره.

إنّ مثل هذا الدّفاع غير المنطقى-عن الصحابه-سيسبب النظره السيئه إلى أصل الإسلام.

و الخلاصه،أنّنا لا سبيل لنا إلاّ احترام الجميع خاصّه أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما داموا لم ينحرفوا عن مسير الحق و العدل و مناهج الإسلام،و إلاّ فلا.

٣-الإرث فى قوانين الإسلام

كما أشرنا سابقا فى تفسير سوره النساء،فإنّ الناس فى زمان الجاهليه كانوا يتوارثون عن ثلاث طرق:

١-عن طريق النسب«و كان منحصرا بالأولاد الذكور،أمّا الأطفال و النساء فهؤلاء محرومون من الإرث».

٢-و عن طريق«التبنى»بأن يجعل ولد غيره ولده.

٣-و عن طريق العهد الذى يعبر عنه بالولاء (١) .

و فى بدايه الإسلام كان العمل جاريا بهذه الطرق قبل نزول قانون الإرث،إلاّ أنّه سرعان ما حلّت الأخوه الإسلاميه مكان ذلك،و ورث المهاجرون الأنصار فحسب،و هم الذين تآخوا و عقدوا عهد الأخوه الإسلاميه،و بعد أن اتسع الإسلام أكثر فأكثر شرّع حكم الإرث النسبى و السببى،و نسخ حكم الأخوه الإسلاميه فى الإرث.

و قد أشارت إليه الآيات-محل البحث-و الآيه(۶)من سوره الأحزاب،إذ

۱- ۱) بحثنا موضوع الإرث بالولاء فى الجزء الثّالث بصوره مفصله.

تقول: وَ أَولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِی کِتابِ اللّهِ .

کل هذا مقطوع به من حیث التاریخ،إلاّ أنّه-کما قلنا من قبل-فإن جمله وَ أُولُوا الْأَرْحامِ الوارده فی الآیات محل البحث لا تختص بمسأله الإرث،بل هی ذات معنی واسع،و الإرث جزء منه.

۴-ما المراد من الفتنه و الفساد الکبیر

احتمل المفسّرون فی تفسیر هاتین الکلمتین الواردتین فی الآیات محل البحث احتمالات کثیره،إلاّ أنّ ما ینسجم أکثر مع مفهوم هذه الآیه هو أنّ المراد من«الفتنه»هو الاختلاف و التفرق و تزلزل مبانی العقیده الإسلامیه علی أثر وسوسه الأعداء،و«الفساد»یشمل کل إخلال و تخریب للنظم الاجتماعیه المختلفه و خاصّه سفک الدماء البریئه و الإرهاب و أمثال ذلک.

و فی الحقیقه فإنّ القرآن المجید ینذر المسلمین إذا لم یحکموا علائق الأخوه و التعاون فیها بینهم،و لم یقطعوا ارتباطهم بالعدوّ،فإنّ جماعتهم تزداد تشتتا یوما بعد یوم،و بنفوذ الأعداء داخل المجتمع الإسلامی و وساوس إغواءاتهم تزلزل أسس الإیمان و قواعده،و یبتلی المسلمون عن هذا الطریق بفتنه عظیمه.

و کذلک إذا لم تکن علائق اجتماعیه قویه،فإنّ العدو سرعان ما ینفذ إلی المجتمع و تحدث أنواع المفاسد من إرهاب و سفک الدماء،و تضیع الأموال و إغواء الأولاد،و یبدو الضعف و النقص واضحا فی المجتمع،و یعم الفساد الکبیر کل مکان.

ربّنا،أیقظ مجتمعنا الإسلامی بلطفک.و نبّهنا إلی أخطار التعاون مع الأعداء و تکوین العلاقه و إیاهم.و نزّه مجتمعنا من الفتنه و الفساد الکبیر بنور المعرفه و وحده الکلمه،برحمتک یا أرحم الراحمین.

ص:۵۱۳

سوره التّوبه

اشاره

و هی مدنیّه و عدد آیاتها مائه و تسع و عشرون آیه فحسب

ص :۵۱۵

سوره التّوبه ينبغى الالتفات إلى الأمور التاليه قبل الشروع فى تفسير السوره

۱-أسماء هذه السّوره...

ذكر المفسّرون لهذه السّوره أسماء عديده تبلغ العشره،غير أنّ المشهور منها هو ما يلى:سوره البراءه،و سوره التوبه،و السوره الفاضحه.و لكلّ من التسميات سبب جلى.

فالبراءه،لأنّها تبتدأ بإعلان براءه اللّه من المشركين،و الذين ينقضون عهدهم.

و التوبه،لما ورد من مزيد الكلام عن التوبه فى هذه السوره.

و الفاضحه،لما فيها من الآيات التى تكشف النقاب عن أعمال المنافقين لتعريتهم و خزيهم و فضيحتهم.

۲-متى نزلت هذه السوره

هذه السوره هى آخر سوره نزلت على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو من أواخر السور النازله عليه فى المدينه،و هى كما قلنا ذات ۱۲۹ آيه فحسب.

و المعروف أن بدايه نزول هذه السوره كانت فى السنه التاسعه للهجره،و يدلّ تتبع آياتها على أنّ قسما منها نزل قبل معركه تبوك،و قسما منها نزل عند الاستعداد للمعركه أو«الغزوه»،و قسما منها نزل بعد الرجوع من المعركه و الفراغ منها.

و من بدايه السوره حتى الآيه(۲۸)نزل قبيل موسم الحج،كما سنبيّن ذلك بعون اللّه،و الآيات الأولى-هذه-و التى تتعلق بمن بقى من المشركين بلّغها أمير المؤمنين عليه السلام فى موسم الحج.

٣-محتوى السّوره

لمّا كان نزول هذه السوره إبّان انتشار الإسلام فى الجزيره العربيه،و تحطيم آخر مقاومه للمشركين فقد كان لما حوته من مفاهيم أهميه بالغه و مواضيع حساسه.إذ يتعلق قسم منها بالبقيه الباقيه من عبده الأوثان و المشركين،و قطع العلاقات معهم،و إلغاء المعاهدات و المواثيق التى كانت بينهم و بين المسلمين، لنقضهم لها مرارا،ليتم تطهير المحيط الإسلامى من رجس الوثنيه إلى الأبد.

و حيث إن بعض الأعداء عند انتشار رقعه الإسلام و تحطيم قوى الشرك غيّر مظهره بغيه النفوذ بين المسلمين،و لتوجيه ضربه قاضيه للإسلام من قبل المنافقين فإنّ قسما مهما من آيات هذه السوره تتحدّث عن المنافقين و عاقبهم، و تحذر المسلمين منهم.

و بعض آيات هذه السوره تتحدّث عن الجهاد فى سبيل اللّه و أهميته،لأنّ الغفله عن هذا الأمر الحياتى فى ذلك الظرف الحساس تبعث على ضعف المسلمين و تقهقرهم أو انكسارهم.

كما أنّ قسما منه يكمل البحوث السابقه التى تناولت انحراف أهل الكتاب «اليهود و النصارى»عن حقيقه التوحيد،و تتكلم عن انصراف علمائهم عن واجبهم فى التبليغ و قياده المجتمع.

و فى بعض آيات هذه السوره حثّ للمسلمين على الاتحاد و رص الصفوف -تعقيبا على ما جاء آنفا فى الحث على الجهاد-و توبيخ للمتخاذلين المتحرّفين أو الضعاف الذين يتذرعون بذرائع واهيه للتخلص من هذا الواجب،ثمّ إنّ فيها

ثناء على المهاجرين السابقين إلى الهجره،و الصفوه من المؤمنين الصادقين.

و حيث سبّب انتشار الإسلام و اتساع رقعه مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفه ينبغى توفيرها،فقد عرضت بقيه الآيات من هذه السوره موضوع الزكاه و تحريم تراكم الثروات و اكتنازها،و وجوب طلب العلم أو التعلّم و تعليم الجهله، و تناولت بحوثا متنوعه أخرى كقصه هجره النّبى،و الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال،و أخذ الجزيه من الأقليات الدينيه غير الإسلاميه كاليهود و النصارى،و ما إلى ذلک.

۴-لم لم تبدأ هذه السوره بالبسمله؟

يجيب استهلال السوره على السؤال آنف الذكر فقد بدئت بالبراءه-من قبل اللّه-من المشركين،و إعلان الحرب عليهم،و اتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، و بيان غضب اللّه عليهم،و كل ذلک لا يتناسب و البسمله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الداله على الصفاء و الصدق و السلام و الحب،و الكاشفه عن صفه الرحمه و اللطف الإلهى.

و قد ورد هذا التعليل عن على عليه السلام (۱) .

و يعتقد بعض المفسّرين أن سوره براءه-فى الحقيقه-تتمه لسوره الأنفال، لأنّ الأنفال تتحدث عن العهود،و براءه تتحدث عن نقض تلک العهود،فلم تذكر البسمله بين هاتين السورتين لارتباط بعضهما ببعض. و قد ورد عن الإمام الصادق هذا المعنى أيضا (۲) .

و لا مانع أن يكون السبب فى عدم ذكر البسمله مجموع الأمرين آنفى الذكر

۱- ۱) جاء فى مجمع البيان عن الشيخ الطبرسى عن على عليه السلام أنّه قال «لم تنزل بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ على رأس سوره «براءه»لأنّ بسم اللّه للأمان و الرحمه و نزلت براءه لرفع الأمان و السيف فيه!».

۲- ۲) -قال الطبرى نقلا عن الإمام الصادق عليه السلام«الأنفال و براءه واحده!».

-معا-فالأوّل ناظر إلى الروايه الأولى«روايه الإمام على»و الثّانى يشير إلى روايه الإمام الصادق عليه السلام.

۵-فضيله هذه السوره و آثارها

أولت الرّوايات الإسلاميه أهميّه خاصّه لتلاوه سورتى براءه و الأنفال،و ممّا جاء فى شأنهما

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «من قرأ براءه و الأنفال فى كل شهر لم يدخله نفاق أبدا،و كان من شيعه أمير المؤمنين عليه السلام حقّا».

و قد قلنا مرارا:إنّ ما ورد من أهميه قصوى فى الرّوايات الإسلاميه فى قراءه مختلف السور لا يعنى ظهور آثار تلك القراءه من دون تفكّر و تطبيق لمضامينها،فنقول مثلا-من قرأ سورتى براءه و الأنفال دون إدراك لمعانيهما فسيدرأ عنه النفاق،و يكون من شيعه أمير المؤمنين عليه السلام،بل المراد فى الحقيقه أن يكون مضمون السوره مؤثّرا فى بناء شخصيه الفرد و المجتمع،و لا يتحقق ذلك إلّا بإدراك مغزى السوره و استيعاب معناها،و الاستعداد و التهيؤ لتطبيقها.

و حيث أن السورتين قد أوضحتا الخطوط العريضه العامّه فى حياه المؤمنين الصادقين و من فى قبالهم من المنافقين،و أنارتا الطريق للعاملين لا-للمدّعين فحسب،فستكون ثمره تلاوتهما و الإعتبار بمضمونيهما هو ما ذكرته الروايه و بهذا تكون التلاوه مؤثره بنّاءه.

و أمّا من ينظر إلى القرآن و آياته الشريفه بشكل آخر،فهو أبعد ما يكون عن روح هذا الكتاب التربوى الذى جاء لبناء الإنسانيه و هدايتها.

و

قد ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بيان الأهميه القصوى لما نوهنا عنه من لطائف،أنّه قال «نزلت علىّ براءه و التوحيد فى سبعين ألف صف من صفوف الملائكه،و كان كل صف منهم يوصينى بأهميه هاتين السورتين».

ص:۵۲۰

۶-حقیقه تأریخیه یسعی بعضهم إلی طمس معالمها

من المتفق علیه بین جمیع المؤرخین و المفسّرین تقریبا أنّه لما نزلت الآیات الأولی من سوره براءه،و ألغیت العهود التی کانت بین المشرکین و المسلمین،أمر النّبی أبا بکر أن یبلغ هذه الآیات فی موسم الحج،ثمّ أخذها منه و أعطاها علیا علیه السلام لیقوم بتبلیغها،فقرأها علی علی الناس فی موسم الحج.و بالرغم من اختلاف الرّوایات فی جزئیات هذه القصه و جوانبها المتفرقه،إلاّ أن ذکر النقاط التالیه یمکن أن یجلو لنا حقیقه ناصعه:

۱-یروی أحمد بن حنبل-إمام أهل السنه المعروف-فی مسنده عن ابن عباس،أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أرسل فلانا«المقصود بفلان هو أبو بکر کما سیتّضح ذلک بعدئذ»و أعطاه سوره التوبه لیبلغها الناس فی موسم الحج،ثمّ أرسل علیّا خلفه و أخذها منه و

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «لا یذهب بها إلاّ رجل منّی و أنا منه» (۱) .

۲-کما جاء فی المسند ذاته عن أنس بن مالک،أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أرسل سوره براءه مع أبی بکر لیبلغها،فلمّا وصل أبو بکر إلی ذی الحلیفه-و یدعی بمسجد الشجره أیضا-و هو و علی بعد مسافه فرسخ عن المدینه تقریبا،

قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«لا یبلغها إلاّ أنا أو رجل من أهل بیتی» فبعث بها مع علی علیه السلام (۲) .

۳-و

ورد أیضا فی المسند نفسه-بإسناد آخر-عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام أنّه لما بعثه النّبی و معه براءه قال:یا رسول اللّه لست خطیبا،فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:لا محیص عن ذلک،فإمّا أن أذهب بها أو تذهب بها،فقال علی:إذا کان و لا بدّ فأنا أذهب بها.فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«انطلق بها فإنّ اللّه یثبت لسانک و یهدی قلبک» (۳) .

۴-و ینقل النسائی-أحد کبار علماء السنه-فی خصائصه،

عن زید بن

۱- ۱) مسند أحمد بن حنبل،ج ۱،ص ۳۳۱،ط مصر.!

۲- ۲) مسند أحمد بن حنبل،ج ۳،ص ۲۱۲.

۳- ۳) مسند أحمد بن حنبل،ج ۱،ص ۱۵۰.

سبیع،عن علی علیه السلام، أن النّبی أرسل أبا بکر بسوره براءه إلی أهل مکّه،ثمّ بعث علیّا خلفه لیأخذ الکتاب منه«یعنی السوره»فلحقه فی الطریق و أخذ الکتاب منه،فعاد أبو بکر حزینا أسیفا،و قال:یا رسول اللّه أنزل فیّ شیء؟فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«لا،إلاّ أنّی أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بیتی» (۱) .

۵-و

فی سند آخر أیضا،عن عبد اللّه بن أرقم، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعث أبا بکر بسوره براءه،فلمّا سار و بلغ بعض الطریق بعث النّبی علیا فلحقه و أخذ منه السوره،فذهب بها علی إلی مکّه،فرجع أبو بکر إلی النّبی متأثرا فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«لا یؤدی عنّی إلاّ أنا أو رجل منّی» (۲) .

۶-و أورد ابن کثیر-المفسّر المعروف-

عن أحمد بن حنبل،عن حنش،عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام، أنّه عند ما نزلت عشر آیات من سوره براءه علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا أبا بکر و أعطاه إیّاها لیبلغها أهل مکّه،ثمّ بعث خلفی و أمرنی بالذهاب خلفه و أخذ الکتاب منه،فعاد أبو بکر إلی النّبی و قال:أنزل فیّ شیء؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«لا،و لکنّ جبرئیل جاءنی و قال:لن یؤدی عنک إلاّ أنت أو رجل منک» (۳) .

۷-و نقل ابن کثیر هذا المضمون عینه عن زید بن سبیع (۴) .

۸-کما أنّه روی هذا الحدیث عن أبی جعفر محمّد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب(محمّد الباقر علیه السلام)فی تفسیره (۵) .

۹-و

روی العلاّمه ابن الأثیر و هو-الآخر-من علماء السنه الکبار،فی «جامع الأصول»عن الترمذی عن أنس بن مالک، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أرسل سوره

ص:۵۲۲

۱- ۱) الخصائص...للنسائی،ص ۲۸.

۲- ۲) المصدر السّابق.

۳- ۳) تفسیر ابن کثیر،ج ۲،ص ۳۲۲.

۴- ۴) المصدر السابق.

۵- ۵) المصدر السابق.

براءه مع أبی بکر ثمّ دعاه،و قال:«لا ینبغی لأحد أن یبلغ هذه إلاّ رجل من أهلی» فدعا علیا فأعطاه إیّاها (۱) .

۱۰-و

روی محب الدین الطبری،فی کتابه ذخائر العقبی،عن أبو سعید أو أبی هریره، أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر أبا بکر أن یتولی أمر الحج،فلمّا مضی و بلغ ضجنان سمع أبو بکر صوت بعیر علی فعرفه،فجاء إلی علی و قال:فیم جئت؟ فقال علیه السلام:أرسل النّبی معی سوره براءه.فلمّا رجع أبو بکر إلی النّبی و أظهر تأثره من تغییر«الرساله»قال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:«لا یبلغ عنّی غیری أو رجل منی»یعنی علیا (۲) .

و قد صرحت روایات أخری أنّ النّبی أعطی ناقته علیا لیرکبها و یأتی بها أهل مکّه فیبلغهم،فلمّا وصل منتصف الطریق سمع أبو بکر صوت ناقه رسول اللّه فعرفها.

و هذا النص-مع ما ورد آنفا-یدل علی أنّ الناقه کانت ناقه النّبی و قد أعطاها علیّا،لأهمیه ما أمر به.

و قد روی هذا الحدیث کثیر من کتب أهل السنه مسندا تاره،و مرسلا تاره أخری،و هو من الأحادیث المتفق علیها،و لا یطعن فیه أبدا.

و طبقا لبعض الرّوایات الوارده عن أهل السنه أنّ أبا بکر لما صرف عن إبلاغ سوره براءه،جعل أمیرا علی الحاج بمکّه.

توضیح و تحقیق:

هذا الحدیث یثبت-بجلاء-فضیله للإمام علی علیه السلام،إلاّ أنّنا-و یا للأسف- نجد مثل هذه الأحادیث لا ینظر إلیها بعین الإنصاف و الحق،إذ یسعی بعضهم إلی

۱- ۱) جامع الأصول،ج ۹،ص ۴۷۵.

۲- ۲) ذخائر العقبی،ص ۶۹.

محوها و نسيانها كليّا،أو إلى التقليل من أهميتها و قيمتها بأساليب شتى ملتويه:

۱-فمثلا يتناول صاحب تفسير المنار تاره-من الحديث آنف الذكر- المقطع الذى يتعلق بجعل أبى بكر أميرا على الحاج،و يختار الصمت و السكوت فى بقيه الحديث الذى يدور حول أخذ سوره من أبى بكر ليبلغها على عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و

قد قال فيه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يبلغها إلاّ أنا أو رجل منّى»يعنى عليّا عليه السلام.

مع أنّ سكوت قسم من الأحاديث عن هذا الموضوع لا يكون دليلا على أن نهمل جميع تلك الأحاديث الوارده فى شأن على عليه السلام و لا نأخذها بنظر الإعتبار!! فأسلوب التحقيق يقتضى تسليط الضوء على الأحاديث الوارده فى هذا الشأن كافه،حتى و لو كانت على خلاف ما يجنح إليه الكاتب و تميل نفسه،و أن لا يصدر عليها حكما مسبقا.

۲-و يقوم بعض المفسّرين تاره بتضعيف سند الحديث،كما فى بعض الأحاديث الوارده عن حنش و السمّاك«كما فعله المفسّر آنف الذكر».

مع أنّ هذا الحديث ليس له طريق واحد أو طريقان،بل له طرق شتى فى كتبهم المعتبره.

۳-و من العجيب الغريب أن يوجهوا مثل الحديث آنف الذكر توجيها مثيرا، فيقولون:إنّما أعطى النّبى سوره براءه عليّا،لأنّ العرب اعتادت عند إلغاء المواثيق أو العهود أن يمضى الشخص بنفسه أو يرسل أحدا من أهله.

مع أنّه ورد التصريح عن النّبى:

أوّلا:من طرق متعدده،أنّ جبرئيل أمره بأن يبلغ على سوره براءه أو هكذا أمرت!...

ثانيا:إنّنا نقرأ فى بعض الأحاديث الوارده عن طرقهم

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السلام: ينبغى أن تبلغ سوره براءه،و إن لم تفعل فينبغى أن أبلغها أنا(مؤدى الحديث).

ترى ألم يكن العباس عمّ النّبى أو أحد من أقارب النّبى موجودا يومئذ بين المسلمين!حتى يقول النّبى لعلى:إن لم تذهب فينبغى أن أذهب،لأنّه لا يبلغها عنى إلاّ أنا أو رجل منّى؟! ثالثا:لم يذكروا دليلا لأصل هذا الموضوع،و هو أنّه كان من عاده العرب(كذا و كذا)و أكبر الظن أنّهم وجّهوا الحديث آنف الذكر وفق ميولهم و نزعاتهم!...

رابعا:

جاء فى بعض الرّوايات المعتبره أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لا يذهب بها إلاّ رجل منّى و أنا منه» أو ما شابه ذلك.

و هذا التعبير يدل على أنّ النّبى كان يعدّ عليّا كنفسه،و يعد نفسه كعلى أيضا.

و هذا المضمون تناولته آيه المباهله.

و نستنتج ممّا ذكرناه آنفا أنّنا لو تركنا التعصب الأعمى و الأحكام المسبقه جانبا،وجدنا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بفعله هذا أبان أفضليه على عليه السلام على جميع الصحابه إنه هذا إلا بلاغ.

ص:525

الآيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ١ الى ٢]

اشاره

بَراءَةٌ مِنَ اَللّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى اَلَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي اَلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اِعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اَللّهِ وَ أَنَّ اَللّهَ مُخْزِي اَلْكافِرِينَ (٢)

التّفسير

اشاره

إلغاء عهود المشركين:

كانت في المجتمع الإسلامي و محيطه طوائف شتى،و كان النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتخذ منها موقفا خاصّا يتناسب و موقفها منه.

فطائفه منها مثلا لم يكن لها أيّ عهد مع النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،و النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كذلك لم يكن له أيّ عهد معها.

و طوائف أخرى عاهدت النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم في الحديبيه-و أمثالها-على ترك المخاصمه و المنازعه،و كانت عهود بعضهم ذات أجل مسمى،و بعض العهود لم تكن ذات أجل مسمى.

و قد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد،و بدون أي سبب يجيز النقض و ذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام.أو حاولت اغتيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

كما هو الحال فى يهود بنى النضير و بنى قريظه،فواجههم النّبى بشده و طردهم من المدينه،لكن بعض المعاهدات بقيت ساريه المفعول،سواء كانت ذات أجل مسمى أو لم تكن.

الآيه الأولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافه بَرٰاءَةٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ثمّ أمهلتهم مدّه أربعه أشهر ليفكروا فيها و يحدّدوا موقفهم من الإسلام،فإمّا أن يتركوا عبادتهم للأصنام،أو يتهيئوا للمواجهه و القتال،فقالت: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ (۱) وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّٰهِ وَ أَنَّ اللّٰهَ مُخْزِي الْكٰافِرِينَ

ملاحظتان

اشاره

۱-هل يصحّ إلغاء المعاهده من جانب واحد؟!

نحن نعرف أنّ الإسلام أولى أهميه قصوى للوفاء بالعهد و الالتزام بالمواثيق حتى مع الكفار و المشركين،و هنا ينقدح سؤال و هو:كيف أمر القرآن بإلغاء العهود التى كانت بين المسلمين و المشركين من جانب واحد؟! و يتّضح الجواب بملاحظه الأمور التاليه:

أوّلا:كما صرّح فى الآيتين(۷)و(۸)من هذه السوره فإنّ إلغاء هذا العهد لم يكن دون أيه مقدمه،بل هناك قرائن و دلائل ظهرت من جانب المشركين تدلّ على نقضهم عهدهم،و أنّهم كانوا على استعداد-فى ما لو استطاعوا-أن يوجهوا ضربه قاضيه للمسلمين دون أدنى اعتناء بعهودهم التى عاهدوها،و من المنطقى

ص: ۵۲۷

۱- ۱) «سيحوا»فعل أمر مشتق من«السياحه»و معناها الجوله الهادفه.

أنّه إذا رأى الإنسان عـدوّه يتربص به و يستعد لنقض عهده،ولديه قرائن على ذلك و علائم واضحه أن ينهض لمواجهته قبل أن يستغفله و يعلن إلغاء عهده و يردّ عليه بما يستحق.

ثانيـا:ما المانع من إلغاء العهود و المواثيق التى تفرض فى ظروف استثنائيه على بعض الأمم و الشعوب-فيضطرون مكرهين على قبولهم و الرضا بها-من جانب واحد إذا حصلوا على القدره الكافيه لإلغائها.

و عباده الأصنام ليست عقيده و لا فكرا،بل هى خرافه و وهم باطل خطر، فيجب القضاء عليها و إزالتها من المجتمع الإنسانى،فإذا كانت قوه عبده الأصنام و قدرتهم بالغه فى الجزيره العربيه،و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مجبورا على معاهدتهم و مصالحتهم،فإنّ ذلك لا يعنى أنّه لا يحق له إلغاء-معاهدته إذا ما قويت شوكته- و أن يبقى على عهده الذى يخالف العقل و المنطق و الدرايه.

و هذا يشبه تماما ظهور مصلح كبير-مثلا-بين عبده البقر،فيقوم بعمل إعلامى كبير،و حين يواجه ضغوطا شديده يضطر إلى عقد هدنه بينهم و عند ما يجتمع له أتباع بقدر كاف ينتفض لإزاله هذه الخرافه،و الأفكار المنحطه،و يلغى معاهدته.

و لهذا نلحظ أنّ هذا الحكم مختص بالمشركين،أمّا أهل الكتاب و سائر الأقوام الذين كانوا فى أطراف الجزيره العربيه من الذين كان بينهم و بين النّبى نوع من المواثيق و المعاهدات،فقد بقيت على حالها و لم يلغ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مواثيقهم و عهودهم حتى وفاته.

أضف إلى ذلك أن إلغاء عهود المشركين لم يكن قد حدث بصوره مفاجئه، بل أمهلوا مدّه أربعه أشهر،و أعلن هذا القرار فى الملأ العام،و فى اجتماع الحاج يوم عيد الأضحى،و فى البيت الحرام،لتكون لهم الفرصه الكافيه للتفكير، و لتحديد الموقف،لعلهم يرجعون عن تلك الخرافه التى كانت أساس تفرقتهم

و تشتتهم و جهلهم،و يرتدعون عن خيانتهم.و اللّه سبحانه لم يرض لهم أن يكونوا غافلين عن هذا القرار،فلم يسلبهم فرصه التفكّر،فإنّ لم يسلموا فقد كانت لهم الفرصه الكافيه للاستعداد للمواجهه القتاليه و الحرب،لئلا تكون المواجهه غير متكافئه الطرفين.

فلو لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليرعى الأصول الإنسانيه و الأخلاقيه لما كان أمهلهم مدّه أربعه أشهر،و الفرصه الكافيه لأن توقظهم من نومتهم؛أو يستعدوا لتهيئه القوّه القتاليه المناسبه لمواجهه المسلمين و محاربتهم إيّاهم بها.

أجل،لو لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كذلك لما أمهلهم و لحاربهم من يوم إلغاء المعاهده! و من هنا فإنّنا نجد الكثير من أولئك المشركين-عبده الأصنام-راجعوا أنفسهم و فكروا مليّا فى التعاليم الإسلاميه حتى ثابوا إلى رشدهم و اعتنقوا الإسلام.

۲-متى بدأت الأشهر الأربعه؟

هناك بين المفسّرين كلام كثير فى الجواب على هذا السؤال،إلّا أنّ ظاهر الآى يدل على أن المدّه بدأت منذ إعلان البلاغ المهم على المشركين،أى من يوم عيد الأضحى،و هو العاشر من شهر ذى الحجه،و انتهت فى العاشر من شهر ربيع الثانى من السنه التاليه.

و يؤيد ذلك ما ورد من حديث مروى عن الإمام الصّادق عليه السلام فى هذا الشأن «راجع تفسير البرهان،ج ۲،ص ۱۰۳».

ص :۵۲۹

الآيتان [سوره التوبه (٩): الآيات ٣ الى ۴]

اشاره

وَ أَذٰانٌ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى اَلنّٰاسِ يَوْمَ اَلْحَجِّ اَلْأَكْبَرِ أَنَّ اَللّٰهَ بَرِيءٌ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اَللّٰهِ وَ بَشِّرِ اَلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ اَلَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظٰاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اَللّٰهَ يُحِبُّ اَلْمُتَّقِينَ (۴)

التّفسير

اشاره

العهود المحترمه:

نلحظ فى هاتين الآيتين البيّنتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التى كانت بين النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المشركين،حتى أنّ تاريخ الإلغاء قد أعلن فى هذه الآيه إذ نقول: وَ أَذٰانٌ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النّٰاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللّٰهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ (١) .

١- ١) جمله و أذان إلخ.معطوفه على جمله:براءه من اللّه.و هناك احتمالات أخرى فى تركيب الجمله«و نظمها»،غير أن ما ذكرناه أكثر ظهورا كما يبدوا.

و فی الحقیقه،أنّ اللّه سبحانه یرید فی هذا الإعلان العام فی مکّه المکرمه، و فی ذلک الیوم العظیم،أن یوصد کل ذریعه یتذرع بها المشرکون و الأعداء، و یقطع ألسنه المفسدین،لئلا یقولوا:إنّهم استغفلوا فی الحمله أو الهجوم علیهم، و إن ذلک لیس من الشّهامه و الرجوله.

کما أنّ التّعبیر ب«إلی الناس»مکان أن یقال«إلی المشرکین»یدل علی وجوب إبلاغ هذا«الأذان»و الإعلام لجمیع الناس الحاضرین فی مکّه ذلک الیوم،لیکون غیر المشرکین شاهدا علی هذا الأمر أیضا.

ثمّ یتوجه الخطاب فی الآیه إلی المشرکین أنفسهم ترغیبا و ترهیبا،لعلهم یهتدون،إذ تقول الآیه: فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ .

أی أنّ الاستجابه لرساله التوحید فیها صلاحکم و فیها خیر لکم و لمجتمعکم و دنیاکم و آخرتکم، فلو تدبّرتم بجد و صدق لرأیتم أن قبول الدعوه هو البلسم الشافی لکلّ جراحاتکم و لیس فی الأمر منفعه للّه أو لرسوله.

ثمّ إنّ الآیه تحذر المخالفین المعاندین المتعصبین فتقول: وَ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّکُمْ غَیْرُ مُعْجِزِی اللّٰهِ .فلا یمکنکم الخروج من دائره قدرته المطلقه بحال.

و أخیرا فإنّ الآیه أنذرت المعاندین المتعصبین قائله: وَ بَشِّرِ الَّذِینَ کَفَرُوا بِعَذٰابٍ أَلِیمٍ .

و کما أشرنا من قبل فإنّ إلغاء هذه العهود من جانب واحد-و رفض عهد المشرکین-یختص بأولئک الذین دلّت القرائن علی استعدادهم لنقض عهدهم و بدت بوادره،لذلک فإنّ الآیه استثنت قسما منهم لوفائهم بالعهد،فقالت إِلاَّ الَّذِینَ عٰاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ثُمَّ لَمْ یَنْقُصُوکُمْ شَیْئاً وَ لَمْ یُظٰاهِرُوا عَلَیْکُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَیْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلیٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّٰهَ یُحِبُّ الْمُتَّقِینَ

ملاحظات

اشاره

۱-الحج الأكبر!

اختلف المفسّرون فی المراد من قوله تعالی: يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ و الذی نستفیده من کثیر من الرّوایات الوارده عن الفریقین،روایات أهل البیت علیهم السّلام و أهل السنه،أنّه یوم العاشر من ذی الحجه«عید الأضحی»و بتعبیر آخر«یوم النحر».

و انتهاء المده بالیوم العاشر من شهر ربیع الثّانی«للسنه العاشره»،وفقا لما جاء فی المصادر الإسلامیه،دلیل آخر علی هذا الموضوع:أضف إلی ذلک کله فإنّ یوم النحر فی الواقع ینتهی فیه القسم الأساس من أعمال الحج،و من هنا فیمکن أن یدعی ذلک الیوم بیوم الحج الأکبر (۱) و أمّا سبب تسمیته بالحج الأکبر،فلأنّه اجتمع فی ذلک العام جمیع الطوائف من المسلمین و عبده الأوثان و المشرکین،[کما اعتادوا علیه فی موسم الحج]

إلاّ أنّ هذا الأمر لم یتحقق فی السنین التالیه«لمنع غیر المسلمین من الحج».

و هناک تفسیر آخر مضافا إلی التّفسیر المذکور آنفا و هو أن المراد منه مراسم الحج فی قبال مراسم العمره التی یعبر عنها بالحج الأصغر.

و هذا التّفسیر جاء فی بعض الرّوایات الإسلامیه،و لا یمنع أن تکون کلتا العلّتین مدعاه لهذه التسمیه (۲) .

ص: ۵۳۲

---

۱ - ۱) جاء فی تفسیر نور الثقلین،عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال: «إنّما سمّی الأکبر لأنّها کانت سنه حج المسلمون و المشرکون و لم یحج المشرکون بعد تلک السنه.(ج ۲،ص ۱۸۴)

۲ - ۲) و جاء فی التّفسیر المذکور آنفا عن الإمام الصّادق علیه السلام فی جوابه لبعض أصحابه: الأکبر هو یوم النحر و الأصغر العمره(ج ۲،ص ۱۸۶)

۲-المواد الأربع التی أعلنت ذلک الیوم

و إن کان القرآن الکریم أعلن براءه اللّه من المشـرکین بشکل مطلق،إلّا أنّ الذی یستفاد من الرّوایات أنّ علیّا علیه السلام قد أمر بإبلاغ أربع مواد إلی الناس،و هی:

۱-إلغاء عهد المشرکین.

۲-لا یحق للمشرکین أن یحجّوا فی المواسم المقبله.

۳-منع العراه و الحفاه من الطواف الذی کان شائعا و مألوفا حتی ذلک الوقت.

۴-منع المشرکین من دخول البیت الحرام.

و

قـد جـاء فی تفسیر مجمع البیـان عن الإمـام البـاقر علیه السـلام أنّ الإمام علیا خطب فی موسم الحـج ذلک العام فقال:«لا یطوفن بالبیت عریان،و لا یحجن البیت مشرک،و من کان له مده فهو إلی مدته،و من لم تکن له مده فمدته أربعه أشهر».

و فی بعض الروایات إشاره إلی الماده الرّابعه،و هی عدم دخول المشرکین و عبده الأصنام البیت الحرام (۱) .

۳-من هم الذین کانت لهم عهود«إلی مدّه»

یظهر من أقوال المؤرخین و بعض المفسّـِرین أنّ الـذین کانت لعهـدهم مـده،هم جماعه من بنی کنانه و بنی ضـمره،فقد بقی من عهدهم فی ترک المنازعه تسـعه أشهر،و قد بقی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی عهده وفیّا،لأنّهم بقوا أوفیاء لعهدهم و لم یظاهروا المشرکین فی مواجهه الإسلام حیث انتهت مدّتهم (۲) .

و قد عدّ بعضهم طائفه بنی خزاعه من هؤلاء الذین کان لعهدهم مدّه. (۳)

۱- ۱) جاء فی بعض الرّوایات منع المشرکین من دخول المسجد.

۲- ۲) تفسیر مجمع البیان،ج ۵،ذیل الآیه محل البحث.

۳- ۳) تفسیر المنار،ج ۱۰،ذیل الآیه محل البحث.

الآیتان [سوره التوبه (۹): الآیات ۵ الی ۶]

اشاره

فَإِذَا اِنْسَلَخَ اَلْأَشْهُرُ اَلْحُرُمُ فَاقْتُلُوا اَلْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ اُحْصُرُوهُمْ وَ اُقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا اَلصَّلاهَ وَ آتَوُا اَلزَّکاهَ فَخَلُّوا سَبِیلَهُمْ إِنَّ اَللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ اَلْمُشْرِکِینَ اِسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتّی یَسْمَعَ کَلامَ اَللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَعْلَمُونَ (۶)

التّفسیر

اشاره

الشدّه المقرونه بالرّفق:

نقرأ فی الآیتین أعلاه بیان وظیفه المسلمین بعد انتهاء مدّه إمهال المشرکین «الأشهر الأربعه»و قد أصدر القرآن أوامره الصارمه فی هذا الصدد فقال: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ (۱) .

ثمّ یقول: وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ (۲) .

۱- ۱) الفعل«انسلخ»مأخوذ من الانسلاخ و معناه الخروج،و أصله من«سلخ الشاه»أی إخراج الشاه من جلدها عند الذبح.

۲- ۲) المرصد مأخوذ من الرّصد و یعنی الطریق أو الکمین.

و یلاحظ فی هذه الآیه أربعه أوامر صارمه صادره فی شأن المشرکین «إیصاد الطرق بوجههم،محاصرتهم،أسرهم،ثمّ قتلهم».و ظاهر النص أنّ الأمور الأربعه لیست علی نحو التخییر،بل ینبغی ملاحظه الظروف و المحیط و الزمان و المکان و الأشخاص،و العمل بما یناسب هذه الأمور،فلو کان فی الأسر و المحاصره و إیصاد السبیل بوجه المشرکین الکفایه فیها،و إلاّ فلا محیص عن قتالهم.

و هذه الشدّه متناغمه و متوائمه مع منهج الإسلام و خطته فی إزاله الوثنیه و قلعها من جذورها،و کما أشرنا إلی ذلک سلفا،فإنّ حریه الإعتقاد«أی عدم إکراه أهل الأدیان الأخری علی قبول الإسلام»تنحصر فی أهل الکتاب من الیهود و النصاری،و لا تشمل عبده الأوثان،لأنّ الوثنیه لیست عقیده صحیحه، و لا دینا کی تلحظ بعین الاحترام،بل هی تخلّف و خرافه و انحراف و جهل،و لا بدّ من استئصال جذورها بأی ثمن کان و کیف ما کان.

و هذه الشدّه و القوّه و الصرامه لا تعنی سدّ الطریق،-طریق الرجوع نحو التوبه-بوجههم،بل لهم أن یثوبوا إلی رشدهم و یعودوا إلی سبیل الحق،و لذلک فإنّ الآیه عقبت بالقول: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاهَ وَ آتَوُا الزَّکاهَ فَخَلُّوا سَبِیلَهُمْ .

و فی هذه الحال،أی عند رجوعهم نحو الإسلام،لن یکون هناک فرق بینهم و بین سائر المسلمین،و سیکونون سواء و إیاهم فی الحقوق و الأحکام.

إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ

.یتوب علی عباده المنیبین إلیه.

و تستکمل الآیه التالیه هذا الموضوع بأمر آخر،کما یتّضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنّما هو نشر التوحید و الحق و العداله،و لیس هو الاستثمار أو الاستعمار و امتصاص المال،أو الاستیلاء علی أراضی الآخرین،إذ تقول الآیه: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِکِینَ اسْتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتّی یَسْمَعَ کَلامَ اللّهِ .

أی علیک أن تعامل من یلجأ إلیک من المشرکین برفق و لطف،و امنحه

المجال للتفكير حتى يبيّن له محتوى دعوتك فى كمال الإراده و الحريه،فإذا أشرقت أنوار الهدايه فى قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.

ثمّ تضيف الآيه قائله: ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ و أوصله إلى مكان آمن حتى لا يعترضه أحد فى طريقه.

و أخيرا فإنّ الآيه تبين عله هذا الحكم،فتقول: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاٰ يَعْلَمُونَ .

فبناء على ذلك لو فتحت أبواب اكتساب المعرفه بوجوههم،فإنّه يؤمّل فيهم خروجهم من الوثنيه التى هى وليده الجهل-و التحاقهم بركب التوحيد الذى هو وليد العلم و المعرفه.

و قد ورد فى كتب السنه و الشيعه أنّ أحد المشركين(عبده الأصنام)سأل عليّا عليه السلام بعد إلغاء المعاهده فقال:يا ابن أبى طالب،لو أراد أحد أن يواجه النّبى بعد هذه المدّه«الأشهر الأربعه»و يسأله أو يسمع كلام اللّه منه،أهو آمن؟! فقال على عليه السلام:أجل،إنّ اللّه يقول: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجٰارَكَ فَأَجِرْهُ (1) .

و هكذا تتوازن و تتساوى كفتا الشدّه المستفاده من الآيه الأولى-محل البحث-و اللين المستفاد من الآيه التى تليها،فإنّ سبيل التربيه قائم على الشده المشفوعه باللين،ليكون منهما الدواء الناجع.

ملاحظات

اشاره

1-ما المراد من الأشهر الحرم؟

بالرّغم من أنّ المفسّرين قد بحثوا كثيرا فى هذا الشأن،إلاّ أنّه-مع ملاحظه ما جاء فى الآيات المتقدمه-يظهر أنّ المراد منها هى أربعه الأشهر التى كانت مدّه

1- 1) تفسير البرهان،ج 2،ص 106 و تفسير الفخر الرازى،ص 226.

الإمهـال للمشـركين،و التی بـدأت من عاشـر ذی الحجه للسـنه التاسـعه و انتهت بالعاشـر من شـهر ربیع الثّـانی من السـنه العاشـره الهجریه.

و هذا التّفسیر یعتقد به أغلب المحققین،و الأهم من ذلک أنّ کثیرا من الرّوایات صرّحت بهذا المضمون أیضا (۱) .

۲-هل الصّلاه و الزّکاه شرط فی قبول الإسلام؟

یسـتفاد من الآیتین محل البحث أنّه لا بـدّ من إقامه الصـلاه و إیتاء الزکاه لقبول توبه المشـرکین، و لهـذا فقد اسـتدل بعض فقهاء أهل السنه علی أن ترک الصلاه و الزکاه دلیل علی الکفر.

إلّا أنّ الحق هو أنّ المراد من هـذین الحکمین الإسـلامیین هو متی ما شک فی إسـلام شـخص ما،کما هی الحال فی المشـرکین یومئذ،فعلامه إسلامه أن یؤدی هاتین الوظیفتین«الصلاه،و الزکاه».

أو أنّ المراد هو أن یقرّوا بالصـلاه و الزکـاه علی أنّهمـا أمران إلهیان و یلتزموا بهما،و یعترفوا بهما علی أنّهما فرضان واجبان و إن قصّروا فی أدائمها،لأن هناک أدله وافره تقضی بأنّ تارک الصلاه أو الزکاه لیس کافرا،بل یعدّ إسلامه ناقصا.

و بـالطبع إن کان ترک الزکاه له دلاله علی تحـدّی الحکومه الاسـلامیه و الثوره علیها فهو سـبب للکفر،إلّا أن هـذا بحث آخر لا علاقه له بموضوعنا هذا.

۳-الإیمان ولید العلم

یسـتفاد من الآیـات محـل البحث أنّ البـاعث علی عـدم الإیمان هو الجهل، و أساس الإیمان الأصـیل هو العلم،لهـذا فینبغی توفیر الإمکانات اللازمه لإرشاد الناس و هدایتهم لیعرفوا طریق الحقّ،و لا یقبلوا الإسلام بواسطه التقلید إلا عمیق.

۱- ۱) ورد فی تفسیر نور الثقلین،الجزء الثّانی منه ذیل الآیه محل البحث حدیث بهذا الشأن(فراجع إن شئت).

الآیات [سوره التوبه (۹): الآیات ۷ الی ۱۰]

اشاره

کَیْفَ یَکُونُ لِلْمُشْرِکِینَ عَهْدٌ عِنْدَ اَللّٰهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ اَلَّذِینَ عٰاهَدْتُمْ عِنْدَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرٰامِ فَمَا اِسْتَقٰامُوا لَکُمْ فَاسْتَقِیمُوا لَهُمْ إِنَّ اَللّٰهَ یُحِبُّ اَلْمُتَّقِینَ (۷) کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لاٰ یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّهً یُرْضُونَکُمْ بِأَفْوٰاهِهِمْ وَ تَأْبیٰ قُلُوبُهُمْ وَ أَکْثَرُهُمْ فٰاسِقُونَ (۸) اِشْتَرَوْا بِآیٰاتِ اَللّٰهِ ثَمَناً قَلِیلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِهِ إِنَّهُمْ سٰاءَ مٰا کٰانُوا یَعْمَلُونَ (۹) لاٰ یَرْقُبُونَ فِی مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لاٰ ذِمَّهً وَ أُولٰئِکَ هُمُ اَلْمُعْتَدُونَ (۱۰)

التّفسیر

اشاره

المعتدون النّاقضون العهد:

کما لا حظنا فی الآیات السابقه الإسلام ألغی جمیع العهود التی کانت بینه و بین المشرکین و عبده الأوثان-إلّا جماعه خاصّه-و أمهلهم مدّه أربعه أشهر لیقرروا موقفهم منه.

و فالآیات-محل البحث-بیان لعله إلغاء العهود من قبل الإسلام،فتقول الآیه الأولی من هذه الآیات مستفهمه استفهاما إنکاریا: کَیْفَ یَکُونُ لِلْمُشْرِکِینَ

ص :۵۳۸

عَهْدٌ عِنْدَ اللّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ

؟! أی أنّهم لا ینبغی لهم أن یتوقعوا أو ینتظروا الوفاء بالعهد من قبل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من جانب واحد،فی وقت تصدر منهم المخالفات و عدم الوفاء بالعهد.

ثمّ استثنت الآیه مباشره أولئک الذین لم ینقضوا عهدهم،بل بقوا أوفیاء له، فقالت: إِلاَّ الَّذِینَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَکُمْ فَاسْتَقِیمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّهَ یُحِبُّ الْمُتَّقِینَ .

و فی الآیه التالیه یثار هذا الموضوع بمزید الصراحه و التأکید،و یستفهم عنه استفهاما إنکاریا أیضا،إذ تقول الآیه: کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لا یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلاًّ وَ لا ذِمَّهً .

و کلمه«الإلّ»معناها القرابه،و قال بعضهم:إنّها تعنی هنا العهد و المیثاق.

فعلی المعنی الأوّل أی«القرابه»یکون المراد من ظاهر الآیه أنّه بالرغم من أنّ قریشا تربطها برسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعض المسلمین علاقه قربی،إلاّ أنّها لا ترقب هذه القرابه أو الرحم و لا ترعی حرمتها،فکیف إذن تتوقع من النّبی و المسلمین احترام علاقتهم بها.

و علی المعنی الثّانی تکون کلمه«إلّ»مؤکّده بکلمه(ذمّه)و تعنی العهد و المیثاق أیضا،قال الراغب فی المفردات:إن«الإل»کل حاله ظاهره من عهد حلف و قرابه تئل(أی تلمع)فلا یمکن إنکاره (1) .

و تضیف الآیه معقبه بأن هؤلاء یریدون أن یخدعوکم بألفاظهم المزوّقه فقالت: یُرْضُونَکُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبی قُلُوبُهُمْ .

لأن قلوبهم ملیئه بالحقد و القسوه و طلب الانتقام و عدم الاعتناء بالعهد و علاقه القربی،و إن أظهروا المحبّه بألسنتهم.

۱- ۱) المفردات،ص ۲۰.

و فی نهایه الآیه إشاره إلی جذر هذا الموضوع و أساسه و هو فسقهم،فتقول:

وَ أَکْثَرُهُمْ فاسِقُونَ

.

و فی الآیه التالیه بیان لبعض علائم فسقهم و عصیانهم،إذ أعربت الآیه عن ذلک علی النحو التالی اِشْتَرَوْا بِآیاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِیلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِهِ .

و قد جاء فی بعض الرّوایات أن أبا سفیان أقام مأدبه و دعا إلیها جماعه من الناس،لیثیر حفیظتهم و عداوتهم بوجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن هذا الطریق.

و یعتقد بعض المفسّرین أنّ الآیه محل البحث تشیر إلی هذه القصه،إلاّ أن الظاهر أن الآیه ذات مفهوم واسع یشمل هذه القصّه و ما شاکلها حیث أغمضوا أعینهم و صدوا عن سبیل اللّه و آیاته من أجل منافعهم المادیه التی لا تدوم طویلا.

ثمّ تعقب الآیه بالقول: إِنَّهُمْ ساءَ ما کانُوا یَعْمَلُونَ فقد خسروا طریق السعاده و ضیعوها،و حرّموا الهدایه،و هم فی الوقت ذاته أو صدوا الطریق بوجه الآخرین،و أی عمل أسوأ من أن یحمل الإنسان وزره و وزر سواه! أمّا فی آخر آیه من الآیات-محل البحث-فهی تأکید آخر علی ما ورد فی الآیات المتقدمه،إذ تقول الآیه: لا یَرْقُبُونَ فِی مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّهً .

و هذه الخصله فیهم لم یبتل بها المؤمنون فحسب بل یعتدون علی کل من تناله أیدیهم وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ .

و بالرغم من أنّ مضمون هذه الآیه تأکید لما سبق من الآیات المتقدمه،إلاّ أنّ هناک فرقا بینهما،حیث کان الکلام فی ما سبق علی عدم رعایه المشرکین حرمه لخصوص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه المتقّین حوله کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لا یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلاًّ وَ لا ذِمَّهً أمّا الآیه محل البحث فالکلام فیها عن عدم رعایتهم حرمه لکل مؤمن لا یَرْقُبُونَ فِی مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَ لا ذِمَّهً

.

أی إن المشرکین لا ینظرون إلیکم(النّبی و الخواص من الصحابه)نظره تمتاز عن سواکم بل هذه النظره-نظره العداء و البغضاء-ینظر بها المشرکون إلی

كلّ مؤمن،و لا يكترثون بكل شىء و لا يرعون حرمه و لا عهدا،فهم فى الحقيقه أعداء الإيمان و الحقّ،و هم مصداق ما ذكره القرآن فى شأن أقوام سابقين أيضا حيث يقول: وَ مٰا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاّٰ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) .

ملاحظتان

اشاره

١-من هم المستثنون فى هذه الآيه؟

جرى الكلام بين المفسّرين فى الطائفه المستثناه من الحكم: إِلاَّ الَّذِينَ عٰاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ فمن هؤلاء المستثنون فى هذه الآيه؟! إلاّ أنّه بملاحظه الآيات السابقه،يظهر أن المراد من هذه الجمله هم أولئك الذين بقوا على عهدهم و وفائهم،أى القبائل التى هى من بنى ضمره و بنى كنانه و بنى خزيمه و أضرابهم.

و فى الحقيقه فإنّ هذه الجمله بمنزله التأكيد للآيات السابقه،فإنّ على المسلمين أن يكونوا حذرين واعين،و أن يعرفوا هؤلاء الأوفياء بالعهد و يميزوهم عن سواهم الناكثين للعهد.

و ما قوله تعالى: عٰاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ فلعل هذا التعبير يشير إلى ما كان من معاهده بين المسلمين و المشركين فى السنه السادسه للهجره،عند صلح الحديبيه على بعد خمسه عشر ميلا عن مكّه،فقد التحق جماعه آخرون من مشركى العرب كالقبائل المشار إليها آنفا بهذه المعاهده حيث عاهدوا المسلمين عن ترك الخصام،إلاّ أن مشركى قريش نقضوا عهدهم،ثمّ أسلموا فى السنه الثامنه عند فتح مكّه، أمّا الجماعه التى التحقت حينئذ من المشركين بمن عاهد المسلمين،فلم يسلموا و لم ينقضوا عهدهم.

١- ١) سوره البروج،الآيه ٨.

و لمّا كانت أرض مكّه تستوعب منطقه واسعه«حولى ۴۸ ميلا»فقد عدّت المنطقه كلها جزءا من المسجد الحرام،كما نقرأ عن ذلك فى الآيه(۱۹۶)من سوره البقره،إذ تذكر موضوع حج التمتع و أحكامه فتقول: ذٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حٰاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرٰامِ .

و المعروف عند الفقهاء و فتاواهم أن أحكام حج التمتع إنما تجب على من تبعد داره«أو دار أهله»أكثر من ۴۸ ميلا عن مكّه.

فبناء على ذلك لا مانع أبدا من أن يطلق على الحديبيه،التى تبعد ۱۵ ميلا عن مكّه،تعبير:عند المسجد الحرام.

و أمّا قول بعضهم:إن الاستثناء الوارد فى الآيه إنما هو فى شأن مشركى قريش،الذين عدّ القرآن الكريم عهدهم الذى عقدوه فى صلح الحديبيه محترما، فهذا القول يبدو بعيدا،بل هو غير صحيحى،لأنّه.

أوّلا:من المعلوم أنّ مشركى قريش نقضوا العهد،فنقضهم مقطوع به،و لا مراء فيه،فإن لم يكونوا قد نقضوا العهد،فمن الذين لم ينقضوا عهدهم إذا؟! ثانيا:إن صلح الحديبيه إنّما كان فى السنه السادسه للهجره،بينما أسلم مشركو قريش فى السنه الثامنه للهجره بعد فتح مكّه،فبناء على ذلك فالآيات هذه النازله فى السنه التاسعه للهجره،لا يمكن أن تكون ناظره إليهم.

۲-متى يجوز الغاء المعاهده؟

كما قلنا ذيل الآيات المتقدمه،فإنّ المراد من الآيات محل البحث لا يعنى جواز الغاء العهد بمجرّد تصميم المشركين و عزمهم على نقض العهد عند بلوغهم القدره،بل إنّهم أبدوا هذا الأسلوب و طريقه تفكيرهم عمليّا مرارا،فمتى استطاعوا أن يوجهوا ضربتهم إلى الإسلام دون الالتفات إلى المعاهده وجهوها.

و هذا المقدار من عملهم كاف لإلغاء عهدهم.

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ١١ الی ١۵]

اشاره

فَإِنْ تٰابُوا وَ أَقٰامُوا اَلصَّلاٰهَ وَ آتَوُا اَلزَّكٰاهَ فَإِخْوٰانُكُمْ فِي اَلدِّينِ وَ نُفَصِّلُ اَلْآيٰاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمٰانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقٰاتِلُوا أَئِمَّهَ اَلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاٰ أَيْمٰانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَ لاٰ تُقٰاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمٰانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْرٰاجِ اَلرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّهٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قٰاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اَللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١۴) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اَللّٰهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١۵)

التّفسير

اشاره

لم تخشون مقاتله العدوّ؟!

إنّ أحد أساليب الفصاحه و البلاغه أن يكرر المتحدّث المطلب المهم بتعابير مختلفه للتأكيد على أهميه،و ليكون له أثر في النفوس.و لما كانت مسأله تطهير

ص :۵۴۳

المحیط الإسلامی من الوثنیه و عباده الأصنام و إزاله آثارها،من المسائل ذات الأهمیّه القصوی،فإنّ القرآن یکرر هذه المطالب بعبارات جدیده-فی الآیات محل البحث-و یورد القرآن کذلک لطائف تخرج المطلب-عن صوره التکرار، و لو التکرار المجازی.

فتقول الآیه الأولی من هذا الآیات محل البحث: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاهَ وَ آتَوُا الزَّکاهَ فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ .

و تضیف معقبه وَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ .

و کان التعبیر فی الآیات المتقدمه أنّهم إذا أدّوا وظیفتهم الإسلامیه،أی تابوا و أقاموا الصلاه و آتوا الزّکاه فَخَلُّوا سَبِیلَهُمْ أمّا التعبیر فی هذه الآیه فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ أی لا فارق بینهم و بین أحد من المسلمین من حیث الاحترام و المحبّه، کما لا فارق بین الإخوان.

و هذه التعابیر تؤثر من الناحیه النفسیه فی أفکار المشرکین و عواطفهم لتقبل الإسلام،إذ تقول فی حقّهم تاره فَخَلُّوا سَبِیلَهُمْ و تاره فَإِخْوانُکُمْ فِی الدِّینِ إلخ...

و لکن لو استمر المشرکون فی نقض العهود،فتقول الآیه التالیه: وَ إِنْ نَکَثُوا أَیْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِی دِینِکُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّهَ الْکُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَیْمانَ لَهُمْ .

صحیح أنّهم عاهدوکم علی عدم المخاصمه و المقاتله،إلاّ أن هذه المعاهده- بنقضها مرارا،و کونها قابله للنقض فی المستقبل-لا اعتبار لها أصلا و لا قیمه لها.

و تعقّب الآیه مضیفه لَعَلَّهُمْ یَنْتَهُونَ و فی الآیه الأخری خطاب للمسلمین لإثاره هممهم،و إبعاد روح الضعف و الخوف و التردد عنهم فی هذا الأمر الخطیر،إذ تقول الآیه: أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَکَثُوا أَیْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ .

فعلام تقلقون و أنتم لم تبدأوهم بالقتال و إلغاء العهد من قبلکم وَ هُمْ بَدَؤُکُمْ

أَوَّلَ مَرَّهٍ

؟ و إذا كـان بعضـكم يتردد فى مقـاتلتهم خشـيه،منهم،فـإنّ هـذه الخشـيه لا محـل لها أ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

و فى الآيه التاليه وعد بالنصر الحاسم للمسلمين،إذ تقول قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ .

و ليس ذلك فحسب،بل، وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ .

و بهذا يشعر المؤمنون بالراحه و الطمأنينه بعد أن كانوا يقاسون الألم و العذاب تحت وطأه هؤلاء المجرمين،و يزيل اللّٰه تعالى عن قلوبهم آلام المحنه بهذا النصر وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ .

قـال بعض المفسّـرين:إنّ المراد من قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ هم جمـاعه المؤمنين من بنى خزاعه،و قـد اسـتغفلهم عبـده الأوثـان من بنى بكر فهجموا عليهم غدرا.

و قال بعض المفسّـرين:إنّ المراد من هـذا التعبير هم جماعه من أهل اليمن اسـتجابوا لـدعوه الإسـلام،و لما وصـلوا مكّه عـذّبوا و أوذوا من قبل عبده الأصنام.

إلّا أنّه لا يبعد أن تشمل هذه العباره جميع أولئك الذين تعرّضوا لأذى المشركين و عبده الأصنام و تعذيبهم فكانت قلوبهم تغلى دما منهم.

أمّا الآيه التاليه فتضيف:إنّ فى انتصار المؤمنين و هزيمه الكافرين سرورا للمؤمنين،و إنّ اللّه يسدّدهم وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ .

و يحتمل أن تكون هذه الجمله تأكيدا للجمله السابقه وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ كما يحتمل أن تكون مسـتقله عنها.و أن تكون الجمله السابقه إشاره إلى أنّ القلوب التى مرضت و تألمت سنين طوالا من أجل الإسلام و النّبى الكريم، شفيت بانتصار الإسلام.

و أمّا الجمله الثّانيه وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ فهى إشاره أن أولئك الذين فقدوا أعزّتهم و أحبّتهم بما لا قوه من تعذيب وحشـى من قبل المشركين

ص :۵۴۵

فأغاظوهم،سيقّر اللّه عيونهم بهلاك المشركين وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ .

و تختتم الآيه بالقول: وَ يَتُوبُ اللّٰهُ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ وَ اللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

كما تشير العباره الأخيره ضمنا إلى امكانيه أن يلج بعضهم باب التوبه، فينبغى على المسلمين أن يعرفوا أن اللّه يقبل توبتهم،فلا يعاملوهم بشده و قسوه فلا يجوز ذلك.كما أن الجمل بنفسها تحمل البشرى بأنّ مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام و يشملهم توفيق اللّه،لما لديهم من التهيؤ الروحى و القابليّه.

و قد ذهب بعض المفسّرين أنّ الآيات الأخيره-بصوره عامّه من قبيل الإخبار القرانى بالمغيبات،و هى من دلائل صدق دعوه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ ما أخبر عنه القرآن قد تحقق فعلا.

ملاحظات

١-هناك كلام بين المفسّرين فى الجماعه الذين عنتهم الآيه قٰاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ من هم؟! قال بعضهم:إنّ الآيه تشير إلى اليهود،و إلى بعض الأقوام الذين نازلوا المسلمين و قاتلوهم بعد حين كالفرس و الرّوم.

و قال بعضهم:هى إشاره إلى كفّار قريش.

و قال بعضهم:بل هى إشاره إلى المرتدين بعد إسلامهم.

إلّا أنّ ظاهر الآيات يدلّ-بوضوح-على أن موضوعها هو جماعه المشركين و عبده الأصنام الذين عاهدوا المسلمين على عدم القتال و المخاصمه، إلّا أنّهم نقضوا عهدهم.

و كان هؤلاء المشركون فى أطراف مكّه أو سائر نقاط الحجاز.

كما أنّه لا يمكن القبول بأنّ الآيه ناظره إلى قريش،لأنّ قريشا

ص :546

و رئيسها-أبا سفيان-أعلنوا إسلامهم-ظاهرا-فى السنه الثامنه بعد فتح مكّه، و السوره محل البحث نزلت فى السنه التاسعه للهجره.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد من الآيه هو الفرس أو الروم بعيد جدّا عن مفهوم الآيه،لأنّ الآيه-أو الآيات محل البحث-تتكلم عن مواجهه فعليه،لا على مواجهات مستقبليه أضف إلى ذلك فإنّ الفرس أو الروم لم يهمّوا بإخراج الرّسول من وطنه.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد هم المرتدون بعد الإسلام،بعيد غايه البعد،لإن التأريخ لم يتحدث عن مرتدين أقوياء واجهوا الرّسول ذلك الحين ليقاتلهم بمن معه من المسلمين.

ثمّ إنّ كلمه«أيمان»جمع«يمين»و كلمه«عهد»يشيران إلى المعاهده بين المشركين و الرّسول على عدم المخاصمه،لا إلى قبول الإسلام.فلاحظوا بدقه.

و إذا وجدنا فى بعض الرّوايات الإسلاميه أنّ هذه الآيه طبّقت على «النّاكثين»فى«معركه الجمل»و أمثالها،فلا يعنى ذلك أن الآيات نزلت فى شأنهم فحسب،بل الهدف من ذلك أنّ روح الآيه و حكمها يصدقان فى شأن الناكثين و من هم على شاكلتهم ممن سيأتون فى المستقبل.

و السؤال الوحيد الذى يفرض نفسه و يطلب الإجابه،هو:إذا كان المراد جماعه المشركين الذين نقضوا عهودهم،و قد جرى الكلام عليهم فى الآيات المتقدمه،فعلام تعبّر الآيه هنا عنهم بالقول: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مع أنّهم قد نكثوها فعلا.

و الجواب:إنّ المراد من هذه الجمله-المذكوره آنفا-أنّهم لو واصلوا نقضهم أو نكثهم للأيمان،و لم يثوبوا إلى رشدهم،فينبغى مقاتلتهم.و نظير ذلك ما جاء فى قوله تعالى: اِهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ و مفهومها أنّنا نطلب من اللّه أن يوفقنا لأنّ نسير على الصراط المستقيم و أن تستمرّ هدايته إيانا.

و الشاهد على هذا الكلام أنّ جمله وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ جاءت فى مقابل فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أى لا يخلو الأمر من أحد وجهين،فإمّا أن يتوبوا و يعرضوا عن الشرك و يتجهوا نحو اللّه،و إمّا أن يستمرا على طريقهم و نكث أيمانهم.ففى الصوره الأولى هم إخوانكم فى الدين،و فى الصوره الثّانيه ينبغى مقاتلتهم.

۲-ممّا يسترعى الانتباه أنّ الآيات محل البحث لا تقول:قاتلوا الكفار،بل تقول: فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ و هى إشاره إلى أن(القاعده الجماهيريه)و عامّه الناس تبع لزعمائهم و رؤسائهم،فينبغى أن يكون الهدف القضاء على رؤسائهم و أئمتهم،لأنّهم أساس الضلال و التضليل و الظلم و الفساد،فاستأصلوا شجره الكفر من جذورها و أحرقوها.فمواجهه الكفار لا تجدى نفعا ما دام أئمتهم فى الوجود،أضف إلى ذلك فإنّ هذا التعبير يعدّ ضربا من ضروب النظره البعيده المدى و علو الهمه و تشجيع المسلمين،إذ عدّ أئمّه الكفر فى مقابل المسلمين، فليواجهوهم فذلك أجدر من مواجهه من دونهم من الكفّار.

و العجيب أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ هذا التعبير يعنى أبا سفيان و أمثاله من زعماء قريش،مع أنّ جماعه منهم قتلوا فى معركه بدر، و أسلم الباقى منهم كأبى سفيان بعد فتح مكّه-بحسب الظاهر-و كانوا عند نزول الآيه فى صفوف المسلمين،فمقاتلتهم لا مفهوم لها.

و اليوم ما يزال هذا الدستور القرآنى المهم باقيا على قوته«سارى المفعول» فالكى نزيل الاستعمار و الفساد و الظلم،لا بدّ من مواجهه رؤوساء و الأكابر و أئمّه المنحرفين،و إلاّ فلا جدوى من مواجهه من دونهم من الأفراد،فلاحظوا بدقه.

۳-إنّ التّعبير ب فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ الوارد فى الآيات المتقدمه،من ألطف التعابير التى يمكن أن يعبّر بها فى شأن المساواه بين أفراد المجتمع،و بيان أوثق العلائق العاطفيه،لأنّ أجلى العلائق العاطفيه و أقربها فى الناس التى تمثل

المساواه الكامله هى العلاقه ما بين الأخوين.

إلّا أنّ من المؤسف أن الانقسامات الطبقيه و النداءات القوميه سحقت هذه الأخوه الإسلاميه التى كان الأعداء يغبطوننا عليها،و وقف الإخوان فى مواجهه إخوانهم متراصين بشكل لا يصدق،و قد يقاتل كلّ منهما الآخر قتالا لا يقاتل العدوّ عدوه بمثل هذا القتال،و هذا واحد من أسرار تأخرنا فى عصرنا هذا.

۴-يستفاد-إجمالا-من جمله«أ تخشونهم»أنّه كان بين المسلمين جماعه يخافون من الاستجابه للأمر بالجهاد،إمّا لقوّه العدوّ و قدرته،أو لأنّهم كانوا يعدو نقض العهد ذنبا.

فالقرآن يخاطبهم بصراحه أن لا تخافوا من هؤلاء الضعاف،بل ينبغى أن تخافوا من عصيان أمر اللّه.ثمّ إن خشيتكم من نكث الإيمان و نقض العهد ليست فى محلها،فهم الذين نكثوا أيمانهم و هم بدأوكم أوّل مرّه! ۵-يبدو أنّ جمله هَمُّوا بِإِخْرٰاجِ الرَّسُولِ إشاره إلى مسأله عزمهم على إخراج الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّه(عند هجرته إلى المدينه)بادئ الأمر،إلّا أن نياتهم تغيرت و تبدلت إلى الإقدام على قتله،إلّا أنّ النّبى غادر مكّه فى تلك الليله بأمر اللّه.

و على كل حال،فإنّ ذكر هذا الموضوع ليس على سبيل أنّهم نقضوا عهدهم، بل هو بيان ذكرى مؤلمه من جنايات عبده الأصنام،حيث اشتركت قريش و القبائل الأخرى فى هذا الأمر.أمّا نقض العهد من قبل عبده الأصنام المشركين فكان واضحا من طرق أخرى.

۶-ممّا يثير الدهشه و التعجب أنّ بعض أتباع مذهب الجبر يستدل على مذهبه بالآيه قٰاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ بِأَيْدِيكُمْ مع أنّنا لو تجردنا عن التعصب لما وجدنا فى الآيه أدنى دليل على مرادهم،و هذا يشبه تماما لو أردنا أن ننجز

عملا-مثلا-فنمضی إلی بعض أصدقائنا و نقول له:نأمل أن یصلح اللّه هذا الأمر علی یدک،فإنّ مفهوم کلامنا هذا لا یعنی بأنّک مجبور علی أداء هـذا الأـمر،بل المراد أنّ اللّه منحک قـدره و نیه طاهره،و بالإفاده منهما اسـتطعت أن تؤدی عملک باختیارک و بحریه تامّه.

ص:550

الآیه [سوره التوبه (۹): آیه ۱۶]

اشاره

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمّا یَعْلَمِ اَللّهُ اَلَّذِینَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ یَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اَللّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لاَ اَلْمُؤْمِنِینَ وَلِیجَهً وَ اَللّهُ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۶)

التّفسیر

فی هذه الآیه ترغیب للمسلمین فی الجهاد عن طریق آخر،حیث تحمّل الآیه المسلمین مسئولیه ذات عبء كبیر،و هی أنّه لا ینبغی أن تتصوروا أن كلّ شیء سیكون تامّا بادعائكم الإیمان فحسب،بل یتجلی صدق النیّه و صدق القول و الإیمان الواقعی فی قتالكم الأعداء قتالا خالصا من أی نوع من أنواع النفاق.

فتقول الآیه أوّلا: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمّا یَعْلَمِ اللّهُ الَّذِینَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ یَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لاَ الْمُؤْمِنِینَ وَلِیجَهً (۱) .

و«الولیجه»مشتقه من«الولوج»و معناه الدخول،و تطلق الولیجه علی من

۱- ۱) «أم»حرف عطف و یعطف بها جمله استفهامیه علی جمله استفهامیه أخری،و لهذا فهی تعطی معنی الاستفهام،غایه ما فی الأمر أنّها تأتی بعد جمله استفهامیه دائما،و فی الآیه محل البحث عطفت علی الجمله«ألا تقاتلون»التی بدئت بها الآیه(۱۳).

يعتمد عليه فى الأسرار و معناها يشبه معنى البطانه تقريبا.

و فى الحقيقه فإنّ الجمله المتقدمه تنّبه المسلمين إلى أنّ الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب،و لا تتجلى شخصيه الأشخاص بذلك،بل يعرف الناس باختبارهم عن طريقين:

الأوّل:الجهاد فى سبيل اللّه لغرض محو آثار الشرك و الوثنيه.

الثاني:ترك أيه علاقه أو أى تعاون مع المنافقين و الأعداء.

فالأوّل لدفع العدو الخارجى،و الثّانى يحصّن المجتمع من خطر العدو الداخلى.

و جمله لَمّٰا يَعْلَمِ اللّٰهُ التى قد يلاحظ نظيرها فى بعض آيات القرآن الأخر، تعنى أن أمركم لم يتحقق بعد،و بتعبير آخر:إنّ نفى العلم هنا معناه نفى المعلوم، و يستعمل مثل هذا التعبير فى مواطن التأكيد.و إلاّ فإنّ اللّه-طبقا للأدله العقليه و صحيح آيات القرآن الكثيره-كان عالما بكل شيء،و سيبقى عالما بكل شيء.

و هذه الآيه تشبه الآيه الأولى من سوره العنكبوت،إذ تقول: الم* أَ حَسِبَ النّٰاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّٰا وَ هُمْ لاٰ يُفْتَنُونَ .

و كما ذكرنا آنفا فى تفسيرنا لسوره آل عمران أنّ اختبار اللّه لعباده ليس لكشف أمر مجهول عنده،بل هو لتربيتهم و لأجل إنّما الاستعدادات و تجلّى الأسرار الداخليه فى الناس.

و تختتم الآيه بما يدلّ على الإخطار و التأكيد وَ اللّٰهُ خَبِيرٌ بِمٰا تَعْمَلُونَ .

فلا ينبغى أن يتصور أحدّ أنّ اللّه لا يعرف العلائق السرّيه بين بعض الأفراد و بين المنافقين،بل يعرف كل شيء جيدا و هو خبير بالأعمال كلها.

و يستفاد من سياق الآيه أن بين المسلمين يؤمئذ من كان حديث العهد بالإسلام و لم يكن على استعداد للجهاد،فيشمله هذا الكلام أمّا المجاهدون الصادقون فقد بيّنوا مواقفهم فى سوح الجهاد مرارا.

ص :۵۵۲

الآیتان [سوره التوبه (۹): الآیات ۱۷ الی ۱۸]

اشاره

مٰا کٰانَ لِلْمُشْرِکِینَ أَنْ یَعْمُرُوا مَسٰاجِدَ اَللّٰهِ شٰاهِدِینَ عَلیٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْکُفْرِ أُولٰئِکَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ وَ فِی اَلنّٰارِ هُمْ خٰالِدُونَ (۱۷) إِنَّمٰا یَعْمُرُ مَسٰاجِدَ اَللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ اَلْیَوْمِ اَلْآخِرِ وَ أَقٰامَ اَلصَّلاٰهَ وَ آتَی اَلزَّکٰاهَ وَ لَمْ یَخْشَ إِلاَّ اَللّٰهَ فَعَسیٰ أُولٰئِکَ أَنْ یَکُونُوا مِنَ اَلْمُهْتَدِینَ (۱۸)

التّفسیر

اشاره

من یعمر مساجد اللّه؟

من جمله المسائل التی یمکن أن تخالط أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشرکین و حکم الجهاد،هو:لم نبعد هذه الجماعه العظیمه من المشرکین عن المسجد الحرام لأداء مناسک الحج،مع أنّ مساهمتهم فی هذه المراسم عماره للمسجد من جمیع الوجوه«المادیه و المعنویه»إذ یستفاد من إعاناتهم المهمّه لبناء المسجد الحرام،کما یکون لوجودهم أثر معنوی فی زیاده الحاجّ و الطائفین حول الکعبه المشرفه و بیت اللّه.

فالآیتان-محل البحث-تردّان علی مثل هذه الأفکار الواهیه التی لا أساس

لها،و تصرّح الآيه الأولى منهما بالقول: مٰا كٰانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسٰاجِدَ اللّٰهِ شٰاهِدِينَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ .

و شهادتهم على كفرهم جليه من خلال أحاديثهم و و أعمالهم،بل هى واضحه فى طريقه عبادتهم و مراسم حجّهم.

ثمّ تشير الآيه إلى فلسفه هذا الحكم فتقول: أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمٰالُهُمْ .

و لذلک فهى لا تجديهم نفعا: وَ فِى النّٰارِ هُمْ خٰالِدُونَ .

فمع هذه الحال لا خير فى مساعيهم لعماره المسجد الحرام و بنائه و ما إلى ذلک، كما لا فائده من كثرتهم و احتشادهم حول الكعبه.

فاللّه طاهر منزّه،و ينبغى أن يكون بيته طاهرا منزّها كذلک،فلا يصح أن تمسه الأيدى الملوثه بالشرک.

أمّا الآيه التّاليه فتذكر شروط عماره المسجد الحرام-إكمالا للحديث آنف الذكر-فتبيّن خمسه شروط مهمّه فى هذا الصدد،فتقول، إِنَّمٰا يَعْمُرُ مَسٰاجِدَ اللّٰهِ مَنْ آمَنَ بِاللّٰهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ .

و هذا النص إشاره إلى الشرطين الأوّل و الثّانى،اللذين يمثلان الأساس العقائدى،فما لم يتوفر هذان الشرطان لا يصدر من الإنسان أى عمل خالص نزيه،بل لو كان عمله فى الظاهر سليما فهو فى الباطن ملّوث بأنواع الأغراض غير المشروعه.

ثمّ تشير الآيه إلى الشرطين الثّالث و الرّابع فتقول: وَ أَقٰامَ الصَّلاٰهَ وَ آتَى الزَّكٰاهَ .

أى أن الإيمان باللّه و اليوم الآخر لا يكفى أن يكون مجرّد ادعاء فحسب،بل تؤيده الأعمال الكريمه،فعلاقه الإنسان باللّه ينبغى أن تكون قويه محكمه،و أن يؤدى صلاته بإخلاص،كما ينبغى أن تكون علاقته بعباد اللّه و خلقه قويه،فيؤدى الزكاه إليهم.

و تشیر الآیه إلی الشرط الخامس و الأخیر فتقول: وَ لَمْ یَخْشَ إِلاَّ اللّهَ .

فقلبه ملیء بعشق اللّه،و لا یحسّ إلاّ بالمسؤولیه فی امتثال أمره و لا یری لأحد من عبیده أثرا فی مصیره و مصیر مجتمعه و تقدمه،هم أقل من أن یکون لهم أثر فی عماره محل للعباده.

ثمّ تضیف الآیه معقبه بالقول: فَعَسی أُولئِکَ أَنْ یَکُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِینَ فیبلغون أهدافهم و یسعون لعماره المسجد.

ملاحظات

اشاره

۱-ما المراد من العماره

هل تعنی عماره المسجد بناءه و تأسیسه و ترمیمه،أو تعنی الاجتماع فیه و المساهمه فی الحضور عنده؟! اختار بعض المفسّرین أحد هذین المعنیین فی تفسیر«عماره المسجد»فی الآیه-محل البحث-غیر أنّ الآیه ذات مفهوم واسع یشمل هذه الأمور و ما شاکلّها جمیعا.فلیس للمشرکین أن یحضروا فی المساجد،و لیس لهم أن یبنوا مسجدا-و ما إلی ذلک-بل علی المسلمین أن یقوموا بکل ذلک.

و یستفاد من الآیه-ضمنا-أنّه لا ینبغی للمسلمین أن یقبلوا من المشرکین-بل جمیع الفرق غیر الإسلامیه-هدایا أو إعانات للمساجد و بنائها، لأنّ الآیه الأولی و إن کانت تتکلم علی المشرکین،لکنّ الآیه الثّانیه بدأت بکلمه «إنما»لتدل علی أن عماره مساجد اللّه خاصّه بالمسلمین.

و من هنا یتّضح أیضا أنّ متولی المساجد و مسئولیها ینبغی أن یکونوا من أنزه الناس،و لا ینتخب لهذه المهمّه من لا حریجه له فی الدین طمعا فی ماله و ثروته،أو مقامه الاجتماعی کما هو الحال فی کثیر من البلاد،إذ تولّی مساجدها

من ليس لها أهلا.

بل يجب ابعاد جميع الأيدى الملوثه عن هذه الأماكن المقدسه.

و منذ أن تدخل فى أمور المساجد و المراكز الإسلاميه أو أشرف عليها حكام الجور،أو الأثرياء المذنبون،فقدت تلك المساجد و المراكز الإسلاميه«حيثيتها» و مكانتها و مسخت مناهجها البنّاءه، و لذا فنحن نرى كثيرا من هذه المساجد على شاكله مسجد ضرار.

٢-العمل الخالص ينبع من الإيمان فحسب

قد يتساءل بعضنا قائلا:ما يمنع أن نستعين بأموال غير المسلمين لبناء المساجد و عمارتها؟! لكن من يسأل مثل هذا السؤال لم يلتفت إلى أنّ الإسلام يعد العمل الصالح ثمره شجره الإيمان فى كل مكان،فالعمل ثمره نيّه الإنسان و عقيدته دائما و هو انعكاس لها و يتخذ شكلهما و لونهما دائما،فالنيات غير الخالصه لا تنتج عملا خالصا.

٣-الحماه الشجعان

تدل عباره وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ على أنّ عماره المسجد المحافظه عليها لا تكون إلاّ فى ظل الشهامه و الشجاعه،فلا تكون هذه المراكز المقدسه مراكز لبناء شخصيه الإنسان و ذات منهج تربوى عال إلاّ إذا كان بانوها و حماتها رجالا شجعانا لا يخشون أحدا سوى اللّه،و لا يتأثرون بأى مقام،و لا يطبقون منهجا غير المنهج الإلهى.

۴-هل المراد من الآيه هو المسجد الحرام فحسب؟!

يعتقد بعض المفسّرين أنّ الآيه محل البحث تختص بالمسجد الحرام، مع أنّ

ألفاظ الآيه عامّه،و لا دليل على هذا التخصيص،و إن كان المسجد الحرام الذى هو أعظم المساجد الإسلاميه فى مقدمتها،و يوم نزول الآيه كان المسجد الحرام هو محل إشاره الآيه،إلّا أنّ ذلك لا يدلّ على تخصيص مفهوم الآيه.

۵-أهميه بناء المساجد

وردت أحاديث كثيره فى أهميه بناء المساجد عن طرق أهل البيت و أهل السنه،تدلّ على ما لهذا العمل من الشأن الكبير.

فقد ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من بنى مسجدا و لو كمفحص قطاه بنى اللّه له بيتا فى الجنّه» (۱) .

كما

ورد عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكه و حمله العرش يستغفرون له ما دام فى ذلك المسجد ضوؤه» (۲) .

إلاّ أنّ ما هو أكثر أهميه هذا اليوم هو عماره المسجد المعنويه،و بتعبير آخر ينبغى أن نهتم بعماره شخصيه الذين يرتادون المسجد و أهله و حفظته اهتمامنا بعماره المسجد ذاته.

فالمسجد ينبغى أن يكون مركزا لكل تحرك إسلامى فاعل يؤدى إلى إيقاظ الناس،و تطهير البيئه و المحيط،و حثّ المسلمين للدفاع عن ميراث الإسلام.

و ينبغى الالتفات إلى أن المسجد جدير بأن يكون مركزا للشباب المؤمن، لا محلا للعجزه و الكسالى و المقعدين،فالمسجد مجال للنشاط الاجتماعى الفعال،لا مجال العاطلين و البطّالين و المرضى.

۱- ۱) ورد هذا الحديث فى كتاب وسائل الشيعه،الباب ۸ من أبواب أحكام المساجد كما ورد عن ابن عباس فى تفسير المنار،ج ۱،ص ۲۱۳.

۲- ۲) كتاب المحاسن،ص ۵۷ حسب نقل كنز العرفان،ج ۱،ص ۱۰۸.

الآيات [سوره التوبه (۹): الآيات ۱۹ الی ۲۲]

اشاره

أَ جَعَلْتُمْ سِقايَهَ اَلْحاجِّ وَ عِمارَهَ اَلْمَسْجِدِ اَلْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ اَلْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ جاهَدَ فِی سَبِيلِ اَللّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اَللّهِ وَ اَللّهُ لا يَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلظّالِمِينَ (۱۹) اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِی سَبِيلِ اَللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَهً عِنْدَ اَللّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ اَلْفائِزُونَ (۲۰) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَهٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (۲۱) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اَللّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۲)

سبب النّزول

هناك روايات مختلفه فی سبب نزول الآيات-محل البحث-منقوله فی كتب أهل السنه و الشيعه،و نورد هنا ما يبدو أكثر صحه.

يروی«أبو القاسم الحسكانی»عالم أهل السنه المعروف،عن بريده، أن «شيبه»و«العباس»كان يفتخر كلّ منهما علی صاحبه،و بينما هما يتفاخران إذ مرّ عليهما علی بن أبی طالب عليه السلام فقال:فيم تتفاخران؟ فقال العباس:حبيت بما لم يحب به أحد و هو سقايه الحاج.

ص:۵۵۸

فقال شيبه:إنی أعمر المسجد الحرام،و أنا سادن الكعبه.

فقال علی علیه السلام:علی أنّی مستحی منكما،فلی مع صغر سنی ما لیس عندكما.

فقالا:و ما ذاک؟! فقال:جاهدت بسیفی حتی آمنتما باللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فخرج العباس مغضبا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شاكیا علیّا فقال:ألا تری ما یقول؟ فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:أدعو لی علیّا فلمّا جاءه علی قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:لم كلّمت عمّک العباس بمثل هذا الكلام؟فقال علیه السلام:إذا كنت أغضبته،فلما بیّنت من الحق،فمن شاء فلیرض بالقول الحق و من شاء فلیغضب.

فنزل جبرئیل علیه السلام و قال:یا محمّد،إنّ ربّک یقرؤک السلام و یقول:اتل هذه الآیات: أَ جَعَلْتُمْ سِقایَهَ الْحاجِّ وَ عِمارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِی سَبِیلِ اللّهِ (1) .

و قد وردت هذه الروایه بالمضمون ذاته مع اختلاف یسیر فی التعابیر فی كتب كثیره لأهل السنه،كتفسیر الطبری و الثعلبی،و أسباب النّزول للواحدی و تفسیر الخازن البغدادی،و معالم التنزیل للعلاّمه البغوی،و المناقب لابن المغازلی،و جامع الأصول لابن الأثیر،و تفسیر الفخر الرازی،و كتب أخری. (2)

و علی كل حال،فالحدیث آنف الذكر من الأحادیث المعروفه و المشهوره، التی یقرّبها حتی المتعصبون،و سنتكلم عنه مرّه أخری بعد تفسیر الآیات.

التّفسیر

اشاره

مقیاس الفخر و الفضل:

مع أنّ للآیات-محل البحث-شأنا فی نزولها،إلاّ أنّها فی الوقت ذاته

1- 1) تفسیر مجمع البیان،ذیل الآیات محل البحث.

2- 2) لمزید الإیضاح یراجع كتاب إحقاق الحق،ج 3،ص 122-127.

تستكمل البحث الذى تناولته الآيات المتقدمه،و نظير ذلك كثير فى القرآن.

فالآيه الأولى من هذه الآيات تقول: أَ جَعَلْتُمْ سِقايَهَ الْحاجِّ وَ عِمارَهَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِی سَبِیلِ اللّهِ لا یَسْتَوُونَ عِنْدَ اللّهِ وَ اللّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ .

«السقایه»لها معنى مصدرى و هو إیصال الماء للآخرین،و كما تعنى المكیال،كما جاء فى الآیه ۷۰ من سوره یوسف فَلَمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقایَهَ فِی رَحْلِ أَخِیهِ و تعنى الإناء الكبیر أو الحوض الذى یصب فیه الماء.

و كان فى المسجد الحرام بین بئر زمزم و الكعبه محل یوضع فیه الماء یدعى ب«سقایه العباس»و كان معروفا آنئذ،و یبدو أنّ هناك إناء كبیرا فیه ماء یستقى منه الحاج یومئذ.

و یحدثنا التأریخ أنّ منصب«سقایه الحاج»قبل الإسلام كان من أهل المناصب،و كان یضاهى منصب سدانه الكعبه،و كانت حاجه الحاج الماسه فى أیّام الحج إلى الماء فى تلك الأرض القاحله الیابسه المرمضه (۱) التى یقل فیها الماء،و جوّها حار أغلب أیّام السنه،و كانت هذه الحاجه الماسه تولى موضوع «سقایه الحاج»أهمیّه خاصّه،و من كان مشرفا على السقایه كان یتمتع بمنزله اجتماعیه نادره،لأنّه كان یقدم للحاج خدمه حیاتیه.

و كذلك«عماره المسجد الحرام»أو سدانته و رعایته،كان لها أهمیته الخاصّه،لأنّ المسجد الحرام حتى فى زمن الجاهلیه كان یعدّ مركزا دینیا،فكان المتصدى لعماره المسجد أو سدانته محترما.

و مع كل ذلك فإنّ القرآن یصّرح بأنّ الإیمان باللّه و بالیوم الآخر و الجهاد فى سبیل اللّه أفضل من جمیع تلك الأعمال و أشرف.

۱- ۱) «المرمضه»مشتقه من«الإرماض»أى شدیده الحر،و الأرض الرمضاء كذلك:شدیه الحر.

أمّا الآيه التاليه فتوضح ما أجملته الآيه السابقه و تؤكّده بالقول: اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِی سَبِیلِ اللّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَهً عِنْدَ اللّهِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْفائِزُونَ .

و أمّا الآيه الثّالثه-من الآيات محل البحث-فتقول:إنّ اللّه أنعم على المؤمنين و المهاجرون و المجاهدين فى سبيله ثلاث مواهب هى:

۱- يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَهٍ مِنْهُ .

۲- وَ رِضْوانٍ .

۲۳- وَ جَنّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ .

و تعقب الآيه الأخيره لمزيد التوكيد بالقول خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

ملاحظتان

اشاره

۱-تحريف التاريخ

كما قرأنا آنفا فى شأن نزول الآيات محل البحث،و طبقا لروايه وردت فى كثير من كتب الآيات أهل السنه الشهيره،أنّها نزلت فى على عليه السلام و بيان فضائله، على أنّ مفهوم الآيات عام واسع(و قد قلنا مرارا بأن أسباب النّزول لا تحدّد مفاهيم الآى).

إلاّ أنّ بعض مفسّرى أهل السنه لم يرغب فى أن تثبت للإمام على عليه السلام فضائل بارزه مع اعتقادهم بأنّه رابع خلفاء المسلمين!و كأنّهم خافوا إن أذعنوا لما يجدونه عند على عليه السلام من الفضائل أن يقف الشيعه أمامهم متسائلين:لم قدّمتم على على غيره؟ فلذلك أغمضوا النظر عن كثير من مناقبه و فضائله،و سعوا جاهدين لأن

يقدحوا فى سند الروايه التى تذكر فضل على عليه السلام على غيره أو فى دلالتها.

و يا للأسف ما زال هـذا التعصب المقيت ممتـدا إلى عصـرنا الحاضـر،حتى أنّ بعض علمائهم المثقفين لم يسـلموا من هـذا الـداء الوبيل و التعصب دون دليل! و لا أنسـى المحاوره التى جرت بينى و بين بعض علماء أهل السـنه،إذ أظهر كلاما عجيبا عند ذكرنا لمثل هـذه الأحاديث،فقال:فى عقيـدتى أنّ الشـيعه يسـتطيعون أن يثبتوا جميع معتقدات مذهبهم«أصولها و فروعها»من مصادرنا و كتبنا،لأنّ فى كتبنا أحاديث كافيه لصالح آراء الشيعه و صحه مذهبهم.

إلّا أنّه من أجل أن يريـح نفسه من جميع هـذه الكتب،قال:أعتقـد أن أسـلافنا كانوا حسـنى الظن،و قد أوردوا كل ما سـمعوه فى كتبهم،فليس لنا أن نأخذ كل ما أوردوه ببساطه!!«طبعا كان حديثه يشـمل الكتب الصحاح و المسانيد المعتبره و ما هو عندهم فى المرتبه الأولى».

فقلت له:ليس هذا هو الأسـلوب فى التحقيق، حيث يعتقد إنسان ما بمذهـب معين،لأنّ آباءه كانوا عليه و ورثه عن سلفه،فما وجده من حديث ينسـجم و مذهبه قال:إنّه صـحيح،و ما لم ينسجم حكم عليه بعدم الصحه،لأنّ السلف الصالح كان حسن الظن،حتى لو كان الحديث معتبرا.

فمـا أحسن أن نختار أسـلوبا آخر للتحقيق بـدل ذلك،و هو أن نتجرّد من عقيـدتنا الموروثه ثمّ ننتخب الأحاديث الصـحيحه دون تعصب.

و نسـأل الآن:لماذا سـكتوا عن الأحاديث الشـهيره التى تـذكر فضل على و علو مقامه،بل نسوها و ربّما طعنوا فيها،فكأن مثل هـذه الأحاديث لا وجود لها أصلا؟ و مع الالتفات إلى ما ذكرناه آنفا،ننقل كلاما لصاحب تفسير«المنار» المعروف،إذ أهمل شأن نزول الآيـات محـل البحث المـذكور آنفا،و نقل روايه لا تنطبق و محتوى الآيات أصـلا،و ينبغى أن نعـدّها حـديثا مخالفا للقرآن،فقال عنها:

إنّها معتبره!

ص :۵۶۲

و هی ما نقل عن النعمان بن بشیر إذ یقول:کنت جالسا فی عده من أصحاب النّبی إلی جوار منبره،فقال بعضهم:لا أری عملا بعد الإسلام أفضل من سقایه الحاج و إروائهم،و قال الآخر:إنّ عماره المسجد الحرام أفضل من کل عمل،فقال الثالث،فی سبیل اللّه أفضل ممّا قلتما.

فنهاهم عمر عن الکلام و قال:لا ترفعوا أصواتکم عند منبر رسول اللّه-و کان ذلک الیوم یوم الجمعه-و لکنّی سأسأل رسول اللّه بعد الفراغ من الصلاه-صلاه الجمعه-فی ما اختلفتم فیه.

و بعد أن أتمّ صلاته جاء إلی رسول اللّه فسأله عن ذلک، فنزلت الآیات محل البحث (۱) .

إلاّ أنّ هذه الرّوایه لا تنسجم و الآیات محل البحث من عدّه جهات،و نحن نعرف أن کلّ روایه مخالفه للقرآن ینبغی أن تطرح جانبا و یعرض عنها؛لأنّه:

أوّلا:لم یکن فی الآیات محل البحث قیاس ما بین الجهاد و سقایه الحاج و عماره المسجد الحرام،بل القیاس ما بین سقایه الحاج و عماره المسجد الحرام من جهه،و الإیمان باللّه و الیوم الآخر و الجهاد من جهه أخری،و هذا یدل علی أن من کان یقوم بمثل السقایه و العماره فی زمان الجاهلیه کان یقیس عمله بالإیمان و الجهاد.فالقرآن یصرّح بأنّ سقایه الحاج و عماره المسجد الحرام لا یستویان- کل منهما-مع الإیمان باللّه و الجهاد فی سبیله و لیس القیاس بین الجهاد و عمران المسجد و سقایه الحاج(لاحظ بدقه).

ثانیا:إنّ جمله وَ اللّهُ لاٰ یَهْدِی الْقَوْمَ الظّالِمِینَ تدل علی أن أعمال الطائفه الأولی کانت معروفه بالظلم،و إنما یفهم ذلک فیما لو کانت هذه الأعمال صادره فی حال الشرک،لإنّ القرآن یقول إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ (۲) .

ص: ۵۶۳

۱- ۱) تفسیر المنار،ج ۱۰،ص ۲۱۵.

۲- ۲) سوره لقمان:الآیه ۱۳.

و لو كـان القيـاس بين الإيمـان و سـقايه الحـاج المقرونه بالإيمـان و الجهاد، لكانت جمله وَ اللّهُ لاٰ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ لغوا-و العياذ باللّه-لأنّها حينئذ لا مفهوم لها هنا.

ثالثا:إنّ الآيه الثّانيه-محل البحث-التى تقول اَلَّذِينَ آمَنُوا وَ هٰاجَرُوا وَ جٰاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوٰالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً مفهومها أن أولئك أفضل و أعظم درجه ممن لم يؤمنوا و لم يهاجروا و لم يجاهدوا فى سبيل اللّه،و هذا المعنى لا ينسجم و كلام النعمان-آنف الذكر-لأنّ المتكلمين وفقا لحديثه كلهم مؤمنون و لعلهم أسهموا فى الهجره و الجهاد رابعا:كان الكلام فى الآيات المتقدمه عن إقدام المشركين على عماره المساجد و عدم جواز ذلك: مٰا كٰانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسٰاجِدَ اللّهِ و الآيات محل البحث تعقب على الموضوع ذاته،و يدل هذا الأمر على أن موضوع الآيات هو عماره المسجد الحرام و سقايه الحاج حال الشرك،و هذا لا ينسجم و روايه النعمان.

و الشىء الوحيد الذى يمكن أن يستدل عليه هو التعبير ب أَعْظَمُ دَرَجَةً حيث يدل على أن الطرفين المقيسين كل منهما حسن بنفسه،و إن كان أحدهما أعظم من الآخر.

إلاّ أنّ الجواب على ذلك واضح،لأنّ أفعل التفضيل غالبا تستعمل فى الموازنه بين أمرين،أحدهما واجد للفضيله و الآخر غير واجد،كأن يقال مثلا:

الوصول متأخرا خير من عدم الوصول،فمفهوم هذا الكلام لا يعنى أن عدم الوصول شىء حسن،لكن الوصول بتأخير أحسن.

أو أننا نقرأ فى القرآن وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ أى من الحرب[سوره النساء الآيه ۲۸]

فهذا لا يعنى أنّ الحرب شىء حسن.

أو نقرأ مثلا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ [سوره البقره الآيه ۲۲۱]

ترى

هـل المشـرك حسن و فيه خير؟! أو نقرأ في سوره التوبه ذاتها(الآيه ۱۰۸) لَمَسْجِدٌ أَسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ أي أحق من مسجد ضرار الذي بناه المنافقون للعباده،مع أننا نعرف أن العباده في مسجد ضرار ليست بحق أبداً،فنظير هذه التعابير في القرآن و اللغه العربيه،بل في سائر اللغات كثير.

من مجموع ما ذكرناه نستنتج أن روايه النعمان بن بشير لأنّها مخالفه لمحتوى القرآن ينبغي أن تطرح و تنبذ جانبا،و أن نأخذ بما ينسجم و ظاهر الآي، و هو ما قدمناه بين يدي تفسير هذه الآيات،على أنّه سبب لنزولها،و أنّه لفضيله كبرى لإمام الإسلام العظيم علي عليه السلام.

نسأل اللّه أن يثبت أقدامنا على متابعه الحق و أهله من الأئمّه الصالحين،و أن يجنبنا التعصب،و يفتح أبصارنا و أسماعنا و أفكارنا لقبول الحق.

۲-ما هو مقام الرضوان؟

يستفاد من الآيات-محل البحث-أنّ مقام الرضوان الذي هو من أعظم المواهب التي يهبها اللّه المؤمنين و المجاهدين في سبيله،هو شيء غير الجنات و النعيم المقيم و غير رحمته الواسعه.

و سنتناول بيان هذا الموضوع ذيل الآيه(۷۲)من هذه السوره،في تفسير جمله وَ رِضْوانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ إن شاء اللّه.

ص: ۵۶۵

الآیتان [سوره التوبه (۹): الآیات ۲۳ الی ۲۴]

اشاره

یا أَیُّهَا اَلَّذِینَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا آبٰاءَکُمْ وَ إِخْوٰانَکُمْ أَوْلِیٰاءَ إِنِ اِسْتَحَبُّوا اَلْکُفْرَ عَلَی اَلْإِیمٰانِ وَ مَنْ یَتَوَلَّهُمْ مِنْکُمْ فَأُولٰئِکَ هُمُ اَلظّٰالِمُونَ (۲۳) قُلْ إِنْ کٰانَ آبٰاؤُکُمْ وَ أَبْنٰاؤُکُمْ وَ إِخْوٰانُکُمْ وَ أَزْوٰاجُکُمْ وَ عَشِیرَتُکُمْ وَ أَمْوٰالٌ اِقْتَرَفْتُمُوهٰا وَ تِجٰارَةٌ تَخْشَوْنَ کَسٰادَهٰا وَ مَسٰاکِنُ تَرْضَوْنَهٰا أَحَبَّ إِلَیْکُمْ مِنَ اَللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهٰادٍ فِی سَبِیلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّٰی یَأْتِیَ اَللّٰهُ بِأَمْرِهِ وَ اَللّٰهُ لاٰ یَهْدِی اَلْقَوْمَ اَلْفٰاسِقِینَ (۲۴)

التّفسیر

اشاره

کلّ شیء فداء للهدف:

إنّ آخر وسوسه أو ذریعه یمکن أن یتذرع بها جماعه من المسلمین للامتناع عن جهاد المشرکین(و فعلا فقد تذرع بعضهم وفقا لما ورد فی قسم من التفاسیر)بأن من بین المشرکین و عبده الأوثان أقارب لهم،فقد یسلم الأب و یبقی ولده فی الشرک علی حاله،و قد یقع العکس إذ یخطو الابن نحو توحید اللّه و یبقی أبوه مشرکا،و هذه الحاله ربّما کانت موجوده بین الأخ و أحیه،و الزوج

ص: ۵۶۶

و زوجه،و الفرد و عشيرته أو قبيلته،و هكذا.

فإذا كان القرار أن يجاهد الجميع المشركين فلا بدّ أن يغمضوا أعينهم عن أرحامهم و أقاربهم و عشيرتهم إلخ.هذا كلّه من جهه.

ثمّ و من جهه أخرى كانت رؤوس الأموال و القدره التجاريه بيد المشركين تقريبا،و لهذا يسبب تردد المشركين إلى مكّه ازدهار التجاره.

و من جهه ثالثه كان للمسلمين فى مكّه بيوت عامرّه نسبيا،فإذا قاتلوا المشركين فمن المحتمل أن يهدمها المشركون،أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج و مناسكه بمكّه.

فالآيتان-محل البحث-ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشخاص،و تردّان عليهم ببيان صريح،فتقول الآيه الأولى منهما: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاٰ تَتَّخِذُوا آبٰاءَكُمْ وَ إِخْوٰانَكُمْ أَوْلِيٰاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمٰانِ .

ثمّ تعقب-على وجه التأكيد-مضيفه: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُونَ .

و أى ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق و المشركين، و يظلم مجتمعه،و يظلم نبيّه أيضا؟! أمّا الآيه التاليه فهى تتناول هذا الموضوع بنحو من التفصيل و التأكيد و التهديد و التقريع،فتخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعنف أولئك الذين لا يرغبون فى جهاد المشركين لما ذكرناه آنفا،فتقول قُلْ إِنْ كٰانَ آبٰاؤُكُمْ وَ أَبْنٰاؤُكُمْ وَ إِخْوٰانُكُمْ وَ أَزْوٰاجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوٰالٌ اقْتَرَفْتُمُوهٰا وَ تِجٰارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسٰادَهٰا وَ مَسٰاكِنُ تَرْضَوْنَهٰا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهٰادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ .

و لما كان ترجيح مثل هذه الأمور على رضا اللّه و الجهاد فى سبيله،يعدّ نوعا من العصيان و الفسق البيّن،و إن من تشبث قلبه بالدنيا و زخرفها و زبرجها غير جدير بهدايه اللّه،فإنّ الآيه تعقب فى الختام قائله وَ اللّٰهُ لاٰ يَهْدِى الْقَوْمَ

الْفٰاسِقِینَ

.

و قد جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم القمی فی شأن الآیتین ما یلی:«لما أذّن أمیر المؤمنین أن لا یدخل المسجد الحرام مشرک بعد ذلک،جزعت قریش جزعا شدیدا،و قالوا: ذهبت تجارتنا و ضاعت علینا و خربت دورنا،فأنزل اللّه فی ذلک قل (یا محمّد)إلخ...

و الآیتان-محل البحث-ترسمان خطوط الإیمان الأصیل و تمیزانها عن الإیمان المبطن بالشرک و النفاق.

کما أنّهما تضعان حدا فاصلا بین المؤمنین الواقعیین و بین ضعاف الإیمان، و تقول إحداهما بصراحه:إن کانت هذه الأمور الثمانیه«فی الحیاه المادیه»التی یتعلق أربعه منها بالأرحام و الأقارب آبٰاؤُکُمْ وَ أَبْنٰاؤُکُمْ وَ إِخْوٰانُکُمْ وَ أَزْوٰاجُکُمْ .

و یتعلق قسم منها بالمجتمع و«العشیره».

و القسم السّادس یرتبط بالمال.

و السابع بالتجاره و الاکتساب.

و أمّا الثامن-و هو الأخیر-فیتعلق بالمساکن ذات الأناقه«و مساکن ترضونها».

فإذا کانت هذه الأمور الثمانیه-المذکوره آنفا-أغلی و أعزّ و أحب عند الإنسان من اللّه و رسوله،و الجهاد فی سبیله و امتثال أوامره،حتی أن الإنسان لا یکون مستعدا بالتضحیه بتلک الأمور الثمانیه من أجل اللّه و الرّسول و الجهاد، فیتّضح أن إیمانه الواقعی لم یکمل بعد! فحقیقه الإیمان و روحه و جوهره،کل ذلک یتجلّی بالتضحیه بمثل هذه الأمور من دون تردد.

أضف إلی ذلک،فإن من لم یکن مستعدا للتضحیه بمثل تلک الأمور،فقد ظلم

نفسه و مجتمعه فی الواقع،کما أنّه سیقع فی ما کان یخاف من الوقوع فیه لأنّ الأمّه التی تتلکأ فی اللحظات الحساسه من تأریخها المصیری،و فی المـآزق الحاسـمه،فلاـ یضـحی أبناؤها بمثل ذلک،فسـتواجه الهزیمه عاجلا أو آجلا، و سـیتعرض کلّ ما تعلقت القلوب به فلم تجاهد من أجله الی خطر الضیاع و التلف بید الأعداء.

ملاحظات

اشاره

۱-مـا قرأنـاه فی الآـیتین-محـل البحث-لیس مفهومه قطع علائق المحبه بالأرحام،و إهمال رؤوس الأموال الاقتصادیه،و الانسـیاق إلی تجـاوز العواطف الإنسـانیه و إلغائهـا،بل المراد من ذلک أنّه ینبغی أن لا ننحرف عنـد مفترق الطرق إلی الأموال و الأزواج و الأولاـد و الـدور و المقـام الـدنیوی،بحیث لا نطبّق فی تلک الحاله حکم اللّه،أو لا نرغب فی الجهاد،و یحول عشـقنا المادی دون تحقیق الهدف المقدس.

لهذا یلزم علی الإنسان إذا لم یکن علی مفترق الطرق أن یرعی الجانبین «العلاقه باللّه و العلاقه بالرحم».

فنحن نقرأ فی الآیه(۱۵)من سوره لقمان،قوله تعالی فی شأن الأبوین المشـرکین وَ إِنْ جٰاهَدٰاکَ عَلیٰ أَنْ تُشْـرِکَ بِی مٰا لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلاٰ تُطِعْهُمٰا وَ صٰاحِبْهُمٰا فِی الدُّنْیٰا مَعْرُوفاً .

۲-إنّ أحـد تفاسـیر جمله فَتَرَبَّصُوا حَتّٰی یَأْتِیَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ مـا أشـرنا إلیه آنفـا، و هو التهدیـد من قبـل اللّه لأولئک الـذین یقـدّمون منافعهم المادیه و یفضـلونها علی رضا اللّه،و لما کان هـذا التهدید مجملا کان أثره أشدّ وحشه و إشـفاقا،و هذا التعبیر یشـبه قول من یکلم صاحبه الذی دونه و تحت أمره،فیقول له:إذا لم تفعل ما

أمر تک،فسأقوم بما ينبغی أيضا.

و هناک احتمال آخر لتفسير الجمله-محل البحث-و هو أنّ اللّه سبحانه يقول:إذا لم تكونوا مستعدين للتضحيه،فإنّ اللّه يفتح لنبيّه عن طريق آخر.و کيف شاء،إذ ليس ذلک بعسير عليه.و نظير هذا المعنی ما جاء فی الآيه(۵۴)من سوره المائده،إذ نقرأ فيها يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِی اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ .

الماضی و الحاضر مرهونان بهذا الأمر:

۳-قد يتصور بعضهم بأنّ ما جاء فی الآيتين يخص صدر الإسلام و التاريخ الماضی،إلاّ أنّ ذلک خطأ کبير،فالآيتان تستوعبان حاضر المسلمين و مستقبلهم أيضا.

فإذا قدّر للمسلمين أن لا يضحوا بأموالهم و أنفسهم و أولادهم و دورهم إلخ...فی سبيل اللّه،و لا يكون لهم إيمان متين،و يفضلون الأمور الماديه علی رضا اللّه،و تبقی قلوبهم متعلقه بالمال و الأولاد و زبارج الدنيا،فيكون مستقبلهم مظلما،لا مستقبلهم فحسب،بل حتی يومهم هذا،ففی مثل هذا الحال سيحدق بهم الخطر و سيفقدون موروثهم الحضاری،و تكون مصادر حياتهم بأيدی الأجانب و يفقدون معنی الحياه،لأن الحياه هی حياه الإيمان و الجهاد فی ظل الإيمان.

فعلينا أن نغرس مدلول هاتين الآيتين فی قلوب أطفال المسلمين و شبابهم و نجعله شعارا لنا،و نحيی فی نفوس المسلمين روح التضحيه و الجهاد،ليحافظوا علی ثقافتهم و موروثهم المعرفی.

الآيات [سوره التوبه (٩): الآيات ٢٥ الی ٢٧]

اشاره

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اَللّٰهُ فِی مَوٰاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضٰاقَتْ عَلَيْكُمُ اَلْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اَللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى اَلْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا وَ عَذَّبَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذٰلِكَ جَزٰاءُ اَلْكٰافِرِينَ (٢۶) ثُمَّ يَتُوبُ اَللّٰهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ وَ اَللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧)

التّفسير

اشاره

الكثره وحدها لا تجدی نفعا:

فی الآيات المتقدمه رأينا أنّ اللّه سبحانه يدعوا المسلمين إلی التضحيه و الجهاد علی جميع الصعد فی سبيل اللّه و قلع جذور الشرك و عباده الأوثان، و يهدد بشدّه من يتقاعس منهم عن الجهاد و التضحيه بسبب التعلق بالأزواج و الأولاد و الأرحام و العشيره و المال و الثروه.

أمّا الآيات محل البحث فتشير إلی مسأله مهمّه،و هی أنّ علی كل قائد أن ينّبه أتباعه فی اللحظات الحساسه بأنّه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف

ص :٥٧١

الایمان و الذین یحجبهم التعلّق بالمال و الولد و الأزواج و ما إلی ذلک عن الجهاد فی سبیل اللّه،فلا ینبغی أن یقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر،و علیهم أن یواصلوا طریقهم،لأنّ اللّه لم یتخلّ عنهم یوم کانوا قله،کما هو الحال فی معرکه بدر،و لا یوم کانوا کثره-ملء العین(کما فی معرکه حنین)و قد أعجبتهم الکثره فلم تغن عنهم شیئا،لکن اللّه سبحانه أنزل جنودا لم تروها،و عذب الذین کفروا، فاللّه فی الحالین ینصر المؤمنین و یرسل إلیهم مدده...

لهذا فإن الآیه الأولی من الآیات محل البحث تقول لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللّٰهُ فِی مَوٰاطِنَ کَثِیرَهٍ .

و المواطن جمع الموطن،و معناه المحل الذین یختاره الإنسان للسکن الدائم،أو المؤقت،إلاّ أن من معانیه أیضا ساحه الحرب و المعرکه،و ذلک لأنّ المقاتلین یقیمون فی مکان الحرب مدّه قصیره أو طویله أحیانا.

ثمّ تضیف الآیه معقبه وَ یَوْمَ حُنَیْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْکُمْ کَثْرَتُکُمْ و کان جیش المسلمین یوم حنین زهاء اثنی عشر ألفا،و قال بعض المؤرخین:کانوا عشره آلاف أو ثمانیه آلاف،غیر أنّ الرّوایات المشهوره تؤید ما ذکرناه آنفا،إذ تقول:

إنّهم کانوا اثنی عشر ألفا،و هذا الرقم لم یسبق له مثیل فی الحروب الإسلامیه قبل ذلک الحین،حتی اغترّ بعض المسلمین و قالوا:«لن نغلب الیوم».

إلاّ أنّه-کما سنبیّن الموضوع فی الحدیث علی غزوه حنین-قد فرّ کثیر من المسلمین ذلک الیوم،لکونهم جدیدی عهد بالإسلام و لم یتوغل الإیمان فی قلوبهم فانکسر جیش المسلمین فی البدایه و کاد العدوّ أن یغلبهم لولا أن اللّه أنزل بلطفه مدده و جنوده فنجّاهم.

و یصور القرآن هذه الهزیمه بقوله وَ ضٰاقَتْ عَلَیْکُمُ الْأَرْضُ بِمٰا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّیْتُمْ مُدْبِرِینَ .

و فی هـذه اللحظـات الحسـاسه حیث تفرق جیش الإسـلام هنا و هناک،و لم یبق مع النّبی إلاّ القله،و کان النّبی مضـطربا و متألّما جدّا لهذه الحاله نزل التأیید الإلهی: ثُمَّ أَنْزَلَ اللّٰهُ سَکِینَتَهُ عَلیٰ رَسُولِهِ وَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهٰا .

و کما قلنا فی حدیثنا عن غزوه بدر فی ذیل الآیات الخاصّه بها،أن نزول هذه الجنود غیر المرئیه کان لشدّ أزر المسـلمین و تقویه معنویاتهم،و إیجاد روح الثبات و الاسـتقامه فی نفوسـهم و قلوبهم،و لا یعنی ذلک اشتراک الملائکه و القوی الغیبیه فی المعرکه (۱) .

و یذکر القرآن النتیجه النهائیه لمعرکه حنین الحاسمه فیقول وَ عَذَّبَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ذٰلِکَ جَزٰاءُ الْکٰافِرِینَ .

و کان هذا العذاب و الجزاء أن قتل بعض الکافرین،و أسر بعضهم،و فرّ بعضهم إلی مناطق بعیده عن متناول الجیش الاسلامی.

و مع هذا الحال فإنّ اللّه یفتح أبواب توبته للأسری و الفارین من الکفّار الذین یرغبون فی قبول مبدأ الحق«الإسلام»لهذا فإنّ الآیه الأخیره من الآیات محل البحث تقول: ثُمَّ یَتُوبُ اللّٰهُ مِنْ بَعْدِ ذٰلِکَ عَلیٰ مَنْ یَشٰاءُ وَ اللّٰهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ .

و جمله«یتوب»التی وردت بصـیغه الفعل المضارع،و التی تدل علی الاستمرار،مفهومها أن أبواب التوبه و الرجوع نحو اللّه مفتوحه دائما بوجه التائبین.

۱- ۱) لمزید من الإیضاح یراجع تفسیر الآیات ۹-۱۲ من هذا الجزء نفسه.

ملاحظات

اشاره

۱-غزوه حنین ذات العبره

«حنین»منطقه قریبه من الطائف،و بما أنّ الغزوه وقعت هناک فقد سمّیت باسم المنطقه ذاتها،و قد عبّر عنها فی القرآن ب«یوم حنین»و لها من الأسماء- غزوه أوطاس،و غزوه هوازن أیضا.

أمّا تسمیتها بأوطاس،فلأن«أوطاس»أرض قریبه من مکان الغزوه-و أمّا تسمیتها بهوازن،فلأن إحدی القبائل التی شارکت فی غزوه حنین تدعی بهوازن.

أمّا کیف حدثت هذه الغزوه،فبناء علی ما ذهب إلیه ابن الأثیر فی الکامل، أن هوازن لمّا علمت بفتح مکّه،جمع القبیله رئیسها مالک بن عوف و قال لمن حوله:من الممکن أن یغزونا محمّد بعد فتح مکّه،فقالوا:من الأحسن أن نبدأه قبل أن یغزونا.

فلما بلغ ذلک النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر المسلمین أن یتوجهوا إلی أرض هوازن (۱) .

و بالرغم من عدم الاختلاف بین المؤرخین فی شأن هذه الغزوه و المسائل العامّه فیها،إلّا أنّ فی جزئیاتها روایات متعدده لا یکاد بعضها ینسجم مع الآخر، و ما ننقله هنا فقد اقتضبناه عن مجمع البیان للعلامه الطبرسی،بناء علی روایته القائله:إنّ رؤساء طائفه هوازن جاءوا إلی مالک بن عوف و اجتمعوا عنده فی أخریات شهر رمضان أو شوال فی السنه الثامنه للهجره،و کانوا قد جاءوا بأموالهم و أبنائهم و أزواجهم لئلا یفکر أحدهم بالفرار حال المعرکه،و هکذا فقد وردوا منطقه أوطاس.

فعقد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لواءه،و سلمّه علیّا علیه السلام و أمر حمله الرایات الذین ساهموا فی فتح مکّه أن یتوجهوا برایاتهم ذاتها مع علی بن أبی طالب إلی حنین،و اطّلع

۱- ۱) راجع الکامل لابن الأثیر،ج ۲،ص ۲۶۱،نقلنا القصه بشیء من الاختصار.

النّبی أن صفوان بن أمیه لدیه دروع کثیره،فأرسل النّبی إلیه أن أعرنا مائه درع، فقال صفوان:أ تریدونها عاریه أم غصبا؟ فقال النّبی:بل عاریه نضمنها و نعیدها سالمه إلیک،فأعطی صفوان النّبی مائه درع علی أنّها عاریه،و تحرک مع النّبی بنفسه إلی حنین.

و کان ألفا شخص قد أسلم فی فتح مکّه،فأضیف عددهم إلی العشره آلاف الذین ساهموا فی فتح مکّه،و صاروا حوالی اثنی عشر ألفا،و تحرکوا نحو حنین.

فقال مالک بن عوف-و کان رجلاـ جریئا شهما-لقبیلته:اکسروا أغماد سیوفکم،و اختبئوا فی کهوف الجبال و الودیان و بین الأشجار،و اکمنوا لجیش الإسلام،فإذا جاءوکم الغداه«عتمه»فاحملوا علیهم و أبیدوهم.

ثمّ أضاف مالک بن عوف قائلا:إن محمّدا لم یواجه حتی الآن رجال حرب شجعانا،لیذوق مراره الهزیمه!! فلما صلّی النّبی صلاه الغداه«الصبح»بأصحابه أمر أن ینزلوا إلی حنین، ففوجئوا بهجوم هوازن علیهم من کل جانب وصوب،و أصبح المسلمون مرمی لسهامهم،ففرّت طائفه من المقاتلین جدیدی الإسلام(بمکّه)من مقدمه الجیش، فکان أن ذهل المسلمون و اضطروا و فرّ الکثیر منهم.

فخلّی اللّه بین جیش المسلمین و جیش العدو،و ترک الجیشین علی حالهما، و لم یحم المسلمین لغرورهم-مؤقتا-حتی ظهرت آثار الهزیمه فیهم.

إلاّـ أنّ علیّا حامل لواء النّبی بقی یقاتل فی عدّه قلیله معه، و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی(قلب)الجیش و حوله بنو هاشم،و فیهم عمه العباس،و کانوا لا یتجاوزون تسعه أشخاص عاشرهم أیمن ابن أم أیمن.

فمرّت مقدمه الجیش فی فرارها من المعرکه علی النّبی فأمر النّبی عمّه العباس-و کان جهیر الصوت-أن یصعد علی تل قریب و ینادی فورا:یا معشر المهاجرین و الأنصار،یا أصحاب سوره البقره،یا أهل بیعه الشجره،إلی أین

تفرّون؟هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فلمّا سمع المسلمون صوت العباس رجعوا و قالوا:لبيّك لبيّك،و لا سيما الأنصار إذ عادوا مسرعين و حملوا على العدوّ من كل جانب حمله شديده، و تقدّموا بأذن اللّه و نصره،بحيث تفرقت هوازن شذر مذر مذعوره،و المسلمون ما زالوا يحملون عليها.فقتل حوالى مائه شخص من هوازن،و غنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّه منهم (۱) .

و نقرأ فى نهايه هذه الحادثه التأريخيه أن ممثلى هوازن جاءوا النّبى و أعلنوا إسلامهم،و أبدى لهم النّبى صفحه و حبّه،كما أسلم مالك بن عوف رئيس القبيله، فردّ النّبى عليه أموال قبيلته و أسراه،و صيره رئيس المسلمين فى قبيلته أيضا.

و الحقيقه أنّ السبب المهم فى هزيمه المسلمين بادئ الأمر-بالإضافه إلى غرورهم لكثرتهم-هو وجود ألفى شخص ممن أسلم حديثا و كان فيهم جماعه من المنافقين طبعا،و آخرون كانوا قد جاءوا مع النّبى لأخذ الغنائم،و جماعه منهم كانوا بلا هدف،فأثر فرار هؤلاء فى بقيه الجيش.

أمّا السرّ فى انتصارهم النهائى فهو وقوف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على عليه السّلام و جماعه قليله من الأصحاب،و تذكرهم عهودهم السابقه و إيمانهم باللّه و الركون إلى لطفه الخاص و نصره.

۲-من هم الفارّين

ممّا لا شك فيه أنّ الأكثريه الساحقه فرّب بادئ الأمر من ساحه المعركه، و ما تبقى منهم كانوا عشره فحسب،و قيل أربعه عشر شخصا،و أقصى ما أوصل عددهم المؤرخون لم يتجاوزوا مائه شخص.

و لما كانت الرّوايات المشهوره تصّرح بأن من بين الفارين الخلفاء الثلاثه،

۱- ۱) مجمع البيان،ج ۵،ص ۱۷-۱۹.

فإنّ بعض المفسّرين سعى لأن يعدّ هذا الفرار أمرا طبيعيا.

يقول صاحب تفسير المنار ما ملخصه:لما رشق العدوّ المسلمين بسهامه، كان جماعه قد التحقوا بالمسلمين من مكّه،و فيهم المنافقون و ضعاف الإيمان و الطامعون«للغنائم»ففرّ هؤلاء جميعا و تقهقروا إلى الخلف،فاضطرب باقى الجيش طبعا،و حسب العاده-لا خوفا-فقد فرّوا أيضا،و هذا أمر طبيعى عند فرار طائفه فإنّه يتزلزل الباقى منهم فيفر أيضا-ففرارهم لا يعنى ترك النّبى و عدم نصرته أو تسليمه بيد عدوه،حتى يستحقوا غضب اللّه!! (۱) و نحن لا نعلّق على هذا الكلام،لكن نتركه للقراء ليحكموا فيه حكمهم.

كما ينبغى أن نذكر هذه المسأله و هى أنّ«صحيح البخارى»حين يتكلم عن الهزيمه و فرار المسلمين ينقل ما يلى:

فإذا عمر بن الخطاب فى الناس،و قلت:(الراوى):ما شأن الناس؟قال:أمر اللّه،ثمّ تراجع الناس إلى رسول اللّه (۲) .

غير أننا تجرّدنا من الأحكام المسبقه،و التفتنا إلى القرآن الكريم،وجدناه لا يذم جماعه بعينها،بل يذم جميع الفارين.

و لا ندرى ما الفرق بين قوله تعالى ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ حيث قرأنا هذه العباره فى الآيات محل البحث،و بين عباره أخرى وردت فى الآيه(۱۶)من سوره الأنفال إذ تقول وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللّهِ ؟! فبناء على ذلك لو ضممنا الآيتين بعضهما إلى بعض لعرفنا أنّ المسلمين ارتكبوا خطأ كبيرا يومئذ إلاّ القليل منهم،غايه ما فى الأمر أنّهم تابوا بعدئذ و رجعوا.

۱- ۱) راجع تفسير المنار،و إقرار التفصيل فيه،ج ۱،الصفحات ۲۶۲ و ۲۶۳ و ۲۶۵.

۲- ۲) المصدر السابق.

۳-الإيمان و السكينه

السـكينه فى الأصل مأخوذه من السـكون،و تعنى نوعا من الهـدوء أو الاطمئنان الـذى يبعد كل نوع من أنواع الشك و الخوف و القلق و الاستيحاش عن الإنسان،و يجعله راسخ القدم بوجه الحوادث الصـعبه و الملتويه.و السكينه لها علاقه قربى بالإيمان،أى أنّ السـكينه وليـده الإيمان،فالمؤمنون حين يتـذكرون قدره اللّه التى لا غايه لها،و يتصورون لطفه و رحمته يملأ قلوبهم موج الأمل و يغمرهم الرجاء.

و ما نراه من تفسير السكينه بالإيمان فى بعض الرّوايات (۱) ،أو بنسيم الجنّه متمثلا فى صوره إنسان (۲) كل ذلك ناظر إلى هذا المعنى.

و نقرأ فى القرآن فى الآيه(۴)من سوره الفتح قوله تعالى: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ السَّکِینَهَ فِی قُلُوبِ الْمُؤْمِنِینَ لِیَزْدٰادُوا إِیمٰاناً مَعَ إِیمٰانِهِمْ .

و على كل حال فهذه الحاله نفسـيه خارقه للعاده،و موهبه إلهيه بحيث يستطيع الإنسان أن يهضم الحوادث الصعبه،و أن يحس فى نفسه عالما من الدعه و الاطمئنان برغم كلّ ما يراه.

و ممّـا يسترعى النظر أن القرآن-فى الآيـات محل البحث-لا يقول:ثمّ أنزل اللّه سـكينته على رسوله و عليكم،مع أنّ جميع الجمل فى الآيه تحتوى على ضـمير الخطاب(كم)،بل تقول الآيه عَلىٰ رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ و هى إشاره إلى أن المنافقين و أهل الدنيا و الذين كانوا مع النّبى فى المعركه لم ينالوا سهما من السكينه و الاطمئنان،بل كانت السكينه من نصيب المؤمنين فحسب.

و نقرأ فى بعض الرّوايات أن نسيم الجنّه هذا كان مع أنبياء اللّه و رسله (۳) ،

۱- ۱) تفسير البرهان،ج ۲،ص ۱۱۴.

۲- ۲) تفسير نور الثقلين،ج ۲،ص ۲۰۱.

۳- ۳) تفسير البرهان،ج ۲،ص ۱۱۲.

فلذلک کانوا-فی الحوادث الصعبه التی یفقد فیها کل إنسان توازنه إزاءها-أصحاب عزم راسخ و سکینه و اطمئنان،و إراده حدیدیه لا تقبل التزلزل.

و کان نزول السکینه علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی معرکه حنین-کما ذکرنا آنفا-لرفع الاضطراب الناشئ من فرار أصحابه من المعرکه،و إلاّ فهو کالجبل الشامخ الرکین،و کذلک ابن عمّه علی علیه السلام و قله من أصحابه(المسلمین).

۴-فی الآیات محل البحث إشاره إلی أنّ اللّه نصر المسلمین فی مواطن کثیره! هناک کلام کثیر بین المؤرخین حول عدد مغازی النّبی و حروبه،التی أسهم فیها صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شخصیّا،و قاتل الأعداء،أو حضرها دون أن یقاتل بنفسه،أو الحروب التی وقف فیها المسلمون بوجه أعدائهم و لم یکن الرّسول حاضرا فی المعرکه.

إلاّ أنّه یستفاد من بعض الرّوایات التی وصلتنا عن طرق أهل البیت علیهم السّلام أنّها تبلغ الثمانین غزوه.

و قد ورد فی کتاب(الکافی)أن أحد خلفاء بنی العباس کان قد نذر مالا کثیرا إن هو عوفی من مرضه«و یقال أنّه قد سمّ»،فلما عوفی جمع الفقهاء الذین کانوا عنده،فسألهم عن المال الذی یجب أداؤه لإیفاء نذره،فلم یعرفوا للمسأله جوابا.و أخیرا سأل الخلیفه العباسی الإمام التاسع محمّد بن علی الجواد علیه السلام

فقال:

«الکثیر ثمانون».

فلمّا سألوه عن دلیله فی ذلک استشهد الإمام بالآیه لَقَدْ نَصَرَکُمُ اللّهُ فِی مَوٰاطِنَ کَثِیرَهٍ ثمّ قال:عددنا حروب النّبی التی انتصر فیها المسلمون علی أعدائهم فکانت ثمانین (۱) .

۵-إن ما ینبغی علی المسلمین أن یعتبروا به و یلزمهم أن یأخذوا منه درسا

۱- ۱) تفسیر نور الثقلین،ج ۲،ص ۱۹۷.

بليغـا،هو أن ينظروا إلى الحوادث التى هى على شـاكله حـادثه حنين،فلاـ يغتروا بكثره العـدد أو العـدد،فـالكثره وحـدها لاـ تغنى شيئا،بل المهم فى الأمر وجود المؤمنين الراسخين فى الإيمان،ذوى الإراده و التصميم،حتى لو كانوا قله.

كمـا أنّ طـائفه قليله اسـتطاعت أن تغير هزيمه حنين إلى انتصـار على العـدو و كـانت الكثيره بـادئ الأـمر سـبب الهزيمه،لأنّها لم تنصهر بالإيمان تماما.

فـالمهم أن يتوفر فى مثـل هـذه الحوادث أنـاس مؤمنون ذوو اسـتقامه و تضـحيه،لتكون قلوبهم مركزا للسـكينه الإـلهيه،و ليكونوا كالجبال الراسخه بوجه الأعاصير المدمره.

ص :۵۸۰

الآیه [سوره التوبه (٩): آیه ٢٨]

اشاره

يٰا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا اَلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاٰ يَقْرَبُوا اَلْمَسْجِدَ اَلْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اَللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شٰاءَ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

التّفسیر

اشاره

لا یحقّ للمشرکین أن یدخلوا المسجد الحرام:

قلنا:إن واحدا من الأمور الأربعه التی بلّغها الإمام علی علیه السلام فی موسم الحج فی السنه التاسعه للهجره،هو أنّه لا یحق لأحد من المشرکین دخول المسجد الحرام،أو الطواف حول البیت،فالآیه محل البحث تشیر إلی هذا الموضوع و حکمته،فتقول أوّلا: يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاٰ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرٰامَ بَعْدَ عٰامِهِمْ هٰذٰا .

و هل الآیه هذه دلیل علی نجاسه المشرک بالمفهوم الفقهی،أو لا؟! هناک کلام بین الفقهاء و المفسّرین،و من أجل تحقیق معنی الآیه یلزمنا التحقیق فی کلمه«نجس»قبل کل شیء...

«النجس»علی زنه«الهوس»کلمه ذات معنی مصدری،و تأتی للتأکید و المبالغه و الوصف.

یقول الراغب فی مفرداته:إنّ النجاسه و النجس یطلقان علی کل قذاره،و هی

على نوعين:قذاره حسيه،و قذاره باطنيه.

و يقول الطبرسى فى مجمع البيان:كل ما ينفر منه الإنسان يقال عنه:إنّه نجس.

فلذلك فإنّ كلمه نجس تستعمل فى موارد كثيره-حتى فى ما لا مفهوم للنجاسه الظاهريه فيه-فمثلا يسمّى العرب الأمراض الصعبه المزمنه أو التى لا علاج لها ب«النجس»كما يطلق على الشخص الشّرير،أو الساقط خلقيا،أو الشيخ الهرم،أنّه نجس.

و من هنا يتّضح أنّه مع ملاحظه ما جاء فى الآيه-محل البحث-لا يمكن الحكم بأنّ إطلاق كلمه نجس على المشركين تعنى أن أجسامهم قذره كقذاره البول و الدم و الخمر و ما إلى ذلك أو لعقيدتهم«الوثنيه»فهى قذاره باطنيه، و من هنا لا يمكن الاستدلال بهذه الآيه على نجاسه الكفار،بل ينبغى البحث عن أدله أخرى.

ثمّ تعقب الآيه على ذوى النظره السطحيه الذين كانوا يزعمون بأن المشركين إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم و غدوا فقراء معوزين فتقول وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ .

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه،فباتساع رقعه الإسلام فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ سيل الزائرين يتجه نحو بيت اللّه فى مكّه،و ما زال هذا الأمر مستمرا حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكّه فى أحسن الظروف فهى بين سلسله جبال صخريه لا ماء فيها و لا زرع،لكنّها مدينه عامره،و قد صارت بإذن اللّه مركزا مهما للبيع و الشراء التجاره.

و يضيف القرآن فى نهايه الآيه قائلا: إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فكل ما يأمركم به اللّه فهو وفق حكمته،و هو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبليه، و هو خبير بذلك.

الآیه [سوره التوبه (۹): آیه ۲۹]

اشاره

قَاتِلُوا اَلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لاَ بِالْيَوْمِ اَلْآخِرِ وَ لاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اَللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لاَ يَدِينُونَ دِينَ اَلْحَقِّ مِنَ اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا اَلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صَاغِرُونَ (۲۹)

التّفسیر

اشاره

مسئولیتنا إزاء أهل الکتاب:

کان الکلام فی الآیات السابقه عن وظیفه المسلمین إزاء المشرکین،أمّا الآیه -محل البحث(و ما یلیها من الآی)-فتبیّن تکلیف المسلمین و وظیفتهم إزاء أهل الکتاب.

و فی هذه الآیات جعل الإسلام لأهل الکتاب سلسله من الأحکام تعدّ حدّا وسطا بین المسلمین و الکفار،لأنّ أهل الکتاب من حیث اتّباعهم لدینهم السماوی لهم شبه بالمسلمین،إلّا أنّهم من جهه أخری لهم شبه بالمشرکین أیضا.

و لهذا فإنّ الإسلام لا یجیز قتلهم،مع أنّه یجیز قتل المشرکین الذین یقفون بوجه المسلمین،لأنّ الخطه تقضی بقلع جذور الشرک و الوثنیه من لکره الأرضیه،غیر أنّ الإسلام یسمح بالعیش مع أهل الکتاب فی صوره ما لو احترم

أهل الكتاب الإسلام،و لم يتآمروا ضده،أو يكون لهم إعلام مضاد.

و العلامه الأخرى لموافقتهم على الحياه المشتركه السلميه مع المسلمين هى أن يوافقوا على دفع الجزيه للمسلمين،بأن يعطوا كل عام إلى الحكومه الاسلاميه مبلغا قليلا من المال بحدود و شروط معينه سنتناولها فى البحوث المقبله إن شاء اللّه.

و فى غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم،و يوضح القرآن دليل شده هذا الحكم فى جمل ثلاث فى الآيه محل البحث:

إذ تقول الآيه أوّلا: قٰاتِلُوا الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَ لاٰ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ .

لكن كيف لا يؤمن أهل الكتاب-كاليهود و النصارى-باللّه و باليوم الآخر،مع أننا نراهم فى الظاهر يؤمنون باللّه و يقرون بالمعاد أيضا؟ و الجواب:لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات و الأوهام،أمّا فى مسأله الإيمان بالمبدأ و حقيقه التوحيد،فلأنّه:

أوّلا:يعتقد طائفه من اليهود-كما سنرى ذلك فى الآيات المقبله-أن عزيرا ابن اللّه،كما يتعقد المسيحيون عامّه بألوهيه المسيح و التثليث[اللّه و الابن و روح القدس]

.

و ثانيا:كما يشار إليه فى الآيات المقبله،فانّ كلّا من اليهود و النصارى مشركون فى عبادتهم،و يعبدون أحبارهم-عمليّا-و يطلبون منهم العفو و الصفح عن الذنب،و هذا ممّا يختصّ به اللّه،مضافا إلى تحريف الأحكام الإلهيه بصوره رسميه.

و أمّا إيمانهم بالمعاد فإيمان محرّف،لأنّ المعاد كما يستفاد من كلامهم منحصر بالمعاد الروحانى،فبناء على ذلك فإنّ إيمانهم بالمبدأ مخدوش، و إيمانهم بالمعاد كذلك.

ثمّ تشير الآيه إلى الصفه الثّانيه لأهل الكتاب،فتقول: وَ لاٰ يُحَرِّمُونَ مٰا حَرَّمَ

ص :۵۸۴

اللّهُ وَ رَسُولُهُ

.

و من الممكن أن يكون المراد من كلمه«رسوله»نبيّهم موسى أو عيسى عليهما السّلام، لأنّهم لم يكونوا أوفياء لأحكام دينهم،و كانوا يرتكبون كثيرا من المحرمات الموجوده فى دين موسى أو عيسى،و لا يقتصرون على ذلک فحسب،بل كانوا يحكمون بحليتها أحيانا.

و يمكن أن يكون المراد من«رسوله»نبىّ الإسلام محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،أى إنّما أمر المسلمون بمقاتله اليهود و النصارى و جهادهم إيّاهم،لأنّهم لم يذعنوا لما حرّمه اللّه على يد نبيّه،و ارتكبوا جميع أنواع الذنوب.

و هذا الاحتمال يبدو أقرب للنظر،و الشاهد عليه الآيه(٣٣)من هذه السوره ذاتها،و سنقف على تفسيرها قريبا،إذ تقول: هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدیٰ وَ دِینِ الْحَقِّ .

أضف إلى ذلک حين ترد كلمه(رسوله)فى القرآن مطلقه فالمراد منها النّبى (محمّد)صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لو سلّمنا بأنّ المراد من(رسوله)هنا نبيّهم،فكان ينبغى أن تكون الكلمه (تثنيه)أو جمعا،كما جاء فى الآيه(١٣)من سوره يونس وَ جٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنٰاتِ و نظير هذا التعبير فى القرآن ملحوظ و يمكن أن يقال:إنّ الآيه فى هذه الصوره ستكون من باب تحصيل الحاصل أو توضيح الواضح،لأن من البديهى أن غير المسلمين لا يحرمون ما حرمه الإسلام.

لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ المراد من هذه الصفات هو بيان عله جواز جهاد المسلمين اليهود و مقاتلتهم إيّاهم.أى يجوز أن تجاهدوا اليهود و النصارى-لأنّهم لا يحرمون ما حرم الإسلام ارتكبوا كثيرا من الآثام-إذا واجهوكم و خرجوا عن كونهم أقليه مسالمه.

و تذكر الآيه الصفه الثّالثه التى كانوا يتصفون بها فتقول: وَ لاٰ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ .

و يوجد احتمالان فى هذه الجمله أيضا،إلاّ أنّ الظاهر أنّ المراد من دين الحق هو دين الإسلام المشار إليه بعد بضع آيات.

و ذكر هذه الجمله بعد عدم اعتقادهم بالمحرمات الإسلاميه،هو من قبيل ذكر العام بعد الخاص،أى أن الآيه أشارت أوّلا إلى ارتكابهم لمحرمات كثيره، و هى محرّمات تلفت النظر كشرب الخمر و الربا و أكل لحم الخنزير،و ارتكاب كثير من الكبائر التى كانت تتسع يوما بعد يوم.

ثمّ تقول الآيه:إن هؤلاء لا يدينون بدين الحق أساسا،أى أن أديانهم منحرفه عن مسيرها الأصيل،فنسوا كثيرا من الحقائق و التزموا بكثير من الخرافات مكانها،فعليهم أن يتقبلوا الإسلام،و أن يعيدوا بناء أفكارهم من جديد على ضوء الإسلام و هداه،أو يكونوا مسالمين-على الأقل-فيعيشوا مع المسلمين،و أن يقبلوا شروط الحياه السلميه مع المسلمين.

و بعد ذكر هذه الأوصاف الثلاثه،التى هى فى الحقيقه المسوغ لجهاد المسلمين لأهل الكتاب،تقول الآيه مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰابَ .

و كلمه«من»فى الآيه بيانيه لا تبعيضيه،و بتعبير آخر: إنّ القرآن يريد أن يقول:إن أهل الكتاب السابقين-و للأسف-لا يدينون بدين الحق و انحرفوا عن المعتقدات الصحيحه،و هذا الحكم يشملهم جميعا.

ثمّ تبيّن الآيه الفرق بين أهل الكتاب و المشركين فى مقاتلتهم،بالجمله التاليه حَتّٰى يُعْطُوا الْجِزْيَهَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صٰاغِرُونَ .

«و الجزيه»مأخوذه من ماده الجزاء،و معناها المال المأخوذه من غير المسلمين الذين يعيشون فى ظلّ الحكومه الإسلاميه،و هذه التسميه لأنّها جزاء حفظ أموالهم و أرواحهم(هذا ما يستفاد من كلام الراغب فى مفرداته فلا بأس

بمراجعتها).

«و الصاغر»مأخوذ من«الصغر»على زنه«الكبر»و خلاف معناه،و معناه الراضى بالذله.و المراد من الآيه أن الجزيه ينبغى أن تدفع فى حال من الخضوع للإسلام و القرآن.

و بتعبير آخر:هى علامه الحياه السلميه،و قبول كون الدافع للجزيه من الأقليه المحفوظه و المحترمه بين الأكثريه الحاكمه.

و ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ المراد من الجزيه فى الآيه هو تحقير أهل الكتاب و إهانتهم و السخر منهم،فلا يستفاد ذلك من المفهوم اللغوى لكلمه الآيه،و لا ينسجم و روح تعاليم الإسلام السمحه،و لا ينطبق مع سائر التعاليم أو الدستور الذى وصلنا فى شأن معامله الأقليات.

و ما ينبغى التنويه به هنا هو أنّ الآيه و إن ذكرت شرط«الجزيه»من بين شروط الذمه فحسب،إلّا أن التعبير ب هُمْ صٰاغِرُونَ إشاره إجماليه إلى سائر شروط الذمّه،لأنّه يستفاد من هذه الجمله بأنّهم-مثلا-يعيشون فى محيط إسلامى،فليس لهم أن يظاهروا أعداء الإسلام،و لا يكون لهم إعلام مضاد للإسلام، و لا يقفوا حجر عثره فى رقيه و تقدمه،و ما إلى ذلك،لأنّ هذه الأمور تتنافى و روح الخضوع و التسليم للإسلام و التعاون مع المسلمين.

ما هى الجزيه؟!

تعدّ الجزيه ضريبه ماليه«إسلاميه»و هى تتعلق بالأفراد لا بالأموال و لا بالأراضى،أو بتعبير آخر:هى ضريبه ماليه سنويه على الرؤوس.

و يعتقد بعضهم أنّها ليست من أصل عربى،بل هى فارسيه قديمه و أصلها «كزيت»و معناها الأموال التى تؤخذ للدعم العسكرى،أو ما يصطلح عليه فى عصرنا ب«المجهود الحربى».لكن الكثير يعتقدون أن هذه الكلمه«الجزيه»

عربيه خالصه.

و كما ذكرنا آنفا فهى مأخوذه من الجزاء،لأنّ الضريبه التى تدفع،إنّما هى جزاء الأمن الذى توفره الحكومه الإسلاميه للأقليات المذهبيه.

و الجزيه،كانت قبل الإسلام،و يعتقد بعضهم أن أوّل من أخذ الجزيه هو كسرى أنوشروان الملك الساسانى،و لو لم نسلّم بأنّه الأوّل فلا- أقل من أن أنوشروان كان يأخذ من أبناء وطنه الجزيه،و كان يأخذ ممن لم يكن موظفا فى الدوله و عمره أكثر من عشرين عاما و أقل من خميس عاما،مبلغا سنويا يتراوح بين ۱۲ و ۸ و ۶ و ۴ درهم،على أنّه ضريبه سنويه على كل فرد.

و ذكروا أن فلسفه هذه الضرائب أو حكمتها هى الدفاع عن موجوديه الوطن و استقلاله و أمنه،و هى وظيفه عامّه على جميع الناس،فبناء على ذلك متى ما قام جماعه فعلا- بالمحافظه على الوطن و لم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن،لأنّهم يكتسبون و يتّجرون-مثلا-فإن على الجماعه الثّانيه أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنويه للدوله.

و ما لدينا من القرائن يؤيد فلسفه الجزيه...سواء قبل الإسلام أو بعده.

فمسأله السنّ فى من يعطى الجزيه فى عصر أنوشروان الذى ذكرناه آنفا «و هى أنّ الجزيه تقع على من عمره عشرون عاما إلى خميس عاما»دليل واضح على هذا المطلب،لأنّ أصحاب هذه المرحله،من العمر كانوا قادرين على حمل السلاح و المساهمه فى الحفاظ على أمن البلاد،إلاّ أنّهم كانوا يدفعون الجزيه لأعمالهم و كسبهم.

و الشاهد الآخر على ذلك أنّه لا تجب الجزيه«فى الإسلام»على المسلمين، لأنّ الجهاد واجب عليهم جميعا،و عند الضروره يجب على الجميع أن يتجهوا نحو ساحات القتال ليقفوا بوجه العدوّ،إلاّ أنّه لما كانت الأقليات المذهبيه فى حلّ من أمر الجهاد،فعليها أن تدفع المال مكان الجهاد،ليكون لهم نصيب فى

الحفاظ على أمن الوطن الذى يتمتعون بالحياه فيه.

ثمّ إن سقوط الجزيه عن الأطفال و الشيوخ و المقعدين و النساء و العمى،دليل آخر على هذا الموضوع.

ممّا ذكرناه يتّضح أن الجزيه إعانه ماليه فحسب،يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحمله المسلمون من مسئوليه فى الحفاظ عليهم و على أموالهم.

فبناء على ذلك فإنّ من يزعم أنّ الجزيه نوع من أنواع حق التسخير،لم يلتفت إلى روحها و حكمتها و فلسفتها،و هى أن أهل الكتاب متى دخلوا فى أهل الذمه فإنّ الحكومه الإسلاميه يجب عليها أن ترعاهم و تحافظ عليهم و تمنعهم من كل أذى أو سوء.و هكذا فإنّ أهل الذمه عند دفعهم الجزيه،بالإضافه إلى التمتع بالحياه مع المسلمين فى راحه و أمان فليس عليهم أى تعهد من المساهمه فى القتال مع المسلمين و فى جميع الأمور الدفاعيه-و يتّضح أن مسئوليتهم إزاء الحكومه الإسلاميه أقل من المسلمين بمراتب.

أى أنّهم يتمتعون بجميع المزايا فى الحكومه الإسلاميه بدفعهم مبلغا ضئيلا، و يكونون سواء هم و المسلمون.فى حين أنّهم لا يواجهون الأخطار و مشاكل الحرب.

و من الادله التى تؤيد فلسفه هذا الموضوع،أنّه فى المعاهدات التى كانت- فى صدر الإسلام بين المسلمين و أهل الكتاب فى شأن الجزيه،تصريح بأنّ على أهل الكتاب أن يدفعوا الجزيه،و فى قبال ذلك على المسلمين أن يمنعوهم(أى يحفظوهم)و أن يدافعوا عنهم إذا داهمهم العدو الخارجى.

و هذه المعاهدات كثيره،و نورد مثلا منها،و هى المعاهده التى تمت بين خالد بن الوليد مع المسيحيين الذين كانوا يقطنون حول«الفرات»:

نص كتاب المعاهده:

«هـذا كتاب من خالـد بن الوليد لصـلوبا بن نسـطونا و قومه،إنى عاهدتكم على الجزيه و المنعه،فلك الذّمه و المنعه،و ما منعناكم فلنا الجزيه و إلّا فلا،كتب سنه اثنتى عشره فى صفر» (۱) .

و الـذى يسترعى النظر هو أننـا نقرأ فى هـذه المعاهـده و أمثالهـا أنّه متى مـا قصّر المسلمون فى الحفـاظ على أهل الـذمه أو لم يمنعوهم،فالجزيه تعاد إليهم أو لا تؤخذ منهم عندئذ أصلا.

و ينبغى الالتفـات إلى أنّ الجزيه ليس لهـا مقـدار معين و ميزانها بحسب اسـتطاعه من تجب عليهم،غير أنّ المسـتفاد من التواريخ أنّها عباره عن مبلغ ضـئل قـد لا يتجاوز الـدينار (۲) فى السـنه،و ربّما قيـد فى المعاهـده أن على دافعى الجزيه أن يـدفعوا بمقدار استطاعتهم جزيه.

و من جميع مـا تقـدم ذكره يتّضـح أنّ جميع ما أثير من شـبهات أو إشـكالات فى هـذا الصـدد،باطل لا اعتبار له،و يثبت أن هـذا الحكم الإسلامى حكم عادل و منصف.

ص: ۵۹۰

۱- ۱) نقلا عن تفسير المنار،ج ۱۰،ص ۲۹۴.

۲- ۲) من المنـاسب أن أشـير إلى أن المقصود بالـدينار ليس هو الـدينار المتعـارف بينا كالـدينار العراقى أو الـدينار الأردنى أو الدينار الكويتى و هلّم جرا،بل هو الدينار الذهبى الذى يعادل مثقالا و نصف أو أدنى من ذلك بقليل.

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

ص :

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ يَسْتَوِی الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ۹

المقدمة:

تأسّس مركز القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان بإشراف آیة الله الحاج السید حسن فقیه الإمامی عام ۱۴۲۶ الهجری فی المجالات الدینیة والثقافیة والعلمیة معتمداً علی النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائیین والمثقفین فی الجامعات والحوزات العلمیة.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلة المراکز القائمة بتوفیر المصادر فی العلوم الإسلامیة وتبعثرها فی أنحاء البلاد وصعوبة الحصول علی مصادرها أحیاناً، تهدف مؤسسة القائمیة للدراسات الکمبیوتریة فی أصفهان إلی التوفیر الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلی الباحثین فی العلوم الإسلامیة وتقدم المؤسسة مجاناً مجموعة الکترونیة من الکتب والمقالات العلمیة والدراسات المفیدة وهی منظمة فی برامج إلکترونیة وجاهزة فی مختلف اللغات عرضاً للباحثین والمثقفین والراغبین فیها.

وتحاول المؤسسة تقدیم الخدمة معتمدة علی النظرة العلمیة البحتة البعیدة من التعصبات الشخصیة والاجتماعیة والسیاسیة والقومیة وعلی أساس خطة تنوی تنظیم الأعمال والمنشورات الصادرة من جمیع مراکز الشیعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامیة وتعالیم القرآن وآل بیت النبیّ علیهم السلام

تحفیز الناس خصوصا الشباب علی دراسة أدقّ فی المسائل الدینیة

تنزیل البرامج المفیدة فی الهواتف والحاسوبات واللابتوب

الخدمة للباحثین والمحققین فی الحوازت العلمیة والجامعات

توسیع عام لفکرة المطالعة

تهمید الأرضیة لتحریض المنشورات والکتّاب علی تقدیم آثارهم لتنظیمها فی ملفات الکترونیة

السیاسات:

مراعاة القوانین والعمل حسب المعاییر القانونیة

إنشاء العلاقات المترابطة مع المراکز المرتبطة

الاجتنباب عن الروتینیة وتکرار المحاولات السابقة

العرض العلمی البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ فی نشر المعلومات

من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات فی مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما فی الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمية الانترنتی بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمی لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ((sms

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فی البحث والدراسة وتطبيقها فی أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها علی ٨ أنظمة؛

١.JAVA

٢.ANDROID

٣.EPUB

۴.CHM

۵.PDF

۶.HTML

٧.CHM

٨.GHB

إعداد ۴ الأسواق الإلكترونية للكتاب علی موقع القائمية ويمكن تحميلها علی الأنظمة التالية

١.ANDROID

٢.IOS

٣.WINDOWS PHONE

۴.WINDOWS

وتقدّم مجاناً فی الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقـدم بكلمـة الشـكر والتقـدير إلى مكاتب مراجع التقليـد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسـسات، الكتّاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.
عنوان المكتب المركزي
أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ۱۲۹، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir
البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir
هاتف المكتب المركزي ۰۳۱۳۴۴۹۰۱۲۵
هاتف المكتب في طهران ۸۸۳۱۸۷۲۲ ـ ۰۲۱
قسم البيع ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹شؤون المستخدمين ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹.